تفسير
القرآن الكريم

تأليف

صدر المتألهين

محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي

انتشارات بيدار
ايران قم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل من سماء علمه وقدرته كتاباً إلهياً يهدي إلى النور ، ورزقاً سماوياً فيه غذاء للأرواح وشفاء للصدور، ونجاة للعقول من أسقام الجهالات الموجبة للثبور، وإحياء للنفوس الراقدة في أبدان هي كالقبور ، وتنبيه للغافلين عن لقاء الله يوم النشور، وفيه لأهل الهداية الربانية الرزق المقدر المبسور، ولأصحاب المحبة الإلهية الحظ الموفور المبرور .

والصلوة على أهل بيت العلم والنبوة والعرفان ، ومختلف الملائكة بايحاء القرآن ، محمد سيد الأنبياء والمرسلين ، وآله سادات الأولياء والصديقين ، سلام الله عليهم أجمعين ، وعلى من سلك سبيلهم من السابقين واللاحقين .

و بعد اعلم أيها الطالب لدرك حقائق القرآن والراغب إلى سلوك درجات سماء الايمان بقدم العلم والعرفان ، والعمل بمقتضى أحكام الله في نوع الإنسان الذي هو أشرف مافي العناصر والأركان ، كالنبات والحيوان ، بل أجل ما في الأفلاك كالثور والسرطان ، بل أبدع مافي الإمكان كالملك والرضوان ، جميع ذلك بحسب جسمه وعقله ونفسه ، من جهة ثمرته وفرعه وأصله إن كل فعل وصفة صدر من نفس

أو طبيعة فهو إنما يكون من جنس فاعله وغايته ، ويناسب بذره وثمرته ، ولاتفاوت بينهما في المآل إلابحسب النقص والكمال، كيف والأول أول الحركة كالبذروالآخر غايتها كالثمرة ، والوسط مسافتها كالشجرة ، والمسافة تشبه الطرفين والوسط يناسب النهايتين .

وتحقق عند المحققين ان غاية كل فعل ذي غاية هي فاعل لفاعله ، فالبنّاء من حيث هو صاحب ماهية يكون من صورة البيت وماهيته ، إذ مبدأ حركته هو من حيث تصور في ذاته أوفي قوة من قُوى ذاته كالخيال صورةَ الدار وغيرها على وجه الوضوح، وهي الملكة الصناعية التي ينشأ منها فعل البناء من غير كثير تجشّم وروّية، ولرسوخها في الذهن تصير منشأ لصورة خارجة ، هي أشد حصولا ، لكونهما حاصلة بامداد مبدء علوي هو بـالحقيقة العلة المفيضة، والصورة الذهنية هي شبيهة بالمبدء الفياض ، الذي هو فعّال لما يشاء ومختار لما يريد ، وذلك لحصول جميع الأنواع فيه على ضرب مقدس عقلي فعلي مرتفع عن المواد ، شديد البرائة عن الجسمية والقوة والاستعداد ، فالملَكة الصناعية التي ينشأ منها فعل محكم من غير كثير روية وتجشم هي تشبه بالصانع الحكيم والبديع العليم .

و من هيهنا قيل إن الصنعة تشبه بالطبيعة،فالباني لدار مثلا-من حيث هو بانٍ لها-هوصورة الدار بعينها ، إلا انها لضعف وجودها الذهنية تتحرك من النقص إلى الكمال بإمداد العقل الفعال ، وبه تنتقل من هذا التخيل بالتحصل العيني إلى حد الاستكمال فإذا تمّ العمل صار هو صورة بنائية عينية قوية الوجود ، قريبة المناسبة إلى المقصود ، بل بوجه إلى الواهب المعبود ، إذ فيه منشأ كل كمال وخير وجود .

والحَداد من حيث هو حدادٌ عين الصورة الحديدية وهي كمالها ، والطبيب المعالج من حيث هومعالجٌ هوخادم مزاج الصحي الطبيعية ، ومرتبته مرتبة الكيفية المزاجية ، لاالصورة الحيوانية أو الإنسانية ، فإنها بعيدة عن غاية هذه الصناعة ، بل لها مبدءآخرأجلّ من الطبيب وماهيته وغايته ، وهوحافظ هذا النظام بكلاية الأنواع على كمالها الأتم ، تشبهاً بالصانع الأول وتقرباً إليه وزلفى لديه جل مجده .

وكذا النحوي واللغوي والواعظ وراوي القصص والأخبار ، وإن كانوا في مراتب القصوى مىن فنونهم وصنايعهم ، كسيبويه أو من هو أنحى منه ، والحسن البصرى أو من هو أوعظ منه ، وابن القرية [1] أو من هو أحفظ منه ، فإن لهم بموجب صنايعهم وعلومهم غايات غريبة دنية ، وهم متحدوالحقيقة بغاياتهم من حيث علومهم وصناعاتهم،ولغاياتهم غايات أخرى هي غايات لأفاعيل غيرهم أم لأفاعيلهم، لكن لا بما هم هم،ولابما هم ذوي تلك الأفاعيـل المذكورة ، بل بما هم فاعلون لأفاعيل أخرى هي غاية أفاعيلهم التي ذكرناها أولاً، وهكذا إلى أن ينتهي إلى آخر الغايات ونهاية الموجودات،على وجه عقلي مقدس عن التغيّر والزمان والحدثان .

والبرهان قائم على أن مثل هذه الغاية يجب أن يكون هو أول الموجودات ، كيلايكون ناقصاً في وجوده ، مفتقراً إلى غاية يتم به وجوده ، وجميع الموجودات مرتبط بالخير الأعظم والجمال الأتم، والكمال الأرفع مستهلك وجودها في وجوده القاهر ، ونورها في نوره الباهر .

* * *

ومن هذا المقياس الذي ذكرناه يتفطن الذكي اللبيب ، بالتفاوت في الشرف والدنائة بين الصناعات والعلوم وان أي خُلق وملكة يؤدي صاحبّه إلى جوار الله وقُربه ، ويحشر في دار كرامته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً، وأي خلق وملكة يؤدى صاحبّه إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدي، قائلا:ياليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القريـن ، ويتفطن ان أجلّ الصناعات وأشرف الأعمال القلبية والأفعال الملكية تحصيل الصناعة المسماة عند طائفة بالحكمة والفلسفة التي هي التشبه بالإله الحق والتقرب به بقدر الطاقة البشرية ، وعند أصحاب الشريعة الحقة المحمدية ـ على الصادع بها وآله أفضل الصلاة واشرف التقديسات ـ

(١) هو أيوب بن قيس. والقرية أمه... وكان لسنا خطيبا (المعارف: ٤٠٤).

بالايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، المشار إليه في القرآن المجيد الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد، بقوله: ﴿آمَنَ ٱلرسُولُ بما أُنزِلَ إلَيه﴾ الآية [٢٨٥/٢] .

ومالدرى كيف يسع لأحد التوقّف والإنكار والاستنكار في أن تحصيل المعارف الإلهية أجلّ الصناعات ، واقتناص المسائل الربوبية أشرف الانتقالات والحركات القلبية ، وجلالة كل صناعة وشرفها إما بفضيلة فاعلها ومحركها ، وإما بنباهة الثمرة والغاية ، وإما بشرف موضوعها وقابلها ، وإما بحسن الصورة الحاصلة من تلك الصناعة .

ولا شك ان الأسباب الأربعة في هذه الصناعة النظرية الإلهية والفلسفة الكلية الربوبية ، أكرم الأسباب وأشرفها ، ففاعلها العقل النظرى عند حصوله بالفعل بتأيد العقل الفعّال ، وهو أشرف أجزاء الجوهر النطقي الإنساني،المضاهي في التقدس لجواهر الملائكة العقلية وهم سكان حظيرة القدس ، المجاورون للحضرة الإلهية .

وغايتها الوصول إلى حقايق تلك المعارف الربوبية ، وهي ذوات المفارقات النورية التي هي أشعة ذات الله وصفاته ، والقرب إلى بارىء الكل ومحرك الجميع بالتحريك التشويقي الربوبي ، والإحباب العقلي الإلهي .

وموضوعها الجوهر النفساني والعقل الهيولاني ، الذي هو لُباب العالَم الجسماني، وليس في موضوع الصناعات كلها مايكون أشرف منه وأجلّ لأنه ثمرة الصورة المادية وغايتها ، وبذر الولادة الروحانية ونطفتها المعنوية ، وقد حقّقنا في مقامه مرتبة العقل الهيولاني بأنه صورة الصور في عالم الأجسام ، ومادة المواد في عالَم العقول ، ولهذا سماه بعض المحققين:طراز عالم العقل .

وأما الصورة فهي هيئة العالم التام بجميع أجزائه الكلية وأسبابه القصوى ، وغايته العظمى، آخذاً من المبدء الأعلى إلى صورة الجواهر العقلية والنفوس الفلكية والأجرام الكلية ، وجميع الهيئات والصفات الكلية للأنواع الكلية ، الحاصلة بفيض

الإبداع دون الشخصيات المادية ، التي ليست منضبطة تحت الأمر العقلي ، وإنما هي حاصلة من خصوصيات الحركات والأزمان والأبعاد والأحياز، ولهذا مما ينالها الحواس ، وينفعل عنها الآلات ، التي هي أيضاً مثار الغلط والتغيير والزوال .

فإذا تحقّق و تيقن ان الحكمة الإلهية الربـانية و المطالب الايمانية ، أجلّ الأعمال القلبية ، وأشرف العبادات الباطنية ، فلابد لطالب الخير والسعادة أن ينال بحظ وافر، وأن يقنص منها قدراً صالحاً يكون ذخراً له يوم المعاد ووسيلة إلى قرب الحق الجواد .

ثم لاشك ان خلاصة كُتب الله الفائضة على أنبيـائه وأوليائه هو الفرقان ، المنزَل من الله على قلب خاتَم أنبيائه وأشرف أوليائه محمد المصطفى (ص) ، إذ فيه حكمة الأنبياء والصديقين، وفيه علم الأولين والاخرين ، وقواعد أحكام السـابقين واللاحقين ، من لدن آدم صفي الله والد العقلاء الصالحين ، وإبراهيم شيخ الأنبياء الموحدين إلى زمان نبيّنا خاتم النبيين ، وأولاده المقدسين الروحانيين ، المتصل دولتهم الإلهية وملتهم التوحيدية ، إلى المهدي سلام الله عليهم سلفاً وخلفاً أجمعين، وما من علم رباني ومسئلة إلهية وحكمة برهانية ومعرفة كشفية إلا ويوجد في القرآن أصله وفرعه ومبدئه وغايته وثمرته ولُبابه ، حتى أن كل سورة من سُوَره يوجَد فيه غاية أفكار الحكماء الأولين ، ونهاية سرابر الأولياء المتقدمين .

وإن هذا العبد الضعيف المسكين المفتقر إلى جودالله الحق المبين ، **محمّد المشتهر بصدر الدين** ، يقول : إني بعدما تصفّحتُ معظمَ كتب الحكماء المشهورين بالفضل والبراعة ، وتدبرتُ أكثرزبر العلماء المشار إليهم بالعلم والشريعة ، ماأرويت عن ظمائي في طلب الكشف واليقيـن ، وما أطفأت حرارتي ونايرة شوقي في التوسل إلى معرفة حقايق الدين ، بل وجدتهـا كلها قاصرة عن إفادة التصديق ، ما الفائدة فيها إلا مجرد التشويق ﴿وَمَايَتبِعُ أَكثَرُهُم إِلاظناً إِن ٱلظَّنَّ لايُغنِى مِنَ ٱلحقِ شَيئاً﴾ [١٠/٣٦] .

فلما رجعت إلى تتبع معاني القرآن العظيم ، وماأفاضه الله سبحانه على قلب

رسوله النبي الكريم ، وجدتُها بحمد الله غاية كل بُغية ومطلب ، ونهاية كل شوق وطلب ، فتدبرت في معانيه ، وتصفحت أُصولَه ومبانيه ، وغرقت في بحاره ، واستخرجت درراً من أسراره ، وأبرزت في أرقام الكتابة كنوزاً من أغوار تيّاره ، هذا مع أن سر كلام الله تعالى أجلّ من أن يحيط به لسانٌ ، وأن يجمع أطرافه بنانٌ ، لكن شرعت فيه سائلا من الله عزوجل أن يوفقني للاطلاع على معاني كتابه المجيد ، فرفعتُ الحُجب عن بعض سوَره وآياته وكشفتُ قناعَ الغمّة عن وجه بيناته ، مثل آية الكرسي ، وآية النور ، وسورة يٰس ، وسورة الحديد ، والواقعة ، والأعلى ، وسورة الطارق ، والزلزلة ، وغيرها من المتفرقات ، والمرجوّمن الله أن أجمع كتاباً جامعاً ، وتفسيراً كبيراً ، لم ير مثله أعين (عن - ن) الأعيان، ولم ينل شبيهه خواطر أبناء الزمان ، مع أن لي قلباً قد شوّشته محنُ الأعصار ، ونجدته الدهور والأدوار ، ومصائب الفلك الدوار ، ولخاطري بضاعة في العلوم مزجاة ، وظلافيها أقلص من طل حصاة ، لكن الرحمة واسعة ، وخزائن الله مملوة ، وينابيعه نابعة يفيض على من يشاء من عباده من غير دافعة ولامانعة .

فهذه ياإخواني طائفة من رموز قرآنية ، ومعاني نكات ربوبية ، متعلقة بسورة السجدة ، أفاضها الله على قلب هذا المسكين ، وهي قطرة من بحرها الزاخر، ولمعة من بدرها الزاهر ، فإن هذه السورة كأكثر أخواته مشتملة على عظايم المسائل الإلهية ، التي هي غاية العلم والعرفان ، وشرائف علوم النفس الآدمية التي هي أساس السلوك إلى الله العزيز المنّان ، والنفس سلّم العروج إلى واجب الوجود ، وصراط الوصول إلى الملك المعبود ، وهي السالك والمسلك ، والعارج والمعراج، بحسب درجاتها وأدوارها ومراتبها وأطوارها ، وغاية مرتبتها الوصول إلى درجة النبوة ، ومشاهدة الوحي الصريح والإلهام الصحيح ، وتلقى المعارف كفاحاً من الملك الموحي ، بالإلقاء السبّوحي .

وقد ذكر فيها كيفية الوحي والتنزيل ، التي هي أشرف اجزاء علم المعاد ، وعلم النبوات ، ثم بيّن كيفية خلق السموات والأرض ومابينهما ، التي هي خلاصة

علم السماء والعالم ، وهو أحد المسالك المقررة في علم التوحيد المشار إليه بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [٥٣/٤١].

ثم أشار إلى استوائه على العرش وتدبيره الأمر من السماء إلى الأرض بإيجاده أسباب الكائنات من الحركات والاستعدادات لخلق المواليد من الحيوان والنبات، وهو معظم أبواب الحكمة الطبيعية الموجبة لمعرفة دقائق صُنع الله في ايصال رحمته إلى كل موجود من الموجودات ، وإحاطة علمه بكل ذرّة من الذرات ، وقد وقع في كثير من الآيات الفرقانية الحثّ على التأمل في هذه الصنايع ، والتدبر في هذه المخلوقات العظيمة بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [٨/٣٠] ووقع أيضاً فيه المدح العظيم لمتأمليها بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ .. يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ـ الآية ـ [١٩١/٣] .

ثم أشار إلى الغرض الأصلي من خلقه المركبات ، وهو العروج إليه والوصول إلى باب معرفته ومجاورة مقربيه ، وأشار الى بدء وجود النفس الإنسانية التي هي الصاعدة إليه بنور العلم والهدى ، العارجة إلى بابه بقدم الصبر والتقوى ، بعدما أثنى على ذاته بأنه ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [٧/٣٢]، لكونه أوجدها على وجه يؤدى إلى الخير التمام وحسن النظام ، وينتج وجودها وجودَ نوع الإنسان المهتدي بنور المعرفة إلى سبيل الله المنان ، الواصل إلى روضة الرضوان ونعيم الجنان ومجاورة الرحمن .

ثم أفاد وأفاض كيفية ارتقاء النفس إليه ، وفنائها عمّا وقعت فيه من الحيوة العاجلة ، وأشار إلى الملك المتوفى لها عن هذه الدار الفانية المحيي إياها بإذن الله تعالى في الدار الآخرة ، السائق لها بسوط « ارجعى » إلى جوار ربها .

ثم أشار إلى اقسام النفوس بحسب السعادة والشقاوة الآجلتين ، وهو عمدة علم المعاد ، الذي هو أجلّ معارف الإنسان ، وأعظم قواعد الايمان ، بعد معرفة المبدء الديّان ، وهما أعظم دعائم الحكمة والعرفان ، وأحكم أساطين العلم بأسرار القرآن .

ثم أكّد بيان هذه المعارف ، كما هو دأبه سبحانه بتفصيل أحوال الأشقياء والسُعداء ، وبيان الوعد والوعيدلزيادة الاهداء والحثّ علىالارتقاء من هذه الوهدة الظلماء ، والمقبرة الغبراء .

وقبل أن نخوضَ في غرض المرام . نمهّد مقدمة يناسب المقام .

تمهيدٌ فيه تشبيهٌ

اعلم أيها القاري إن القرآن ـ وسيما هذهالسورة التي نحن بصدد تبيينها إن شاء الله ـ هونور يهتدى به في ظلمات البروالبحرودواء من كل داء وضرّ،إذا رفع نقاب العزة عن وجهه ، وكشف جلبابالعظمة والكبرياء عن لُبه وحقيقته،وانقشع سحاب الاحتجاب،و رفع الاختفاء والتمنّع عن وجوه شموس آياته و رموزه ، وأنوار تجلياته و كنوزه : يشفي كلّ عليل داء الجهل و الشقاوة،و يروي كلّ غليل طلب الحق والسعادة ، و يداوي كلّ مريض القلب بعلل الأخلاق الذميمة المزمنة ، وأسقامالجهالاتالمهلكة، وتنوربنورأبصاربصائرالقلوب،ويستعدللقاءاللهعلامالسرايروالغيوب ، كما قال الله تعالى ﴿قَد جَائكُم مِنَ ٱللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبين يَهدي بِهِ ٱللهُ مَنْ اتبَعَ رِضوانَه سُبُلَ السَلامِ وَيُخرِجُهُم مِن ٱلظُلُماتِ اِلَى ٱلنُورِبِإذْنِهِ وَيَهديهِمإلَى صِرَاطٍ مُستَقيم﴾ [٥/١٦] .

وقد روي عن رسول الله ﷺ: **القرآن هوالدواء** [١] .

وروي عنه ﷺ أيضاً : **القرآن غنى لافقربعده** [٢] .

والقرآنهو حبلالله المتينالذينزل إلى العالَم الأسفل ، لنجاة المحبوسين في سجن الدنيا ، المقيدين بسلاسل التعلقات وأغلال الأثقال والأوزار ، من حب الأهل والولد والمال ، وشهوة البطن والفرْج والحرص والآمال،وخسران الآخرة

(١) بحار الانوار: ٩٢/١٧٦.

(٢) بحار الانوار: ٩٢/١٩.

والمآل لوجدان العاجل والحال ، وهو مع عظمة قدرحقيقته و مغزاه ورفعة سره و معناه ، مماتلبّس بلباس الحروف والأصوات واكتسى بكسوة الألفاظ والعبارات، رحمةً من الله وشفقةً على عباده وتأنيساً لهم ، وتقريباً إليهم ، وإلى أفهامهم ومداراةً معهم ومُنازلة إلى أذواقهم . و الافما للتراب ورب الأرباب . ففي كل حرف من حروفه ألف غنج و دلال ، و غمز وجلب قلوب لأهل الأحوال ، فوقع فيه النداء لتخليص الأسراء من قيد هذاالمهوى، وسجن هذه الدنيا ، بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥١/٥٥] .

فبسطت شبكة الحروف و الأصوات ، مع حبوب المعاني لاصطياد طيور السموات ، و لكل طيرمن طيور النفسانية رزقٌ خاص معلوم ، كما لكل ملك في السماء والأرض مقام معلوم ، يعرف ذلك مُنشيها و مبدعها ، و إنما الغرض الأصلي من بسط الشبكة في الأرض اصطياد نوع خاص منها برزق مخصوص معلوم من العلوم ، ولُب حب خاص من لبوب الحبوب دون غيرهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢/٦] وإلافما من رزق إلا ويوجد في القرآن نوع من لبه وقشره وأصله وفرعه وسنبله وتبنه ، متاعاً لكم ولأنعامكم، لقوله تعالى : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [٦/٩٥] .

فكما يوجد فيه من الحقائق الربانية القدسية ، التي كانت معرفتها غذاء للأرواح العالية العقلية ، ففيه أيضاً يوجد المعارف الجزئية ، والأحكام السياسية ، والقصص والأخبار، والحكايات التي ينتفع بها المتوسطون في درجة النجاة من عامة أهل الإسلام، الذين لهم في النشأة الثانية ضرب من الحيوة ، دون المرتبة التي للهداة المقربين ، الأحياء بالحيوة العقلية بالذات ، ففيه الأغذية الروحانية و الجسمانية الأخرويتين ، المبقية للحيوتين العقلانية و النفسانية ، لأهل المنزلتين والجنتين . وفيه أيضاً ما به صلاح هذه النشأة الدنياوية ، كالقصاص والديات والمواريث .

و قد نظمت أبياتاً فارسية في وصف القرآن ، و كونه غذاء سماوياً يختص الإغتذاء به لأرواح أهل المحبة الإلهية من نوع الإنسان ، أوردت بعضاً منها ههنا ،

وهي هذه ـ شعر :

هست قرآن چون طعامی کز سما | گشته نازل از برای اغتذا
اغتذای آدم از لوح وقلم | اغتذا یابد دواب از راه فم
«في السماءِ رزقكم» گفته خدا | رزق انسان گشته نازل از سما
روزيِ انسان رسد از آسمان | روزيِ حیوان بود ازآش ونان
توز قرآن بنگری افسانها | قشر وکه بینی نه مغز و دانه‌ها
هست بهر آدمی دُهن ولبوب | تِبْن وقِشر ازبهر حیوان،نی حبوب
توزقرآن می نجوئی غیرحرف | جان‌دهی بهر لغت یانحو وصرف
اندرِ سعیی همیشه باشتاب | که نباشد فرق از تو تا دواب

هيهات إنك لستَ من أهل القرآن حتى ينكشف لك أسرارُه وأغواره ، لتعرف أنه مامن شيء إلا وفيه بيانه وتبيانه ، و لو كان من باطنك طريق إلـى عالَم النورِ والملكوت القرآني، لتجلى لك قوله: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ [٩/١٥] ولكنتَ ذا خشية إلهية لازمة لادراك عظمة الله وذاخشوع قلبي لازم لفهم عظمة كتابه القرآني ومعاني آياته لقوله: ﴿لَو أَنزَلنَا هٰذا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأيتَه خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشيَةِ اللهِ﴾ [٢١/٥٩].

وخطابات القرآن مما يختص بأحباء الله والمتألهين والمقربين، لا المبعدين الناكرين الجاحدين، ممن ليس لهم نصيب في القرآن ولا لهم اغتذاء بلبوب معانيها وحقايقها المبقية للنفوس الملكوتية في دار الحيوان ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الأخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَو كَانُوا يَعلَمُون﴾ [٦٤/٢٩] كما قلت نظماً .

چون غذا با مغتذی باشد شبه | گاو وخررا خوش نیاید جز که که

قُل الحَمدُ لِله بَلْ أكثرُهُم لا يَعقِلُون [٦٣/٢٩] و هم عن السمع لمعزولون ﴿وَلَو عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيراً لَأسمَعَهُم وَلَو أسمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَهُم مُعرِضُون﴾ [٢٣/٨].

* * *

و معظم الآفات الحاجبة للإنسان عن درك حقايق القرآن الاغترار بظواهر

الأخبار ، والاحتجاب بأوائل الأنظار ، من دقائق العلوم الجزئية و معارف الأحكام الفرعية ، وإلا فما من شيء إلا وفي القرآن مايكشف عن حقيقة ذاته ويسهل السبيل إلى نيل كنْه صفاته ، لكنك أيها المغرور المسرور بما عندك من القشور ـ محجوبٌ عنه، لجحودك بما سوى ما سمعتَه من المشهور ، أو فهمتَه من الزبور ، فغاب منك الخبر المبرور ، والحظ الموفور ، كل ذلك لإعراضك ، عن العلوم الربانية، وأسرار التنزيل من الحكمة الإلهية التي من يؤتها فقد أوتيَ خيراً كثيراً ، واغفالك عن أن حقايق الكتاب ممالايعلمه إلا الراسخون في العلم، لاالمشتغلون بدقائق علم العربية ، وفنون الصنائع الأدبية ، كالزمخشري وأترابه ، فانهم في واد ، وأهل القرآن وهم أهل الله وخاصته في واد .

ثـم إنك أيها المغترّ بفطانتك البتراء ـ لو أنصفت قليلا وزالت عنك غشاوة المراء والإمتراء لعلمت إن المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [٢١٢/٢٦] كانوا عارفين بدقائق علم الألفاظ وفنون تأدية الكلام ، على ما يوافق المرام لأنهم من العرب العرباء وفصحاء الدهناء، بل إنما انعزالهم عنه لعدم استعدادهم للاهتداء بأنوار القرآن والإرتقاء إلى أعلام الحقيقة والعرفان، والاطلاع على أسرار المبدء والمعاد، والوصول إلى عالم الملكوت والتقرب بالحق الجواد .

ثم لا يخفى على أولي النهى أن تولي مثل أبي لهب وأبيجهل وغيرهما عن القرآن و انعزالهم عن السمع ليس من جهة عدم فهمهم ترجمة القرآن، أو عدم اطلاعهم على ظاهر العربية وقواعد النحو والصرف وعلم البيان، ولالأجل الصمم في آذانهم الجسمانية والعمى في أعينهم البدنية والبكم في قلوبهم الحيوانية، ولكن لأنهم كانوا من أهل الغفلة والحجاب الكلي عمى القلوب عن مشاهدة الحقايق ، صم العقول عن سماع ذكر الحبيب، بكم الأرواح عن قبول دعوة الإله و استدعاه طلب التقرب إلى الحق بالإعراض عما سواه كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ﴾ [١٧١/٢] .

والقرآن غذاء للقلوب الصافية ، و بلاء للنفوس المريضة بداء الجهالة لقوله

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيهِم عمى أُولَئِكَ يُنادَونَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ [٤٤/٤١].

وليس المراد بالايمان في هذا المقام ما هو بحسب الظاهر وإلا لما وقع التكليف به للموصوفين بهذا الظاهر في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الذي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [١٣٦/٤] ولا شبهة في أن المشتغلين بالدنيا المنهمكين في اللذات ليسوا من أهل الاهتداء بنور القرآن ولا يمكنهم الارتقاء إلى نشأة العرفان ﴿لِلذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِم الحُسْنَى وَالذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَه مَعَه لَافْتَدَوا بِهِ أُولَئِكَ لَهم سُوءُ الحِسَابِ وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَاد أَفَمَنْ يَعلَمُ أَنَّما أُنزِلَ إِلَيكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَن هُوَ أَعمَى إِنَّما يَتذَكَّرُ أُولُوا الأَلبَاب﴾ [١٣/١٨-١٩].

وإلى ذلك أشير في قول سقراط وهو أحد أساطين الحكماء، الذين اقتبسوا أنوار الحكمة من مشكوة بواطن النبوة: «البدن الذي ليس بالنقيّ كلما غذوته فقد زدته شراً ووبالا» وقد ذكر المفسرون لكلامه أن المراد منه الإشارة إلى كيفية اقتناء العلوم الربانية، التي يتوقف الاستكمال بها على تصفية السر عن محبة الشهوات وتخلية الباطن عن الوساوس والكدورات، وهو أيضاً دواءٌ نافع للعقول السليمة وسمٌّ ناقع للبواطن المؤفة الشريرة السقيمة بسقم الجهل المركب المشفوع بالعناد والجدل واللداد، وحب الجاه والشهرة والاستيناس بالناس، الذي هو من علامة الإفلاس، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفَاسِقِين﴾ [٢/٢٦] وأشير أيضاً إلى أهل الحجاب الكلي بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيدِيهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِم سَدّاً فَأَغشَيْنَاهُم فَهُم لَا يُبصِرُون﴾ [٣٦/٩] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلنَا بَينَكَ وَبَينَ الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَستُوراً﴾ [١٧/٤٥]

وأشير إلى المعاندين الجاحدين للحق، وهم أسوءُ حالا بقوله: ﴿وَإِذَا تُتلَى عَليه آيَاتُنا وَلَّى مُستَكبِراً كَأَن لَم يَسمَعهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيهِ وَقراً فَبَشِّرهُ بِعَذَابٍ أَلِيم﴾ [٣١/٧] وقوله تعالى: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتلَى عَلَيهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُستَكبِراً

كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ [٤٥/٧-١١].

وقد ذكر بعض أهل الحق ان العلم علمان : علم باللسان ، وعلم بالقلب .

و إني لأستعيذ بالله الرحمن ، من رجل شرّير عليم اللسان ، جهول القلب ، المترفع على الأقران لأجل تقرب السلطان ، والاشتهار عند العوام ، وهم العميان عن فهم درجات أحوال الإنسان ، و التفاوت في خلق الرحمن ، فوا مصيبتاه من علماء الجهالة ، وصلحاء الإفساد ، الذينهم من علماء الدنيا وجهال الآخرة ، المتذكرين لآداب صحبة الخلق ، الناسين لآداب صحبة الرب ، المقبلين إلى دقائق علوم الدنيا ، المعرضين عن حقائق علوم الآخرة .

بل أقول: مافتنة في الدين وخلل في عقايد المسلمين إلا ومنشأوها مخالطة العلماء الناقصين ، مع حكام الدنيا والسلاطين ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

قوله سبحانه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الم

قد اختلفت كلمة المفسرين والمأوّلين في حروف التهجّي الواقعة في أوائل السوَر من القرآن المبين ، فقد ذكروا وجوهاً مذكورة في التفاسير المتداولة المشهورة وشيءٌ منها لايطمئنّ به القلب ، ولايسكن إليه الروع ، ونعم ماقال بعضهم «إن في كل كتاب سراً ، وسر الله في القرآن حروف التهجّي » وكأنه قد أخذ مماروي عن أمير المؤمنين علي بن ابيطالب عليه السلام: **إن لكل كتاب صَفوةً وصَفوةُ هذا الكتاب حروفُ التهجّي**[1] .

وقال بعض أهل القرآن : الإشارة في الألف إظهار الوحدة مطلقاً ذاتاً وصفة ، والتفرّد بالوجود الحقيقي أزلا وأبداً ، «كان الله و لم يكن معه شيء » فكوّن الأشياء وهو كما كان ، فلم يتغير وحدته في نفسه ، و لانفرده بالوجود الحقيقي و انه تعالى مصدر جميع الموجودات .

فوجه مناسبة المعاني الثلثة في الألف ، بأن (الألف) واحد في ذاته وصفاته

(١) مجمع البيان في تفسير الآية.

فيوضع الحساب ، متفرد بالأولية والانقطاع عن غيره فيوضع الحروف ، ويشير استقامته وعدم تغيره في جميع الأحوال إلى عدم تغير المبدء تعالى عن الوجود الوحداني أزلا وأبداً ، وبأن « الألف » مصدر جميع الحروف ، فانمن استقامة خطه يخرج كل حرف معوّج ، ثم في «اللام» «والميم» المتصل كل حرف منهما بالآخر اثبات أن كل موجود سوى الوحدة موصوف بالإثنينية ، وانه كمثل الوحدة في الوجود، فالصفوة المشار إليها في «الم» هي ان «الألف» يشير إلى وجود حقيقي كامل في ذاته وصفاته، موجد للموجودات التي لها وجود ناقص، مفتقر إليه قائم به ، وهو الفاعل والحاكم والمتصرف فيها .و«اللام » يشير إلى معنيين : اثبات و نفي ، فالإثبات يشير إلى لام التمليك يعني له ما في السموات ومافي الأرض مُلكا ومِلكا ، فِعلا وصُنعاً . وبالنفي يشير إلى لاء النفي، يعني لاوجود لشيء حقيقة إلاّ الله .

و«الميم» ايضاً يشير إلى معنيين نفي واثبات ، فالنفي يشير إلى ماء النفي يعني مافي الوجود حقيقة إلاهو ، وبالإثبات يشير إلى اسمه القيوم ، يعني هو القائم بنفسه، والمقيم والقيّام لغيره ، فالغير محوٌ في إثبات قيوميته وديموميته ، فهو على الحقيقة كاين كما كان ، بلامكان و لازمان ، ودليل هذا التأويل للسر والصفوة في هذه الحروف ، ماأظهره الله سره المكتوم فيمابعده في سورة آل عمران ، وهو قوله: ﴿اللهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [٣/٢]

وممن تصدّى لاستكشاف أسرار هذه الحروف المقطعة شيخ فلاسفة الإسلام أبوعلي بن سينا ،في رسالة عملها لبيان هذا المرام ، ولعمري انه قد بالَغ في تطبيق رموز هذه الحروف على عظائم الأمور الإلهية التي ناسب ذكرها وتعظيمها و الإقسام بها في أوائل السور القرآنية .

وملخص ماذكره بعد تمهيد الكلام بطوينا ذكره مخافة الإسهاب هو انه ينبغي أن يدل بالألف الواقع أولا في الترتيب القديم ـ وهو ترتيب أبجد هوز على الباري، لكونه أول الموجودات ، وبالباء على العقل وعالمه لأنه يتلوه في الموجود و«بالجيم» على النفس وعالَمها، و«بالدال» على الطبيعة وعالَمها. هذا إذا اخذت هذه الموجودات

بماهي ذوات . ثم بالهاء على الباري ، و«بالواو» على العقل ، وبالزاء على النفس، وبالحاء على الطبيعة . هذا إذا أخذت بماهي مضافة إلى مادونها . ويبقى الطاء للهيولى وعالَمها، وليس لها وجود بالإضافة إلى شيء تحتها، وينفرد رتبة ايجاد الآحاد المبدَعات ويكون الابداع وهو من إضافة الأول إلى العقل . والعقل ذات لا يضاف إلى مابعده - مدلولا عليه بالياء ، لأنه من ضرب «ه» في «ب» ، ولا يحصل لإفاضة الباري إلى العقل أو العقل إلى النفس عددٌ يُدل عليه بحرف واحد ، لأن «ه» في «ج» «يه» و«و» في «ج» «يح» ويكون الأمر و هو من إضافة الباري (الأول) إلى العقل مضافاً مدلولا عليه باللام ، لأنه من ضرب «د» في «و» ويكون الخَلْق وهو من إضافة البارى (الأول) إلى الطبيعة[1] من ضرب «د» في «ح» لأن الحاء دلالة الطبيعة مضافة . ويكون التكوين ، وهو من إضافة الباري إلى الطبيعة [2] لأنه من ضرب «ه» في «د» ويكون جميع نسبتي الأمر والخلْق أعني ترتيب الخلق بواسطة الأمر اعني اللام والميم مدلولا عليه بحرف «ع» وجميع نسبتي الخلق والتكوين كذلك أعني الميم والكاف مدلولا عليه بالسين، ويكون مجموع نسبتي طرفي الوجود والتكوين أعني اللام والكاف مدلولا عليه بالنون ، ويكون جميع نسب الأمر والتكوين والخلق أعني لام وميم وكاف مدلولا عليه بصاد ، ويكون اشتمال الجملة في الإبداع أعني «ي» في نفسه «ق» وهو أيضاً من جمع «ص» و«ي» ، ويكون ردها إلى الأول الذي هو مبدء الكل ومنتهاه ، على أنه أول وآخر ، أعنى فاعلا وغاية كما بين فى الالهيات مدلولا عليه بالراء ضِعف ق .

فاذا تقرر ذلك فالمدلول عليه بالم ، هو القَسم بالأول ذي الأمر والخلْق ، وبالرا القسم بالأول ذي الأمر والخلْق الذي هو الأول والآخر والأمر والخلق والمبدء الفاعلي والمبدء الغائي جميعاً .

وبالمص ، القَسم بالأول ذي الأمر والخلْق ، والمنشيء للكل .

(١) في المطبوعة: مضافة «م» لانه من ضرب...

(٢) اضيف في نسخة: وهو ذات مدلولا عليه بالكاف.

وبصّ : القَسم بالعناية الكلية .

وبقّ : القَسم بالإبداع المشتمل على الكل بواسطة إبداع الأنواع المتداولة المساوي للعقل .

وبكهيعص : القَسم بالنسبة التي للكاف ، أعني عالم التكوين إلى المبدء الأول ، بنسبة الإبداع الذي هو « ي » ، ثم الخلق بواسطة الأمر وهو « ع » ثم التكوين بواسطة الخلق والأمر وهو «ص » ، فبين «ك» و«ه» ضرورة نسبة الإبداع ، ثم نسبة الخلق والأمر ثم نسبة التكوين والخلق والأمر.

ويس: قسم بأول الفيض وهوالإبداع،وآخره وهوالخلق والتكوين.

وحم: قسم بالعالَم الطبيعي الواقع فيالخلق .

وحمعسق : قسم بمدلول وساطة الخلق في وجود العالَم الطبيعي وما يخلق بينه وبين الأمربنسبة الخلق إلى الأمر ، ونسبة الخلق إلى التكوين ، وبأن يأخذ من هذا ويرده إلى ذلك ، فيتمّ به الإبداع الكلي المشتمل على العوالِم كلها ، فإنها إذا اُخذت على الإجمال لم يكن لها نسبة إلى الأول غير الإبداع الكلي الذي يدل عليه بقّ .

وطس : قسم بعالَم الهيولى الواقع في التكوين . و «ن» قسم بعالَم التكوين وعالَم الأمر اعني مجمع الكل ، ولايمكن أن يكون للحروف دلالة غيرهذا ألبتة ـانتهى كلامه أعلىالله مقامهـ .

دراية كشفية

اعلم ـأيها القاري المكتسي بكسوة العبارات،العاري عن حلية ذوق الإشارات ـ إن هذه الحروف المقطعة القرآنية تسمى في عالَم السرّ ولسان أهل بيت النبوة وبلدة الولاية ، العارفين بفهم منطق الطير « بالحروف المُجملة » و«حروف أبجد»، وفي هذاالعالم تصيرالحروف المتصلة منفصلة، لأنه يوم الفصل جَمعنَاكُم وَالأوّلِينَ و«يوم الجمع» أيضاً بوجه آخر، فأهلالله إذانظروا إلى حروف «يُحبهم ويُحبونَه»

يرونها متصلة ، ولكن إذا انكشف الحجاب وفُتحت الأبواب وتجلى جمالُها يرونها بالبصيرة الباطنية هكذا : ي ، ح ، ب ، و ، ن ، ه ، م ، وإذا ارتفعوا عن ذلك المقام إلى مقام أعلى يرونها نقاطاً وتصير الحروف المفردة بالقياس إلى مَن في تلك الدرجة نقطاً ، وإذا وصلوا إلى مقام القرب رأوا النقاط كلّها مستهلكة في نقطة بـاء «بسم الله».

وأنت أيها الساكن في بيت حجابك ، المقيد بقيود هواك ونفسك إنك لم تخرج حتى الآن قدماً من عتبة بابِكَ التي أنت معتكف فيها إلى طريق الحق ، ولم ترغب في طلب معرفته والاطلاع على أسرار ملكه وملكوته، ومطالعة كتابه الذي ورد منه إليك ، ولم تحصل بعدُ مفردات حروف الجمل في مَعلَمة العشق ومدرسة التقوى والعبودية ، وإلهك ومعشوقك متوجه إليك من سماء عظمته ، ناظرٌ إليك ليجذبك بجذبة ارجعي .

وإنك بعد ماتوجهت إليه بقلبك فلاعبرة بما تقوله بلسانك : « وجَّهتُ وَجهِيَ لِلذي فَطَرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ » مع عدم موافقة الباطن وهو وجهك الحقيقي ، لأنك مشغول بجميع أسباب اللهو واللعب والهزل، مستغرق القلب بعمارة أرض بدنك، وتحصيل أرض أخرى، وتزيين ترابك الذي يخصّك باضافة تراب آخر إليه، وجمعه وادّخاره بعد تلوينه أو تصييره بكثرة الحيل في المعاملات، أو المداهنة في المعاشرات أو الدغل في الصناعات ، بتزويج ما كسَد وإصلاح ما فسَد ، حتى صار ترابك ذهباً وفضة ، وما هما إلا ترابان ملوّنان بالصفرة والبياض ، بتعمّل طبيعي أو صناعي ، إما في نفسها أو في تعميلك وتحصيلك لصورتهما ، أو أخذك لهما من الناس بسبب الاستيناس بهم والمداراة معهم، وذلك كله علامة الإفلاس، وجميع ذلك خدمة منك لفاسق وظالم جاحد. وطاعة لشيطان مارد من الدواعي الشهوية أو الغضبية أو الوهمية،

فأول علامة مَن ارتفع عن هذا الأدنى، وخَلص عن حجاب المشتغلين بالدنيا أن ينكشف عليه معرفة الحروف المنفصلة القرآنية وكيفية نزولها، كما رمز إليه تعالى بقوله : ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٢٨/٥١] إلى هذا القوم، وأشار

سبحانه إلى مرتبة قوم آخرين بقوله : فَصَّلْنَا الآيَاتِ .

فقدانجلى لك أيها المسكين أن ما ارتسم في لوح السالك المبتدي حروف أبجدليستعد بذلك الانتقاش بمفاد قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [١/٩٦] وعند ذلك يسهل عليه معرفة القرآن وتعلم لفظه ومعناه ومنطوقه وفحواه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [١٧/٥٤] .

وهذا التذكير لايتيسَّر إلا لمن دارس وتعلّم من مكتب : «أول ما خلقَ الله نوري» [1] وكان معلّمه وأستاذه مفاد قوله ﷺ: «أدَّبني ربّي فأحسَن تاديبي» [2] لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، ويعلم ما لم يكن يعلم قبل ذلك بأسباب أخر ، من فكر أو سماع أو تعلّم أو رواية ، بل بأن يكتب الله القرآن بقلم العقل على لوح نفسه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [٣/٩٦] .

وحينئذ يظهر له في هذا المكتب الذي لأطفال الأرواح وأولاد روح القدس ، وهو أبوهم ومعلمهم وأستاذهم ، ما معنى اللوح والقلم والنون وما يَسطرون ، فإن العناية الربانية لماتعلقت بتربية الأطفال والأولاد الملكوتية أفادلهم ورزقهم من تحف ذلك العالَم وهدايا الجنة في كسوة الحروف المفردة والظروف المقطعة على طريق الرمز والإشارة، لئلا يطلع عليها الأغيار، ممن ليس له قوة الإرتقاء إلى منزل الاخيار.

اعلم أيها القاري العاري إن القرآن أنزل إلى الخلق مع ألف حجاب، لأجل فهم ضعفاء العقول والأبصار ، فلوفرض أن باء بسم الله مع عظمته التي كانت له نزّل إلى العرش على حالته التي كانت عليها، لذابَ العرشُ مع عظمته واضمحلّ ، وقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ - الآية - [٢١/٥٩] إشارة إلى ذلك .

رحم الله من قال كاشفاً لهذا المعنى : «كلُّ حرفٍ في اللوحِ أعظم من جبل

(١) بحار الانوار: كتاب الامامة، باب بدء خلقهم وطينتهم وأرواحهم، ٢٢/٢٥.
(٢) الجامع الصغير: باب الالف ١/١٤.

قاف » ، وهذا القاف رمز إلى ما في قوله : « قٓ وَٱلْقُرآن ٱلْمَجِيد » [٥٠/١] .

وجملة القول: إن مَن لم يظهرعليه سلطانُ الآخرة ظهوراً تاماً، ولم يقم نفسُه عن قبر هذه النشأة ، لـم يطلع على معاني رموز القرآن ولم يحدث معه حروف المقطعة ، ولم يتجلّ له وجهُ صاحبه وقائله ، وعظمةُ منشئه ومبدعِه وممليه. واحسرتا على ما فرّطنا في جنب الله .

انتبه يا مغرورُ ! وقمْ من مرقدك يا ممكورُ ، حتى نُسافِر معك في سبيل الله ، ونتجامع بالجمعية الوفاقية، فإن المسافريحتاج إلى رفيق معه يصدقه أداء لقوله ﷺ: «يدُالله معَ الجماعة »[1] وكنْ معَنافي جميـع ما هدانا الله في سفرنا ، وما هدانا رسلنا من رزق ربنا حتى لاينال بما يحيد عن المشهور ، ويخالف ما عليه الجمهور كما هو دأب المسافرين ، و اركَب معَنا في سفينة النجاة التي بسم الله مجريها ومرسيها ، ولاتجلس مع هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجوراً، وهم كالذين وبّخهم اللهُ تعالى بقوله : ﴿فَمَالِهَؤُلاءِ ٱلقَوم لَايَكَادُونَ يَفقَهُونَ حَدِيثاً﴾[٤/٧٨] واشتكى رسول الله ﷺ إلى ربه بقوله : ﴿يَارَبِّ إنَّ قَومي اتَّخَذُوا هٰذَا ٱلقُرآن مَهجُوراً﴾ [٢٥/٣٠] .

وقال بعضُ أصحاب القلوب : «اُنزل القرآن لتعمَلوا به فاتَّخذتُم دراسته».

وإليهم الاشارة في حديث أبان بن تغلب، عن أبي جعفر عليه السلام، إنه سُئل عن مسئلة فأجاب فيها، فقال الرجل: إن الفقهاءَ لايقولون هذا، فقال عليه السلام: ياويحك! هل رأيت فقيهاً قطّ؟ إن الفقيه: الزاهدفي الدنيا، الراغبُ في الآخرة، المتمسك بسُنّة النبي ﷺ[2]

وروى عمر بن حنظلة عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديث طويل ـ قال: ماخالَف العامةَ ففيه الرشاد[3] .

رُبَّ رجل أديب أريب، له اطلاع تامٌ على علم اللغة والفصاحة، والاقتدار على

---

(١) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة: ٤/٤٦٦.

(٢) الكافي: كتاب فضل العلم، باب الاخذ بالسنة وشواهد الكتاب: ١/٧٠.

(٣) الكافي: كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث: ١/٦٨.

صنعة البحث والمجادلة مع الخصام في علم الكلام ، وهومع براعته في فصاحته لم يسمع حرفاً من حروف القرآن بما هوقرآن، ولافهم كلمةً واحدةً، وكذلك أكثر المشتغلين بالبحث البحث،المغترّين بلامع سراب الحكمة، المحرومين من شراب المعرفة في كأس القرآن المبين، لكونهم صماً بكماً عمياً لايعقلون شيئاً ولايهتدون سبيلا لعدم حواسهم الباطنية التي هذه الحواس الدنياوية قشور لها ، وبالقشر لاينال إلا القشر، وأما اللُباب فلاينال إلاأولوا الألباب ، ومايذكّر إلاأولوا الألباب، إنّ في ذٰلِك لآياتٍ لِأولي الألباب .

قوله عزوجل :

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

خبر مبتدء محذوف، أوهو مبتدء خبره «لَارَيبَ فيه» ويكون «مِنْ رَبِّ ٱلعَالَمِين» حالاً من الضمير في «فيه» لأن المصدر لايعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ، وعلى تقدير كون «تَنزِيلُ ٱلكِتابِ» خبر مبتدء محذوف يجوز أن يكون «مِنْ رَبِّ ٱلعَالَمِين» خبراً ثانياً، و«لَارَيْبَ فيه» حال من الكتاب المنزَل أواعتراض. والأولى أن يرتفع «تنزيل» بالإبتداء وخبره «مِنْ رَبِّ ٱلعَالَمِين» ويكون «لَارَيبَ فيه» اعتراض لامحل له، كماوجهه صاحب الكشاف .

واعلم إن الضمير المجرور راجعٌ إلى مضمون الجملة ، أي لاريب في كونه منزّلاً من رب العالمين ، ويدل عليه قوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاه﴾ لأن هذا القول منهم في المفهوم يساوق لإنكارهم كون القرآن منزّلاً من الله تعالى ، للتقابل الحقيقي بين كون الكلام مفترى ، وبين كونه منزّلاً من رب العالمين .

ويحتمل أن يكون معنى «تَنزِيلُ الكِتَابِ» من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فيحتاج في تعلق ضمير «فيه» إليه إلى ارتكاب حذف مضاف ، كالتنزيل ونحوه .

ويحتمل أن يكون الجمل الثلاث أخباراً متبادلة لمبتدء محذوف ، وفي الآية احتمالاتٌ أخرى بحسب الإعراب كمالايخفى على أولى الآداب .

والمعنى ـ والله أعلم ـ إنه لاريب لأهل الكشف واليقين، العارفين بمقامات الواصلين إلى مقام اللوح النفساني والقلم العقلاني والعلم السبحاني ، ان هذا الكتاب الذي هو العقل الفرقاني والوجود المحمدي ﷺ الذي هو لوح المعارف الإلهية وقلم العلوم اللدنية، فائضٌ من رب العالمين بلاوسيلة من خَلْقه ، أوذريعة من غيره، بل الله قد أنشأه وأغناه من غيره ، وربّاه من مرتبة إلى مرتبة ، وعرج به من عالم إلى عالَم ، وأسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حتى بلغ غاية القصوى وارتفع إلى مقام أوأدنى، وحيث كانت مرتبته مشتملة علىٰ جميع مراتب العوالم ، لوروده على كل نشأة وعالَم ، فكان المربي له ﷺ رب العالمين، فوقعت الإشارة إلى هذه الدقيقة في قوله «رب العالمين» تعظيماً لشأنه وتكريماً لامتنانه .

فالكتاب إشارة إلى ذات النبي ﷺ، المعبّر عنه تارة بالقرآن لمقامه الجمعي الإجمالي العقلي، وتارة بالفرقان لمقامه الفرقي التفصيلي النفسي ، وهما مقامان باطنيان فوق ساير المقامات النزولية والإنزالية السماوية والدنياوية ، واطلاق الكتاب على الجواهر العقلي القلمي القرآني، أوالنفسي اللوحي الفرقاني شائعٌ ذائعٌ في كلام الله تعالى وكلام أنبيائه وأوليائه ﷺ كقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ﴾ [٢٢/٥٨] وقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [١٤/١٧] وكقول امير المؤمنين عليه السلام :

وَأنتَ الكتابُ المبينُ الذي بآيـاتِه يظهـرُ المضمـرُ

وحقيقة القرآن عند المحققين من العرفاء هو جوهرُ ذات النبي ﷺ ، وقد سُئلتْ بعضُ أزواجه عن خُلقه ، فقالتَ في الجواب : «كان خُلقه القرآن» (١) .

ومن تأملَ وتدبرَ في ألقاب كتاب الله في عدة مواضع من المصحَف ، يعلم أن هذه الأوصاف تكون لذات روحانية مجردة عن الأجسام بحسب مرتبة ذاته ، فكما ان الإنسان حقيقة واحدةٌ، وله مراتب كثيرة وأسامي مختلفة يسمى في كل

(١) المسند: ج٦ ص ٩١ و١٦٣.

عالم باسم خاص مناسب لمقامه الخاص في الصعود، فكذلك القرآن حقيقة واحدة وله مراتب كثيرة وأسامي مختلفة يسمى في كل عالَم باسم خاص مناسب لمقامه الخاص في النزول .

أما أسامي القرآن : ففي عالم يسمى « بالمجيد » ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ [٢١/٨٥] وفي عالَم آخر اسمه «عليٌّ» ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ﴾ [٤/٤٣] وفي نشأة أخرى اسمه مُبينٌ ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [١/٢٧] وفي مقام آخر اسمه «نورٌ» ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [٨/٦٤] ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [١٥/٥] وفي منزل اسمه «عظيمٌ» ﴿وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [٨٧/١٥] وفي مرتبة «عزيز» ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [٤١/٤١] وفي مظهر «كريم» ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [٧٧/٥٦] وفي طور «حكيم» ﴿ يس وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [٢/٣٦] وهل شاعَ إطلاق اسم الحكيم إلا على ذوي العقول ؟ وكذا الكريم والعلي والعزيز؟

وأساميه غير محصورة ، ولو كنتَ ذا سمع باطني في عالم العشق الحقيقي والحِكم الإلهية ، لَكنتَ ممن تسمعُ أسمـائه وتنكشف لك بطونُه : **إن للقرآنِ ظهراً وبطناً وحدّاً ومطّلعاً**[١] كما ان للإنسان ظاهراً وباطناً ، ولباطنه باطن آخر إلى سبعة أبطن ، وهي المقامـات الباطنية الجملية المشهورة عند العرفاء ، هي الطبع والنفس والعقل والروح والسرّ والخفي والأخفى ، وإلا فتفاصيلُ المقامات وخصوصيات الأطوار الإنسانية غير محصورة في حدّ وعدّ، فكذا قياس القرآن المساوق للإنسان الكامل في الكمال والنقصان ، والصعود والنزول، وفي المثنوي المولوي المعنوي قدس سره :

صورت قرآن چو شخص آدمی است　　　　كه نقوشش ظاهر و جانش خفی است

(١) قال العراقي: (ذيل احياء العلوم: ٩٩/١) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود». ورواه العياشي (١١/١) بلفظ آخر. فراجع.

نزد عاقل زانپری که مضمَر است آدمي صد بار خود پنهان تر است

ومما روي عنه ﷺ انه قال: **اقرؤا القرآنَ والتمسوا غرائبَه .**

ومن تدبّر في أسامي النبي(ص) وأوصافه من كونه: نوراً وسراجاً ومحموداً ومحمداً وأحمد وقاسماً وحاشراً وماحياً وهادياً ومبشراً وبشيراً ومنذراً ونذيراً إلى غير ذلك مما لايمكن حصره ـ وجدها بحسب المعنى والمفهوم مشتركة بينه ﷺ وبين حقيقة القرآن ، واتحاد اللوازم يدل على اتحاد الملزوم ، والأسماء المشتركة بينهما لفظاً ومعنى كثيرة ، كلفظ النور والهادي والسيد والرسول والنبي .

ولو تدبّرت فيما أفدناك سابقا من قاعدة اتحاد الموصوف بالصفة التي وصف بها ، ومن قاعدة اتحاد العاقل بالمعقول التي ذهب إليها أكثر الحكماء المشّائين الذين مقدمهم فرفوريوس ، وهو أعظم تلامذة أرسطو ـ ومن قاعدة ذهب إليها محققوا أهل الإسلام وعرفائهم من صيرورة الإنسان بحسب النشأة الآخرة عين حقيقة ماغلب على باطنه من الأخلاق والملكات: لانكشف عليك حقيقةُ ماذكرناه من كون باطن النبي ﷺ كتاباً إلهيا مرسَلا منزّلا من الله لنجاة المقيدين في سجن هذا العالَم الأدنى وباطن القرآن خُلقه ، وظاهره الملفوظ هو كظاهر شخصه المطهر المزكّى .

ويستفاد من قوله تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [٢/٦٢] أن صفته وخُلقه (ص) كان تعليم الكتاب والحكمة ، فكان ذاته المقدسة عين الكتاب والحكمة

وقد عبّر قوم من أهل الله عن لفظ القرآن ومعناه بالوجه الحسَن والشعر المستحسَن للنبي (ص) المكنى عنهما بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [٢/٩٣] .

والقرآن حبل الله المتين النازل من سماء الرحمة لنجاة المقيدين في السجن

ولما كانت الدنيا مرآة الآخرة و الأرض حكاية الجحيم فانظر كيف روعي الموازنة بين العالمين فيما وقع من الاخبار في أحوال الآخرة من الجنة و النار ، أن النبي ﷺ أذّن له في الشفاعة يوم القيامة ، فورد في الجحيم لإخراج من في قلبه ذرّة من الايمان ، فأخرج منها ماشاء الله من عُصاة أمته المؤمنين . ومما يؤيّد كون

الأرواح والقلوب بمنزلة الكتب والصحائف ، ويصحّح إطلاق الكتاب والصحيفة عليها ، قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِم ٱلإِيمَانَ﴾ [٢٢/٥٨] .

و هل الكتاب إلا ما كتب فيه شيء ، سواء كان كتابة عقلية أو حسية ، وهل الكتاب إلا تصوير الحقائق ، سواء كان بآلة القصب والمداد في قرطاس أو جلد حيوان ، أو بواسطة الملك الملهم الملقي للحقايق في صفحة الدماغ أو النفس بمداد الفيض الإلهي ، ومن يحجبه الظاهر المحسوس عن الباطن المستور ولا يفهم من الميزان إلا ماله كفّتان ، ولاخبر له من موازنة العالمين وتطابق النشأتين ، فلايمكنه التصديق بوجود كتب الله المنزلة على أنبيائه تصديقاً عرفانياً ايمانياً ، بل تصديقاً لسانياً أو تقليدياً ، وشيء منهما لايسمن ولايغني ، ويحرم أيضا عليه معرفة صحائف الناس يوم العرض الأكبر، وكذا الفرق بين كتاب الأبرار الأخيار، وبين كتاب الفجار الأشرار، المشار إليها بقوله تعالى : ﴿إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَيٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [٨/٨٣ ـ ٧] وقوله : ﴿إِنَّ كِتَابَ ٱلأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَيٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ـ هذا ـ [١٨/٨٣ ـ ٢١].

وأما قوله « رب العالمين » ففيه إشارة إلى أن كل إنسان كامل حكيم عالم تامٌ في نفسه ، إذ فيه صورُ جميع ما في العالَم على وجه ألطف ، وقد ذكر الحكماء في معنى الحكمة إنها صيرورةُ الإنسان عالَماً معقولاً مضاهياً للعالَم المحسوس ، وقال ابويزيد البسطامي : « لو أن العرشَ وما حواهُ دخلَ في زاوية من زوايا قلب أبي يزيد لما أحسّ به » فكل عالِم رباني في الآخرة عالَم تامٌ لايعوزه شيء من الأشياء ولا يفتقر إلى شيء خارج عنه وعن ملكه وعالَمه وسلطانه ، ولا يبعد أن يكون هذا سر ايراده بصيغة الجمع الموضوعة لذوي العقول ـ فافهم وانتبه .

قوله سبحانه :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

لفظة : « أم » هاهنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى كلمة « بل » الإضرابية والهمزة الإنكارية ، كأنه تعالى لما أشار أولا إلى حقيقة القرآن وعظمته الثابتة له في عالَم اللوح والقلم وقضاء الله الاتمّ ، ثم رتّب عليه تنزيله من رب العالمين ، وأكّد ذلك بنفي الريب عنه لأهل الله والعلماء الراسخين ، فأضربَ عنه إلى مايقولون فيه ويلحدون في حقيقته إلى خلاف ذلك إنكاراً لقولهم وتعجيباً من جحودهم ، فإن الأمر أظهر من أن يخفى على عقلائهم لظهور العجز في إتيان ثلاث آيات منه عن بلغائهم ، ثم أضرب إلى إثبات ماهو بصدده من إثبات انه الحق المنزل من الرب تعالى .

ومثّل صاحب الكشاف هذا الأسلوب الصحيح المحكم بأنه يعلل العالم في مسئلة بعلّة صحيحة جامعة ، قد احترز فيها أنواع الاحتراز ، كقول المتكلمين : النظر أول الأفعال الواجبة على الإطلاق ، التي لايعرى عن وجوبها مكلّف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ماوقع احترازه منه ، فيرده بتلخيص انه احترز من ذلك ، ثم يعود إلى تقرير كلامه ، وتمشيته . ثم بين فائدة التنزيل وهي إنذار قوم لم يأتهم من قبل النبي ﷺ، وذلك ان قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولا قبله ﷺ، كقوله: ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [٦/٣٦] ترجياً من الرسول ﷺ لهدايتهم مثل ترجي موسى و هرون ، الواقع في قوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [٤٤/٢٠] ويحتمل أن يكون لفظ الترجي مستعاراً للارادة فيكون من الله تعالى .

مكاشفة

لما علمت إن نفي الريب في كون الكتاب منزّلا من الله إنما يكون من القلوب

الصافية الصحيحة، البريئة عن مرض الغواية وآفة الغباوة ، لأن مميط الريب ودافعه لازم للقرآن غير منفك عنه وهو كونه بالغاً حداً من الكمال يعجزعنه بنو نوع البشر، وإنما هو أمرٌ فائض من خالق القوى والقدر ، وأما قول من يقول : « إنه افتراه » فهو إما قولُ متعنّتٍ يجحد بآيات الله مع علمه أنه من الله ، أوجاهلٍ بليدٍ مختومٍ على قلبه في أصل الفطرة ، أو غير مرتاض بالنظر والتأمل فيسمع الناس يقولون شيئاً فيتبعهم من غير رويّة فقال بما قالوه قبل التدبر.فاعلم إن الذين لم يأتهم نذير في إقامة الحجة عليهم وعدمها يوم القيامة أقسام : لأنهم إما مستعدّون بحسب الفطرة لارتقاء طريق السعادة والخير أم لا ، وعلى الأوّل : إما أن يكونوا مقصّرين فيما لايدرك إلابالشريعة لعدم استقلال العقل به ، وإما فيما سوى ذلك كمعرفةالله وتوحيده وعلمه وحكمته ، فالأولان لايُقام عليهما حجة بخلاف القسم الثالث لأن أدلة العقل وأسباب الهداية معه في كل وقت .

هذا بحسب مااقتضاه الدليل العقلي الموافق لما ذهب إليه أهل الحق من قاعدة التحسين والتقبيح العقليين ، وأما الدليل النقلي فالمستفاد من الأحاديث المروية عن أئمة العصمة والهداية سلام الله عليهم أجمعين :

منها ماروراه صاحب كتاب الكافي [1] الشيخ الجليل ثقة الإسلام أبو جعفر محمد ابن يعقوب الكليني طاب ثراه ، عن أحمد بن محمد بن عيسى ، عن الحسين بن سعيد ، عن أبي عمير، عن جميل بن درّاج ، عن ابن طيار، عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال : **إن الله احتجّ على الناس بما آتاهم وعرّفهم .**

(١) الكافي: كتاب التوحيد، باب البيان ولزوم الحجة: ١/١٦٢.

قوله سبحانه :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

«الله» مبتداء وخبره كلمة «الذي» مع صلتها ، والجُمل الواقع بينهما من باب حمل الحد على المحدود في القضية الطبيعية بالحمل الأولي الذاتي،لامجرد الانصاف الاتحادي المعتبر في الحمل المتعارف ، فإن كون الواجب لذاته مبدأ وخالقاً لشيء إنما يكون بنفس ذاته المقدسة ، حتى أن مبدئيته وخالقيته بما هو حقيقته وذاته ، لا كصانعية غيره من المبادي التي ليست مبدئيتها لشيء بما به ذاتها وحقيقتها ،كالإنسان في كونه كاتباً ، حيث لايكفي في ذلك حقيقته التي هو بها هو ، بل مفتقرٌ معه إلى صنعة الكتابة وغيره من الأسباب ،كالآلة والقابل ورفع المانع ووجود الداعي، كل ذلك خارج عن الإنسان بما هو إنسان ، وكذا الشمس في إضائته وجه الأرض يفتقر إلى وجود الأرض ووجود المحاذاة بينها وبين الأرض ، فليست هي بما هي شمس مضيئة لوجه الأرض ، بخلاف الواجب القيّوم ، فإن قيوميته وخالقيته للسموات والأرض وما بينهما بنفس ذاته الذي هو داع ومريد وقادر .

واعلم أنا قد حقّقنا مفهوم هذه الكلمة الجلالية في تفسيرنا لآية الكرسي ، وبيّنا هناك أنها بحسب المفهوم قابل للشرح الحدي ، ويؤخذ في حدّه جميع الموجودات الصادرة عنه بنفس ذاته، بياناً مقنعاً من أراد أن يعلمه فليطلب من هناك.

* * *

والمراد من «اليوم» هيهنا اليوم الربوبي الذي مقداره ألف سنة مما تعدّون ، ولما كان مدة تكوّن العالَم من زمان آدم عليه السلام إلى زمان نبيّنا صلى الله عليه وآله ستة آلاف سنة ـ على ما هو المشهور ـ فعبّر عنها بستة أيام مدة كل يوم منها ألف سَنة ، يسمى باسم من أسامي أيام الأسبوع قبل يوم الجمعة، منسوب إلى أحد الكواكب السبعة سوى

عطارد، وفيها ميلاد واحدمن الأنبياء العظام قبل محمد ﷺ من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين .

وهذا موافقٌ لما قد اشتهر فيما بين الناس في جميع الأمصار : إن مدة الدنيا سبعةآلاف سنة على عدد الكواكب، فكل ألف سنة يومٌ من أيام‌الله، لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ فالستة منها هي التي خلق الله فيها السموات والأرض ، لأن الخلْق حجاب الحق ، فمعنى«خلَقَ»اختفى بهما فأظهرهما وبطن ، ويوم السابع هويوم الجمع وزمان الاستواء على العرش والظهور بالأسماء ، وهذا الظهور يبتدي بالسابع من أول البعثة ، و يزداد إلى تمام هذا اليوم ويزول الخفاء بتمام الظهور لقيام الساعة ، التي قد طلَع فجرُها ببعثة نبيّنا ﷺ كما ورد في الحديث عن النبي (ص) إنه قال «بُعِثتُ أنا والساعةُ كهاتين » وجمع بين السبابة والوسطى.[1] .

وقال : بعثتُ في نفس الساعةِ فسبقتها كما سبقت هذه هذه - وأشار بإصبعيه السبابةوالوسطى [2] وليُطلَب تحقيق هذا المطلب في تفسيرنا لسورة الحديد بمالا يكون عليه مزيد .

و هذا الاصطلاح في تقدير اليوم يستفاد من الأخبار أيضاً ، كما روي [3] عنه ﷺ إنه‌قال: إني لأرجوأن لايعجز امتي عندربها أن يؤخّرهم نصف يوم أعني خمسماة سنة ، وروي أيضا إنه قال: إن استقامت امتي فلها يومٌ وإن لم تستقم فلها نصف يوم .

واعلم إنّي منذالآن ما رأيتُ أحداً عنده علمٌ تامٌ بتصحيح كون السموات

(١) الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في قول النبي (صلّى الله عليه وآله) «بعثت أنا...» ٤٩٧/٤ ورواه أصحاب الصحاح، راجع المعجم المفهرس ١٩٤/١.

(٢) المصدر والباب السابق: ٤٩٦.

(٣) أبي داود: كتاب الملاحم، باب قيام الساعة: ١٢٥/٤.

والأرض ومافيهما مخلوقة في ستةأيام ، ولاوجدتُ في كلام أحد المفسرين وغيرهم ما يطمئنّ به القلبُفي بيان ذلك ، فإن الأيام هيمقادير الحركات وهي متأخرة عن وجود الأجرام الكلية ، كالأفلاك و ما فيها ، سواء كانت عبارة عن مقادير أدوار الحركة اليومية كما هوالمتعارف بين الناس ، أوعن مقدار دورة القمرالتي أسرع الدورات لكواكب السيارات ، وهو الشهرفيالمشهور ، أوهومقداردورة الشمس وهي السَنَة في المشهور ، أو غيرها كدورة الفلك الثامن التي هي مقدارها خمس وعشرين ألفسَنة تخميناً بحسب الأرصاد الجديدة ، أو غيرها منالأيام الإلهية التي بحسب الأدوار القرآنية للكواكب السبعة فإن جميعها ليست إلامقادير الحركات الكلـّية ، وهي متأخرة عن وجود الأجرام الكريّة الدورية الحركات كالأفلاك ومافيها ، فكيف يكون ظرفاً لوجود هذه الأجرام بأنفسها و مقداراً لأصل تكوّنها عنه تعالى .

وأكثر المشتغلين بالعلوم العقلية اعترفوا بالعجز عن تطبيق هذا الحكم على القوانينالحِكْمية، لأنالحكماء أقاموا حججاً فلسفية علىأنوجودالأفلاك والفلكيات ليس إلاعلى سبيل الإنشاء الإبداعي ، لاعلى نهج التدرّج في الحصول ، ولا لأجل الأسباب الجسمانية ، كاستعداد القوابل وتهيئة الآلات ، وكذا فنائها ليس بالذبول والضعف والمرض ، بل مجرد إرادة الصانع البديع ، فهذا الإشكال غير منحلّ إلى الآن .

وغاية ما ذُكر هيهنا هو قول بعض المحققين من العرفاء [١] في تأويل هذه الآية وأمثالها، وهو أن يكون الخلق فيها بمعنى الاحتجاب فقوله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي : احتجب بها في الأيام الستّة الإلهية ، التي هي مدة دور الخفاء من لدن آدم عليه السلام إلى دور محمد صلى الله عليه وآله .

وأنت خبيرٌبأن خروج الألفاظالقرآنية عن معانيهاالمتعارفة المشهورة توجب

(١) التفسير المنسوب الى محيي الدين: ٢/ ٢٧٣.

تحيّر الناظرين فيها، والقرآن نازلٌ لهداية العباد وتعليمهم وتسهيل الأمر عليهم مهما أمكن لا للتعقيد والإشكال ، فيجب أن يكون اللغات محمولة على معانيها الوضعية المشهورة بين الناس ، لئلا يوجب عليهم الالتباس .

كشفٌ إلهامي

قد من الله علينا في تحقيق هذه الآية ونظائرها بما يشفي العليل ويروي الغليل من غير حاجة إلى صرف اللفظ عن مفهومه الظاهر ، وهو يستدعي تمهيد مقدمات :

أولاها : ان الأمور الصادرة عن الحق أقسام :

أولها مالايحتاج في وجوده وتعقله إلى قابل وحركة وزمان ، ومنها مايحتاج إليها في وجوده لافي تعقله ، ومنها مايحتاج إليها في الوجودين ، فالأول كالعقول ، التي هي ضربٌ من ملائكة الله ، ويقال لأمثاله الأمور الإلهية ، والثاني كالعدد والمقادير ، ويقال لها الرياضيات ، والثالث كأشخاص الأجسام الطبيعية وغيرها ، ويقال لها الطبيعيات .

وثانيها : إن لوجود كل من هذه الموجودات عالَماً آخر ، فالدنيا للأمور الطبيعية ، وهي عالَم الشهادة وعالَم الحسّ، والآخرة للامور المقدارية من غير مادة ، ويقال لها : عالَم الغيب وعالم الجزاء ، وما هو فوقهما للأمور الربانية ، ولكل من هذه الموجودات مَشعَر آخر للإنسان ، فبالحس يدرك الدنيا وما فيها ، وبالخاطر والعقل يدرك الأمور الأخروية ، وبالروح والعقل النظري يدرك الأمور الإلهية .

وثالثها : إن الشيء قد يكون بحسب حقيقته وماهيته من الأمور العقلية ، وبحسب تشخصه من الأمور المفتقرة إلى المادة وانفعالها ، كالجواهر الصورية التي تقوّم المادة وعوارضها بحسب سنخ تجوهرها، وامابحسب تعيّنها الخاص وعوارض تعينها فهي مما تقوّمها المادة وانفعالاتها .

ورابعها : انالأفلاك ومافيها يفتقر إلى المادة وعوارضها الإنفعالية في التشكل

و المكان وغيرهما من المشخصات .

و خامسها : إن تشخّص الشيء عبارةٌ عن كونه مدرَكاً بالإدراك الحسي ، وأماالمحسوس بماهو محسوسٌ أي‌قابل‌لأن يناله الحسّ فوجوده إنما يتقوّم بانفعال المادة وعوارضها ، وكذاالجوهر الحاسّ مفتقرفي‌وجوده إلى مادة محسوسة .

وسادسها ، إن الأمر التدريجي الوجود من‌حيث هو كذلك زمان بقائه عين زمان حدوثه .

فإذاتمهّدت المقدمات . فنقول :

لما اشتهر إن ابتداء وجود العالَم مقارن لابتداء وجود بني آدم ، لأنه من الأنواع الشريفة التي لاينفكّ العالم عن وجودها المستحفظ‌نوعها ببقاء الأشخاص، وجميع‌العقلاء قائلون‌بأن‌للكائنات‌ابتداء وانقضاء بحسب‌الأدواروالأكواروالطوفانات العظيمة ، حتى أن بعض الحكماء ذكر كيفية نشوءالإنسان من‌غير توالد عند ابتداء الكائنات ، وعلمت أن‌كيفية وضع‌السماء على‌هذه الهيئة المخصوصة‌ليست‌إلاّبأمور زائدة على‌ذاتها ، وتلك‌الأمورمفتقرة إلى انفعال المادة وتغيراتها ،والهيولى‌حقيقتها محض الانفعال والقوة والدثور والتغيّر ، حتى‌قيل إنها من باب الحركةفي‌جوهرية الشيء : ثم إن اسم السماء كأنها معتبر في معناه الفوقية ، لأنها موضوعة للحقيقة السماوية مع هذاالشكل المخصوص المحسوس ، وهذه الهيئات المخصوصة من الفوقية وغيرها ، والعرب يقول : «سماءُ كل‌شيء سقفه» وكذاالفلك معتبرٌفي معنى اسمه الحركة الدورية ، لأنه‌مأخوذ من‌فلكة المغزل ، ولهذايقال بالفارسية «آسمان» أي : المشابه للرحى .

فحينئذ بحكم المقدمة الأخيرة يكون حدوث السماء بما هي سماءٌ حاصلا بالتدريج المفتقر إلى زمان يقع فيه ، وأما وجود الزمان والحركة فهمامفتقران‌إلى أصل‌حقيقةالسماء ، لاعلى وجه دوري مستحيل ، بل‌على‌الوجه‌الذي‌حقّقه الراسخون في‌العلم عند كيفية استناد كل‌متغيّر إلى‌ثابت ، وهذاأمريحتاج تحقيقه إلى‌مقام آخر لبسط المقال ، ومجال أوسع من‌هذاالمجال .

فقد ثبت ان السماء بماهي شخصية محسوسة وكذا غيرها من الأمور المحسوسة المادية الموجودة في عالم الدنيا أمرٌ زماني الوجود، تدريجيّ الحصول، مدة كونها البقائي عين مدة حدوثها الإنشائي، فهذه المدة المضروبة في الكلام الإلهي هي مدة بقاء وجودها الذي هو عين الحدوث، ويشير إلى هذا قوله سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [٢٩/٥٥].

وأما قوله ﷺ: جَفَّ القلمُ بماهو كائنٌ إلى يوم القيامة[١] فهو بالقياس إلى عالَم آخر فوق الدنيا وما فيها، ولو نظرتَ حقّ النظر إلى حقيقة كل أمر متغيّر محسوس من حيث حقيقته الثابتة العقلية، وجدتها خارجة عن الزمان والمكان، مرتفعة عن التجدد والتغير والحدثان، وعن قول «أين» و«متىٰ»، فإن قولنا «الله عالم» و«الإنسان إنسان» و«الفلك فلكٌ» لاتعلق لها بهنا وهناك، ولا بغدٍ وأمس، فكذا حكم جميع الصفات الذاتية للاشياء ولوازم الماهيات، فلو ارتفعت الحواسّ منا لارتفعت بارتفاعها جميع الاعتقادات الزمانية والمكانية الواقعة، وتبدّلت الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، لكونها مطويّات بيمين الحق، كما قال بعض الناظمين من حكماء فرس وهو السنائي المسمى بالإلهي[٢]. شعر:

تازمين دل آدمى زايست خيمهٔ روز گار بر پايست
آدمى چون نهادسر درخواب خيمهٔ اوشود گسسته طناب

* * *

فقد انكشف مما بينّا بوجه حكمي سرّ كون السموات والأرض وما بينهما مخلوقة في ستة أيام من الأيام الإلهية، وهي من يوم السبت إلى يوم الخميس يوم ولادة عيسى بن مريم ﷺ، وأما يوم الجمعة فابتداؤه وصبيحته وقت بعثة رسول الله ﷺ وهو رسول آخر الزمان، وإمام الجماعة من الأنبياء والأولياء، وخطيب يوم الجمعة،

---

(١) من النبويات المشهورة، راجع البخاري: باب القدر، ١٥٢/٨.

(٢) حديقة الحقيقة للسنائي: ١٢٧. وفيه: تا زمين جاى...

وداعي الله والمنادي للصلوة في هذا اليوم، وهي ذكر الله تعالى وشهود وحدانيته، لقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلوٰةِ مِنْ يَومِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٩/٦٢]

* * *

وقد قلتُ أبياتاً في هذا المعنى عند انشراح صدري وانفتاح قلبي في ذكري وهي هذه . ـ شعر ـ :

چون ظهور دين پيغمبر شدى — دين توحيد خدا ظاهر شدى
مسجد جامع بانجام آمده — در يكى هفته باتمام آمده
روز اين هفته بود هر يك هزار — زين شمار دوزهٔ ليل و نهار
« إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ » را بخوان — پس ز آدم تا بخاتم هفته‌دان
روز جمعه چون‌شدى گاه نماز — شد خطيب أنبياء اندر نياز
در ميان روز آدينه يكى — ميشود قائم قيامت بى‌شكى
بانگ «قَدْقامَت» بگوش مردمان — ميرسد پيش از قيامت يكزمان
مرتفع شد آفتاب معرفت — تابسمت‌الرأس زين عالى‌صفت
اين‌مؤذن گفته «قدقامتْ صَلوه» — اول اين روز اعلامى بگاه
جذبه «فَاسْعَوا إِلَى ذِكْرِ الله» است — دردرون‌هر كسى كاندررهست
اول اين روز وقت بعثت است — كه‌محمد ﷺ رارسالت‌شددرست
ازأذانش خفتگان آگه شدند — روح قدسى باملائك‌صف‌زدند
تو «زقدقامت» كجادارى خبر — كز قيامت نيست درجانت اثر

﴿ تبيان ﴾

قد تحيّرت أفهام العقلاء وأفكار العلماء في معنى استواء تعالى على العرش ، وانقسموا في متشابهات القرآن إلى مجسّم كالحنابلة وإلى مأول كالمعتزلة وإلى

مقتصد ـ مجسّم في البعض و مأول في البعض ـ كأصحابنا الإماميين ليسوا في مرتبة إسراف المأولين في رفع الظواهر ، ولافي مرتبة تقصير المجسمة في حسّم باب التأويل

وهنا قسمٌ رابع هم الراسخون في العلم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَه إِلاَّ اللهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ [٣/٧] على قرائة الوصل ـ وقد أشرنا إلى طريقتهم في تفسيرنا لآية الكرسي وذكرنا هناك أنموزجاً من مقامهم في كلام الله الملك العلّام بمقتضى دينهم وديانتهم في ضبط ألفاظ الكتاب المجيد عن التحريف والتحديد، فإن مقتضى الدين والديانة و رعاية الضبط والأمانة أن لايأول المؤمن شيئاً من الأعيان التي نطق بها القرآن والحديث، إلابصورها كما جاء وفسّرها علماء التفسير الواقعين في عهد النبي (ص) والأئمة الماضين المعصومين عن الخطاء سلام الله عليهم أجمعين.

اللهم إلاأن يكون محقّقاً خصصه الله تعالى بكشف الحقايق والمعاني والأسرار والإشارات في فهم التنزيل وتحقيق التأويل ، فإذا كوشف بمعنى خاص أوإشارة وتحقيق وتقرر ذلك المعنى من غير أن يبطل صورة الأعيان ، مثل الجنة والنار والميزان ، ومافي الجنة من الحور والقصور و الأنهار والأشجار ومافي النار من الحميم والزقوم وتصلية جحيم والمهْل يشوي في البطون كغلي الحميم ، وغيرها من العرش والكرسي والشمس والقمر والليل والنهار ، لايأول منها شيئاً على مجرد المفهوم ويبطل صورته، بل يثبت تلك الأعيان كما جاء ويفهم منها حقائقها ومعانيها ، فإن الله تعالى ماخلَق شيئاً في عالم الصورة إلاوله نظير في عالم المعنى ، وماخلَق شيئاً في عالم المعنى ـ وهو الآخرة ـ إلاوله حقيقة في عالم الحق وهو غيب الغيب ـ فافهم جدّاً ، وماخلق شيئاً في العالمين إلاوله مثال وأنموزج في عالَم الإنسان .

فإذا عرفت هذا على الكشف واليقين فقد اعتصمتَ بحبل متين من حبال القرآن المبين ، واستمسكت بعروة وثقى من عروة الدين ـ فالزم .

واعلم إن مثال العرش في العالَم الصغير الإنساني قلبُه ، إذ هو محل استواء الروح عليه بخلافة الله تعالى ، فكما أن كون القلب ـ بل البخار اللطيف الذي فيه مستوى للنفس الإنسانية بل للروح العقلي لايوجب تجسماً لها ،لأن حقيقة هذا الاستواء

ليس كاستواء جسم على جسم ، بل هذا تجل للروح بواسطة قوتها العملية في القلب وظهور منها عليه يوجب استعماله له وتحريكها إياه بحيث يكون آثارها في سائر الأعضاء وغيرها بواسطة القلب ، فما يفعل فعلاً إلا ويظهر أولا أثر من الروح في قلبه ، ثم يسري منه في الأعضاء الآلية ، ثم في آلات الخارجية إن كان فعلا خارجياً يفتقر إليها ، ثم يوجد ذلك الشيء الذي يقال إنه أثر النفس كالكتابة في مادة خارجية كالمداد وصفحة القرطاس فكذلك معنى استوائه تعالى على العرش استعماله تعالى إياه بواسطة ملك مقرب هو مثال رحمانيته وتجلّيه له وظهورُه فيه ، بحيث لا يتكون متكوّن في عالم العناصر إلا و يظهر أصله في عرش الله ، ثم بواسطته يسري في عالم السموات التي هي بمنزلة الأعصاب والرباطات للإنسان الكبير ، ثم يوجد في هذا العالم صورة منه في هيولى العنصريات التي هي مداد كلمات الله على صفحة الأرض ، وهي المعبّر بالبحر المسجور و إليها الاشارة في قوله تعالى : ﴿ لَو كَانَ ٱلبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبّي لَنَفِدَ ٱلبَحْرُ قَبْل اَنْ تَنفَد كَلِمَاتُ رَبّي وَلَو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [١٨/١٠٩] .

و هيهنا أسرار عظيمة عزيزة أعزّ وأرفع من أن يمكن كشفها على غير أهلها كما هو حقه ، بها يتبيّن تمام المضاهاة بين فعل الآدمي داخل العالم الصغير وخارجه، وفعل القدرة الإلهية داخل العالم الكبير و خارجه ، فإن من لم يعرف شمولَ جوهر النفس الآدمية جميع أفاعيلها الغيبية والشهادية ، الداخلة والخارجة ، يرجع ويقول اغتراراً بظواهر ما وصل إليه من كتب الحكماء أو فهمه من كتب الأطباء ان فعل النفس لذاتها ليس إلا إدراك المعقولات ، وأما الأفاعيل البدنية الداخلة فهي منسوبة إلى القوى كالهاضمة والجاذبة و الدافعة و غيرها ، أما الأفاعيل الخارجة كالكتابة و الحياكة والصياغة فهي منسوبة إلى الأعضاء بواسطة الآلات الصناعية ، فلم يتم في حقه كون النفس مثالاً للربّ تعالى ذاتاً و صفة وفعلاً وآثاراً ، ولم يتم عنده التوحيد الأفعالي المستفاد في هذه الآية من قوله : ﴿مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَليٍّ وَلَاشَفِيعٍ اَفَلَا تَتَذَكَّرُون ﴾ [٣٢/٤].

ثم لا يخفى ان المكوّنات العنصرية خارجة عن العالَم الكبير الحيواني لما ثبت

في مباحث الغايات لحركات السماويات ان لها في حركاتها أغراضاً علويةوما يترتب على فعل الأفلاك والسماويات ليس بالذات وجود العنصريات ، كما أن الفعل الذاتي للنفس هي الإرادات والتدبّرات ثم بواسطتها إنشاء الحوادث في عالمها الخاص ـ أعني بدنها ـ وغاية فعلها مايلحق إليها من الحِكم و المصالح والخيرات أو اللذات، وأما الفعل الخارجي فهو فعل تبَعي ، و أمّا الغاية الخارجية كتسوّد وجه القرطاس ، فهي غاية عرَضية بأحد الوجوه المذكورة في بابها .

و بالجملة فكما ان في الحيوان توجد اُمور لايسري إليه الحيوة إلا بالتّبع كالظفْر والشّعر والظلْف والقَرن ، فإن هذه كثائف يؤدي إليها البخارات والأدخنة المزاجية ، فينجمد عندها وينقطع دونها أثر تصرف النفس في انشاء الروح الغريزي النفساني ، الحامل للحيوة والحس والحركة الإرادي ، فهي حية بحيوة البدن بالعرَض فكذلك في الوجود أمور يقال لها في عرف العرفاء «الآثار» وهي عبارةٌ عن الموجودات العرَضية التبعية ، التي ليست الطبيعة الكلية متوجهة إليها، ولا هي غايات ذاتية للحركات الكلية ، وهذه كالشخصيات العنصرية ،فهي واقعة في الوجود إتفاقاً بهذا المعنى الذي ذكرناه ، كما ان وجود الكثائف والأوساخ التي تحصل في دكة القصّاب وينتفع بها الذباب ليس من الغاية الذاتية لصنعة القصابين ، بل هي أمور ضرورية :اتفاقية لازمة للصنعة المذكورة من غير توجه الفاعل إليها بالذات .

و الله سبحانه عالمٌ قادرٌ بجميع الأشياء لايعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ، إلا ان غاية ايجاده للكائنات وجود العقول النظرية العارفة لذاته تعالى لقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١/٥٦] وأما غيرها من الشخصيات الكائنة الفاسدة فوجودها خارج عن القصد الذاتي ، لأنها طفيل ذات الإنسان الكامل .

ومن هيهنا استتم وجه من وجوه المضاهاة بين فعل النفس خارج البدن ، وبين فعل الله تعالى بواسطة العرش فيما دون السموات في كون كل منهما أثر من آثار فاعل قادر حكيم مدبر .

بسط حكمة رحمانية

إن استوائه تعالى على العرش بعد الفراغ من خلق الأنواع على نهج الابداع تصرفه تعالى في العالم بواسطته، وتـدبيره الأمور بوسيلة تحريك السماء الموجب لحدوث الأشياء المتجددة ، وإنما خصّ العرش بالاستواء لأنه مبدء الأجسام (الاشياء ـن) اللطيفة القابلة للفيض الرحماني .

وعند بعضهم العرش فلك عظيم مشتمل على جميع الأجرام الفلكية والكوكبية يحيط به سطحان: أحدهما مقعّر مائل القمر، والآخر ما هو منتهى الإشارة الحسية أي جهة الفوق الحقيقي ، وهو متحرك بالحركة اليومية السريعة الحافظة للزمان، المحيطة بسائر الحركات المستديرة ، وبه يتجدد الأبعاد المكانية والزمـانية ، والحوادث والاستعدادات و غيرها ، فما من حادث من الحوادث من الحركة والأجسام الكائنة والفاسدة إلا وللعرش مدخلٌ في وجوده وعدمه ، كما أن القلب الإنساني رئيس سائر الأعضاء ولايسري قوة الحيوة والحس والحركة الفائضة من النفس على البدن إلا بتوسط القلب فإنه أول مايتحرك من أعضاء البدن ، وآخر ما يسكن منها ، فهو بحسب حقيقته وذاته محيط بالبدن.

والنفس مستوٍ عليه على مثـال استواء الرحمان على العرش ، فإن الاستواء صفة من صفاته تعالى لايشبه استواء المخلوقين ،كالعلم وساير الصفات ، لاشتراك بينه تعالى وبين الخلق إلا بحسب الاسم والحكاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [١١/٤٢] وهذه الآية توجب نفي المثـل وإثبات المثال ، ولا مثال له تعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالا في الوجود إلاالنفس الآدمية بحسب جمعيته الأحدية .

ولو أمعنتَ النظر في خصوصية خلافتك للحق تعالى لعرفتَ نفسَك،فعرفتَ ربّكَ ، وذلك ان الله تعالى لما أراد خلقَ شخصك من النطفة المودعة في الرحم ، استعمل روحَك بخلافته ليتصرف في النطفة ، وهو بذر شجرة عالَمك وبدنك ،كما

ان الهيولى الكلية المطلقة بذرشجرة العالم الجسماني التي أصلُها ثابتٌ وفرعها في السماء ، فتصرفتْ فيها أيام الحمل في أطوارها ، فجعلَها عالَماً صغيراً مناسباً للعالم الكبير ، فتكون المعدةُ بمثابة الأرض والرأسُ بمثابة السماء والقلبُ بمثابة العرش والصدرُلمكان الكبد بمثابة الكرسي، وهذا كله بتدبير الروح وتصرفه خلافة عن ربه .

ثم استوى الروح بعد فراغه من الشخص الكامل على عرش القلب ، لااستواءاً مكانياً ، بل استواءاً ارتباطياً تعلقياً معنوياً ، ليتصرف في جميع أجزاء الشخص ، وتدبّر أموره بإفاضة فيضه على القلب أولا، ثم من القلب على الكبد والدماغ والأعضاء الشريفة الرئيسة ثانياً ، ثم على سائر الأعضاء والجوارح بتوسطها ، فالعرش مقسم فيض الحق على العالَم كله كما ان القلب مقسّم فيض الروح إلى القالب كله .

فإذا تأملت في هذا المثال تأملا شافياً وجدتَه في نفي التشبيه عن الصفات المقدسة المنزهة كافياً ، وتحققت بحقيقة قوله ﷺ[1] : « من عرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَه » انشاء الله .

تلويح عرشي

لايسترعلى العارف المكاشف ان في الوجود وجوهاً من المشابهة والمماثلة بين القلب الإنساني وعرش الرحمان ، ذكرنا في بعض كتبنا العرفانية بوجه تفصيلي لابأس بذكر جملة منها على وجه التلخيص وهي خمسه :

الأول : إنهما يشتركان في كونهما محل استواء الرحمان ، أما العرش فلدلالة هذه الآية ونظائرها على كونه كذلك ، و أما قلب المؤمن العارف فلقوله تعالى في القرآن : ﴿ هُوَ مَعَكُمْ اَينَمَا كُنتُمْ ﴾ [٥٧/٤] وفي الحديث القدسي : « ياداود فرّغ لي بيتاً ، أنا عند المنكسرةِ قلوبُهم » .

---

(١) مصباح الشريعة: الباب ٦٢. وتنسبه ابن أبي الحديد (٤/٥٤٧) إلى علي عليه السلام.

وروي أيضا: إنه سئل عن رسول الله ﷺ[1] : أين الله ؟ فقال : «في قلوب عباده» فعليك أن تتفحّص القلب الإنساني ، فإذا وجدتَ وصرتَ ذا قلب فقد وجدتَ بيتَ الله ، لأن الروح محل معرفة الله ، و قلب المؤمن عرش الله وهو لطيفة صافية ينبعث من صفوة الأخلاط الأربعة وبخاريّتها ودخانيتها ، كما إن السماء وهي دخان حاصلة من صفو الأجرام ودخانيتها .

الثاني : كونهما بين إصبعين من أصابع الرحمان ، والإصبعان هما النفس والعقل، المحركان للاشياء ،أحدهما بالمباشرة والتدبير ،وثانيهما بالإمداد والتشويق، وهما ملكان مقربان روحانيان . أحدهما عقلي والآخر نفسي ، أما كون العرش بينهما فلما ثبت أن وجوده بعد القلم واللوح المعبرّان عن العقل والنفس والقضاء والقدر ، وأما كون القلب بينهما فلكونه مسبباً عن القوة العاقلة والعاملة من الروح الإنساني .

الثالث : اشتراكهما في السعة والإحاطة ، أما العرش فلقوله تعالى :﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [٢/٢٥٥] والعرشُ وسعَ الكرسيَ فيكون أوسع منه ومما يحويه ويسعه ، ولكثير من الأحاديث الدالة على أن العرش محيط بما في هذا العالَم الجسماني ، وأما قلبُ العارف فلقوله تعالى[2] : «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلبُ عبدي المؤمن» .

وأنتَ إذا تأملت في احضارك لكل شيء تريده في قلبك ، من الأفلاك العظيمة والكواكب بأي مقدار وعدد شئت ، وإخطارك الصحاري الوسيعة في بالك بأي سعة شئت، والخلائق الكثيرة بأي كثرة شئت، فلا تتعجب في قول أبي يزيد البسطامي: «لو أن العرشَ وماحواه ألف مرة دخل في زاوية من زوايا قلب أبي يزيد لما أحسَّ به» وماقيل: إن العرش مع نسبته باستواء الرحمانية كحلقة ملقاة بين السماء والأرض

(١ ـ ٢) قال العراقي (ذيل احياء العلوم: ١٥/٣): لم أجده بهذا اللفظ. وللطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي (صلّى الله عليه وآله) قال: «إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين... الحديث».

بالنسبة إلى وسعة قلب المؤمن.

الرابع : إن كلاً منهما بمنزلة السرير للسلطان تحته أربعة أركان ، وفوقه أربعة قوائم ، أما الأربعة الفوقانية فهي العقل العملي والنفس والروح القدسي والطبع ، وكل منها ملك عظيم ، وأما الأربعة التحتانية فهي الأرض والماء والنار والهواء ، ولكل صورة من صور العناصر حقيقة روحانية وهو ملك رباني يدبّرها ويربّيها بإذن مبدع الكل ، فإذا اتّصل كل مستفيض بمفيضه ، وانصبّ كل ماء بانائه ، وانضمّ كل معلول إلى علته ، وصار عرشُ الله بارزاً ، وبرز كل الحقايق لله الواحد القهار ، ينضم هذه الأربعة الجسمانية بتلك الأربعة الروحانية وتصير ثمانية ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [٦٩/١٧] وهي الأنوار القاهرة القدسية ، أرباب الأصنام العنصرية مع طبايعها الأربعة التي هي الصور النوعية ، يحمله بالاجتماع من الطرفين -العلوي والسفلي- عند البعث والنشور من كل طرف أربعة فيكونون ثمانية ، أي عند النشور .

ولهذا قال [١] ﷺ : على ماروى عنه : هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيّدهم اللهُ بأربعة آخرين فيكونون ثمانية .

ولكون تلك الأملاك مختلفة الحقايق بحسب اختلاف أصنامها العنصرية قال بعضهم إنهم على صور مختلفة ، ولكونها مستولية مستعلية على تلك الأجرام شبهت بالأوعال [٢] وسميت بها تشبيهاً لأجرامها بالجبال ، ولكونها شاملة لتلك الأجرام بالغة إلى إفاضتها حيثما بلغت لازمة لها فاعلة أيضاً فيها .

قال بعضهم : هي ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرض السابعة والعرش فوق رؤوسهم وهم مطرقون ، مسبحون لله - والله أعلم بحقائق الأمور .

الوجه الخامس : إن كلا منهما نهاية الجسمانيات وبداية الروحانيات ، وكل

(١) الدر المنثور: ٣٤٦/٥ و٢٦١/٦.

(٢) الدر المنثور: ٢٦١/٦.

منهما صورة الصور فيهذا العالَم ومادة المواد فيعالم الآخرة ، وكلمنهما برزخ جامع بوجه و حدٌ فاصل بوجه ، وخطٌ واصل وصراطٌ ممدود على متن جهنم ، وطريقٌ مستقيم إلى الله تعالى ، وكل منهما بمنزلة سور ذوبابين ، باب داخلي إلى عالَم الرحمة والرضوان ، لا يلج من يلج ملكوت السموات إلا من هذا الباب ، وباب خارجي إلىعالم المقت والنيران ، لاينزل ماينزل إلىمنازل الشياطين ومزابل الملاعين إلا من هذا الباب كما أشير إليه في قوله تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [١٣/٥٧] والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

قوله سبحانه :

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ
فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

«الأمر» هو وجود الأشياء في أنفسها ، وتدبير الوجود المطلق من الله تعالى هوإفاضته بالفيض الايجادي المعبّرعند بعض العارفين بالنفَس الرحماني ، فإن علمه تعالى بالأشياء عين موجوديته لها .

وقوله : «مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ» إشارة إلى الموجودات الواقعة في سلسلة البدو والصادرة على سنّة الإبداع مــن غير مدخلية الحركات والاستعدادات ، إذ الوجودابتدأ منه بأنأبدع أولا عقلاقدسياً مع مايتلوه فيالشرف من العقول القادسة، وعالمها عالَم القضاء وعالَم القلم الأعلى ، ثم أبدع نفساً كلياً متعلقاً بالفلك مع سائر النفوس الفلكية التي دونها فيالشرف ، وعالَمها عالَم القدَر وعالماللوح المحفوظ، ثم الصور النوعية وقواها و كيفياتها، ثم الصور الجرمية الامتدادية ، ثم الهيوليات الفلكية والعنصرية ، واحدة للعنصريات والتسع الباقية للفلكيات ، لأنها تِسع جمل

كما بيّن عددها وترتيبها بالرصد والحساب في علم الهيئة .

وقوله تعالى « ثُم يَعرجُ إلَيه » إشارة إلى وجود سلسلة العود إليه ورجوع الأشياء إلى فطرتها الأصلية ، وذلك بتمزيج العناصر الحاصلة من هيولى هذا العالم وتحصيل مزاج متوسط بين الأضداد ، معتدل بعيد عن الفساد ، مظهر اسم الله الجامع المستحق لخلافته تعالى ، فيبتديء الوجود فيها من أخسّ الموجودات رتبة إلى الأشرف فالأشرف ، وهي الهيولى الأولى، ثم الجسم المطلق ، ثم المركب المعدني، ثم النبات ، ثم الحيوان، ثم الإنسان ، ثم ذوالعقل الهيولاني ، ثم ذوالعقل بالملكة ، ثم ذوالعقل بالفعل ، وهلّم جرّاً إلى مرتبة الأنبياء والأولياء الواصلين إلى عالم الربوبية ومجاورة الحق الأول والملائكة المقربين .

وقوله تعالى : ﴿في يَومٍ كانَ مِقدارُه ألفَ سَنَة مِمّاتَعدّونَ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله : «يُدَبِرُ الأمرَ» مع مايتلوه ، أو لقوله : «ثُمَ يَرجِعُ إلَيه» وعلى الوجهين لاتفاوت في التقدير لأن التقدير بالزمان يختص بسلسلة العائدات ، وأما البادئات فوجودها عنه تعالى دفعيٌ كلمح البصر لايتقدّر بالزمان أصلا .

تبصرة

قيل : «الأمر» هو المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزّله مدبراً من السماء إلى الأرض ، ثم لايعمل به ولايصعد إليه ذلك المأمور به خالصاً كما يريده ويرتضيه إلافي مدة متطاولة لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لايوصف بالصعود إلاالخالص، ودلّ عليه قوله تعالى على اثره «قَليلاً مَاتَشكُرُونَ»

أويدبّر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الله، وهو ألف سنة كماقال : ﴿وَإنّ يَوماً عِندَ رَبِّكَ كَألفِ سَنَةٍ مِمّاتَعُدُونَ﴾ [٢٢/٤٧].

ثم يعرج إليه «أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدة مايرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود ، إلى أن تبلغ

المدة آخرها ، ثم يدبّر أيضاً ليوم آخر وهلمّ جراً إلى أن تقوم الساعةُ .

وقيل : ينزل الوحيُ مع جبرئيل عليه السلام من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردّه مع جبرئيل عليه السلام، وذلك في وقت هو بالحقيقة كألف سنة ، لأنّ المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود لأن مابين السماء والأرض مسيرة خمسمأة سنة ، وهو يومٌ من أيامكم لسرعة جبرئيل عليه السلام ، لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد ، وقيل : يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله، أي يصير إليه ليحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة – وهو يوم القيامة – .

* * *

واني أقول – والعلم عندالله – يحتمل أن يكون «الأمر» في قوله «يدَبرُ الأمر» إشارة إلى الروح الإنساني لقوله تعالى ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [١٧/٨٥] وذلك لمروره على مراتب الموجودات عند خروجه عن مقام الفطرة الأصلية ونزوله في العالم الأرضي بحسب الانسلاخ عن عالَمه الأعلى، ثم عروجه من هذا العالَم الأسفل بحسب العلم والعمل – إن ساعده التوفيق من الأزل – إلى مقامه الأصلي لقوله سبحانه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ [٩٥/٤-٦] .

وكون بدو وجود الروح الإنساني من عالَم القدس لاينافي قوله تعالى : ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [٣٢/٧] لأن الخلق لكونه بمعنى التقدير عبارة عن جسمية الإنسان وقالبه، وفطرة الروح غير فطرة البدن ، لأن بداية أحدهما من التراب وبداية الآخر من رب الأرباب ، ماللتراب ورب الأرباب .

تفصيل تنبيهي

إنما ذكرناه من مرور الحقيقة الإنسانية والفطرة الآدمية على جميع العوالم والنشآت، واستجماعها لجميع الحقائق من أعلى سماء عالم القدس إلى أسفل أرض التجسّم شيء استبشعه ذوق أرباب العلوم الرسمية، لعدم انطباقه على ملفقات أفكارهم القياسية، و أما أرباب الحكمة المتعالية والناظرون بعقولهم المستفادة من الحق وعيونهم المكحلة بنور التوحيد في الأسباب الأول والغايات الأخيرة لموضوعات علومهم ومعارفهم، فهم عارفون بأن علة الشيء كما أنها مقوم وجوده، فهي مقوم حده الحقيقي، وأن «ماهو» «ولِم هو» أمر واحد في كل وجود صوري يحتمل البقاء الأبدي إذ المجعول عندهم نحو وجود المعلول بالجعل البسيط، وهو عين هويته الخارجية التي هي وجه من وجوه علته الجاعلة، والعلة الجاعلة تمام حقيقة المعلول وصورته العقلية.

ثم إن كل موجود من الموجودات الكائنة في هذا العالَم لطور واحد من الأطوار لايتمدّاه، إلا الهوية الإنسانية، فإن لها قابلية الإرتقاء من أسفل الأسافل إلى أعلى الأعالي.

وهذا أيضاً يختص ببعض أفراد الإنسان المسافر إلى ربه في تمام القوس الصعودية من دائرة الوجوب، دون غيره الذي لايكون لههذه السعة من القابلية. وإن قطع في سيره الضعيف مقداراً قليلا من تلك القوس النصفية الصعودية منها كباقي الحيوانات، بل ربما يكون أضل سبيلا وأضيق مجالا منها كما نطق به التنزيل.

والسر في هذا أن مواطن أفراد الإنسان ومعاد كل صنف منه إلى ماهو مبدء وجوده إن لم يمنعه عائق خارجي- فرُب إنسان يكون الحق علة وجوده ومباشر تكوينه بيديه فيكون إليه معاده كما منه بدؤه، ورُب إنسان يكون مبدء وجوده القريب أحد المبادي النازلة التي تكون في أخير المراتب.

بل ربما يكون وجوده بمدخلية بعض الشياطين، الذين هم من عمار عالم الشر والوسواس، فيكون مثل هذا الإنسان الممسوس بنار الشيطان راجعاً إلى أصله الذي

نشأمنه، فيحترق بالنار التي هي أصل وجوده، مثل هذا الأشرار، فكم بين من باشر الحق تسويةَ وجوده وتعديله وجمعه بين يديه المقدسين ثم نفخ بنفسه فيه من روحه نفخاً استلزم معرفة الأسماء كلها وسجود الملائكة له أجمعين واجلاسه مرتبة الخلافة والنيابة عنه في الكون، وبين من خلقَه بيده الواحدة أو بواسطة ماشاء من الوسائط الوجودية الواقعة في سلسلة البدو، فلم يقبل من حكمي السوية والتعديل ماقبله من اختير واصطفى للخلافة .

* * *

وهذا الذي ذكرناه من تفاوت خلقة الإنسان بحسب الفطرة الأصلية ممايستفاد من الأحاديث الكثيرة المختلفة الفحوى في الاخبار عن كيفية بدؤ الإنسان ، وبه أيضاً يحصل التوفيق بين الجميع ، لأن اختلاف المعاليل و المسببات في الحقيقة مما يستدعي اختلاف الأسباب والعلل، فإن الذي ينفخ فيه الروح وهو الملك بالإذن ـ كما يدل عليه بعض الاخبار ـ كيف يكون مساوياً في الحقيقة لمن باشر الحقُ انشائه بيده

فانظر فيما روي عنه ﷺ إنه قال[1] : يجمع خَلْق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين يوماً علقة ، ثم أربعين يوماً مضغة ، ثم يؤمر الملك فينفخ فيه الروح . فيقول : يارب أذكر أم انثى ؟ أشقيٌ أم سعيد ؟ مارزقُه ؟ وما أجَلُه ؟ ما عمَلُه؟ فالحق يملي، والمَلك يكتبُ .

فأين هذا من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٣٨/٧٢] وشتّان مابينهما ؟ إذ هاهنا أضاف المباشرة إلى نفسه بضمير الإفراد الرافع للاحتمال ، ولذلك فرّع بذلك من أبى و استكبر عن السجود له ولعنه و طرده ، وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [٣٨/٧٥] .

(١) جاء ما يقرب منه في المسند: ١/٣٨٢ و٤١٤ والترمذي: ٤/٤٤٦ وروى ما يشبهه عن الصادق (ع) راجع الكافي: ٦/١٣.

وأكّد ذلك ﷺ بأمور كثيرة روي عنه ، منها قوله: [1]«إن الله خلق آدم على صورته»أو«على صورة الرحمان» ولقوله«إن الله إذا خلق خلقاً للخلافة مسح بيمينه على ناصيته» [2] فنبّه على مزيد الاهتمام والتخصيص قوله ﷺ : « لاتسبّوا علياً فإنه ممسوسٌ بنور الله » [3] فكيف يكون الممسوس بنور الله كالممسوس بنار الشيطان ؟

وفي حديث آخرعنه ﷺ [4] إن الذي باشرالحقّ سبحانه ايجاده أربعة أشياء ـ ثم سردَها فقال ـ: «خلَق جنةَعدنٍ بيده ، وكتَب التوراةَ بيده ، وغرسَ شجرةَ طوبى بيده ،وخلقَ آدمَ بيده ».

وقال أيضاً: «الإنسان أعجبُ موجود خلق» فافهم .

تبيين مقال لكشف حال

فلا يزال الإنسان الكامل مباشراً في ساير مراتب الاستيداع إلى أن ينزل إلى أسفل عالم الاجتماع ، فكان أولا متعيناً تعيّنه الخاص في علم الله ثم انفرز بإرادته تعالى وظهوره في مقام القلم الأعلى ، الذي هو العقل الأول المشتمل على عالم العقول ، ثم في مقام اللوحي النفسي ، ثم فيمرتبة الطبيعة باعتبار ظهور حكمه في الأجسام ، ثم في العرش المحدِد للجهات مستوى اسم الرحمان ، ثم في الكرسي الكريم مستوى اسم الرحيم ، ثم فيالسموات السبع ، ثم في صورالعناصرالمتعلقة بهيولى العنصريات ، هذه غاية تدبير الأمر النازل من سماه العقل الأول الأعلى إلى أرض الهيولى السفلى ، التي هي محض القوة و العدم ، المشار إليها بقوله

---

(١) البحار: ٤/١٢، البخاري: ٦٢/٨، المسند: ٢٤٤/٢.

(٢) الجامع الصغير: باب الالف: ٦٧/١.

(٣) في المناقب لابن شهر آشوب (٢٢١/٣) عن النبي (صلّى الله عليه وآله): «لا تسبّوا علياً فإنه ممسوس في ذات الله».

(٤) ما يقرب منه في الدر المنثور: ٣٢١/٤.

تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [٧٦/١] .

ثم شرع في الصعود والارتقاء إلى مانزل منه والرجوع إلى ما بدأ منه ، فصار بالامتزاج و حصول المزاج طيناً ثم منياً فيه صورة حافظة للتركيب كالمعادن ، ثم صار مضغة قابلة للنمو كالنبات ، ثم صار علقة قابلة لأن يلجه الروح ، ثم صاربشراً سميعاً بصيراً ، ثم رجلا بالغاً انفتح بصره قليلا إلى ما وراء هذا العالم ، كما قال سبحانه ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٧٦/ ٢ - ٣] وهلم إلى أن يبلغ درجة العقول ، بل العقل الأعظم والقلم الأعلى ، لولم يعقه العوائق وقواطع الطريق .

وأما كون زمان هذا الصعود ومدة هذا الارتقاء يوماً كان مقداره ألف سنة فهو شيء لايعلمه بخصوصه إلا علام الغيوب ، أومن اصطفاه من رسوله ، أو من ينتمي إلى وصيه ، فإن مكث الإنسان في كل عالم وحضرة يمر عليها بحسب طول مسافة سفره وتهيئة أسباب ارتحاله وانتفاع كل عالم من وجوده ، واستتمام أهل كل نشأة ومرتبة به وبخدمته ، وإمداده وحسن تلقّيه أولا ومشايعته ثانياً ، هو بحسب مايدر كونه فيه من شيمة العناية وأثر الاختصاص وشرف الاصطفاء ، ومامن عالم يمرّ عليه إلاوهو بصدد التعويق في الانحراف المعنوي لغلبة صفة بعض الأرواح يتصل حكمه عليه ، أوبعض الأفلاك الذي ينوط به طالع ولادته البدنية ، أوبحسب دولة بعض الأسماء الإلهية المدبّر له . الذي هو طالعه الأسمائي قبل طالعه السمائي ، فيعوق أو ينحرف عما يقتضيه حكم الإعتدال الجمعي الاستقامي الذي هو شأن من يختار النهاية من الأنبياء والأولياء ﷺ ، ثم الأمثل فالأمثل .

فإذا دخل عالَم المولدات سيما من حين تعدى مرتبة المعدن إلى مرتبة النبات وعالَمه إن لم تصحبه العناية بحسن المعونة والمرافقة والحراسة والرعاية حيف عليه فإنه بصدد آفات كثيرة ، لأنه عند دخوله عالم النبات إن لم يكن محروسا معتناً به فقد ينجذب في بعض المناسبات التي يشتمل عليها جمعينه إلى نبات رديء لايأكله حيوان ولا يأكله الأبوان أو أحدهما ، ويفسد ذلك النبات فيخرج منه إلى عالم

العناصر ، و يبقى فيه حائراً عاجزاً حتى يعان ويتدارك بلطف جديد ؛ ويؤذن له في الدخول مرة أُخرى بعد دخوله واتصاله بنبات صالح للتغذي، فربما عرضت له آفة من العناصرمن برد شديد أو حرّمفرط أو رطوبة زائدة أو يبس بالغ ، فيتلف ويخرج يستأنف دخولا آخر هكذا مراراً شتي حسب ماشاء الله وقدّر .

ثم على تقدير سلامته مماذكرناه بسبب الرعاية والحراسة وباقي النعم التي يستدعيها استحقاقه ، ربما تّم في صورةنبات لكن تناولّه حيوان ولم يقدر للأبوين أكلَه او أكل ذلك الحيوان لمانع من الموانع لما لميكن رزق الذين سبق في علم الله أن يكونا أبويه ، وإذاقدر مواطاة كلما ذكرنا و تناوله الشخصان المعينان في العلم أن يكونا أبويهأوأحدهما ،وصار ذلك النبات كيلوساً ثمدماًثم منياً، فإنه قد يخرج على غير الوجه الذي يقتضي تكوينه فهو مفتقرٌ إلى نعمة الحراسة والرعاية في كل مرتبة وحال إلى حال مسقط النطفة مدخلاكريماً وحال انفصاله ونزوله عن الوالدة منزلا مباركاً ، فإن لمسقط النطفة ومَسقط الرأس في أمر الانسان الكامل الجامع للاسماء مدخلا عظيماً من حيث ظاهره وباطنه .

وجملة القول إنه ما من مرتبة من هذه المراتب التي ذكرت ولم تذكر إلا و يتصور للإنسان تعوقات عمّا بصدده من السلوك إلى عالم الربوبية بحسب أُمور شتّى، من عدم توافق الأسباب الأرضية ، وعدم اجتماع المعاونات الفلكية علىوضع يؤدى إلي وجود مثل هذا الإنسان الذي يستحق الإرتقاء إليه تعالى ، وقطع القوس الصعودية تماماً ، أو الحِكَم والمصالح التي يترتب على مكنته في كل مرتبة وعالم التي يعلمها علام الغيوب ، حتى يخلص من الجميع ويصعد إلى الله في الترقي من مقام إلى مقام ، ومن عالَم إلي عالم ، بأن يترقى من مقام الطبايع إلى مقام المعادن بالاعتدال، ثم إلىمقام النبات ، ثم إلىالحيوان، ثم إلىالانسان في مدارجالانتقالات المترتبة بعضها فوق بعض ، ثم في منازل السلوك كالانتباه و اليقظة والتوبة والانابة إلى آخر ماأشار إليه أهل السلوك من منازل النفس ومناهل القلب ، ثم في مراتب

الفناء في الأفعال والصفات إلى الفناء في الذات بما لايحصى كثرة .

* * *

ثم اعلم إنه ليس في قوله تعالى : « ثُمَّ يَعرُجُ إِلَيهِ فِي يَومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَة » نص صريح على أن كل روح من الأرواح المقدسة لابد وأن يكون مدة مكثه نزولا وصعوداً مابين البدو والإنتهاء هذا المقدار، بل يحتمل أن يكون بعضها هكذا وبعضها يقطع المسافة العروجية في أقل مدة يتصور ، لأن ذلك يتفاوت في الناس بحسب مراتب جواهر أرواحهم ، لطافة وكثافة ، ومراتب توافق المعاونات والمعدات كثرة وقلة ، وتطابق الأوضاع للطالع السماوي ومقتضيات الطالع الأسمائي من حيث توجه الحق إليه شدة وضعفاً بحسب ضرب من اعداد من الأسماء التي يقتضي سرعة العود لمظهرها إليها أو أقل منهـا أو بخلافها ، فرُب إنسان يقول : الآن في أذني قول الحق في الأزل : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُم » وذلك لقلّة الحجاب وشدة الصفاء في الفطرة .

كشف استفادي

لايبعد أن يكون اليوم المذكور المقدّر بألف سَنة من أيام الدنيا إشارة إلى آخر الأيام الأسبوعية الدنياوية التي ستّة منها مضتْ وانقضت قبل هذا اليوم الآخر المسمى بالجمعة ، وهي الستة التي كان كل واحد منها ميلاد واحد من الأنبياء العظام الستة ، الذين بهم وبمتابعتهم صعدت نفوس الشريفة الإنسانية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، وأما اليوم السابع وهو الذي للمحمديين من أولاده المعصومين صلام الله عليهم أجمعين ، ووراثه الراسخين في العلم ، الكاملين في العمل، القائمين بأمر الله ، المعلنين كلمةَ الحق ، المستحفظين دينّه إلى زمان ظهور المهدي عليه السلام ، الذي به يكون غاية ارتفاع نهار هذا اليوم ، وغايـة سطوع شمس الحقيقة في وسط سماء الاستقامة الحقيقية ، ومعدّل النهار الاعتدال الجمعي الكمالي ، فيه ظهور نور دين

التوحيد الإلهي ، وانفلات ظلام الشرك الإبليسي ، وانقماع الباطل الوهمي بالكلية، إذ به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وعند ذلك تقوم الساعة ، لأن وجود الدنيا مبنيٌّ على الحجاب والاحتجاب ، وحيث رفع النقاب وانقشع السحاب ، فلا وجود للامع السراب ، لشدة اشراق الحقيقة الموجبة لاضمحلال الرسوم والأطلال والسحب والظلال، اضمحلال الجَمِيد وذوبان الثلوج عند ارتفاع الشمس في رابعة النهار .

وأما اليوم المقدر بخمسين ألف سَنة في قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [٧٠/٤] فهو يوم من أيام الله تعالى العليّ بالذات ، ذي المعارج العلي التي يعرجونها أهل القيامة الكبرى إلى حضرته الذاتية ، وهي أيام السَّنة السرمدية من ابتداء الأزل إلى انتهاء الأبد ، وهو غير هذا اليوم ، لأنه يوم من أيام الرب ، المقدر بألف سنة الذي وقّت به التدبير . في قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ووقّت به العذاب وانجاز الوعد في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ وَعْدَهُ ﴾ [٢٢/٤٧] وهو اليوم الآخر من الاسبوع الذي هو مدة الدنيا ، المنتهية بنبوة خاتم الأنبيـاء صلوات الله عليه وظهور دينه وانتشار نوره الذي يكمل في آخر الزمان لقوله تعالى : ﴿ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ [٩/٣٢] وإن كان أول بعثته كان في آخر اليوم السادس ، وإلى هذا السابع أشار بقوله ﷺ : «إن استقامت امتي فلها يومٌ وإن لم تستقم فلها نصف يوم» مع قوله : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ، كما مر ذكره .

وبالجملة فهذا يوم من الأيام الألوهية، وهو مقدار اقتضاء الربوبية بظهور أسماء الله الغير المتناهية التي يندرج مع لاتناهيها في الأئمة السبعة ، وهي : الحيُّ، العالِمُ القادرُ ، السميعُ ، البصيرُ، المتكلمُ ، المريدُ . ولكل من هذه السبعة ربوبية مطلقة بالنسبة إلى ربوبيات الأسماء المندرجة تحته ، مقيدة بالنسبة إلى ربوبية كل واحد

من اخوانه إلى انتهائه بالتجلي الذاتي، وكما ان هذا اليوم المذكور سبع من أيام الدنيا، فمدة الدنيا سبع من ذلك اليوم الإلهي، الحاصل من ضرب أيام الدنيا في عدد أسماء الربوبية، وهو تسعة وأربعين سنة، وآخره الخميس (الخمسين ـ ن) الذي هو يوم واحد من أيام الله وهو يوم القيامة الكبرى، والله أعلم بحقائق الأمور .

تنوير تمثيلي

اعلم إن الله تعالى وضع العالَم على هيئة مدينة كاملة، فيها مساجد وبِيَع وصلَوات، ولأهل الدين فيها مجالس ومجامع وجُمعات وأعياد، وكما ان للمدينة صنّاع وعمّال لهم أُجرة وأرزاق، وفيها بيّع وتجار يتعاملون بموازين ومكائيل، ولهم مظالم وخصومات، ولهم فيها قُضاة وحكام وعُدول، ولهم فقه وأحكام وفصول، وإن من سُنّة القضاة والحكام البروز والجلوس لفصل القضاء في كل سبعة أيام يوم واحد، فهكذا يجري حكم القضاء الإلهي في كل سبعة الف سنة مرة، لعرض النفوس الجزئية لدى الملك الحق المبين، لفصل القضاء بينها ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [٢١/٤٧] .

و روي عن النبي ﷺ انه قال: **عُمْر الدنيا سبعة آلاف سنة بعثتُ في آخرها الفا**[١] .

وقال: **لانبي بعدي على هذه الأمة** .

يقوم القيامة وهو يوم العرض الثاني، كما ان يوم العرض الأول ما أشار تعالى إليه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [٧/١٧٢] وبين اليومين سبعة أيام، كل يوم كألف سنة مما تعدّون .

---

(١) الجامع الصغير: ١٧/٢.

قوله سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾

ذلك المدبر عالِمٌ يكون علمه عين ايجاده للأشياء على أحكم وجه وأتقنه، وايجاده للأشياء على أبلغ النظام والإحكام عين علمه وتدبيره ، فيكون غيبه شهادة وشهادته غيباً وهو العزيزفي غاية العظمة والكبرياء، لبراءة ذاته عن وَصْمة الحدوث والإمكان وعن شوب الاشتراك والمماثلة مع الماهيات ، الرحيم الذي يصل نور فيضه وأثر جوده إلى كل عال وسافل ، وقاصٍ ودان ، لكونه في العلو الأعلى من جهة الذات والوجود ، والدنوّ الأدنى من جهة الفيض والجود ، ولذا عقّبه بقوله : «أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ» فإن ذاته لما كان في غاية الجلالة والعظمة، وكان الموجودات كلها نتائج ذاته واشعة أنوار صفاته ، فيكون في غاية ما يمكن من الحسن والجمال والكمال ، ولأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة الإلهية ، وأوجبته العناية الأزلية، فيكون جميع المخلوقات حسنة في غاية الحسن المتصور في حقه ، وإن تفاوتت وانقسمت إلى حسَن وأحسن إذا قيس بعضُها إلى بعض ،كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [٩٥/٤] .

أما الشرور والآفات التي يتراأى في نظر المحجوبين ، فهي ليست شروراً بالحقيقة ، لأن الشر الحقيقي عدمٌ أو عدميٌ لاوجود له ، وأما الذي يؤدي إلى عدم ذات أو عدم كمال الذات مما يسمى باسم الشر مجازاً فهو إنما خلِق لأجل النفع في أشياء أُخر ، لايهملها خالق القضاء والقدر ، وما يُعد شراًفي تركه شرٌ أكثربكثير منه ، وهوأيضاً لايوجد إلافي جزء من وجه الأرض ، وهي حقيرةٌ بالقياس إلى سماء الدنياءالخالية عن هذه الآفات مع حقارتها بالنسبة إلى جملة السموات المقهورة ،

المطموسة تحت أشعة الأنوار القادسات والقاهرات، الأسيرة كلها في قبضة الرحمن، ولا نسبة لعالم الامكان الذي هو مثار القصور والنقصان إلى جناب الكبرياء الباهر برهانه على الضياء .

فقد لاحَ أن الوجود كله على أحسن ما يتصور من الحسن والنظام، ولنا براهين نيّرة على هذا المطلب أوردناها في مواضع من كتبنا على وجه البسط والتحقيق، من أراد الوقوف عليها فليطلب من هناك ، والله ولي التوفيق .

وقيل: معنى «أحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَه» عَلِمَ كيف يخلقه ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : قيمة كل امرء ما يحسنه .[1] وحقيقته: يحسن معرفته، أي يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان . وقرئ « خَلْقه » على البدل ، أى أحسن خلق كل شيء . و«خلَقه» على الوصف ، أي كل شيء خلقه فقد أحسنه .

قوله سبحانه :

وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

لما وصف خلقه بالحُسن ولاريب في أن حسْن النظام بترتب الغاية المطلوبة منه ، وغاية ايجاد العالم ـ كما بيّن ـ ذاته تعالى معروفاً ومعلوماً كما دل عليه الحديث القدسي من قوله تعالى : (**كنت كنزاً مخفياً فاحببت ان أعرف فخلقت الخلق لأعرف**) وحامل معرفة الله من جملة الأكوان الحادثة هو الروح الإنسانية التي هي نور من أنوار الله الفائضة على اللطيفة القلبية ، وسره الواردة من أمر «كُن» على عرش

(١) نهج البلاغة: الحكم، رقم ٨١.

الجسم البخاري القلبي ، المشابه للجرم السماوي المنعوت بقوله تعالى: «وَهِيَ دُخَانٌ» [١١/٤١] فأراد أن يشير عقيب ذكـر إحسان خلق كل شيء إلى كيفية خلقة الإنسان الذي هو الثمرة لوجود الخلائق .

ثـم لمـا كانت حقيقة الإنسان ذات جهتين ، مركبة من أصلين هما خلاصة العالمين : بدنٌ هـو صفوة الأجسام العنصرية ، وروح هي صفوة الأرواح ـ كما أن العالم بتمامه منقسم إلى غيب وشهادة ـ كـذلك الإنسان الذي هـو على صورة العالَم عالمٌ صغير مشتمل على غيب وشهادة، أي روح وجسم، فأشار إلى أصل تكوّن كل منهما وقدّم بيان نشوء البدن على بيان نشوء الروح ، لكونه أظهر وجوداً وأجلى معرفة على المتوطنين في دار المحسوسات ، فقـال مشيراً إلى انشاء البدن : «وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَانِ مِن طِينٍ» هذا بحسب أصل خلقته الحدوثية في أول شخص وجد كآدم عليه السلام فإنه كان إنساناً تولد من غير مادة باقية من شخص آخر أو شخصين ، استعدت لوجود ذلك الإنسان استعداداً قريباً .

ثم قال: «وَجَعَلَ نَسْلَهُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ» ، وهذا بحسب وجوده البقائي التوالدي، الحاصل من بقية أصل بدني، كان جزء من بدن مماثل للبدن اللاحق المسمى بالنسل، أي الذرية، وإنما سميت ذرية الإنسان نسلاً له ، لأنها تنسل منه أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ، ونحوه قولهم للولد «سليل» و«نجل» .

وقال مشيراً إلى انشاء الروح وإبداعها « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ» ونعم ما قال الزمخشري من قوله : ودلّ بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو، كقوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٨٥/١٧] .

* * *

واعلم إن الخطب في الروح عظيم والكلام فيه طويل، قلّ من الحكماء من حصّل معناه ، وقلّ من النظار من بلغ إلى فحواه ، وليس هذا الروح المذكور في هذا الموضع ما أثبته الأطباء وهو الجرم الشبيه بالأجرام السماوية ، لصفائه واعتداله

وتوسطه بين الكيفيات المتقابلة التي هي من أوائل الملموسات، والأطراف المتضادة والتوسط بين الكيفيات المتقابلات بمنزلة الخلوّ عنها .

وليس المراد منه ما سماه الحكماء « النفس الناطقة » التي هي جوهر مدبّر للبدن ، مرتبتها مرتبة العقل الهيولاني ولها استعداد الترقي إلى مقام الروح الإلهي الذي هو من أمر الله ، وكل ماكان من أمر الله وعالم جبروته وقاهريته فشأنه التأثير في الأشياء بالقهر والابداع من غير انفعال واستكمال بما تحته، فكيف يكون منفعلا عن البدن ويكون الحاصل منه ومن المادة البدنية نوعاً طبيعياً ذا مادة وصورة ،له تركيب اتحادي بينهما ،كما هو شأن النفس ، والنفس إذا أثرت في شيء ما اثرت إلا بتأييد هذا الروح المسمى عند بعضهم بالعقل الفعال .

وإليه أشار النبي (ص) في قوله : «إن الله تبارك وتعالى خلَق العقل من نور مخزون مكنون في سابق علمه الذي لم يطلع عليه نبيٌ مرسَل ولا ملك مقرب ، وهو أول ما خلق الله ، قال له : «أدبِرْ» فأدبَرَ. ثم قال له: «أقبِلْ» فأقبَلَ. فقال : «تكلَّمْ» فقال : الحمد لله الذي ليس له ضدٌ و لا نِدٌ ، ولا شبيهٌ ولا كفو ، ولا عديل ولا مِثْل ، الذي كل شيء لعظمته خاضع ذليل .

فقال الرب تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي ماخلقتُ خلقاً أحسن منك ، ولا أطوع لي منك ، ولا أرفع منك ، ولا أشرف منك ، ولا أعزّ منك ، بك أحيي وبك آخذ ، وبك أعطي وبك أوحّد، وبك أعبَد وبك أدعى، وبك أرتجي وبك أبتغى، وبك أخاف وبك أحذر ، وبك الثواب وبك العقاب .

فخرّ العقلُ عند ذلك ساجداً فكان في سجوده ألف عام ، فقال الرب تبارك وتعالى : ارفعْ رأسَك ، وسلْ تُعطَ ، واشفعْ تُشفع .

فرفعَ العقلُ رأسَه فقال : إلهي أسئلك أن تشفعني فيمن خلقتني فيه .

فقال الله جل جلاله : أشهدكم إني قد شفّعته فيمن أخلقه فيه».

وهذا الحديث متفق عليه بحسب الفحوى، وإن كانت العبارات مختلفة النقل،

واني اخترت هذا النقـل لكونه أمتن وأوثق ، وقد شرحتُ معنى الإدبار والإقبال المنسوبان إلى العقل الفعال في تفسيرنا لآية الكرسي بما لامزيد عليه ، وذكرنا هناك ان هذه الصفات كلها صادقة في حق النبي ﷺ بحسب المقام المحمود عند ربه .

اشارة

واعلم إن الروح البخاري الموضوع لمسائل علم الطب ، ظلٌ محاكٍ للروح الإلهي ، ومحل استوائه عليه ومعسكر لقواه وجنوده ، وهو أيضاً حاصل بعد تسوية العناصر وتعديلها وتوسطها في الكيفية بين الأطراف المتضادة ، كما ان هذا الروح الإلهي الذي هو موضوع لمعرفة الله و علم المعاد حاصل بعد تسوية الأخلاق وحصول العدالة والتوسط في الصفات الأربعة بين أطرافها المتقابلة ، فإن «العدالة» كيفية حاصلة من العفّة المتوسطة بين إفراط القوة الشهوية ـ المسماة بالفجور ـ وتفريطها ـ المسماة بالخمول ـ ومن الشجاعة المتوسطة بين إفراط القوة الغضبية وتفريطها ـ المسماتين بالتهوّر والجبن ـ ومن الحكمة المتوسطة بين طرفي القوة الإدراكية ، المسماتين بالجربزة والبلاهة .

والعدالة أيضاً متوسطة بين الظلم والانظلام ، الحاصلتين من إفراط بعض تلك القُوى وتفريطها .

ومعنى قوله ﷺ : « **العلم علمان ، علم الأبدان وعلم الأديان** »[1] إشارة إلى أن كمال الإنسان بحسب النشأتين منوط بإصلاح هذين الروحين ، إذ بمعرفة الطب والعمل بمقتضاها ينصلح الروح الذي بدء خلقه من طين ، لأن صفوة العناصر الغالب عليها الأرض ومرجعه إليها ، وبمعرفة العلم الإلهي والدين الرباني ينصلح حال الروح الذي هو من أمر الله و مرجعه إليه تعالى ، فباصلاح أحدهما

(١) بحار الانوار: ١/ ٢٢٠.

وتعديله ينصلح أمر المعاش في الدنيا، وبإصلاح الآخرة ينصلح أمر المعاد في الآخرة، والأحوط عند الأكياس ترجيح صلاح المعاد على صلاح المعاش، وعيش الآخرة على عيش الدنيا ، بل « لا عيش إلا عيش الآخرة » كما ورد في الحديث[1] ، وعليه الأنبياء والأولياء والصديقين سلام الله عليهم أجمعين .

تنبيهٌ فرقانيٌ

اعلم إن أكثر الألفاظ الواردة في الكتاب الإلهي كسائر الألفاظ الموضوعة للحقائق الكلية مجملة ، يطلق تارة ويراد به الظاهر المحسوس ، ويطلق تارة ويراد به سره وحقيقته وباطنه ، وتارة يطلق ويراد به سر سره وحقيقته وباطن باطنه .

وذلك لأن أُصول العوالم والنشآت ثلاثة : الدنيا و الآخرة وعالم الإلهية ، وكلها متطابقة ، و كل مايوجد في أحد من هذه العوالم يوجد في الأخيرين على وجه يناسب كل موجود لما في عالمه الخاصّ به .

فالروح مثلا كما يطلق على الجسم البخاري، يطلق أيضاً علي النفس الحيوانية أو الإنسانية ، ويشترك جميع أفراد الإنسان في الأول والثاني ، وكذلك يطلق على الروح الإلهي الذي هو محل استواء الرحمان بلا واسطة ومحل نفخه وفيضه ، وله الخلافة الكبرى من الحق والسلطنة العظمى نيابة عنه تعالى .

فمن تلك الألفاظ : السمع والبصر والفؤاد ، فإن هذه الثلاثة ربما يراد بها الأعضاء الثلاثة ، كالأذُن الغضروفي ، والعين الشحمي، والقلب اللحمي ، ومايتعلق بها من الأعصاب والأرواح التي كلها من عالَم الخلق والتقدير وعالَم الشهادة والحس، وربمايراد بها القوة السمعية المدركة للأصوات والألفاظ والنغمات، والقوة البصرية المدركة للاضواء والألوان، والقوة القلبية المدركة للمفهومات وأوائل المعقولات والمسلّمات المقبولات ، وتارة يراد بالسمع سماع المواعظ والحِكَم القرآنية ،

---

(١) البخاري: باب ما جاء في الرقائق: ١٠٩/٨.

والآيات الإلهية ، وبالبصر مشاهدة أولياء الله وأحبائهم ومعارفهم وتصديق حالهم ، وبالفؤاد الروح القدسي الواصل إلى الله تعالى بنور العرفان .

وهذه المعاني الأخيرة مما لاشتراك لجميع الناس فيه ، بل يختص بالمقرّبين، وكذلك معانيها المتوسطة ممالايشترك الجميع فيه إلا أنها أشمل وجوداً من الأخيرة، بل يختصّ بالمتوسطين من الناس ، وهم أصحاب اليمين وأهل السعادة العملية ، الفائزون بنعيم الآخرة بميراث عملهم ، إن لم يكن أعمالهم مشوشة مغشوشة بالجهل المركّب و الاستبداد بالرأي ، و الخروج عن صفوِ الاستعداد المطلق بالأكدار الاعتقادية الباطلة الوهمية في أحوال المبدء والمعاد .

فإذا علمت هذا فاعلم إن قوله « وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلأَبْصَارَ» لما وقع في معرض الامتنان وإظهار الإحسان ، فالظاهر ان المراد بالسمع والبصر هيهنا مايختصّ بأحباء الله والمتألّهين والمقربين ، لا المبعدين الناكرين ممن ليس لهم نصيب من القرآن ، وهم عن السمع لمعزولون ﴿وَلَوعَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَو أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٨/٢٣] ولا من الذين كانوا عمي القلب عن مشاهدة الحقائق كأبي لهب وأبي جهل و نظرائهما في الجهل والعمى والصم عن مشاهدة آيات الله وسماع ذكر الحبيب .

ولو كان لفظ السمع والبصر والقلب أينما وقع في القرآن كان المراد منه ما وقع فيه الاشتراك لجميع الناس من هذه المشاعر الحسية الدنياوية لما سلب الله سبحانه معانيها عن أهل الكفر والجهل بقوله ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ﴾ [٢/١٧١] مع وجود هذه الآلات فيهم ، وكذا قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلانْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا أُولٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [٧/١٧٩] لعدم انتفاعهم بهذه الآلات بصرفها فيما خلقت لأجله ليزيدهم بسبب شكر هذه النعم الدنياوية نعمة بواطن هذه المشاعر وحقائقها ، أو لعدم نصيبهم عن تلك النعم الباطنية وزوال استعدادهم واستحقاقهم لها

كما لانصيب للأنعام منها،وإنماهم أضلّ لبطلان استعدادهم بالمسخ والطمس لعدم الشكرمنهم لله على هذه النعم و العمل بخلاف ما أُعطيت له .

و في قوله : ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ إشارة لطيفة إلى أن هذه الظواهر نعمٌ جليلة يجب الشكرعليها ، ليصل إلىمقام أسرارها وحقائقها .

و قوله : « جَعَلَ لَكُم ٱلسَّمْعَ وَ ٱلأَبْصَارَ » وإن كان ظاهره مشعراً بعموم هذه العطية ، إلاأن الواقع في معرض الامتنان والإحسان ليس إلا مايختصّ بالقليل النادر من الناس من بواطن هذه الظواهروغيوب هذه الشواهد ، لأن قوالب هذه الآلات بمجردها ليست من الأمور الشريفة الباقية الأخروية حتى يلائم ذكرها بعد ذكر الروح الأمري الحاصل بالنفخ الإلهي وعدّها في معرض ذكرالأفعال الإلهية و بعد ذكرعظائم الأمورالصادرة من الحق سبحانه .

ومن الدلائل القاطعة علىأن اهل الحجاب الكثيف وأصحاب التجسم والبُعد عن عالمالملكوت محرومين عنالنظرإلىآيات الله وشهود أهل الله ، معوجودهذه الباصرة الدنياوية قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبصِرُونَ﴾[١٩٨/٧] أي ينظرون إليك منحيث بشريتك ولايبصرونك منحيث نبوتك ، فإنهم لايرون منأولياءالله وأحبائه ومحبوبيه إلاالبشرية المحسوسة ، وليس لهم اطلاع علىأعيان الآخرة وأهل القرابة الإلهية ، ولذلك حكى الله عن نكرهم وجهلهم وإنكارهم واستنكارهم لوجود الأنبياء بقوله: ﴿قَالُوا مَاأَنتُمْ إِلَّابَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [١٥/٣٦] وبقوله ﴿إِنْ أَنتمإِلابَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[١٠/١٤] .

وإن سئلت الحقفليس معنى الكفر إلاهذه النُكرة ، والاحتجاب بهذه الحيوة الدنياوية ، والالتباس بهذهالحواس الحسية ، والإنسان مالميتجرد منهذهالغشاوات والأسبال (الاسبابـن) لم يخرج إلى فضاء الايمان ومعارفة أهل الايقان وأصحاب المشاهدة والعيان ، فكن أحدالرجلين: إما سميعاًبصيراً بالسمع والبصر الأخرويين عارفاً بحقائق الأمورُ شاهداً بحال أولياء الله تعالى ، و إما مقلداً متشبثاً بذيل قائد

يسمع آيات الله بسماع عقلي ويرى ملكوت السموات والأرض ببصيرة كشفية، فتكون بصيراً ببصره وسميعاً بسمعه ماشياً بمشيه، كقول النبي (ص) [١] «صلّوا كما رأيتموني أصلي» ولو قال: «صلّوا كصلوتي» مَن الذى قدر على مثل صلوته، فإنه ﷺ كان يصلي وفي قلبه ازيز كازيز المرجل [٢] لهيبة الحضور مع الرب سبحانه ودهشته مشاهدة ملكوته.

فالرجل الأول حيٌّ بالذات حيوة طيبة، والثاني حيٌّ بالعرَض كشَعر الحيوان وعَظمه وظلفه [٣].

قوله سبحانه:

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

قالوا ـ أي منكروا البَعث والحشر، وقيل: القائلُ أُبيّ بن خلف، ولرضاهم بقوله اُسند إليهم جميعاً.

أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ، أي غِبنا فيها وصرنا تراباً محضاً، أوذهبنا مختلطين بتراب الأرض لاتتميّز منه كما يضل الماء في اللبن، فإن كـل شيء غلب عليه غيره حتى يغيب فيه فقد ضلّ، وقيل معناه: غبنا في الأرض بالدفن فيها، من قول الشاعر: [٤]

(١) بحار الانوار: ٦٢/١ و١١٠/٨، ١٠٧/٩. المسند: ٥٣/٥.

(٢) المسند: ٢٥/٤ و٢٦.

(٣) في النسخة المطبوعة +: وإليه أشار بما روى عنه صلّى الله عليه وآله: أنا وإياكم كراعي غنم.

(٤) البيت للنابغة الذبياني يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني:

فإن تحي لا أمـلك حياتي وإن تمت ... فما في حياة بعد موتك طائـل

فآب مضـلّوه بعـين جلية ... وغـودر بالجـولان حزم ونـائـل ←

و آب مضلوه بعين جلية وغودر في الجولان حزم ونائل

وعن قتادة ومجاهد: إن معنى «ضللنا»: «هلكنا».

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، «ضلِلنا» ـ بكسر اللام ـ يقال: ضل يضِل وضل يضَل.

وقرء الحسن: «صللنا» من: صل اللحم وأصلّ إذا انتن، وربما يقال في معناه صرنا من جنس «الصلة» وهي الأرض.

«أئِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» استفهام انكاري لغاية كونه مستبعداً، بل مستحيلاً عندهم، أي أنحن أحياء مبعوثون بعد الفساد والاضمحلال؟ فالظرف في: «أاذا ضللنا» متعلق بما يدل عليه «أإنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» من نُحيى أو نُبعث أو نُخلق مجددين.

بَل هُمْ بِلقاءِ رَبِهم كَافِرُونَ: أي انكارهم للوعد والوعيد والثواب والعقاب، وكفرهم بجميع ذلك إنما نشأ من كفرهم بلقاء ربهم وجحودهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وآله، وتكذيبهم لأصل النبوة، و إلا فبعد تصحيح أصل التوحيد والرسالة لم يبق لإنكار ما يخبر به المخبر الصادق مجال، نعم ينبغي أن يزال ظاهره عن الاستحالة والامتناع وهو كذلك كما يظهر عند التأمل.

هذا ما سنح لهذا العبد، وظني أنه أولى مما ذكر في الكشاف بعد ما جعل معنى «لقاء ربهم» الوصول إلى العاقبة، أي تلقي ملك الموت وماوراته، وهو انه لما ذكر كفرهم بالإنشاء، أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر، وهو أنهم كافرون بجميع مايكون في العاقبة لا بالإنشاء وحده، ألا ترى كيف خوطبوا بتوفي ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء.

يريد بمضليه: دافنيه حين مات. وقوله: «بعين جلية» أي بخبر صادق إنه مات. والجولان: موضع بالشام. أي دفن بدفن النعمان الحزم والعطاء. (لسان العرب ـ ضلل).

حكمة قرآنية

اعلم إن علم المعاد من أعظم أمهات الايمان وأصوله وأشرف الحكمة المتعالية وفصولها ، قلّ من الحكماء من لم يزلّ قدمه في سلوك طريقه . وندر من العلماء من بلغ فهمه إلى درك تحقيقه ، و خاض في لجة بحر تعميقه ، الناس في الاعتقاد بهذه المسألة بين مقلد محض وجاحد صرف ، كم من مجتهد في سائر المسائل إذا وصل هيهنا حمل قلادة التقليد على عنقه طاعة للشرع المبين ،وكم من باحث يسلم سائر المقدمات الايمانية ويقبل بفهمه جُلّ الأصول الاعتقادية متى استعرضت هذه المسئلة على طبعه الوقّاد جحدو أنكرو نهج طريق الغواية ، وانحرف عن جادة الحق واليقين ولأمر ما وقع التكرار والتكثار في القرآن المجيد لبيانها ودفع الإنكار والاستنكار عن الخصوم بطرق كثيرة لتبيانها ، والاهتمام لتحريرها وتقريرها أزيد من غيرها، وذكر جحود الجاحدين فيها أكثر من ذكر جحودهم في غيرها .

وإني لم أر احداً من الفضلاء عنده خبر تحقيق في هذا المرام ، الذي هو قرة عيون الكرام، و لا وجدتُ في كلام أحد من فحول علماء الإسلام من السابقين واللاحقين ما كان فيه شفاء لعليل هذا الداء العضال التي عيّت أطباء القلوب من الحكماء العظام، أو يكون به رواء غليل في حل هذا الإشكال التي همت داهيته الخاصّ والعامّ، وقليل من فحول أساطين الحكماء الربانيين من حقق علم المعاد الجسماني على النهج اليقيني و الطمأنينة البرهانية و السكون العرفاني ، لان المقدمات الحسية الدنياوية لاتنتج النتيجة الأخروية ، و القضايا الدائمة العقلية لاتستوجب المطلوب المثالي ، فكيف يجد الإنسان الطريق إلى مثل هذا المطلوب الذي هو أحد عمودي الاعتقاد ، وهما علم المبدء وعلم المعاد ؟

والحكماء كأبي على سينا ومن في طبقته وإن بلغوا في تقديس المبدء وتنزيهه عما لايجوز عليه من المثل والشبه والنظير إلى ما بلغوا ، ووصلوا في توحيده تعالى

عن شوب الاثنينية والتركيب العيني والذهني والاعتباري والتحليلي ، وعن وصمة القصور والإمكان العقلي إلى ماوصلوا ، لكنهم قد قصّروا بأسرهم في علم المعاد، وقد اعترفوا عن آخرهم بالعجز والقصور عن الاطلاع والعثور على أحوال الآخرة ونشأة القبور وحالة النشور . وكان هذا المقصود ممالايمكن الوصول إليه والإطلاع عليه إلابنور متابعة أفضل الأنبياء ﷺ ، و الاقتباس من مشكاة نبوته و الاستضاءة بنور أوليائه وأتباعه والاقتداء بهداهم .

لمعة إلهية لازاحة ظلمة شيطانية

إن ماحكى الله سبحانه عن الكفار بقوله : « ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» إشارة إلى أعظم شبهة يتمسك بها الجاحدون للمعاد ، و أقوى ريبة يتشبث بها المنكرون للبعث يوم التناد ، وقوله :«بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ » إشارة إلى أجلّ مايصلح للجواب وأعلى مايتصور في دفع الخطاب .

أما شرح تقرير الشبهة : فهو إن عمدة مايشوّش الذهن ويتبلّد الطبع في باب المعاد ، انه يلزم من إعادة الإنسان بعد موته إما إعادة المعدوم ـ وإن كان البدن المُعاد هو بعينه البدن الذي كان في الدنيا ـ وذلك أمر مستحيل عند العقل ، وإما أن يكون المُثاب و المُعاقَب غير الشخص الذي فعل الطاعة أو المعصية بحسب العدد ، فقوله «أإذَا ضَلَلنَا فِي ٱلأَرْضِ ـ الآية» أي عدمنا وصارت أجسامنا مستحيلة إلى التراب وزالت هويتنا الشخصية ، فعند ذلك يتجدد لنا وجود آخر ، و الوجود يساوق التشخص ، فكما أن شخصاً واحداً لايكون له تعيّنان وهويتان ، فكذا لايكون له وجودان ، وإلا لزم أن يكون الواحد إثنين ، وهذا بعينه هو ماحكى الله تعالى عن قول من يجحد الآخرة بقوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَانُ ءَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [١٩/٦٦] .

وأما تفسير الجواب وتوضيحه على وجه يندفع هذه الشبهة ونظائرها فهو مما يستدعي تمهيد مقدمة هي : إن جميع الموجودات العالَمية سيما الإنسان كائنة على وجه يتوجه نحو المبدء بحسب الجبلّة والفطرة ، وهو الدين الإلهي الفطري التي لايخلو

عنه طبيعة ولا جسم ولا عقل ولا نفس ولا سماء، ولا أرض ولا برّ ولا بحر ولا ملك ولا حيوان، إلا من غلب عليه الوهم من شياطين الإنس والجن، فجميع الموجودات متوجهة نحو المبدء جل شأنه طبعاً وإرادة لقوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [٤١/١١] إلا ان الإنسان الكامل ممن وصل في سيره الحثيث إلى المقصود الأصلي، والمحبوب الأول العلي ، وبلغ إلى الغاية التي يتوجه إليها بحسب فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ورجع وعاد إلى المبدء الذي فارقه و صدر عنه ، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [٧/٢٩-٣٠]﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [٢٢/ ١٨].

فإذا علمت هذا فاعلم أن هذه الحركة المعنوية الإنسانية من لدن كونه منيّاً وجنيناً إلى غاية كونه بالغا عاقلا ذكياً صبوراً شكوراً حكيماً ولياً ، وهلمّ إلى أن يصل إلى جوار الله وقربه ، لابد لها من موضوع باقٍ من أول الحركة إلى منتهاها ، وإلا لم يكن الشاب ما كان طفلا صغيراً بعينه ، ولا الذي سيكون شيخاً كبيراً، ومع ذلك فقد تبدل منه جميع ما كان له من مقداره و كيفه وأينه ووضعه ومتاه وانفعاله وفعله وجميع ما يقال له في عرف أهل النظر العوارض المشخصة .

فقد علم إن من ظنّ أن هذه الأمور مفيدة للتشخص ، أو هي بأعيانها مساوقة للشخصية، فقد أخطأ خطاء فاحشاً، بل أمثال هذه الأمور ما هي إلا أمارات لشخص واحد وآثار منسوبة إليه بوجه من الوجوه من غير علاقة لزومية بينها وبينه ، وإنما الهوية هي نحو وجوده الذي هو نصيبه من فيض الربوبية، ولكل وجود من الوجودات الفائضة عنه تعالى شئونات مختلفة متفاوتة في كثرة التطورات وقلّته، بحسب سعة قوته وبسط نشأته

والوجود في غير الإنسان من موجودات هذا العالَم ليس له إلا مجال ضيق من حد من النقص إلى حد من الكمال بحسب الدنيا كالبذر الذي يصير ثمرة ، كان انتقاله من حد الجمادية إلى حد النباتية ، او كنطفة الحيوان التي تصير حيواناً غير ناطق ، فإن سعة سيره ومسافة سفره من حد الجسمية إلى حد الحيوانية .

وأما وجود نوع الإنسان فهو أوسع مجالاً وأكثر آثاراً وأفعالاً ، وأرفع صعوداً إلى جهة العلو ، وأعظم قوساً من النصف الصعودي من دائرة الوجود الذي وقع فيه السفر إلى الله والتوجه إلى جنابه للموجودات العالمية ، و ذلك لأنه يرتحل في سيره الحثيث من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية الدائمة ، وينتقل في جوهره من نشأة إلى نشأة ثانية .

وهذا الارتحال والانتقال أمر عام فاش مشترك بين سائر أفراد الإنسان ، يستوي فيه الشقي والسعيد، فإن التوجه الفطري إلى الله تعالى لاينافي الشقاوة والكفر، لما ذكرنا ان الكل متوجهون إليه تعالى وإلى الدار الآخرة، لأن النفس الإنسانية منه تعالى بدؤها وإليه رجعاها ﴿ اِنَّ اِلَىٰ رَبِّكَ اَلرُّجْعَىٰ ﴾[٩٦/٨] ومن الله شروقها وغروبها، فهبطت إلى هذا القالب الفاني، وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب القالب من مغربها، وتعود إلى بارئها وخالقها، إلا ان نفوس السعداء شموسٌ زاهرة مشرقة غير محجوبة عن الحضرة الربوبية ، وان نفوس الأشقياء المردودين إلى أسفل السافلين مظلمة منكسفة ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليين، كما في قوله :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ اِذِ اَلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [٣٢/١٢] فبيّن أن نفوس الأشقياء أيضاً راجعة إلى ربهم متوجهة إليه فطرة كالسعداء فطرة وإرادة ، إلا إنهم لكراهة لقاء ربهم منكوسون منحوسون ، قد انقلبت وجوهُهم إلى أقفيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك لحكم الله وقضائه السابق فيمن حرمه توفيقه.

وأما تمام هذا السفر الجبلي والتوجه الفطري إلى الغاية الحقيقية والمقصود الأصلي فإنما يتأتي للكمّل والأفراد والأقطاب والأوتاد، الذين لأجلهم خلق العباد، وبهم رُزق الورى ولهم يمطر السماء، فهم الذين يرتقون بالمعراج المعنوي والميل الباطني الجبلي من حد الهيولانية والجسمية والنطفية إلى عالَم البشرية والفَلَكية والملكية، مارّاً على كل نفس وعقل، حتى بلغوا إلى الغاية القصوى والمقصد الأسنى، قاطعاً كلتي نصفي دائرة الوجود نزولاً وصعوداً إلى مجاورة الحق المعبود، مسافراً من هذا العالم

الفاني الهيولاني الذي وقع في صفّ نعال مجلس الإفاضة والخير والجود، منتهياً واصلا بقدمي العلم والعمل إلى كعبة المقصود، وفي جميع هذه المراتب والدرجات هو شخص واحد يتحفظ وحدته وشخصيته بفاعله وموجده ويبقى هويته العينية بنحو وجوده اللائق به ـ وإن تطور بهذه الأطوار وتشأن بهذه الشؤن .

* * *

فإذا تبين وتحقق لك هذا فاعلم إن قوله سبحانه «بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِهِمْ كَافِرُونَ» إشارة إلى ردشبهتهم وفكّ عقدتهم من وجوه :

الأول: التنبيه على قصورهم عن درك هذا التوجّه الفطري للعباد إلى عالَم الآخرة ولقاء ربهم في المعاد .

الثاني : التنبيه على فساد قولهم « إن الشخص المُعاد في المعاد غير الذي كان في الدنيا بحسب الشخصية والعدد مطلقاً» بل هذا ذاك بحسب الباطن والحقيقة، كما ان زيد الشاب هو بعينه زيد الطفل، وإن تبدلت جثّته وجميع أعراضه وصفاته، وذلك لأن تشخص الشيء بفاعله ومقوّمه ونحو وجوده الذي هو به هو ، لا ببدنه و أعراضه المتبدلة ، وإطلاق الشخص على الأعراض المكتنفة من باب تجوّز التسمية للشيء باسم سببه ، وزوال الأثر والعلامة لايستلزم زوال المؤثر المعلوم به ـ فتفطّن ـ .

والثالث : الإشعار بأن إنكار المعاد والجهل بوجود عالم آخر إليه رجعى العباد وفيه حشر الأجساد للحساب والميزان إنما نشأ للمغترين بعقولهم القاصرة، المحجوبين بفطانتهم البتراء وبصيرتهم الحولاء ، لعدم اهتدائهم بأن وجود الإنسان ووقوعه في هذا العالم أمر عارض له بعد خروجه عن فطرته الأصلية التجردية . ونزوله عن جنة آدم أبيه بجناية صدرت منه ، وكل من خرج من موطن ومعدن لأمر عارض لابدّ وأن يرجع إليه ولو بعد حين، مادام بقائه على فطرته الأصلية ، وعدم مسخه وطمسه

بالكلية ، وكما ان معادن النفوس مختلفة لقوله ﷺ[1] : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة » فكذلك غايات قصودهم ومراكز حركاتهم ونهايات أسفارهم كما أُشير إليه في قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [٢/٦٠] .

فالنفوس التي لا يكون بينها وبين الحق الأول واسطة ينجذب إلى جنابه طبعاً ،كما ينجذب إبرة من حديد إلى مغناطيس غيرمتناهي القوة ، وهذه النفوس هي العارفة بالله وصفاته وأفعاله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأما النفوس الصادرة عنه بواسطة الوسائط الفلكية أو النفسية أو العقلية أو البرازخ الجسمانية الجنانية أو الجهنمية ، فيقع لهم الانجذاب إلى معادنهم الأصلية لحكمة قضائية وقدرية ، وإليه أشارالشيخ عبدالله الأنصاري فيقوله : «إلهي تلطّفتَ لأوليائك فعرفوكَ ، ولوتلطفتَ لاعدائك لما جحدوكَ » .

فالنفوس التي لميكن بينها وبين الأول حجاب من عقل أو نفس أو دنياً أو آخرة ، فهم الذين يكونون في الصفّ الأول فيالقرب والعرفان بالوحي أو الإلهام أو المشاهدة ، لقوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [٥٦/١٠] وأما النفوس التي بينها وبينه حجاب وواسطة ، فإما أن يعرفوهـا من وراء حجاب أوحجب كالرسالة والإمامة ، لقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ [٤٢/٥١] فكل من هؤلاء له مرتبة معيّنة من الجنان ، ودرجة خاصة من مثوباتهم عن الرحمان ، وإما أن يجحدوا لقاء الله تعالى والدار الآخرة فلا محالة ليست درجتهـم فوق أن يصلوا إلى أدنى المنازل وأسفل السوافل ، وهي الجحيم التي هيحقيقة هذه الدنيا الفانية ، وصورة الطبيعة التيهي الحطمة الكبرى وستصيرمتطلعة على الأفئدة ، لقوله تعالى : ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [١٠٤/٧] وستظهر صورتُها الحقيقية منكشفة على من خرج من غبار هذا العالم ،كصورة الجنان لمستأهليها ، لقوله : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ

(١) المسند: من حديث أبي هريرة: ٢/٥٣٩.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [٢٦/٩١] .

فالنفوس الكافرة الجاحدة ليست لهم وزن بعوضة عند الله ، ولا لهم نصيب إلا من جنس هذه الدار التي سيبرز لهم في صورة جهنم للأشرار ، لقوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [٧٩/٣٦] فيصير معلومة لهم يوم القيامة بالشهود العياني ، لقوله تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [١٠٢/٣-٦] وذلك لكشف الغطاء عن عين بصيرتهم فصارت بصر بصيرتهم حديداً ، لقوله : ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [٥٠/٢٢] وإلا فهي موجودة معهم هيهنا وفي إهابهم ، لقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [٥٠/١٩] ، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ﴾ [٩/٢٩] .

تتمة تنبيهية

اعلم إن في هذا المقام أبحاث قوية وتحقيقات شافية يتكفل لدفع شكوك وشبه أوردت على مسئلة المعاد الجسماني وبعث الأبدان ورد الأرواح إليها، حسب مانطقت به الايآت القرآنية وجائت به الشريعة النبوية ـ على الصادع بها وآله السلام والتحية ـ واثبات وجود عالم آخر مقداري غير هذا العالم في داخل حجب السموات والأرض، غائب عن شهود هذه الحواس الدنياوية ، فيه جنة السعداء وجحيم الأشقياء، ذكرناها في كتابنا المسمى بالمبدء والمعاد ، لولا مخافة الخروج عن طور التفسير لأوردتها جملة ، فمن أراد فليراجع إلى هناك ، لكن الواجب على المستبصر أن يعلم هنا هذا القدر الذي نذكره منها إجمالا . وهو ان عمدة شبه المنكرين للمعاد الجسماني وإشكالاتهم أمور :

أحدها : هو الذي ذكره الله تعالى حكاية عنهم وأزاح فساده ووقى شره في عدة مواضع من القرآن ، منها مامرّ في هذه السورة سؤالا وجواباً .

ومنها ما ذكره في سورة مريم بقوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ

أَخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَايَذْكُرُ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ [١٩/٦٦-٦٧].

ومنها ماذكره في سورة يس بقوله : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٣٦/٧٨-٧٩]وأسلوب إزالة الشبهة في الجميع واحد ،كما مرّ ذكره .

* * *

وثانيها : إن القيامة والبعث والحشروالجنة والنارإذا وقعت وتحقّقت فهي في أي موضع تكون ؟ أهي في السماء أو في الأرض أو فيما بينهما ؟ فإن كانت واقعة في وجه الأرضفكيف يسع وجهُ الأرض لجميع الخلايق كلها ، وقد برُهن علىقدر مساحتهابحيث لايسع أفراد الإنسان التي حصلت في مدة ألف سنة إذا بقيالتناسل وارتفع الموت ، فكيف من اجتماع الأفراد الحاصلة في مدة متطاولة ودهور غير محصورة في عدد ؟ وإن كانت في داخل أطباق السموات فكيف يوافق هذا قولَه تعالى : ﴿ جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [٣/١٣٣] وإن كانت فوق الأفلاك كلها ، فيكون وجودها في لاجهة مع كونها ذات جهات .

والجواب عنه : إن الآخرة عالَم تامٌ برأسها ليست تنتظم مع هذا العالَم في سلك واحد ، ولاهي واقعة في جهة من جهات هذا العالَم ولافي حيّز من أحيازها، لكونها نشأة ثانية غير هذه النشأة ،كما انمايراه الإنسان فينومه من الأمور العظيمة والأفلاك والصحاري الواسعة ، ليست واقعة في حيّز من أحياز هذا العالَم الحسي، فهذا جواب إشكالهم من جهة المكان .

* * *

وثالثها : وهو الإشكال الناشي من جهة الزمان والحركة ، وبيانه إن وجود القيامة لابد وأن يكون في زمان مستقبل يتجدد عقيب هذا الزمان الذي نحن فيه ، فيلزم أن يتصل زمان الدنيا مع زمان الآخرة في امتداد واحد، واتصالالزمان يستلزم اتصال الحركة الحافظة له واستمرار الجسم المتحرك حركة سرمدية دورية غير

متناهية الأعداد والأدوار والأكوار ، وهذا يستلزم استمرار هذه الدار وبقاء الفلك الدوار ، وهو مما يصادم القوانين الدينية والقواعد الملية ، لقوله تعالى : ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [١٦/٤٠] وقد أشار تعالى إلى تقرير هذه الشبهة المفصلة بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٨/١٠] .

والجواب الحق ماوقعت الإشارة إليه بقوله سبحانه : ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [٤٩/٣٦] وتوضيحه على وزان ماعلمت من المذكور في دفع الشبهة الواردة من جهة المكان ، فإن الزمان والمكان متوافقان في الأحكام ، و«أين» و«متى» متلازمان في نحو الوجود والقوام ، منسلكان في سلك واحد من الانتظام ، فكما ان مكان الآخرة خارج عن أمكنة هذا العالَم ، فكذا زمانها خارج عن أزمنة هذه الدار الفانية ، بل هما محيطتان بهذين ، نسبة كل منهما نسبة واحدة إلى مابازائها من خصوصيات أمكنة هذا العالَم وأزمنته .

أولاترى انه قدعبَّر عن زمان الآخرة بغاية القلة، لقوله، ﴿وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [٧٧/١٦] تنبيهاً على فعلية الأشياء هناك وكونها على غاية الكمال والتمام ، وأنت أذاقست مبادئ الحركات المتفاوتة قوة وضعفاً وسرعة وبطوء بعضها إلى بعض ، كقوى الرامين سهاماً نحو المرمى في مسافة واحدة فوجدت كلما كان أقوى قوة وأسرع حركة فهو أقل زمان حركة ، حتى لوفرضت قوة مباشرة للتحريك في غاية الشدة كانت الحركة واقعة منها دفعة واحدة، فإذا أشير إلى زمان الآخرة أشير إلى أقل مايتصور من الأزمنة ، وإذا أشير إلى مكان الآخرة أشير إلى أوسع مايتصور من الأمكنة ، كقوله : ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [١٣٣/٣] وأمر الإعادة كأمر الإبداع ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [٥٠/٥٤] وشأن البداية كشأن النهاية حذو القذة بالقذة، وكل إنسان يرجع في آخر أمره إلى فطرته الأصلية التي خرج عنها، ورد إلى مبدئه الذي صدر منه مالم يتغيّر فطرته الأصلية بالمسخ أو الطمس ، نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

* * *

وقد اختلفوا في أن البرزخ الذي سيصير الأرواح إليها بعد المفارقة عن الدنيا، هو عين البرزخ الذي بين الأرواح المجردة والأجسام الطبيعية أم غيره والأكثر على أن أحدهما غير الآخر حقيقة، قائلين بأن تنزلات الوجود ومعارجه دورية، مستدلين بأن الصور التي تلحق الأرواح في البرازخ الأخير إنما هي صور الأعمال ونتيجة الأفعال السابقة في النشأة الدنياوية، بخلاف صور البرزخ الأول، فلا يكون أحدهما عين الآخر، لكنهما مشتركان في كونهما عالَماً غير مادي وجوهراً غير طبيعي.

وأقول فيه بحث كشفي لايمكن عرضه لغير المكاشف على وجهه، إلا أنه يجب أن يعلم كل سالك أن وحدة الجواهر العالية والمبادي المتعالية ليست من قبيل وحدة الأشخاص الطبيعية الواقعة في عالم التضايق والتصادم والتضاد، ويعلم أيضاً إن وحدة الموضوع التي اعتبرها المنطقيون في شرائط التناقض لابد أن يختص بما يتحقق في الماديات، حتى يثبت التناقض بين الأمرين المتناقضين، وإلا فكثيراً ما يجتمع المتناقضات في موضوع غير طبيعي موجود في غير هذا العالم، فإن المتقابلات حاضرة عند المرتفعين عن حضيض هذا الأدنى، وصدق الكلي الطبيعي على أفراده المتقابلة تنبهك على هذا، وكذلك الحكم عندما يتصور العقل وجوداً وعدماً وسواداً وبياضاً لشيء واحد.

ومما يدل على ماذكرنا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾[٥٧/٣] وكذا قول الحكماء إن الواجب تعالى مبدء الأشياء وغايتها، وقولهم: إن العقل الفعال ثمرة العقل المستفاد، كما انه مبدءٌ فاعلي له، وكذا ماعليه المحققون من العرفاء، ان العقل الأول هو الحقيقة المحمدية عند انبعاثه ووصوله إلى المقام المحمود المختص به.

وبالجملة إن العالم المتوسط البرزخي من جملة مبادي الإنسان التي قد نزلت حقيقته وماهيته منها، وسيقع رجوع النفس إليها، والكلام في وحدة ذلك العالم وتعدده صدوراً وروداً كالكلام في سائر المبادي المحصلة لماهية الإنسان أولا، والمكملة لوجودها أخيراً.

فافهم واغتنم إن كنت من أهله وإلا فأنت وشأنك .

* * *

والإشكال الرابع: إنه إذا صار إنسان معين غذاء لإنسان آخر، فالأجزاء المأكولة إما أن يعاد في بدن الآكل، أوفي بدن المأكول، وأياً ماكان لايكون أحدهما بعينه مُعاداً بتمامه .

وأيضا إذا كان الآكل كافراً والمأكول مؤمناً يلزم تعذيب المطيع وتنعيم العاصي أويلزم أن يكون الآكل كافراً معذباً والمأكول مؤمناً منعّماً مع كونهما جسماً واحداً

واندفاعه بمامهّدناه في أن تشخص كل إنسان إنما هي بنفسه، وأما بدنه من حيث هو بدنه فليس له تشخص إلا بالنفس، بل ليس له من هذه الحيثية حقيقة ولا ذات حتى يكون له في ذاته تعيّن بهذا الإعتبار وتوحّد إلا بحسب مايتصرف فيه نفسه ومن حيث إضافته إلى نفسه، وليس من شرط كون بدن زيد مثلا محشوراً أن يكون الجسم الذي منه صار مأكولا لسبُع أو إنسان من حيث هو جسم معين له حقيقة في نفسه لحمية أوعظمية أوعصبية محشوراً يوم القيامة، أي بهذا الإعتبار، بل المحشور ليس إلا بدن زيد بماهو بدن زيد بعدما انحفظت شخصيته بنفسه التي يكون جهة وحدته وتشخصه، وإن تبدلّت بجميع أجزائه وصفاته في نفسه، لابأنها أجزاء بدن زيد من حيث هي أجزاء بدن زيد بعينها، فاعتبر ببقاء شخصية زيد تمام عمره مع تبدل أجزائه كلا أوبعضاً .

فاعتقادنا في حشر الأبدان يوم الجزاء، هوأن يبعث من القبور أبدان إذا رأيت كل واحد منها لقلت هذا فلان، وذاك فلان - اعتقاداً مطابقاً للواقع - لاأن يكون تلك الأبدان مُثلاً وأشباحاً للاشخاص الإنسانية، وذلك لأن المعلوم من الآيات والمفهوم من الشرايع والديانات أن المَعاد في المَعاد هومجموع النفس والبدن بعينهما دون مجرد النفس - كمارآه المشاؤن أومع بدن آخر عنصري - كمارآه بعض - أومثالي كما ذهب إليه الإشراقيون، وهذا هوالاعتقاد الصحيح المطابق للعقل والشرع، الموافق

للملة والحكمة ، فمن صدّق وآمن في المعاد بهذا فقد آمن بيوم البعث والحساب والجزاء ، وقد أصبح مؤمناً حقاً ، والنقصان عن هذا خذلان بل كفر وطغيان .

ولايلزم من هذا أن يعتقد أن مشوّه الخلْق يجب أن يُبعث مشوّه الخلْق ، ولا الأقطع والأشلّ والأعمى والهرم يجب أن يبعثوا كذلك ، كيف وقد ورد في الأحاديث خلاف ذلك ، فعود الشكل والهيئة والمقدار عيناً أومثلا غير لازم ، كيف وقد ورد في الحديث [1] «إن ضرس الكافر مثل جبل اُحُد» «وإن أهل الجنة جُرد مُرد» [2] بل اللازم شكل مّا وهيئة مّا ومقدارمّا مع انحفاظ التشخص .

وليس بواجب في كل فرد من الإنسان أن يحشر مع بدن من الأبدان ، بل الكاملين في العلوم إنما يحشرون إلى الله ، مفارقين عن الأجسام بالكلية ، منخرطين في سلك الملائكة المقربين ، الذين طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس ، وهم الذين من خشية ربهم مشفقون .

قوله جلّ اسمه :

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

«التوفي» و«الاستيفاء» بمعنى واحد ، فالمتوفّي للنفوس والأرواح هو المخرج لها كلها من الأبدان ، بحيث لايترك منها شيئاً ، من قولك : « توفّيتُ حقي من فلان «واستوفيته» إذا أخذتَه وافياً كاملا من غير نقصان .

وفي الكشاف نقلا عن مجاهد : «حويت لملك الموت الأرض وجُعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء » وهذا تمثيل لتصرفه في جذب الأرواح إلى الله تعالى

---

(١) المسند: ٣٢٨/٢. والحديث مروي بألفاظ مختلفة، راجع المعجم: ٥٠٨/٣.

(٢) المسند: ٢٩٥/٢. الترمذي: ٦٨٢/٤.، كتاب صفة الجنة، الباب ١٢.

من أصول الأشباح ، كجذب الثمار بالقوة النامية من أسافل الشجر إلى أعاليها ، وقريب منه ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : جعلت الدنيا بين يدي ملك الموت مثل جام يأخذ منها ماشاء الله أذاقضى عليه الموت من غير عناء ، خطوته مابين المشرق والمغرب .

وقيل: ملك الموت يدعو الأرواحَ فتجيبه ، ثم يأمر أعوانه بقبضها .

وعن قتادة: يتوفّاهم ملكُ الموت ومعه أعوان كثيرة من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

ووجه ذلك ان نزْع الصورة الشريفة من مادة غير لائقة ، و قبض الروح من بدن إلى عالَم آخر أعلى رتبة منه رحمةٌ بالقياس إلى الصورة المنتقِلة ، وعذابٌ بالقياس إلى المادة المنتقَلة هي عنها، فالملائكة النقّالة والقوى الفعالة موكلة من عند الله لايصال الرحمة إلى مستحقيها ، و الطبائع المنفعلة والقوى الحافظة لصورة المادة السفلية المفارقة عن الأرواح العالية ، هي من سدَنة العالَم الأدنى ، و هي المسماة بملائكة العذاب ، وإن كانت في فعلها رحمة ومصلحة بوجه آخر.

فعلى هذا المراد بملك الموت الجنس ,كماذهب إليه جمع ، ويدل عليه قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [٦/٦١] ونسبة القبض والتوفي إلى ملك الموت وأعوانه من قبيل نسبة الفعل إلى الآلة ، لئلا ينافي قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [٣٩ /٤٢] ويلائم ذلك قوله تعالى «الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ» إذالتوكيل تفويض الأمر إلى غيره للقيام به ، وليس هيهنا تفويضٌ محضٌ و لاجبر محض ، بل أمر بين أمرين ، أي وُكِّل ملكُ الموت بقبض أرواحكم أجمعين أوواحداً واحداً حتى لايبقى أحد منكم .

ثُمَّ إِلَىٰ رِبِكُم تُرجَعُونَ بجذبة « ارجعي » وإن كان الواصل إلى حضرته هم النفوس المطمئنة فاختص هذا الخطاب بهم في قوله تعالى : ﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [٨٩/٢٧] و الباقون يحشرون إلى جزاء ربهم من الثواب والعقاب .

وروى عكرمة عن ابن عباس[1] قال قال رسول الله ﷺ : «الأمراض والأوجاع كلها بريد الموت ورسل الموت ، فإذا حان الأجل أتى ملكُ الموت بنفسه ، فقال : ياأيها العبد كمْ خبر بعد خبر ؟ وكم رسول بعد رسول ؟ وكم بريد بعد بريد ؟ أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر ، وأنا الرسول .أجبْ ربك طائعاً ومكرَهاً .

فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه ، قال : على مَن تصرخون وعلى مَن تبكون ؟ فوالله ماظلمتُ له أجلا ولا أكلت له رزقا ، بل دعاه ربه ، فليبك الباكي على نفسه ، فإن لي فيكم عودات وعودات حتى لا أبقي منكم أحداً» .

وهذا الحديث قد دل على مابيناه من كون القابض للأرواح إنما نصب من الله لايصال كل أحد إلى جوار الله ورحمته ودعوة ربه ، لا للنقمة والعذاب ، إلا ان النفوس الشقية الجاهلة بنعمة الله و رحمته مستوحشون عن الحق لإلفهم بهذا العالم وأنسهم بالحشرات واعتيادهم باللذات الخسيسة ومقارنة الموذيات ، كما أشار إليه قوله ﷺ : «فليبك الباكي على نفسه».

رموز قرآنية ولوائح ربانية

منها انه يستفاد للمتأمل في هذه الآية ونظائرها أنك قاصد إلى ربك مذ يوم خلقت نطفة في الرحم وتعلقت بها نفسك ، فإنك أبداً منتقل من حالة هي أدون إلى حالة هي أعلى وأشرف ومن مرتبة هي أنقص إلى أخرى هي أتم وأكمل ، وهكذا إلى أن تلقى ربك وتشاهده ويوفيك حسابك ، فإن لم يتعلق بك أثقال وأوزار من جنس هذه الدار الفانية فتبقى عنده مخلدة مسرورة دهر الداهرين مع النبيين و الصديقين والشهداء والصالحين وحَسن أولئك رفيقاً ، وإلا فتكون من الخاسرين والمنكوسين والمتردين إلى أسفل السافلين ، ومما ينبه على ذلك قوله سبحانه : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ـ إلى قوله ـ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ [٨٤/٦-١٣] .

(١) ما يقرب منه عن الصادق عليه السلام في البحار: ٦/١٦٦.

ومنها ان هذه الآية وقعت جواباً تفصيلياً للشبهة المنقولة عن المنكرين للمعاد و حشر الأجساد بعد الجواب الأول الإجمالي على الوجه الذي أوضحناه بفضل الله وإلهامه ، إذ قد علمت إن توجه النفوس و الأرواح إلى عالم المعاد و قرب المبدء الجواد أمر فطري فطرت عليه العباد ، لأن الموت نوعٌ من الاستكمال ، لأنه بالقياس إلى الروح العلوي وجود وحياة ، وبالقياس إلى البدن العنصري المركب والهيكل المحسوس عدمٌ وموت ، ولكل استكمال بعد استكمال ، لابدّ من وسائط بين الله وبين الخلق هي المسماة بملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وقد يختلفان بحسب الإضافات كما أشرنا إليه ، فملك الموت يقبض الأرواح من عالم أدنى إلى عالم أعلى ، ونفس هذا القبض إماتة في هذا العالَم وإحياء في عالم الآخرة ، ولهذا يسمى بأبي يحيى ، لا بما ظن من أنه من باب تسمية الشيء باسم ضده كما هو من عادة العرب ، بل في تسميته بهذا روعي كلا الوجهين بحسب النسبتين .

ووجه كون الآية بياناً وموضحاً لمسئلة الحشر الجسماني إن أجناس العوالم مختلفة بعضها فوق بعض ، و قد ثبت في الحكمة الإلهية إن الطبيعة ما لم تستوف النوع الأخس لم يقصد النوع الأشرف ، و مالم تصل إلى العالم الأدنى لم يتخط إلى العالم الأعلى ، أولاترى أن المني في الرحم يزداد كمالا بعد كمال على الولاء حتى يصير إنساناً فيصير أولاذا نفس نباتية ثم حيوانية ثم بشرية ـ من غير أن يطفر مرتبة من المراتب ؟

وإلى هذا المعنى أشار تعالى في كثير من الآيات الفرقانية كقوله ﴿أَفَرَأَيْتُم ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٦٢/٥٦] وكقوله ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [٥٨/٥٦].

ثم لما كانت أجناس العوالم منحصرة في أربعة : إثنان منها روحانيان وهما عالما العقول والنفوس ، وإثنان منها جسمانيان وهما عالما الغيب والشهادة ، فالأرواح الإنسانية لابد أن ترتحل من هذه الدار إلى الدار الآخرة عند توجهها الجبلي إلى الحق واستكمالها الفطري بحسب النشئات والحالات ، فقوله ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾

برهان مبين وبيان متين لإثبات الحشر الجسماني عند من له توغّل في القواعد الحكمية والقوانين العقلية .

* * *

ومنها : انه يجب أن يكون متحققاً عندك ان ملك الموت وأعوانه لا يعدمان، بل يفرق بينك وبين ما هو غير صفاتك وأجزاء ذاتك ، لأن القواطع البرهانية والسواطع القرآنية والإشارات النبوية والكلمات الوَلوية قائمة على أن محل الايمان والمعرفة لا ينعدم، كما ورد في الحديث: «إن الأرض لا تأكل محل الايمان» وورد أيضاً: «خُلقتُم للبقاء لا للفناء»[١] .

فإذا تيقّنت هذا فاعلم إن للإنسان الكامل في أيّام كونه الدنياوي أربع حياتات : النباتية و الحيوانية والنطقية والقدسية ، فالأوليان دنياويّتان و الأُخريان عقباويتان .

مثال ذلك «الكلام» و«القول» فإن له حيوة تنفسية كالنبات ، وحيوة صوتية كالحيوان ، وحيوة معنوية كالنفس المفكرة ، وحيوة حِكمية كالنفس القدسية ، فإذا خرج الكلام من جوف المتكلم ودنياه دخل إلى باطن السامع وأخراه، فورد أولا في جوفه ـ أي في صدره ـ كما قيل : «صدورُ الأحرار قُبور الأسرار» ثم إلى قلبه الذي هو آخر منزله ومأواه ، فإذا ارتحل من عالَم التكلم إلى عالم السمع انقطع عنه الحياتان الأوليان ـ أي انقطع النفس وفنى الصوت .

ولا يخلو حالُه بعد هذا عن أحد أمرين ، لأنه إمّا أن يقع في روضة من رياض الجنة ، وذلك إذا كان الجوف الذي دخل فيه صدراً منشرحاً بـأنوار معرفة الله وإلهامات عالم ملكوته ، فيكون قرين ملائكة الله وعباده الصالحين الزائرين لهذا القبر ، وإما أن يقع في حفرة من حفَر النيران، وذلك إذا كان صدراً منشرحاً بالشر

---

(١) راجع البحار: ٢٤٩/٦. وجاء في علل الشرائع: باب علة الخلق واختلاف أحوالهم عن الصادق عليه السلام: ١١.

والفساد ومعدناً للشياطين والظلمات وموردا للعنة الله ومقته أبداً مخلداً، لقوله تعالى: ﴿مَنْ شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٦/١٠٦] . فإن من البواطن والصدور ما ينزل لزيارته في كل يوم وليلة ألف ألف من الأنبياء والأولياء عليهم السلام لغاية صفائه ونقائه وكونه مشحوناً بالمعارف الإلهية والعلوم الربانية ، والعلم صورة المعلوم وحقيقته ، فهو روضة الجنان ، ومن الأجواف ما يقع فيه في كل يوم وليلة ألف مجادلة ومخاصمة مع الناس ، ويكون معدن الكذب والظلم والوسواس ومنبع الوحشة والكدورة والغصة والعذاب الأليم واللعن المقيم، فهو بعينه كحُفرة الجحيم .

فالقول والكلام إذا وقع إلى الصدر المنشرح بنور الايمان والمعرفة يتجرد عن العوارض المادية وينقشر عن الغواشي الظلمانية ، فيصير لُباً خالصاً معقولا لائقاً لأن يتغذى به أُولو الألباب فقد وقع في دار الجنان . وإذا هوى إلى جوف الرجل الجاهل والمستجنّ في صدره المنشرح بالكفر والخسران فقد وقع في دار الجحيم، واحترق بنيرانات ملتهبة من الحسد والشر والطغيان .

فإذا علمت هذا المثال فاعلم إن الإنسان إذا مات وارتحل عن هذا العالم وانقطعت عنه حيوته النباتية والحيوانية فقد بقيت له حياتان أخرويتان ، فيكون قبره الحقيقي الذي يدخل فيه إما روضة من رياض الجنة أوحفرة من حُفر النيران، واطلاق القبر على ما يتعارفه الجمهور من باب التجوّز على ما يدل عليه ألسنة الشرائع الحقة، ويشير إليه الأحاديث الصحيحة الواردة في أحوال الموتى وعذاب القبور، لأن قبر كل إنسان يناسب صفاته وأعماله ولا يمكن مشاهدة القبر الحقيقي بهذه الحواس الدنياوية ، لأنه منزل من منازل الآخرة ، وإنما ينكشف أحوال القبور للمتجردين عن جلباب البشرية لغلبة سلطان الآخرة على بواطنهم ، وإنما قلنا : « انقطعت عنه الحياتان الدنياويتان » موضع «انعدمت» لأنّ الحقيق عندنا أن ما وجد من الأشياء فلايمكن انعدامه بالحقيقة ، وإلافيلزم أن يكون مما خرج وزال وغاب عن علم الله،

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [١٠/٦١].

* * *

فاذا تحقق هذا ظهر ان للجسد وجوداً كما للنفس، وللقالب تكوّناً كما للقلب، ولكل منهما قبراً حقيقياً.

فقبر الحيوة الجسدانية النباتية والحيوانية هو مقدار تكوّنها التدريجي ومدة حركتها الاستكمالية في دار الدنيا التي هي مقبرة ما في علم الله من صوَر الأكوان الحادثة الموجودة سابقاً ولاحقاً في علمه تعالى: أما الوجود الأول فقبل الورود في مقابر الدنيا بموتها الجسماني وهو مفاد قوله ﷺ: **خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام** (١)، وأما الوجود الثاني فبعد مدة مكثها الدنياوي كما قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٣/١٠٩].

وأما قبر النفس والروح فإلى مأوى النفوس ومرجع الأرواح كلٌ يرجع إلى أصله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [٢/١٥٦].

فالله سبحانه أبدع بقدرته الكاملة دائرة العرش وحقيقته العقلية والنفسية، وجعلها مأوى القلوب والأرواح، وأنشأ بحكمته البالغة نقطة الفرش وجعلها مسكن القوالب والأجساد، ثم أمر بمقتضى حكمته الأزلية وقضائه الحتمي الإجمالي وصوره الإسرافيلي لتلك الأرواح والقلوب العرشية أن تعلقت بالقوالب والأبدان الفرشية، وأمر بقدرته التفصيلي الاستعدادي أن تقبل قابلية هذه القوالب بحسب إعداد المواد واستعداد هذه الأجساد شطراً من الأزمنة والأمداد قلوب العباد وأرواح أهل الحشر والمعاد وأصحاب الرجوع إلى الله الجواد.

فإذا بلغ أجل الله الذي هو آت وقرب موعد الممات للملاقات والحيوة، رجعت الأرواح إلى رَب الأرواح قائلين بلسان الحال والمقال: « إنا لله وإنا إليه

---

(١) رواه في معاني الاخبار عن الصادق عليه السلام: باب معنى الامانة التي عرضت...:١٠٨.

رَاجِعُونَ» [٢/١٥٦] وعادت الأشباح إلى التراب الرميم ، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [٢٠/٥٥] وأما الأرواح المكدرة الظلمانية المنكوسة والنفوس الشقيه التي كفرت بأنعم الله وصرفها في غير ماخلقت لأجله ، قصدت مع أثقالها وأوزارها من حضيض الفرش إلى ذروة العرش بأجنحة مقصوصة وقلوب مقبوضة وأيد مغلولة بحبائل التعلقات وأرجل مقيدة بقيود الشهوات و ﴿كَلِمَةٌ خَبِيثَةٌ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [١٤/٢٦] فصاروا ملعونين منكوسين معلقين بين العرش والفرش لقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [٣٢/١٢] .

فظهر وتبين أن المقابر بعضها عرشية وبعضها فرشية ، فالأولى للسابقين المقربين وأصحاب اليمين ، والثانية للأشقياء والمردودين إلى أسفل سافلين ، فثبت ماادعيناه أن الموت وارد على الأوصاف لا على الذوات ، لأنه تفريق وقطع ، لا إعدام ورفع ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [٧/٢٩-٣٠] ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [٢٢/١٨] .

فالعرش مقبرة الأرواح العرشية : «أول ماخلق الله جوهرة» الحديث [١] والفرش مقبرة الأجساد الفرشية ، ونفوسها المنكوسة المتعلقة بها .

* * *

ولبعض الجهال المغترين بلامع سراب الأقوال أن يعترض ههنا ، بأن ماذكرت من البيان يستلزم أن لايكون للأجساد حشر في الآخرة ، وهو يخالف ما أحكمت بنيانه وأوضحت تبيانه فيما مر مع حشر الأجساد ، وإعادة الرميم من العظام من ضروريات الشرع المبين لقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٣٦/٧٩] .

فليعلم ـ إن كان جهله بسيطاً قابلا للإصلاح والتعليم ـ إن ماذكرناه ههنا ليس

(١) راجع البحار: ١٥/٢٩.

مخالفاً لمابيّنا سابقاً ولامبطلا حشر الأجساد ، بل تُحققه وتُصححه ، لكن لغموضه ودقته يحتاج دركه إلىقلب سليم وفطرة صافية عن كدورةالتعصب والتقليد ، وسمع خال عن غشاوة ما يتلقف من الأساتذة أويطالع من كتب المشايخ من غير بصيرة ولافهم جديد ، وقدبيّنا تفاوت هذا المطلب الشريف العالي والدرالثمين الغالي في بعض كتبنا ورسائلنا وتفاسيرنا لبعض السور والآيات القرآنية، وبرهنّا على حقيقة المعاد الجسماني في كتاب المبدء والمعاد بمعنى إعادة الأشخاص الإنسانية بعين هذه الأبدان ، لابمجرد أشباحها وأمثالها برهاناً صحيحاً سالماً عن النقوض ، وبياناً شافياً مبتنياً على مقدمات عقلية جازمة لايعتريها شك وطعن على ما هو دأب أهل الحكمة والمعرفة ، لامكتفياً فيه على مايقبله الجمهور ويُستحسن في المشهور ، وإن لم يكن مطابقاً للواقع كما هوعادة أصحاب الجدل فيصنعة الكلام، ولابد لطالب اليقين أن يراجع إلى ذلك الكتاب في مسئلة المعاد لضيق المجال هيهنا عن تكثير المقال .

وأما القدرالذي يقع له التنبيه علىهذا المطلببوجه وجيه يقنع به العاقل النبيه:

إن الجسم المعيّن المحسوس والبدن المشكّل الملموس كالإنسان مثلا أمرمركب من جواهر متعددة يتقوّم بهاذاته ويظهرمن اجتماعها الأبعاد الثلاثة مع أعراض لازمة أو مفارقة . و العرض المفارق الزماني لايبقى زمانين ﴿ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [١٥/٥٠] لاعلى وجه قرّره المتكلمون ، بل على وجه قرره الحكماء في الأعراض الإنفعالية ، ثم إذا بطل التأليف رجع كل جوهرمن جواهره إلى عالمه، والجوهريقوم بذاته أو بمقومات ذاته ، و العرض قائم بغيره ، ولا يجوزله الانتقال والارتحال من موضوع الدنيا إلى موضوع الآخرة .

لما عرفت أن العرض الزماني المستجيل مما لايبقى زمانين ، والأعراض المحسوسة من الكميات والكيفيات الموجودة في جواهر هذا العالم متغيرة ، لما ثبت أن الأمورالطبيعية مستحيلة من حال إلى حال ، متحركة في المقادير بحسب النمو والذبول ، و في الكيفيات المحسوسة والاستعدادية والمختصة بالكميات

بحسب تجدد الانفعالات و الاستعدادات من المواد المنفعلة عن آثار حركات السماويات، المتأثرة عمايرد عليها من تجدد آثارالعلويات وتصرفها للسفليات ، كل ذلك طاعة لباريها وجاعلها بحسب الشؤون الواقعة منه بحسب : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [٢٩/٥٥] التي يستدعيها إفاضة الخيرات وبثّ نعمة الكمالات بمقتضى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [١٤/٣٤] .

وأما بواقي الأعراض السبعة النسبية فهي في وجودها وبقائها تابعة لغيرها ، لكونها معان انتزاعية فتجدد ذلك الغير يوجب تجددها ، وكل ما يكون متغيراً متبدّلا لايمكن بقاؤه في دارالقرار وانتقاله بعينه من الدنيا إلى عالم البقاء ، فالعرض الذي شأنه التجدد والتغير شيئاً فشيئاً كالحركة وما يقع فيه من الزمان وما يطابقه ويوازيه لايجوز أن يرتحل من هذا العالم إلى عالم الثبات والدوام ، وإلا لكان للحركة حركة وللموت موت ، فيلزم أن يكون دار البقاء دار الفناء ، فينقلب الآخرة دنياً ، والقرارفراراً ، والحقيقة بطلاناً والثبات زوالاً وهدراً وهباء ، والكل مستحيل باطل.

فثبت أن عالم الآخرة غير هذا العالم بالحقيقة والماهية وهو عالم مستقلٌ تامّ لاينتظم مع هـذا العالَم في سلك واحد ، ولا واحد منهما مع الآخر في سمت واحد وفي اتصال واحد زماني أو مكاني موجود أو موهوم ولا أحدهما جزء من الآخر ولافي جهة من جهاته ، بأن أحدهما فوق الآخر أو تحته أو قدّامه أوخلفه أو يمينه أو شماله و إلا لم يكن كل منها عالَماً تاماً له محدّد واحد للجهات المكانية و الامتدادات الزمانية، بل كان أحدهما داخلا في الآخرة مشمولا كلاهما لمحدّد واحد لمكانه وزمانه وليس كذلك ، هذا خلفٌ .

ومحصّل القول إن الموت إذا فرّق بين جواهر هذه الأجسام الدنياوية وتلاشى التركيب ، بقي الجواهرالمفردة واضمحلت الأعراض والهيآت ، ثم إذا جاء وقت العود بأمرالله تعالى ركّب جسم من تلك الجواهرتركيباً محكما ونشأت نشأة ثانية باقية أبدالدهر ، لكون الجسم الأخروي حاصلامن محض جهات الفاعلية،

كالامكان الذاتي وغيره ، لامن جهات القابلية كالامكان الإستعدادي وصلوح المادة وحصول المزاج لامتزاج العناصر، فالأجسام مجرد الجواهر بلاأعراض هذه الدنيا، ولم يكن لها صفات مستحيلة متغيرة حاصلة من انفعال المواد للاستعداد ، بل كل جوهر من جواهر الآدميين يكون في الآخرة عالماً تاماً برأسه كجملة هذا العالم ، فيكون كل إنسان هناك عالماً تاماً في نفسه لاينتظم مع غيره في عالم واحد ، مع أن كل إنسان سعيد في الآخرة يحضر عنده كل مايريد ويرغب في صحبته بلحظة عين وفلتة خاطر وخطرة قلب ، وهذا عام فاش لكل واحد من السعداء ، وهو أقل مرتبةٍ من مراتب أهل الجنان ، فالعوالم هناك عدد غير متناه ، كل منها كعرض السموات والأرضين من غير تداخل ولامزاحمة ولامضايقة، كمايعرفه المكاشفون ويشاهده المقربون .

ومماينبه على هذا أن هذا العالم الدنياوي بجملة مافيه إذا أخذ مجموعاً واحداً لايحصل من الجواهر العقلية إلا على سبيل الإبداع بحسب جهات عقلية فاعلية ، لأنه قد حصل بتمامه من جهة استعداد قابل ، ولاأيضاً وجد في مكان ولافي زمان، إذ لامكان للمكان ولازمان للزمان ، فليس لجملة الأجسام مع مامنها وفيها زمان ولا مكان ولاجهة من الجهات ولايمكن أن يقال حدث في أى وقت وفي أي مكان وجهة

فهكذا ـ يجب أن يعلم ويتصور حال كل عالَم من العوالم الأخروية المتعلقة بواحد واحد من أهل السعادة من الجواهر الإنسانية ، فقد علم من هذا وجه كونه تعالى رب العالمين ـ بصيغة الجمع ـ المختص بذوي العقول لأن كل عالم رباني عالم تام لايعوزه شيء من الأشياء و لايفتقر إلى امر خارج عنه وعن ملكه وعالمه وسلطانه ، فإذالم يكن شيء من الاشياء إلا ويكون في ذلك لعدم غيبة الكل عن الكل، فلايفوته شيء ﴿فِيهَا مَاتَشْتَهِيهِ ٱلأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلأَعْيُنُ﴾ [٤٣/ ٧١] فبعد حشر الأجساد لايمكن لأحد أن يقول: هذا الجسد غير ذلك ، وليس له أيضاً من كل وجه،أن هذا ذاك فإن هذا من الذهب وذاك من الرصاص . بل له أيضاًأن يقول: هذا كان ذلك فإن الرصاص صار بالإكسير في كورة سجن الدنيا أوجهنم الآخرة هذا ، فإن كنت

تستخبر عن أصل الذهب وسنخ جوهره ، فقلت «هذاذاك» وإذا استخبرت عن حقيقة الذهبية والصفاء واللطافة والنورية ، فقلت ليس هذاذاك فجوهرية هذا العبد وروحه واحدة في الدنيا والآخرة ، لكنه كان في الدنيا دنياً وفي الآخرة عليا ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [٨٢/١٧] .

ومنها بيان السر في اختلاف نسبة التوفّي تارة إلى الله تعالى كما في قوله : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [٤٢/٣٩] وتارة إلى رسله أي ملائكته ، كما في قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [٦١/٦] وتارة إلى ملك الموت ، كما في هذه الآية .

ووجه ذلك إن الإنسان نشأة جامعة روحاً وبدناً وقد بنى الله وجود كل منهما من أصول أربعة ـ كما سبق القول فيه ـ وقد ارتكز في عقول الجماهير أن القابض لاجزاء بدنه هو المتوفّي له القابض لروحه والجاذب له إلى الحق تعالى ، فإن العلة المحدثة والمبقية شيء واحد في التحقيق إذا كانت فاعلية ، والجامع لأجزاء المني والحافظ أمر واحد بالنوع والماهية ، وإن كانت متفاوت الظهور .

وتفصيل المقام إن الغاية الحقيقية في بناء هذا المسجد الجامع الإنساني الذي اجتمعت فيه أفراد الموجودات وأشخاص الكائنات ، من كل طائفة وقوم بخطابةُ خطيب العقل على منبر دماغه بشهادة أن لا إله إلا الله ، ودلالته بوجوده الجمعي (الحقيقي ـ ن) المتوحد في مرتبة ذاته وروحه البسيطة الاجمالية التي لها أحدية جمع الجمع يوم جمعة الحقايق على وحدانية الحق سبحانه ، وامتثال خلائق قواه الإدراكية التركيبية والتحريكية أمره واستماعها في ندائه إذا نفذ إلى مسامعها صدائه ، ومشايعتها للروح وتركها لاستعمال البدن وأغراضه ومعاملاته امتثالا لأمر الله وإجابة لداعي الحق في قوله : ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٩/٦٢] وقد مرت الإشارة إلى أن الموت أمر طبيعي وسعي جبلي من القلب والقالب جميعاً .

ثم إنه قد وردت الروايات في باب المتولي لهذه العمارة والآخذ لطينة وجود هذا المسجد الجامع متفاوتة ، ففي بعضها : إن الجامع لأجزاء بدنه وترابه هم الملائكة . وفي بعضها : إن الآخذ لتراب قالبه هم رسل الله ، ليكون لهم الرسالة إلى عباده[١] ، وفي بعضها : إن ملك الموت قد أخذ قبضة من التراب[٢] ، وفي بعضها : إن الله تعالى قبض بيده قبضة من أديم الأرض[٣] .

فهذه الروايات كلها صادقة الفحوى متوافقة المعنى عند الواقف على حقيقة ذات الإنسان ، فإن في ذاته وطينته أصولا أربعة : ففيها الطينة النباتية لحياته النباتية من التغذية والتنمية والتوليد ، وفيها الطينة الحيوانية للإحساس والتحريك ، وفيها المادة النفسانية والعقل الهيولاني الذي هو محل الحيوة العقلية بمعرفة الحقائق ، وفيها الطينة القدسية التي هي محل معرفة الله ، وهي الفانية عن ذاتها والباقية ببقاء الله .

فأما الطينة النباتية فهي التي قبضها الملائكة الموكلة بعمارة هذا العالم العنصري، فأحياها الله بالماء ، كقوله ﴿مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [٢١/٣٠] .

وأما طينته الحيوانية فهي التي جاء بها رسل الله بأمره ، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [١٧/٨٥] أي حاصلة من عالم الأمر .

وأما حصة طينته التي ينشأ منها النفس النطقي فهي التي تكون حيوتها بنفخه تعالى روحه فيها ، لقوله : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [١٥/٢٩] .

وأما حصة طينة من كان عبداً مؤمناً عارفاً بالله فانياً عن ذاته باقياً ببقائه تعالى فهي التي قبضها الله تعالى وأحياها بروح القدس ، لقوله تعالى في حق عيسى ــ على نبيّنا وآله وعليه السلام ــ : ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [٢/٢٥٣] .

---

(١) راجع علل الشرايع: ٢.
(٢) بحار الانوار: باب فضل آدم وحوا..: ١١/١٠٣. الدر المنثور: ١/٤٧.
(٣) بحار الانوار: الباب السابق: ١١٦.

ثم لما كان المتقرر عند ذوي البصائر والألباب ـ كما مر ـ ان القابض لطينة الإنسان هو المتوفي له والقابض لروحه ، فتلك الطينة النباتية التي قبضت الملائكة ترابها ، وجعل الله حيوتها من الماء ، فتلك الملائكة تتوفّاها وتقبض روحها إلى الله لقوله تعالى ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ ﴾ [١٦/٣٢و٢٨] و أما الخلقة الحيوانية الماشية التي قبضها الرسل وأحياها الرب سبحانه بأمره ، فهم يأخذون روحها ويتوفونها لقوله تعالى ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [٦١/٦] وأما السبخة الناطقة التي قبضها ملك الموت وأحياها الله تعالى بنفخة منه إسرافيلية ، فيتوفاها ملك الموت لقوله في هذه الآية ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [١١/٣٢] وأما المادة القدسية والخميرة المقدسة الإلهية التي قبضها الله تعالى وأحياها بروح القدس فهي التي يتوفّاها ويرفعها إليه لقوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٤٢/٣٩] وقوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [١١/٥٨] وقوله : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [٣٢/٤٣] فافهم واغتنم .

* * *

ومنها إنه قد انكشف عند أهل الله ان العالم كله ـ أعني ماسوى الله ـ حقيقة واحدة يشتمل على الخلق والأمر ، لقوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [٥٢/٧] والأمر كله هو قلب العالم وروحه ، لقوله : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [٨٥/١٧] لأن نسبة أحدهما إلى الآخر كنسبة أحد جزئي الإنسان إلى الآخر ، أي روحه وبدنه ، بل هما روح الإنسان وبدنه صارا بالنزول الإنسان الجزئي ، كما أن الإنسان الكامل يصير بالعروج عالماً كبيراً ، وهذا من الأمور المستبينة المستوضحة عند الراسخين في المعرفة ، ثم التعانق بين هذا الأمر وهذا الخلق والإزدواج بين هذا العلوي وهذا السفلي هو حيوة العالم الكبير ، كما أن التعانق والإزدواج بين روح الإنسان وبدنه هو حيوة العالم الصغير ، فكذلك التفارق بينهما هو موت الإنسان الكبير والقيامة الكبرى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [١/٧٥] كما إن الافتراق بين روح الإنسان وبدنه

هو موت هذا العالم الصغير والقيامة الصغرى لقوله ﷺ : «مَن مات فقد قامت قيامته»[١] وسبب حيوة الجسد الإنساني استكمال النفس وبلوغها إلى غايتها وكمالها، ووصولها إلى عالمها ومعدنها، وسبب حيوة جسمية العالم بلوغ روحها إلى عالم الربوبية واختصاص ملكها لله الواحد القهار ، والله سبحانه خالق الموت والحيوة لقوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَالحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٦٧/٢] .

فإذا وقعت الواقعة وقامت القيامة يرجع الأمر كله إلى الله : ﴿ إِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ كُلُّه ﴾ [١١/١٢٣] ﴿ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلعَزِيزِ ٱلعَلِيمِ﴾ [٦/٩٦] ويعود الخلق إلى الخالق ، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [٢٠/٥٥] هذا في القيامة الصغرى، فالأرواح كلها ترجع إليه تعالى: ﴿أَلَا إِلَى ٱللهِ تَصِيرُ ٱلأُمُورُ﴾ [٤٢/٥٣] والأجساد كلها ترجع إلى العدم والكمون والبطون ، لأن مبادي حصولها جهات العدم والقوة والإمكان .

ومن هيهنا يعلم سر شريف ، هو إن الموت لاخبر له عن أن الخلق والأمر متى تفارق كل منهما عن صاحبه ، بل في الانسان خلقة الحيوان والنبات مما قد فنت وتلاشت وهي في الذوبان والاضمحلال دائماً لقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [٥٥/٢٦] وبقيت حقيقة الإنسانية والملكية ، أي حقيقة عقله وروحه ، لقوله ﷺ : « خُلقتم للبقاء ولم تخلقوا للفناء »[٢] .

مثال ذلك الجوز، فله لُبّان ـ لُبٌّ ولُبُّ اللبّ ـ وقشران ـ قشرٌ وقشرُ القِشر ـ فاللبان أحدهما بمنزلة العقل والآخر بمنزلة الروح القدسي صالحان للاغتذاء والدواء، كما ان الحيوة الإنسانية والملكية من أهل الجنان وخدمة الرحمان، والقشران بمنزلة النبات والحيوان ، خلقتا للفناء والاحتراق بنار الطبيعة .

---

(١) قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت (ذيل احياء علوم الدين ٤/٤٩٥).

(٢) مر الحديث آنفا.

فظهر من جملة هذا أن النفوس الإنسانية تصير في الآخرة قوالب أهل الجنة ، مصورة بصورهم اللطيفة ، ويكون أرواحهم من العقول القادسة ، ويكون عقلهم من نور الأنوار ، وهذا المعنى مما لاينكشف إلا بالروح القدسي : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [٢٤/٤٠] .

فهذه النفس الإنسانية هي جسم لطيف وروحها القدسي جوهر مفارق من كل الوجوه ، وهذا النور الإلهي أرفع من أن يتصور في فكر أو عقل ، لأن العقل مأوى الصور الكلية والحقائق العقلية ، وهو المسمى بالعرش عند قوم ، وأما القوة المفكرة فهي منتهى التصورات النفسانية والعقول التفصيلية ، ويقال لها الكرسي والصدر المعنوي عند طائفة .

* * *

وقد انتهى الكلام إلى ماعجز عن دركه جمهور الأنام ، اللهم اجعل هذه الكلمات محروسة عن ملاحظة الناقصين ، واسترها عن أعين المغرورين ، واجعل لأصحاب القلوب الصافية نصيباً وافراً من دركها ، ورغبة تامة في حفظها ، ثم في صونها عن الأغيار ليكون مستقر هذا المعاني صدور الأحرار التي هي قبور الأسرار ، لتكون في روضة من رياض الجنان ، ولا تجعلها في بطون الأشرار كيلا يكون في حفرة من حُفَر النيران ، وهم الظاهريون الذين زينوا ظواهرهم بالنقوش المزخرفة والأقوال المزينة المليحة الحلوة ، كالأطعمة والحلاوات ، وأهملوا بواطنهم ، بل احشوها بالنفاق والجهل والاستكبار عن الحق والحقائق ، كبطون الفجار وقبور الكفار .

همچو گور كافران بيرون حلل واندرون قهر خدا عز وجل

اللهم اجعل قبرَنا روضة من رياض الجنان ولاتجعلها حفْرَة من حفَر النيران .

* * *

قوله سبحانه :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

جزاء « لو » محذوف ، وهو مثل : « لرأيت أمراً فظيعاً » إن كانت امتناعية كما عليه الأكثرون ، و الخطاب حينئذ إما للرسول ﷺ ، أو لكل أحد كما يقال : « فلان لئيمٌ إن أكرمتَه أهانكَ » من غير أن يقصد مخاطب مخصوص .

« ولو » « وإذ » وإن كانتا للمضي إلا أنه ساغ وشاع استعمالها في كلام الله للترقّب ، لأنه بمنزلة المتحقّق الوقوع ، وفيه سر آخر. ويحتمل أن يراد به التمني ، ونسبة التمني هيهنا للرسول ﷺ كنسبة الترجّي له في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ﴾ [٢١/٣١] لتجرّعه منهم كاسات الغُصص لأجل تكذيبهم إياه وعداوتهم وضرارهم ، فجعل الله له تمنى أن براهم على تلك الصفة الفظيعة من انتكاس رؤسهم وحزنهم وغمهم وتأسفهم ، ليشمت بهم .

هذا ما في الكشاف ، وفيه أن هذا لايلائم كونه ﷺ رحمة للعالمين ، وجلالة قدره أرفع من الشماتة والانتقام للتشفي لسَورة الغضب ، لأن هذا من انفعالات القوى الجرمانية المتعلقة بالمواد ، وله مقام العندية إلى فوق كل غرض جزئي وجراحة قلبية ، سيما وسياق الآية تدل على كون المجرمين ممن لهم شائبة نورالايمان ، إذلو سقطوا بالكلية عن نورالفطرة واحتجبوا رأساً، وانطمست نفوسهم لغلبة الكفر، وزالت أنوارهم العقلية بالرين ، وانغلقت أبواب المغفرة في حقهم ، لم يقولوا « أَبصَرنَا وَسَمِعنَا » ولم يتمنوا الرجوع لأن يعملوا العمل الصالح ، ولم يكونوا موقنين ، فهؤلاء و ان احتجبوا عن لقاء الله بسبب شدة ميلهم إلى الجهة السفلية ، وانتكاس رؤسهم الى الجرميات والظلمات ، لكنهم لبقاء الاعتماد بالمبدء

والمعاد ، و مرتبة الرسالة الحاصلة لخير العباد ، وتمنيهم الرجوع للعمل الصالح لايخلدون في العقاب ، كمـا توهمه المعتزلة كالزمخشري وأترابه ، بل يعذبون حيناً بحسب رسوخ الهيآت ثم يرجعون إلـى الفطرة ـ كما عليه أكثر الأمة وأصحابنا الإمامية رضوان الله عليهم ـ و شأن النبي ﷺ وعادته بالقياس إلى مثل هؤلاء و من هوأبعد منهم عن الحق ماأفصح الله عنه بقوله :﴿وَأَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ [٨٠ / ٦] وقوله ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [١٨/٦] .

أثر تبصّري

فإن قلت: إن هذا الانكشاف ربما يحصل للمجرمين بعد الموت عند مشاهدة الأحوال ومعاينة الأهوال، فيعلمون بصدق الوعد والوعيد، ويصدقون خبر الرسالة

قلت : هذا القدر من الايقان لايحصل للكفار المطموسة أبصارهم وأسماعهم بالكلية ، المحتجبة نفوسهم بالرين والظلمة الدائمة لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، [٧٢/١٧] فبحكم عكس النقيض: كل من كان في الآخرة بصيراً سميعاً ، فله في الدنيا شيء من نور البصيرة الايمانية، وإن كان في غاية الضعف والقصور والآفة والمرض والعمش والسبل ، لاالعمى والكمه .

سرٌ إفاضي

اعلم إن الله تعالى لماذكر مبدء خلقة الإنسان بحسب كل من أصليه الروحاني والجسماني ، وبيّن كيفية معاده بأنه توجه معنوي لنفوسهم ، وسلوك طريق في الباطن إليه تعالى، إما بالوصول والرجوع إليه تعالى وإلى رضوانه ـ إن كانت من السعداء ، وذلك بتوفي ملك موكل على جذب الأرواح إليه تعالى بطريق مستقيم ـ وإما بالانحراف عن الصراط المستقيم والانتكاس إلى أسفل الجحيم، وذلك بتوفي

ملائكة العذاب ، فحسب إياها على ماذكر فأراد أن يبين أن استئناف هذه الحركة المعنوية للنفوس الغير البالغة حد الكمال ، هل هو متصور أم لا ، فكشف قناع الإبهام عن وجه هذه المسئلة على وجه ظهراستحالة رجوع النفس إلى مبده تكوّنها، كي ينقطع طمع بعض الناس في تجويزالعود إلى الدنيا مرة أُخرى كما ذهب إليه طائفة من التناسخية .

وهذه الاستحالة لايظهر حق الظهورإلابنور الرسالة و ماينتهى إليه لأن عقول العقلاء و أذهان جماهير الحكماء الغير المقتبسين أنوار حكمتهم من مشكاة النبوة والولاية قاصرة عنها، والدلائل علىإبطال التناسخ غيرقاطعة ، ولهذا وقع الخطاب للنبي ﷺ لاختصاصه بمشاهدة أحوالهم على وجه يمتنع لهم الرجوع إلى الدنيا، لصيرورة نفوسهم مصورة بهيئات ردية خرجت بهاعن أصل الفطرة والاستعداد، وبقيت فيها داعية الاستكمال مع بطلان الآلة المعدّة للكمال .

ومماينبهك على بطلان التناسخ واستحالة الرجوع إلى الحالة الأُولى ،مقايستك حال النفس في تطوراتها وشئوناتها بحال البدن في تدرجاته وترقياته من حد الطفولية بل من أول قرارالمني فى الرحم إلى غاية الشيخوخة ، فكماأن للبدن بعدما خرج من القوة و الاستعداد اللذين كانا له حال كونه منياً و في كل حالة من حالات الطفولية والصبوية و المراهقية والشباب و الكهولة و الشيخوخة طوراً إذا بلغ إليه يستحيل له بحسب الطبع أن يرجع إلى حالة سابقة له ، فكذلك قياس النفس في أوقات تكونها وبلوغها إلى مرتبة من الفعلية بعد كونها أمرأساذجاً ولوحاً صافياًوعقلا هيولانياً ، يكون بالقوة من كل الوجوه ، فإذاخرجت عن الهيولانية وصارت بالفعل بسبب اشتغالها بالبدن ، وبسبب استعمالها للحواس والمشاعروالآلات ، سواء فيما خلقت لأجله ، حتى يكون شاكرة، أم لا حتى يصير كفورة ، فلايمكن رجوعها إلى حالتها التي كانت بحسبهابالقوة .

وبهذا الأصل دفعنا شبهة التناسخ بإذن الله وتأييده ، فإن من جوزانتقال النفس

بعد موتها إلى جسدما يتكوّن في الرحم من المني ، يلزم عليه أن يكون شيء واحد بالقوة و بالفعل في مرتبة واحدة ، فتمنى الرجوع إلى أوّل الخلقة و حالة الترابية والهيولية للإنسان كما وقع للكفار على ماحكى الله عنهم بقوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [٧٨/٤٠] تمني أمر مستحيل الحصول .

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٣٢/١١] اشارة لطيفة إلى أن التوجه من هذه النشأة إلى نشئات أخرى أمر منوط بالأسباب القاصية الفاعلية والعلل الذاتية السابقة القضائية ، فيكون التوجه إلى عالم الموت والنشأة الثانية أمراً طبيعياً ، والحركات الطبيعية المنوطة بالأسباب العالية يستحيل عليها الرجوع كما في حركات الأفلاك .

ورأيت في خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه ماترجمته هذا البيت الفارسي :

سوی مرگ است خلق‌را آهنگ   دم‌زدن گام وروز وشب فرسنگ

قوله سبحانه :

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

لما ظهر مما سبق ان رجعة النفوس إلى فطرتها الأصلية بعد اكتسابها طريقة الخذلان والشقاوة والحرمان أمر مستحيل وقعت هيهنا للأذهان الوهمانية مظنة شبهة هي انه لماذا لم يخلق النفوس كلها من الله سعداء من أهل الهداية والرحمة ؟ حتى لايكونوا مجرمين محرومين عن درجات الجنان والسعادة والرضوان ؟

فأزال تعالى هذا الوهم وأزاح إمكان وقوعه في الخارج ، لأن ماهو الواقع على أشرف الإمكانات وترجيح الأخس على الأشرف مستحيل الوقوع من الواهب الحق ، والمحال لايكون مقدوراً عليه ، لأنه لاشيء محض لا ماهية له ، وإنما هو

أمر يخترعه الوهم الكاذب .

فقال : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » بالتوفيق والايمان والإلجاء إياها لسلوك سبيل الرحمة والرضوان ، ولكنه ينافي الحكمة والمصلحة الكلية المقتضية لحفظ النظام على أفضل مايمكن من الوجود والقوام ، إذ لو كان الأمر كما توهّم لبقيت النفوس كلها على طبقة واحدة ، وفات بقاء سائر الطبقات المتصورة في حيّز الإمكان من غير أن يخرج من الكمون والبطون إلى منصّة البروز والظهور، والرحمة مقتضية لايصال كل مستحـق إلى مايليق به ، لئلا يخلو أكثر مراتب هذا العالم عن أربابها ، فيبقى في العدم أمور جمّة غفيرة ، ولايتمشى الأمور الخسيسة ، التي يحتاج إليها في بقاء النفوس الشريفة ، كيف ولولم يكن الكنّاس والحجّام في العالم لاضطر الحكيم إلى مباشرة الكنْس والحجامة .

ولابـد أيضاً في ظهور بعض صفات الله الجلالية من وجـود أهل الحجاب والذلّة والقسوة والظلمة ، البعداء عن الرحمة والمحبة والنور، وإلا فلاينضبط نظام العالم ، ولايتم صلاح المهتدين لوجود الاحتياج إلى سائر الطبقات، كما لوّحنا إليه من أن المظاهر لو كانت كلها أنبياء وأولياء وأخياراً لاختلّ بقائهم بعدم النفوس الغلاظ والشياطين من الإنس والجن، القائمين بعمارة هذا العالم ، ألا ترى إلى ما ورد من قوله تعالى : إني جعلتُ معصية آدم سبباً لعمارة العالم .

فوجب في الحكمة الحقة الإلهية ، التفاوت في الاستعدادات بالقوة والضعف، والصفاء والكدورة ، و ترتّب الدرجات على حسبها ، والحكم بوجود كل طبقة من السعداء والأشقياء في الفضائل والرذائل ، لتجلى الله سبحانه بجميع الصفات ، ويظهر منه جميع أسمائه الحسنى، فإن الغفور، والعفوّ، والعدل، والمنتقم، والتوّاب، والمضل وأمثالها أسماء لايتجلى الحق بها إلا إذا جرى على العبد ذنب .

ولذلك وقع في الحديث : « لولا انكم تذنبون لذهب اللهُ بكم وجاء بقوم يذنبون» وعن النبي ﷺ : «أنين المذنبين أحبُّ إليَّ من زجل المسبّحين».

وإليه الإشارة بقوله : « وَلٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي » أي بحسب اقتضاء العناية الأزلية والقضاء السابق ، وكثيراً ماأُطلق القول والكتابة من قِبل الله سبحانه ، ويراد الفعل من جهة مايوجبه التقدير الأزلي المنوط بالأسباب القصوى الإلهيـة ، كقوله تعالى ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [٢٥/٤١] وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[١٢/٦].

« لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ » أي جهنم الطبيعة السفلية التي ستطلع نيرانها ويبرز ايلام عذابها في الآخرة ، فإن حقيقة نار الجحيم إنمانشأت من هذا العالَم ، وأما ظهورها على الأفئدة ، فهو مختصٌ بيوم الآخرة ، فكما ان الدنيا مملوّة من الكفار والفجار، فكذا جهنم الآخرة مملوة من الجن والإنس أجمعين ، وهم أكثر عمّار هذا العالَم من النفوس المكارة الوهمانية والأرضية الجاسية الغليظة الطبايع،لما مر ان النظام لاينصلح إلا بأن يكون هذا العالَم مشحوناً بالجهلة والأرذال والكفرة والمنافقين ، وان أهل الله لايكونون إلاالأقلين ، مع أنغيرهم من أشخاص المواليد ماخلقت إلا لأجلهم ،لأنهم اللبُّ الأصفىمن شجرة الطبيعة ، والباقي بمنزلة القشور علىمراتبها، فحقّت عليهم كلمةُ العذاب ،كما حقّت على العـود والحطَب الاحتراقُ بالنار ، لما صدر عنهم مايؤدي إلى ذلك على وجه الإختيار المنبعث عن الأسباب الغائبة لاعلى وجه الإلجاء والاضطرار، لأنهم استحبّوا العمىعلىالهدى ، فوقعوا باختيارهم في المحنة والبلوى ، وألقَوا أنفسهم بأيديهم إلى الهلكى .

* * *

فإن قلت : إذاكان الكل بقضاء الله وقدَره فلماذا يعاقب اللهُ من ساقه القدرُ إلى ارتكاب الجرائم والخطيآت ؟

قيل: هذا السؤال منك ناشٍمن جهلك بحقيقة العقوبات الإلهية ، فإنكلاعتيادك بأفاعيل الناقصين من المختارين كإنعامهم على الصديق وانتقامهم عن العدو،الناشين من اعتقاد النفع ودفع ألم الغضب والغيظ ، تعتقد ان العقوبات الأخروية مـن باب الانتقام للتشفي الحاصل منه للمنتقم، فيتخلّص به عن الم التهابنارالغضب ، هيهات

إنما العقاب أمر يتعقب على فعل الخطيآت وهومن اللوازم والتبعات التي يتأدى إليه اقتراف السيئآت، وبالحقيقة النفوس العمّالة في الدنيا هي بعينها حمّالة حطَب نيرانها يوم الآخرة « رُب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلا » بل نفس الشهوة هيهنا يتصور بصورة النار المضرمة هناك .

وقد أفصح الله تعالى عن هذا المعنى في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧/١٨٠] وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [١٦/٣٤] وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [١٨/٢٩] وقوله : (إنما هي أعمالكم ترد إليكم) [1] .

ولهذا عقّب هذه الآية بقوله سبحانه:

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان أمر المعاد وقلّة التأمل فيه و ترك الاستعداد لها .

«والنسيان» خلاف «التذكر» ونسبته إليه تعالى إما من باب صنعة المشاكلة ، كما في قوله سبحانه ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [٤٢/٤٠] و المعنى،إن انهماككم في الشهوات أغفلكم وأنساكم عن معرفة الله وعلم المعاد ، فنسيناكم أى جازيناكم جزاء نسيانكم . وإما لأن علمه تعالى بالممكنات لما كان ناشياً عن علمه تعالى بذاته الذي هو عين ايجاده لها ، ويكون علمه بها تذكراً لها لأنه علمها أولا في مرتبة ذاتها علماً كمالياً اجماليا . ثم علماً في مرتبة متأخرة ، هي عين وجوداتها علماً ثانياً ، و عدم هذا العلم بشيء الذي هو النسيان ، عبارة عن عدم ايجاده إياها عدماً ناشياً عن عدم

(١) في مسلم: (١٣٣/٢٦) إنما هي اعمالكم احصيها لكم.

الاستعدادات وفقدان الأسباب الموجبة إلى نحو كمالي من الوجود ، فإن للوجود والحيوة والنورية مراتب متفاوتة ، ومقابل كل مرتبة منها مرتبة من العدم والموت والظلمة .

فحيوة أهل الايمـان مطلقاً مرتبة لايكون لغيرهم لاختصـاصهم بقوله ﷺ: المؤمنُ حيٌّ في الدارين .

وحيوة الشهداء مرتبة أخرى فوقها لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٣/ ١٧٠]

وحيوة الأولياء مرتبة فوق الجميع لقوله ﷺ : «أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني»[١] وهم الذين قال تعالى فيهم: «من قتلتُه فأنا ديتُه» أي حيوته .

وفرقٌ بين من يكون مرزوقاً عند الرب تعالى ومن يكون يطعمه ويسقيه ربه وكذا فرق بين من يكون حياً عندالرب ومن يكون حيوته بالحق تعالى .

وبازاء كل من هذه الأقسام للحيوة قسم من الموت ، كما قال الله تعالى للكفار ﴿لَا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَٱدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [٢٥/ ١٤].

فالمراد بنسيان المجرمين إياه تعالى هيهنا موت الجهل، لأن معرفته ومعرفة اليوم الآخر يؤديان إلى حيوة الآخرة بلقاء الله ، لأن ذات الله تعالى مبدء الأشياء وغايتها والمعرفة هنا بذر المشاهدة هناك ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ونسيانه تعالى إياهم لازم ، لأنه عبارة عن عدم إفاضة نور الحق عليهم لعدم خروجهم عن غلاف البشرية وحجب الشهوات والتعلقات بالأجرام الكثيفة الدنياوية حتى صاروا عين هذه الحجب وقيل: النسيان هنا بمعنى الترك،أي تركتم ذكر العاقبة ، فتركناكم من الرحمة.

* * *

واعلم إن السعادة الإنسانية منوطة بشيئين : بالعلم الذي هو عبارة عن الايمان

---

(١) البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: ٩/ ١١٩. ورواه أصحاب الصحاح راجع المعجم المفهرس : ٢/ ٤٨١.

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالعمل الذي حاصله تصفية مرآة القلب عن شواغل الدنيا ومستلذاتها ، وترك الأول يوجب السقوط عن درجة أهل القرب والسعادة وانتكاس الرأس، وترك الثاني يوجب العذاب الأليم، فالله سبحانه قدراعى هذه الدقيقة ، فجعل كلّا من الشقاوتين منوطة بما يوجبه ، والمعنى : فذوقوا ما أنتم فيه من نكس الرؤوس إلى عالم الجحيم والخزي والحجاب الدائم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذابَ الخلد الأليم في دار جهنم ، بسبب ما عملتم من ترك النظر في أمر العاقبة وفعل المعاصي الموبقة والكبائر المهلكة ، والإخلاد إلى أرض الطبيعة السفلية، فالموت العقلي والهلاك الأخروي من لوازم الكفر والجهل المركب ، والخلود في عذاب الجحيم ونار الحميم من لوازم الإخلاد إلى شهوات الدنيا وحلاواتها التي هي بعينها آلام مؤذية وسموم مهلكة .

قوله سبحانه :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾

لما ظهر من الآية السابقة كون الشقاوة الأبدية متسبّبة عن الكفر الذي هو ضربٌ من الجهل بالله وآياته واليوم الآخر، وعن النقصان الذي يحصل من فعل المعاصي وترك الطاعات، أراد أن يشير إلى أن أيّ مرتبة من المعرفة يحصل منه السعادة العلمية ويتخلص به من الشقاوة التي بإزائها ، وأيّ مرتبة من العمل الصالح يوجب الفوز بنعيم الجنان ، والنجاة من عذاب النيران .

ولما كان الايمان اسماً جامعاً لمجموع هذين المعنيين ذكر للمؤمن خواص ثلاثة علمية قلبية، وخواص ثلاثة عملية بدنية ، ليبيّن ان مجرد كلمة الشهادة من

غير معرفة برهانية أو كشفية لايوجب الخلاص من الشقاوة الذاتية العلمية ، ومجرد الأعمال البدنية من غير تهذيب الباطن وتصفية القلب لايوجب النجاة من العذاب الأليم .

فالأولى من الصفات العلمية ، كون العبد بكثرة مزاولة المعارف الإلهية بحيث إذا ذكّر بآيات الله ، أي المعارف المذكورة في القرآن ، أوأفيد بالحقائق الايمانية أو وعظ بتقوى الله والزهد الحقيقي ، تذكّر بها واتّعظ بمواعظها واعتبر بأمثالها ، وفهم دثور الدنيا وفنائها ، خاضعاً لآيـات الله ، للين قلبه وصفاء فطرته ساجداً فانياً فيها نازلاً مما كان قبل ذلك من نشأته الحيوانية وعمايعتقده من حوله وقوته وقدرته، وهذا أخص خواص المؤمن الذي لايوجد لغيره كما افصح الله عنه بقوله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤمِنُونَ ٱلذينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم وَإِذَاتُلِيَتْ عَلَيْهِم آيَاتُه زَادَتْهُم ايمَاناً﴾ [٢/٨] لأن هذه خاصية علمية لاتوجد إلافي العارفين بالله وآياته، وهي أساس الدين وأصل سائر الحسنات .

والثانية منها : أن يكون العبد مسبحاً مقدساً ربــه حامداً له ، وهو عبارة عن تجريد ذاته عن صفات الأجسام، واتصافه بصفات الملائكة، وتشبّهه وتخلقه بأخلاق الله، فذلك هوتسبيح المؤمنين حقاً، كما صرح به بعض أئمة العلم والعرفان، ووجه ذلك ان كثرة مزاولة الفعل والرسوخ في الإتصاف بصفة على الكمال يؤدى بصاحبه إلى صيرورته من حقيقة ذلك الفعل وجنس تلك الصفة ، أو لاترى ان كثرة تسخّن الحديد بمجاورة النار بواسطة النفاخات تؤدى به إلى أن يكتسي صورة النارية ويفعل فعلها ، فلاتتعجب من صيرورة المؤمن الحقيقي مفارقاً محضاً كالملائكة المقربين الذين شأنهم التسبيح والتقديس ، لأن دأب العرفاء والحكماء تجريد الحقائق عـن الزوائد والمشخصات ، وتنقيح المقاصد عن الفضول و الحشويات ، والتفرقة بين الذاتي والعرضي في كل باب ، كيف والتعقل ليس معناه في مصطلح القوم إلا هذا التجريد والتوحيد ، فبكثرة فعل التجريد والتوحيد الواقعتين منهم دائماً بلغوا إلى

مرتبة التجرد عن الخلائق ، والتوحيد عن الغواشي البدنية ، حتى عرفوا وشاهدوا تنزيه الباري وتوحيده وحمدوه حق حمده .

والثالثة: إنهم لايستكبرون عن سماع آياته، كما يستكبر عنه من يصر مستكبراً كأن في أذنيه وقراً ، لأنه لايبلغ إلى مقام الايمان إلا بسماع العلوم والآيات ونحوه قوله تعالى : ﴿ إن الذينَ أوتُوا ٱلعِلْمَ مِنْ قَبلِه إذَا يُتلَىٰ عَلَيهِم يَخِرُّون لِلأَذْقَانِ سُجداً وَيَقُولُونَ سُبحَانَ رَبّنَا ﴾ [١٧/١٠٧] ولا يتكبرون أيضاً على أحد بظهور صفات النفس والانانية ، وذلك لفنائهم ذاتاً وصفة واستغراقهم في شهود ذاته تعالى وصفاته كيف والوجود مقصور عندهم على ذاته تعالى وصفاته وأفعاله ، فعلى من يتكبّرون؟

وأما خواصهم الثلاثة العملية فهي التي ذكرها الله في قوله سبحانه :

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

« التجافي عن المضاجع » ظاهراً تنحي أبدانهم عن الفراش ومواضع النوم لصلوة الليل، لأنهم المتهجدون بالليل القائمون عن مواضعهم للصلوة ـ عن الحسن ومجاهد وعطا ، وهو المروي [١] عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

وباطناً تنحي أرواحهم بحسب قواهم العملية عن الغواشي الطبيعية والشواغل الجسمية التي تلي الجنبة السافلة منها ، والقيام عن المضاجع البدنية والخروج عن عالم الأجسام بقطع التعلقات ومحو الآثار ، أو عن عالم الإمكان بمحو الصفات .

روى الواحدي [٢] باسناده عن معاذ بن جبل «قال : بينا نحن مع رسول الله

---

(١) تفسير البرهان: ٣/٢٨٤.

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٦٢. وفيه فروق.

صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك ، وقد أصابنا الحرّ فتفرّق القوم ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآلـه أقربهم مني ، فدنوت منه فقلت : يا رسول الله ! أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار .

قال : سئلتَ عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلوة المكتوبة ، وتؤدي الزكوة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال : وإن شئت أنبأتك بأبواب الجنة[1] ؟

قال : قلت : أجل يارسول الله .

قال : الصوم جُنة ، والصدقة تكفّر الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله تعالى ـ ثم قرء هذه الآية ـ».

وقيل : نزلت في الذين لاينامون حتى يصلّوا العشاء الآخرة .

وعن أنس[2] : نزلت فينا معاشر الأنصار ،كنا نصلّي المغرب فلانرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء الآخرة مع رسول الله ﷺ .

وقيل: هم الذين يصلون مابين المغرب والعشاء الآخرة ، وهي صلوة الأوابين.

وأما دعائهم ربهم : فهو توجههم إلى التوحيد ومقام العندية ، وعبادتهم بمقتضى العبودية خوفاً من سخط الله والتردي في مهوى الطرد والبُعد ، أو من جهة الاحتجاب بصفات النفس وطمعاً في بقاء ذاته ـ إن كان من المقربين ـ وفي رحمة الله وجنانه ، إن كان من أهل العمل .

وعن رسول الله ﷺ[3] - «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ،

---

(١) المصدر: الخير.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٢.

(٣) ما يقرب منه في الدر المنثور: ٥/١٧٦.

جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم .

ثم يرجع فينادي لِيقُم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيقومون وهم قليل .

ثم يرجع فينادي : لِيقُم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء ، فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعاً إلى الجنة ، ثم يحاسب سائر الناس» .

وأما انفاقهم مما رزقوا : فهو ايتاؤهم الزكوة من المال وتعليمهم المعارف والحقائق على أهل الاستعداد .

قوله سبحانه :

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

أي لا تعلم نفس من النفوس ـ لاملَك مقرب ولا نبي مرسل ـ ما ادّخر الله لأولئك الموصوفين بالأوصاف المذكورة وأخفاه لهم من جميع خلائقه ، لايعلمه إلا هو مما يقرّ به عيونهم من جمال الذات ولقاء نورالأنوار ، فيجدون من اللذة والسرور مالايبلغ كنهه ولايمكن وصفه ،كما في الحديث الرباني[1] : «أعددتُ لعبادي الصالحين مالاعين رأتْ ولاأذن سمعتْ ولاخطرَ على قلب بشر» جزاءاً بمـا كانوا يعلمون من الأعمال القلبية والتأملات القدسية ، المستلزمة للأعمال البدنية على وفق أحكام التجليات وشروق الإفاضات .

(١) ابن ماجة: كتاب الزهد، باب صفة الجنة: ١٤٤٧/٢.

اشراق فرقاني

اعلم إن أسعد الخلق في الآخرة أقواهم حباًلله وأشدهم شوقاً للقائه ، فإن معنى الآخرة القدوم على الله ودرك سعادة لقائه ، وما أعظم نعيم المحب المستهتر إذا قدم علي محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير مزاحم ومكدر ومنغض ورقيب وخوف الانقطاع ، إلا ان هذا النعيم على قدر الحب واستيلائه وشدته ، وإن لم ينفك عن أصل المحبة مؤمن ، كما لاينفك عباده عن أصل المعرفة ، وإلا لم يكن المؤمن مؤمناً ـ هذا خلف ـ .

وإنما يحصل ذلك بشيئين :

أحدهما : قطع العلائق وإخراج حب الدنيا وما فيها من القلب ، فبقدر ما يشغل القلب بغير الله ينقص منه حب الله ويفرغ إناء قلبه عن ذكر الله بقدر اشتغاله بغيره ، لأن قلب كل أحد واحد : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [٣٣/٤] والكفر عبارة عن امتلاء القلب بمحبة الباطل ، وكل ماسوى الله باطل دون وجهه الكريم ، والمحب التام المحبة لله من امتلاء قلبه من محبته ، وإليه الإشارة بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [٩١/٦] بل هو معنى قول ﴿ لَاإِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ على التحقيق ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، ولذلك قال ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [٤٥/٢٣] وفي الحديث عنه ﷺ : **أبغض إله عُبد في الأرض الهوى** [١] ، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَن قال لاإله إلاالله مخلصاً وجبت له الجنة» ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلايبقى فيه شركة لغير الله ، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه ، لأنها مانعة له عن مشاهدة محبوبه ، وموته خلاصه من السجن وقدومه على محبوبه .

---

(١) في الدر المنثور (٧٣/٥): قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): ما تحت ظل السماء من اله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع.

والسبب الثاني لقوة المحبة قوة المعرفة لله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وذلك بعد تطهيره من الشواغل وهي بمنزلة وضع البذر في الأرض بعد تطهيرها من الحشيش، فيتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة، وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلا في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ [٢٤/١٤] وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [٣٥ر١٠] فهي المعرفة، نعم والعمل الصالح يرفعه ويحركه، ولذلك قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣٢ر١٧] لأن العمل الصالح كالحامل (كالخادم-ن) له، وإنما فائدة العمل كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ثم في إدامة طهارته، وأصل الطهارة والصفاء لكونه أمراً عدمياً لايراد لنفسه بل لهذه المعرفة، وكذا العلم المتعلق بكيفية العمل يراد للعمل، فالعلم هو الأول والآخر.

تتمة

الواصلون إلى هذه النعمة العظيمة ينقسمون إلى الأقوياء والضعفاء، فالسابقون الأولون هم الذين درجتهم درجة العقول القادسة والملائكة المهيمة، أول معرفتهم لله تعالى وبه يعرفون غيره، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٤١ر٥٣] وبقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [٣ر١٨].

ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بمَ عرفت ربّك؟ فقال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي ماعرفت ربي.

واللاحقون التالون هم الذين درجتهم درجة النفوس الكلية والملائكة المدبرة، فيكون أول معرفتهم بالأفعال، ثم يترقون منه إلى صفات الله، ثم إلى ذاته، فالله سبحانه غاية أفكارهم كما ان الله فاعل أفكار الأولين، وإلى هؤلاء الإشارة بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [٥٣/٤١] وبقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [١٨٥/٧] وبقوله: ﴿قُلْ

انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[١٠/١٠١] وبقوله: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين﴾ ـ الاية ـ [٦٧/٣-٤].

وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين، وهو الأوسع على السالكين، ولهذا وقعت دعوة القرآن إليه أكثر، والأمر بالتدبر والتفكر في بدائع الفطرة والاعتبار والنظر في آيات الآفاق والانفس خارج عن الحصر، إذ النجاة من العذاب الدائم موقوفٌ على حب الله تعالى، وعدم الإشراك فيه، وهو متوقف على المعرفة، فطلبُه واجب لكونه مقدمة أمر واجب هو الخلاص من العقاب الدائم، وما لايتم واجب المطلق إلا به فهو واجب، فطلبُ المعرفة والعلم بالله فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ايضاح تفصيليٌ

لك أن تقول إن كِلاالطريقين وعرٌ وصعبٌ، فأوضح منهما مايستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل بها إلى المحبة.

فاعلم إن الطريق الأعلى والمشرب الأصفى عن شوب الإشراك هو الاستشهاد بالحق على سائر الخلق كما هو الواقع، فإن وجود الموجودات رشح وتبع لوجوده، فينبغي أن يكون المعلوم المشهود على وفق الواقع الموجود، إلا انه غامض دقيق، والكلام فيه خارج عن فهم أكثر الخلائق، فلافائدة في ايراده في الكتاب والتعاليم.

وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الإفهام، وإنما قصُرت عنه أفهام الأكثرين لإعراضهم عن التدبر في الآيات، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس.

والمشتغلون بهذا الطريق الأسهل إما أن يكون نظرهم في مايقبل الفساد والتغيّر والحركة والزمان، وموضوع علمهم الأجسام الطبيعية والفلكية و العنصرية من

الحيثية المذكورة، وبحثهم عن معرفة أنواعها وعوارضها الذاتي بالبرهان المستفاد من العلة القريبة كالمادة والصورة في الإدراك التصديقي أو بالحد المستفاد من الجنس والفصل في الإدراك التصوري ، فيسمى علمهم علماً طبيعياً، وهم الحكماء الطبيعيون الذين يصلون إلى معرفة الله تعالى والاعتقاد بوجود ذاته وصفاته وأفعاله من طريق الحركة وعوارضها، وبهذا الطريق سلك الخليلُ عليه السلام على ماحكى الله عنه بقوله : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ الاية [٧٦/٦] .

وإن كان نظرهم في حقائق الممكنات مطلقاً ومباديها وغاياتها الثابتة الخارجة عن الحركة والزمان ، وموضوع علمهم الموجود المفارق عن المادة ولواحقها في الوجود و التعقل جميعاً ، وبحثهم عن اثبات أنواعه و عوارضه بالبرهان الضروري الأزلي الدائم ، المستفاد من فاعل الوجود وغايته ، وبالحد المستفاد منهما أيضاً ، إذ الصورة في المفارقات غير مفتقرة إلى علّة مقارنة ، بل انما يتقوم ذاته وماهيته مما يتقوم به وجوده، لما تقرر هناك ان « لِمَ هو » و« ما هو » في البسائط المفارقة شيء واحد ، فيكون معرفتهم هذه علماً إلهياً وهم الحكماء الإلهيون ، لأن غاية معرفتهم وحكمتهم هو الوصول إلى الحق الأول ومجاوريه من الملكوت الأعلى.

بل غاية هذين العلمين جميعاً وثمرتهما معرفة الباري جلت أسمائه إلا ان في الأدون منهما حصلت بتوسط معرفة النفس التي هي مرقاة معرفة الرب ، كما في الحديث المشهور [١] وفي الأعلى من غير توسطها .

* * *

وأما الطريقة التي هي فوق تينك الطريقتين، فهي التوصّل إلى معرفة ذاته تعالى بذاته : وذلك بأن ينظر أولا إلى نور الوجود المنتشر في أهوية ماهيات الممكنات المنبسط على سطوح هياكل الممكنات ، ثم يعرف من حقيقته المطلقة التي هي أجلى من كل متصور وأول كل تصور تقدمه على كل شيء له ماهية غير الوجود ، حتى

---

(١) من عرف نفسه فقد عرف ربه.

يتكشف له ما نفس حقيقة الوجود المحض المجرد عن كل موضوع ومحل، والمستغني عن كل سبب فاعلي أو غائي كالماهيات أو مقوّم فصلي كالأنواع، أو مقسم كالأجناس أو مشخّص كالكلي مطلقاً، أو صوري كالمواد ، أو مادي كالصوَر والأعراض، أو الجميع كالأجسام ، لأن كُلّاً من هذه الأمور يسقط أوليته وتقدمه فيعلم إنه بسيط الحقيقة من كل الوجوه، غنيٌّ عما سواه ، مفتقر إليه ما سواه دفعاً للدور والتسلسل ، فيعلم من هذا إن صفاته الكمالية عين ذاته والجميع أمر واحد فلا تكثر [في] الواجب بالذات، فيكون الباري أحديّ الذات والصفات جميعاً، فيكون خالقيته بما هو ذاته ووجوده .

فإذا علم ذاته وصفاته على هذا الوجه وعلم أن ذاته وصفاته [واحد] يعلم أفعاله، وأنها نهج واحد مستمر لقوله : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [٣٣-٦٢] فيعلم أن أول ما صدر يجب أن يكون جوهراً قدسياً ثم جوهراً آخر كذلك إلى ما شاء الله من سلسلة الملائكة المقدسين ، وبتوسط أولئك المقربين سلسلة أخرى من النفوس المجردة ضرباً من التجرد وضرباً من التعلق بالأجرام الدوارة شوقاً وطرباً إلى لقاء الله لورود الإشراقات العقلية المتتالية على ذواتهم، لكل منها بواسطة علة مفارقة قريبة مختصة، وذلك لاختلاف الحركات والآثار الدالة على اختلاف الوسائل لئلا ينثلم وحدة الباري جل مجده ، وبالجملة ينتقل من كل عال إلى سافل ويعرف من خاصية كل فاعل كيفية فعله وأثره إلى أن يستقصى الموجودات ويحيط بالعالم الموجود بنور مبدع الوجود ، وهذه طريقة الصديقين الذين يعرفون بنور الحق ما سواه ، ولا يستدلون على نور الوجود بهذه الظلام ، ولا على صباح الفطرة بليالي هذه الأجسام .

تتمة

ثم إن قوله تعالى «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون » قد حسم عرق أطماع المتمنين وقلع باب اغترارات المعطّلين القاعدين عن تحصيل العلم والعرفان ، ظناً منهم ان مجرد دعوى الايمان أو التشبث بأئمة هذا المذهب أو صورة الأعمال الظاهرة يؤدي إلى نعيم الجنان ، أو رضوان من العزيز الرحمان ، من غير معرفة السبب المجازي

ومن غير تحقق الوجه الذي يؤدي العمل به إلى حصول الثمرة الأخروية التي بذرها المعرفة الثابتة في القلب أولا ، وهذه الأعمال بمنزلة السقي لها .

إذ التحقيق ان وجود الاعتقادات الايمانية والمعارف الإلهية إذا قوي في الباطن واشتد رسوخها في القلب يؤدي بصاحبها إلى صورة النعيم الأخروي ، بل هذه سيصير هي إذا رسخت في الباطن ، كما أن الميل إلى اللذات الحسية والاعتقاد بوجودها وركون النفس إليها والإخلاد إلى عالمها، إذا تكررت ورسخت في الباطن ينجر إلى عذاب الجحيم كما أشرنا إليه سابقاً .

وفي القرآن آيات كثيرة دالة على ثبوت هذا الانجرار ، كقوله تعالى في الأعراف : ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٧ر٤٣] وكقوله تعالى في يس : ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣٦ر٥٤] وفي النجم ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ﴾ [٥٣ر٣٩-٤٢] وكما في قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[٦ر١٣٩] وقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ [٣ر٣٠] وقوله : ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَافِرِينَ﴾ [٢٩ر٥٤] وقوله في سورة الشورى : ﴿تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [٤٢ر٢٢] إلى غير ذلك من الآيات .

ومما يدل أيضاً على أن السعادة الأخروية والقرب عند الله والوصول إلى الخير الحقيقي منوطة بالحكمة والمعرفة ، والله الهادي والموفق لهما ، وأن الصارف للإنسان عن طلبها والباعث عن الإعراض عنها والرضاء بالجهل هو الشيطان اللعين الباعث لطلب الجاه والدنيا والشهرة عند الناس والخوف عن زوال الثروة والعزة قوله سبحانه : ﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ﴾ [٢ر٢٦٩] .

وكما ان السّعادة الأخروية منوطة بالحكمة ، فكذلك التوغل في الدنيا

والتوسع في لذاتها وشهواتها مرتبطة بنسيان الحكمة وترك التدبّر في الآيات وفهم المعارف والبيّنات ، لقوله : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [٦ر٤٤] الآية وأمّا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [٦ر٤٩] فهو إشارة إلى عاقبة هذه اللذات الدنياوية ، فالإعراض عن الحكمة والمعرفة والتكذيب بالآيات البينات ممايفتح على النفس أبواب التنعّمات في الدنيا، وحقيقة هذه الشهوات ليست في القيامة إلاصورة النار والحسرة والندامة ، والدنيا هي هنامتاع قليل ، وفي الآخرة عذاب شديد ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ [٢ر١٢٦] .

وقس على ذلك أيضاقوله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [٢٠ر١٢٤] فإن المراد من تلك المعيشة الضنك ماهي بحسب النشأة الآخرة ، ولهذا عقّبه بقوله : ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [٢٠ر١٢٤ - ١٢٦] والعاقل ينبغي أن يرجع إلى ذاته ويتأمل في نفسه ، ويطرد عن باطنه التعصب والعناد والاستكبار، والسُكر الحاصل له بجاه مستحقر واشتغال بعلوم جزئية فينحصر عنده الآيات الدالة على حقيقة القرآن ووصفه، وماهية الرسول المنزل إليه كتاب الله ونعته، بحسب ماهو الداخل في قوام كل منهما غير الأوصاف الخارجة عن ملاك الأمر فيهما، فيرى هل يجد فيها دلالة على فضلهما وشرفهما إلامن جهة مزية علمية، وفضيلة حكمية لهما على سائر الكتب وسائر الناس ، لاأظن عاقلا في مرية من هذا .

وهي كقوله تعالى في نعت القرآن : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٥/١٥-١٦] .

وكقوله في نعت الرسول ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٦٢ر٢] .

وقال سبحانه في صفة أهل الايمان : ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [١٢،٥٧] .

و مما يدلّ على أن العلماء بالله ورسوله أهل الايمان خاصة قوله تعالى : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ الذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [٦،٣٤] وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ [١٩،١٣] .

كذلك من تصفّح كلام الله وحديث رسولهﷺ وكلمات الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ، يعرف ان رأس الشقاوة كلها هو الكفر بالله وصفاته وأفعاله واليوم الآخر ، وليس الكفر إلا ضرب من الجهل المضاد للحكمة ، كقوله سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [١٤٧،٧] .

ومما يدل على أن الجهل والنسيان منشأ العذاب في الآخرة قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ [١٠٩،١٦] .

وكقوله تعالى في مذمة أهل الجحود : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُعْرِضُونَ﴾ [٨،٢٠-٢٢] .

وقوله سبحانه في مذمة المعرضين عن الحكمة : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [١٨،٥٧] .

وقد جعل الله سبحانه الرجس على النفوس الجاهلة الغير العارفة بحقائق الايمان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٠،١٠٠] والسر فيه إن من لم يبلغ إلى درجة يصير نفسه عقلا بالفعل ولم يرد إلا مايدركه الحواس، فهو متعلق الوجود بالأجساد الدنياوية وأرجاسها الشهوية والغضبية

مثل الكلب والخنزير، والدنيا دار النجاسة وطالبها الأرجاس والأنجاس لقوله عليه السلام: «الدنيا جيفة وطالبها كلاب» وفي الحديث[٢] : «الدنيا ملعونة وملعون ما فيها».

والآيات الدالة على أن منشأ العذاب في الآخرة هو الجهل والإعراض عن تعلم الحكمة والمعرفة كثيرة لا تحصى ، إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين .

قوله سبحانه :

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

وكلمة «مَنْ» في الموضعين مفردٌ لفظاً مجموعٌ معنى، فبالاعتبار الأول أورد «كان مؤمناً» و«كان فاسقاً» محمولين على اللفظ ، وأورد «لايستوون» حملا على المفهوم كما يدل عليه قوله : « أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » « وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا » ومثله قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [٤٧ر١٦] .

والمراد « بالفاسق » هنا الكافر لخروجه عن الايمان لما في الآية التالية من ذكر عدم الخروج والتكذيب .

قال ابن أبي ليلى نزلت في علي بن ابيطالب عليه السلام ورجل من قريش ، وقال غيره نزلت هذه الآية إلى قوله : «« لَعَلَّهُم يَرجِعُون »» فيه عليه السلام والوليد بن عقبة ، فالمؤمن علي عليه السلام والفاسق الوليد ، وذلك انه قال لعلي عليه السلام : « أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً » فقال عليه السلام : « ليس كما تقول يافاسق » قال قتادة : « لا والله مااستويا ، لافي الدنيا ولاعند الموت ولافي الآخرة » .

---

(١) بحار الانوار: ٨٠/٧٧ و ٩٩. الجامع الصغير: باب الدال ١٧/٢.

مكاشفة

إنه لما علم مماسبق غاية خسّة الكافروالفاسق بحيث ينزل درجتهم عن درجة الأنعام والبهائم لقوله : «ذُوقُوا عَذَابَ ٱلخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ» وغاية درجة المؤمن بحيث يعلو ويفوق على كثير من خلقه تعالى ، حتى ضروب من ملائكة الله لقوله تعالى: ﴿فَلَاتَعلَمُ نَفسٌ مَاأُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءاً بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ فيتوهم هيهنا للنفوس الغير المتدرّبة في العلوم الدقيقة والأنظار اللطيفة العميقة ، إن أفراد الإنسان لماكانت متساوية الحقيقة فيمتنع أن يصيربعضُهم أعلى عليين وبعضهم أسفل سافلين .

والجواب بأن هذه التفاوت إنما يكون بالعوارض الغريبة التي لامدخلية لها في تقوّم شيء من الأفراد غيرمنجّح (صحيح ـ ن) ولايقبله الطبائع السليمة ، كيف والسبب الاتفاقي لايكون دائماً ولا أكثريا ، فلابد أن يكون علة خلود المؤمن في الجنة وعلة خلود الكافر في النار أمراً داخلا في تجوهر العبد وحقيقته وذاته ، بل الحق الحقيق بالتصديق ان الإنسان بحسب النشأة الاخروية أنواع مختلفة حسب اختلاف الاخلاق والملكات الراسخة في باطنه ، وستظهرفي القيامة بصورها المناسبة لمعانيها المتخالفة الحقائق .

وممن تفطن بهذا المطلب المنكشف بنورالقرآن واحد من الفلاسفة المعروف بفرفوريوس، القائل باتحاد العاقل والمعقول، لكن لم يبلغ نظره إلى مرتبة البالغين من رجال هذا الدين المتين ، الذي هو صراط السالكين إلى عالم الحق واليقين ، فالله سبحانه رفع نقاب الاختفاء وكشف غطاء الامتراء عن المحجة البيضاء ، وبين هيهنا نفي المماثلة بين المؤمن والكافر في الذات والحقيقة ، وسلب المساواة بين العارف والمنكر في درجة الماهية ، كما في قوله تعالى : «« هَلْ يَستَوِى ٱلَّذِينَ يَعلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَايَعلَمُونَ »» [٣٩ر٩] .

وفي القرآن آيات كثيرة دالّة على أن الإنسان بحسب النشأة الباطنية متخالف النوع متباثن الحقيقة والصورة، سيما التخالف بين المؤمن والكافر والعالم والجاهل، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [٣٦ر٥٩] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [٩٨ر٦-٧] وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [٦٨ر٣٥].

ومن الشواهد الدالة على هذا المطلب قوله سبحانه في حق المؤمنين ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢ر٢٥٧].

وفي حق الكافرين: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢/٢٥٧] وكذا قوله في حق المؤمنين ﴿أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وفي حق الكافرين ﴿أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ تنبيه بليغ على اثبات ما ادعيناه.

ومما يدل أيضاً في الحديث قوله ﷺ: «يُحشر الناس على صوَر نياتهم»[1] وقوله ﷺ «يُحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير».

ولولا مخافة الاطناب لأوردت هيهنا برهاناً تفصيليا على هذا المطلب ممّا ألهمني الله به يتبين منه كون الإنسان متخالف الماهية في الباطن بحسب مايخرج عقله الهيولاني من القوة إلى الفعل، وإن كان نوعاً واحداً في الظاهر بحسب مايخرج مادته الجسمانية من القوة إلى الفعل ويتبيّن إن نفسه الناطقة صورة الصور في هذا العالم ومادة المواد في عالم آخر ـ إن هذا لَبلاغاً لقوم عابدين.

(١) المسند: ٢/٣٩٢.

قوله سبحانه :

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

﴿جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ نوع من الجنان، كل منها غاية مايمكن لطائفة من الناس أن يبلغ إليها بقوة الايمان والعمل الصالح ، لأن صيغة الجمع تدل على أنها مراتب متفاوتة ، قال جلّ عزه: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [١٥/٥٣] .

وقيل: سمّيت بذلك لما روي عن ابن عباس، قال: تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش - وقرء : « جنة المأوى » - على الإفراد - .

و«النزل» عطاء النازل ، ثم عمّم .

والمعنى : لما فارق الحق سبحانه في الآية السابقة بين المؤمن والكافر في الحقيقة والمرتبة ، ونفى عنهما المساوات ، أراد أن ينبّه على ذلك بتفصيل دواعي كل واحدة من هاتين الطائفتين عن الأخرى والفرق بين أعراضهما وغاية قصودهما ونهاية توجههما ، لأن تباين المأوى الطبيعي يدل على تباين الطبيعة المقتضية ، فإن لكل طبيعة حيّزاً طبيعياً ، ولكل من الطيور مأوى خاصاً ، والتعبير عن مقام كل من القبيلتين بالمأوى تنبيه بليغ لمن وفّق لإدراك الإشارات القرآنية والآيات الإلهية على أن السعيد مفطور في أن يعمل عمل أهل الجنة والشقي مفطور في أن يعمل أعمال أهل النار ، وهما طالبان بالإختيار لما قدّر لهما في دار القرار .

وأما قوله في حق الكفار: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا - من غم - أُعِيدُوا

فيها﴾ فهو نعي لهم وبيان لكيفية تردّيهم إلى عالم البوار، فإن أحد الداعيين المقتضيين إذا كان جبليّاً والآخر عرضياً اتفاقياً فلا محـالة يغلب الأول على الثاني بـالآخرة، أولا ترى ان عمّال الدنيا وأهل الحِرَف والمتوغلين في الشواغل الحسية كلما بلغوا إلى صحبة الخائضين في العلوم واستطابوا حالتهم واستنشقوا روائحهم وتهوّسوا الوصول إلى مرتبتهم والخروج من ظلمة الجهالة وضيق النقص وخسّة الرذالة إلى نور العلم وفسحة الكمال وشرف العرفان، غلبت عليهم شقوتهم وقويت فيهم جواذب الطبيعة السفلية، وأهبطهم ثقل الأوزار والأثقال والتعلقات مثل السلاسل والأغلال حتى توصلهم إلى أسفل درك الجحيم، لاستيلاء الميل السفلي عليهم، وقهر الملكوت الأرضي بسبب رسوخ الهيئات الذميمة.

والآيات الدالة على أن أهل الحجاب الكلي والمتوغلين في الحسيات اضطروا إلى التردى والتقلب في النار كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [٢/١٦٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٥/٣٦] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ [٥/٣٧] وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٥/٤١] وقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [٢/١٢٦].

والسبب العقلي فيه إن الجحيم الأخروي من جنس هذه الدار، فكل من غلب عليه جهة الحس والمحسوسات ولم يصدق بوجود عالم آخر ضميراً واعتقاداً وإن أقرّ به قولاً و لساناً، وليس له رتبة الوصول إلى حقائق الايمان، ولا العمل بمقتضاه والسلوك على وفق مؤداه ولا يخرج طير روحه أبداً من قفص هذا العالم، فمآله إلى الجحيم وله عذاب مقيم.

قوله سبحانه :

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

اختلف المفسرون في ماهو المراد من العذاب الأدنى ، فقيل : هو المصائب والمحن في الأنفس والأموال ـ عن أبي بن كعب وابن عباس وأبي العالية والحسن ـ وقيل : هو الأسر والقتل يوم بدر ـ عن ابن مسعود وقتادة والسدي ـ وقيل : مامحنوا به من السنة والجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والكلاب ـ عن مقاتل ـ وقيل : هو الحدود ـ عن عكرمة وابن عباس ـ وقيل : هو عذاب القبر ـ عن مجاهد ـ وروي أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام [1] والأكثر في الرواية عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام [2] : إن العذاب الأدنى الدابة والدجال .

وأما العذاب الأكبر فهو عذاب الآخرة بالاتفاق .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي ليرجعوا إلى الحق ويتوبوا من الكفر ، وقيل : ليرجع الآخرون عن أن يذنبوا مثل ذنوبهم ، وقيل : لعلهم يرجعون أي يريدون الرجوع إلى الدنيا ويطلبونه ، كقوله تعالى : ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [١٢/٣٢] .

والظاهر ان هذا الوجه ناظر إلى كلام من وجّه حمل العذاب الأدنى بعذاب القبر ـ كما نقل عن مجاهد ـ وهو ليس بشيء ، لأنه يلزم تعليل فعل الله تعالى بأمر عبث لافائدة فيه ، فإن إرادة الرجوع منهم إلى الدنيا بعد القيامة إرادة أمر مستحيل الوقوع كما مر ، فلا يجوز أن يكون إذاقة العذاب إياهم من الله معللة بتلك الإرادة الوهمية الجزافية ، اللهم إلا أن يقال نفس تلك الإرادة نوع من الالم والعذاب فيهم ـ وهو كما ترى ـ .

ولا يبعد أن يراد من العذاب الأدنى نفس البقاء في الدنيا والبشرية ، فإن

(١ ـ ٢) مجمع البيان: ٤/٣٣٢.

البشرية كلها عذاب ، وهو منشأ عذاب القبر، بل القبر الحقيقي هو الكون في حفرة هذا القالب الدنياوي وهو موت الروح وعذابه .

وسئل عن بعض الأكابر من العذاب في القبر، فقال القبر كله عذاب ، إلا انه قبرٌ متحرك ،كما قيل : در حبس چرخ گور روانست اين تنم .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ : **من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي فلينظر إليّ** .

مشكوة فيها مصباح

إن مفهوم الترجّي المستفاد من لفظ « لعلهم » هيهنا وفي مواضع كثيرة من القرآن مما استصعب القوم استناده إلى الله تعالى،لكونه يستعمل فيما لاقطع لوجوده من الاحتمالات المرجوّة الوقوع ، والله محيط بالأشياء من غير احتجاب وخفاء عليه ، وأيضاً «لعل» من الله إرادة ، وإرادة الله إذا تعلقت بشيء كان ثابتاً ولم يمتنع تحققه ، وتوبتهم مستحيلة الوقوع ، وإلا لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر ، و لم أجد في كلام أحد من الناظرين في الكلام والباحثين في علم الكلام ، مابه يطمئن القلب ويسكن الروع ، وكنت منتظراً حتى يأتي الله بأمر كان مفعولا [[1] أما المذكور في أقوالهم فوجوه :

أحدها : إن الترجي راجع إلى العباد لا إلى الله تعالى كقوله : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [٢٠/٤٤] أي اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في ايمانه ، ثم الله عالمٌ بما يؤول إليه أمره .

وثانيها : إن من ديدن الملوك أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطّنون أنفسهم لانجازها على أن يقولوا : « عسى ولعلّ » وحينئذ لايبقى لطالب ماعندهم شك في الفوز والنجاح بالمطلوب .

(١) ما بين المعقفتين غير موجودة في المطبوعة.

وثالثها : إنه جاء على طريق الأطماع دون التحقق ، لئلا يتكل العباد مثل : ﴿تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُم أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُم﴾ [٨/٦٦] .

ورابعها : إنه وضع « لعل » موقع المجاز لاالحقيقة ، لأن الله عزوجل خلق عباده ليستعبدهم بالتكليف وركب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلل فيأقدارهم وتمكنهم ، وهداهم النجدين، وأراد منهم أنيتقوا ويتوبوا إليه ليرجح أمرهم وهم مختارون بين الطاعة والعصيان ، كما ترجحت حال المرتجي بين أن يفعل وأن لايفعل، ونظيره قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [٧/١١] وقيل : لعل بمعنى «كي» ووجه بأنها للإطماع ، والإطماع من الكريم يجري مجرى المختار.

وخامسها : ماقال القفال وهو أن في «لعل» معنى التكرير والتأكيد ، إذ اللام للابتداء ، نحو «لقد» ولقولهم « علّك » أي تفعل كذا و« علّ » يفيد التكرير ، و منه العلّ بعد النهل ، فقول القائل : « افعل كذا لعلك تظفر بحاجتك » معناه : افعل فإن فعلك يؤكد طلبك ويقويك] .

* * *

وأما ماألهمني الله به وقذف فيقلبي من نوره ، وهوأن لعلم الله تعالىوإرادته مراتب متفاوتة في النزول ، فكما ان لعلمه مرتبة كمالية هي نفس ذاته بذاته ، إذ بذاته يعلم جميع الأشياء الكلية و الجزئية ، وهذا العلم ليس متكثراً بل علم واحد اجمالي ، هو واجب بالذات وهو مرآة كل الحقائق ومجلى جميع الرقائق ، وبعد ذلك مرتبة تفصيل المعقولات الكلية ، وهومرتبة القضاء الإلهي وهي مفاتيح الغيب، لقوله : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَايَعلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [٥٩/٦] وهي أيضاً خزائن الرحمة لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [٢١/١٥] ثم بعده مرتبة الجزئيات والشخصيات المقدرة بأوقاتها وأزمنتها المثبتة بهيئاتها في كتاب لايجليها لوقتها إلا هو، وهذه المرتبة «عالم القدر» لقوله : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [٢١/١٥] وهذا هو«كتاب المحووالاثبات» كما ان السابق «اللوح المحفوظ» لقوله : ﴿يَمْحُو

ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ [١٣/٣٩] .

وبعد ذلك مرتبة وجودات المعلومات في موادها الخارجية الجزئية المكتوبة بمداد الهيولى التي تسمى « بالبحر المسجور » و« الكتاب المبين » ، كما أشير في قوله: ﴿لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ـ الآية﴾ [١٨ر١٠٩] وفي قوله ﴿لَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٦ر٥٩] وهاتان المرتبتان قابلتان للتغيير ، وبهاتين الأخيرتين يتّضح (بسترجع ـ خ) عروض التغيّر في علمه تعالى بالحوادث من حيث هومعلوم ، لابماهوعلم، وإن كاناأمراً واحداً بالذات ، وهذا ممالايعلمه إلاالمحققون المحقون ، المتحققون بالشهود .

فكذلك الحكم في مراتب إرادته، فإن علمه تعالى بالأشياء بعينه إرادته بمعنى مراديته لماثبت بالبرهان والكشف أن صفاته الكمالية كلهابعينه حقيقة واحدة، وبمعنى واحد بلا اختلاف حيثيات ولا تعدد جهات إلا بمجرد التعبير .

فإذا علمتَ هذا اتّضح لك حق الايضاح من مشكاة هذا المصباح كيفية نسبة هذه المفهومات التجددية والمعاني الإمتحانية الاختيارية ، التي بإزاء بعض الألفاظ الواردة في القرآن ، المتكررة ذكرها كهذا اللفظ ، وكلفظ « الابتلاء » في قوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ وقوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ﴾ وقوله ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وكلفظ «الدعاء» و «التعجب» و« الاستفهام » ، كقوله : ﴿قُتِلَ ٱلإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [٨٠ر١٧] وقوله ﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [٩/٣٠] .

وأمثال هذه ونظائرها كثيرة في القرآن ، فافهم واغتنم وتثبّت فيها ولاتكن من الخابطين ، ولا تتصرّف في كتاب الله بإخراجها عن معانيها الأصلية من غير ضرورة داعية ، واحملها على الحقيقة ، ولا تُنكر ما لم تسمعه من أحد ولم تبلغك بالنقول ولا وصل إليك من العقول ، ولا تنحصر العلوم فيما سمعته أوفهمته ، فإن لله لطائف رحمة في قلوب عباده، وكمال بدائع صنع في أراضي بلاده ، فلا تتعجب من هبوب رياح رحمته ونزول أمطارعنايته ورأفته على من يشاء وهورؤوف رحيم، واتل قوله : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [١٢ر٧٦] ،

قوله سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي لا أحد أظلم لنفسه ممن نُبّه على حجج الله وبيناته التي توصله إلى درجة الكمال وقرب المهيمن المتعال، ثم أعرض عنها جانباً ولم ينظر فيها، لأن منشأ الإعراض الجحود والانكار والجهل والاستكبار، ولفظ «ثم» يستعمل في هذا الموضع للاستبعاد، والمعنى، إن هذا القسم من الإعراض مستبعَد في العقل ، كما تقول لصاحبك : « وقع بيدك مثلُ تلك الفرصة ، ثم لـم تنتهزها » استبعاداً لتركه ، والله ينتقم منهم بأن يعاقبهم بما يستدعيه إعراضهم عن آيات الله من العذاب الدائم والعقاب الأليم الحاصل من الطرد والابعاد والسقوط عن مقتضى الفطرة .

ايضاح فرقاني

مفهوم الآية تدل على أن المراد من لفظ الموصول هم المنافقون المستعدون بحسب نفوسهم تذكر الآيات، لا النفوس الجرمانية الظلمانية الصمّ البُكم العُمي الذين لا يعقلون ، وهم المختوم على قلوبهم رأساً ، فإن الإعراض عـن المعارف والحِكم والآيات عند ذكرها المستدعي لضرب من التذكر إنما يتصور فيمن له نوع من الفطانة البتراء والاستبداد بالرأي الذي قلّ من ينفكّ عنه المشتغلون بالأبحاث والعلوم الجزئية، وهؤلاء أشدّ عذاباً يوم القيامة من الذين لا يستعدون بحسب الفطرة الارتقاء إلى ذروة الكمال من هبوط النقص والوبال ومزابل الجهال .

ومما يدل على هذا ما سيذكره تعالى في الآية اللاحقة بقوله : ﴿فَلَا تَكُن

في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِه﴾ [٣٢ر٢٣] فإن شأن هذه النفوس الامتراء والمراء والبحث والمجادلة وايراد الشبه والشكوك ، وشأنه تعالى تثبت عبده عند تزلزل الأقدام بالشكوك والأوهام وتأييده عند معارضة الجاحدين من الأقوام ، كقوله : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ الآية [١٧ر٧٤] .

واكثر هذه الطائفة المعرضين عن حجج الله الناطقة والصامتة إنما اغترّوا بفطانتهم لسماعهم وحفظهم بعض الأقوال من المشائخ والسابقين من غير فهم ودراية، بل بمجرد قول ورواية ، وشكّكَ اللاحقُ منهم السابقَ وطعنَ الاتي منهم الماضي ، يغتبُ بعضُهم بعضاً ويلعنُ بعضُهم بعضا، ويغتاظ بعضُهم من بعض بحرقة قلوبهم وألم نفوسهم ، وهم في العذاب مشتركون ، أولهم مع آخرهم كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [٣٨ر٧] وهم الأشرار والمنافقون ، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وهم أهل البِدع والأهواء شرهم كلهم على أهل الورع والدين ، وأضرهم على العلماء الربانيين ، وأشدهم عداوة للذين آمنوا، هذه الطائفة المجادلة والمخاصمة الذين يخوضون في الفروع والخلافيات ويهملون الأصول واليقينيات ، ومع هذه البلية يدعون أنهم بهذه العقول السخيفة ينصرون دين الله ويعرفون طريق الحق ، نعوذ بالله من شرورهم على الدين وإفسادهم على المؤمنين.

قوله سبحانه :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

قرء حمزه والكسائي ويونس عن يعقوب: لِما صبَروا ـ بكسر اللام ـ والباقون بفتح اللام وتشديد الميم ، فعلى الأول «ما» مصدرية والجار متعلق «بجعلنا» أي : جعلنا منهم أئمة لصبرهم ، وعلى الثاني « لَمّا » للمجازات ، وحذف الجزاء لإغناء الفعل المتقدم عنه . و«الكتاب» للجنس والضمير في «لِقَائِهِ» إما لموسى عليه السلام، أي من لقائك موسى ليلة الأسراء . أو يوم القيامة . أوللكتاب ، أي : من لقاء موسى الكتاب ، يعني : إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي ، فلا تكن في شك من لقائك مثل لقائه كقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [١٠ر٩٤] ومثل قوله «من لقائه» قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [٢٧ر٦] وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [١٧ر١٣] .

وقيل : «من لقائه» معناه : من لقاء موسى إياك في الآخرة ، وقيل : معناه فلاتكن ـ يا محمد صلى الله عليه وآله ـ في مرية من لقاء موسى الكتاب ، أي : من تلقيه بالرضاء والقبول ـ عن الزجّاج ـ وقيل معناه : فلاتكن في شك من لقاء الأذى كمالقى موسى الأذى ـ عن الحسن .

والضمير في «جَعَلْنَاه» إما لموسى وإما للكتاب لما في التورات من الأحكام وبيان الحلال والحرام ، أي : وجعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل ـ عن قتادة ـ أو

وجعلنا الكتاب هادياً لهم ـ عن الحسن ـ وجعلنا منهم أئمة يهدون الناس ويدعونهم إلى مافي التورات من دين الله وشرائعه لما صبروا عليه من مشاقّ التكليف وتثبتهم على اليقين ، كما نجعلن من أمتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين وتثبتوا عليه من اليقين ـ وعن الحسن : صبروا عن الدنيا .

ونقل في الكشاف : إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما فيها ولد اسماعيل عليه السلام. وهذا النقل ايضاً يدل على أن الغالب فيها الأحكام العملية التي يتطرق إليه النسخ والتغيير، دون المعارف والربوبيات المحفوظة عنها.

مكاشفات سريّة ونفثات روعيّة

اعلم إن الفرق بين القرآن المجيد وسائر كتب الله المنزلة على الأنبياء، بأن القرآن كلام الله و كتابه جميعاً وغيره كتابٌ فقط، و كلام الله أشرف من كتابه بوجوه:

أولها: إن كلامه تعالى قوله، و كتابه فعله، والقول أقرب من القائل من الكتاب إلى الكاتب ، فكلام الله أشرف من كتابه .

وثانيها : إن الكلام والقول من عالم الأمر : ﴿إِنَّمَا قَولُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ [١٦ر٤٠] والكتاب من عالم الخَلق، وعالم الأمر كله علوم عقلية وحقائق معنوية بخلاف عالم الخَلق، لأن العلوم والمعاني زائدة فيه على صحائف مداركها وألواح مشاعرها .

وثالثها: إن كلام الله نزل على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسره، و كتاب الله نزلت صورة ألفاظها على ألواح وقراطيس .

ورابعها : إن تلقّى الكلام وتعلّمه بأن يتجلى حقيقته وتنور معناه على قلب من يشاء من عباده ، لقوله تعالى : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٤٢ر٥٢] ومن علّمه الله تعالى القرآن بهذا التعليم كان عليه من الله فضلا عظيماً ، كما قال لحبيبه بعد تعليمه : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ

تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [٤ر١١٣] فتلقيه ﷺ بالقرآن من حيث هو قرآن بأن يتخلق به ، إذ كان القرآن خُلقه، كما هو المروي عن بعض أزواجه حين سئلت عن خُلقه ﷺ فإن الله يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [٦٨ر٤] قالت : كان خُلقه القرآن (١) وأما تلقي الكتاب وتعلمه فبالدراسة والقراءة والتلاوة ، فالأنبياء ﷺ يتدارسون الكتب لقوله تعالى ﴿كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [٣٤ر٤٤] .

وخامسها: إن تنزيل القرآن على قلب النبي ﷺ ومكاشفة أسراره منه وتجلي أنواره له أمر بينه وبين الله لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأما إنزال الكتب على سائر الأنبياء فهي مما يقرأها كل قارئ .

وسادسها : إن سائر الكتب يستوى في هداها الأنبياء والأمم، لقوله في هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [٣٢ر٢٣] وقوله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [٢ر١٨٥] وأما القرآن من حيث هو كلام فالرسول ﷺ مخصوص بالهداية به عند تجلي أنواره في التنزيل على قلب الرسول ، كما قال ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وقال : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي خصصك بهداه وعلمه .

وسابعها : إن الكتب المنزلة عليهم كانت تصرف فيهم بأن يكون الكتاب مع أحدهم نوراً من الله يجيء به إلى قومه ليكون هدى لهم ، كما قال : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾ [٦ر٩١] وأما تنزيل القرآن على قلب الخاتم ﷺ فكان تصرفه فيه بأن جعله نوراً من الله يجيء ذلك النور إلى الأمة ومعه القرآن، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ -وهو محمد ﷺ- وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [٥ر١٥] فشتان بين نبي يجيء ويكون هو بذاته نوراً ومعه كتاب ، وبين نبي يجيء ومعه نور من الكتاب.

وثامنها : قد فرق الله بين ماشرف النبي الخاتم ﷺ بإنزال الكلام على قلبه ، وبين ماشرفوا به من إنزال الكتاب ، فقال تعالى تشريفاً لموسى (ع) : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ

---

(١) المسند: ٦/٩١ و ١٦٣ عن عائشة.

في الألواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوعِظَةً﴾[١٢٥/٧] وقال تعالى تشريفاً لنبينا ﷺ: ﴿فَأَوحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوحَىٰ﴾ [١٠/٥٣] انظر وتدبر كيف قال: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [٢٢/٥٨] فشتان بين نبي تشرّف بكتابة الموعظة له في الألواح وبين نبي تشرف أُمته بكتابة الايمان لهم في قلوبهم.

وتاسعها: إن من خصائص انزال القرآن بما هو كلام الله إنّه متى نزل على قلب أحد صار خاشعاً متصدعاً من خشية الله لقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا القُرآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [٢١/٥٩] ولما نزل على قلب الرسول صار قلبُه خاشعاً خاضعاً من خشية الله، حتى قال كما هو المروي عنه: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه»[1] وأما انزال الكتب فليس من لوازمه الخضوع والخشوع والتخلق بأخلاق الله، ولذا قيل لو كانت التورات أُنزلت على قلب موسى عليه السلام لافي الألواح، لعله ماألقى الالواح في حال الغضب، وما احتاج إلى صحبة خضر عليه السلام، لتعلمه العلم كما حكى الله تعالى عنه بقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [٦٦/١٨-٦٧].

قوله سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

«الفَصْل» هو مايميز به الشيء عن غيره بحسب تجوهر ذاته وقوام حقيقته، وكثيراً مايطلق الفصل على مبدئه القريب، كالنفس الحيوانية للحساس، والنفس الناطقة للناطق، فإنهما مبدآن قريبان لهذين الفصلين المنطقيين المحمولين بوجه، وبوجه آخر هما عين هذين إذا أُخذ كل منهما لابشرط شيء من التقييد والاطلاق،

(١) في البخاري: ٣١/٨. والمسند: ٤٥/٢ و١٨١ بلفظ: لأنا أعلمهم بالله عز وجل، وأشدهم له خشية.

وربما يطلق على المبدء العالي لحقيقة الشيء وتحصّله وتميّزه ، فإن الصور النوعية عند طائفة هي الفصول المنوعات للحقائق الجرمانية ، وعند طائفة أخرى يطلق الصور على المفارقات النورية والجواهر العقلية الواقعة في عالم الصور المفارقة ، كما هو عند أفلاطون الإلهي والرواقيين وأئمتهم الأقدمين كسقراط وفيثاغورس وأنباذقلس وأغاثاذيمون ، وعند طائفة أخرى هم أعلى مرتبة وأدق مسلكاً (وأمتن) دليلا وأجل ذوقاً وأوثق برهاناً وأرفع نظراً ، وهم الحكماء الايمانيون والأفاضل الربانيون كأبي يزيد البسطامي وسهل التستري والجنيد البغدادي ومحيي الدين الأعرابي وتابعيهم ، إن اسماء الله تعالى بعينها مبادي الفصول الذاتية للحقائق الإمكانية ، وما يحاذيها من الصور المجردة في عالم العقول أو الصور الحسية في عالم الجسم مستهلكة التأثير و الأثر تحت سطوع الأنوار الإلهية والأسماء الربوبية ، استهلاك النور الضعيف في النور الأقهر القوي ، واضمحلال وجود السافل تحت وجود العالي .

فإذا علمت هذا وتذكرت ماادعيناه فيما سبق ، من أن الإنسان بحسب الباطن والنشأة الأخروية أنواع كثيرة حسب كثرة الأخلاق المتخالفة ، والصفات الغالبة الراسخة المتنوعة ، أيقنت معنى كون « يوم القيامة » «يوم القضاء» « ويوم الفصل بين الخلائق » فالله يقضي بينهم يوم القيامة بحسب ظهور مظاهر أسمائه ومجالي شؤونه ، ويفصل بينهم بالحق ويميز المحق عن المبطل في مايختلف فيه من الأديان والمذاهب ، وقد مرّ منا نقل آيات دالة على أن أنواع الإنسان كثيرة بحسب النشأة الآخرة ، وظهور هذه الكثرة في حقائق الإنسان إنما يتوقف على قيام الساعة لقوله تعالى : ﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [٣٦/٥٩] .

تذكــرة

الدنيا دار اشتباه ومغالطة ، متشابك فيها الحق والباطل ، ويتعانق فيها الخير والشر والنور والظلمة ، ويتقابل المتخاصمان ، والآخرة دار الفصل والتفريق، يتفرق المختلفان ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [١٤/٣٠] ويتميز المتشابهان ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفصل الخصمان ، ويحق الحق ويبطل الباطل ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [٤٢/٨] ليحق الحق ويبطل الباطل ، والآخرة دار جمع أيضاً ، ولا منافاة بين هذا الفصل وذاك الجمع ، بل هذا يوجب ذاك كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [٣٨/٧٧]

و«الحشر» أيضاً بمعنى الجمع : ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٧/١٨] وحشر الخلائق على أنحاء مختلفة حسب أعمالهم وملكاتهم ، فلقوم على سبيل الوفد ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [٨٥/١٩] ولقوم على وجه التعذيب : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [١٩/٤١] وبالجملة يحشر كل أحد إلى مايتوجه إليه باطنه ويعمل لأجله ظاهره ويحبه بقلبه ويشتاقه بجنانه : ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [٢٢/٣٧] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ﴾ [٦٨/١٩] وفي الخبر عنه ﷺ : **إنه لو أحب أحدكم حجراً لحشر معه** [١] .

تذكرة اخرى

اعلم إن عجائب عالم الآخرة عظيمة وأشخاصه وأنواعه كثيرة ، وكل مايوجد في هذا العالم من الحيوانات يوجد نظيره في الآخرة مع أنواع أخر لم يعهد في الدنيا ، وما سوى الإنسان لاتنتقل من هذه الدار إلى تلك الدار ، وإنما نشأت

---

(١) الامالي للصدوق (ره): المجلس ٨٢ ص ٢١٠.

جميع الخلائق يوم القيامة من ماهية الإنسان وعقله الهيولاني .

ووجه ذلك ان تكرر الأفاعيل والانفعالات البدنية يوجب حدوث الأخلاق والملكات النفسانية ، وكل صفة وملكة تغلب على باطن الإنسان يتصور في الآخرة بصورة تناسبها ، ولاشك إن أفاعيل الأشقياء المدبرين بحسب هممهم القاصرة عن ارتقاء عالم الملكوت ، النازلين بحسب دواعيهم الخسيسة في البرازخ الحيوانية بالأعمال الشهوية والغضبية والوهمية البهيمية والسبعية والشيطانية ، فلاجرم تكون تصوراتهم مقصورة على أغراض حيوانية أوشيطانية تغلب على نفوسهم ، ويحشرون على صور تلك الحيوانات والشياطين في دار الآخرة ، كما في قوله : ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [٨١/٥] وقوله : ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ﴾ [١٩/٦٨] وقوله : ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [٤٣/٣٦] وفي الحديث[1] : « يُحشر الناس على نياتهم » « يحشر بعض الناس على صورة تحسن عندها القردة والخنازير » وهكذا الناس يتصورون بصورهم الحقيقية الأُخروية التي تقتضي ملكاتهم وأخلاقهم على أهل الكشف وأصحاب الشهود ، الذين غلب على باطنهم سلطان الآخرة . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

قوله سبحانه :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

«الواو» للعطف على معطوف عليه أمر منوي من جنس المعطوف، والفاعل في « يهد » مادل عليه « كم » أي كثرة إهلاكنا القرون ، لانفس « كم » لأنها لاتقع فاعلة ، فلايقال : «جاءني كم رجل» ولأن « كم» في محل النصب على تقدير الاستفهام

(١) المسند: ٢/٣٩٢.

الذي له صدر الكلام ، لأنه مفعول أهلك و«يمشون» في محل النصب على الحال ؛ ويحتمل أن يكون الفاعل نفس هذا الكلام بحسب المحكي عنه ، والمعنى كقولك : « يعصم لاإله إلا الله الدماء والأموال » أو ضمير يرجع إلى الله بدليل قرائة زيد « نهد » بصيغة المتكلم .

وقرء يمشون ـ بضم الياء وتشديد الشين ـ أى : اولم يبصرهم ويبيّن لهم كم أهلكنا من القرون الماضية لكفرهم وعتوّهم وارتكابهم المعاصي فانتقمنا منهم يمشون هؤلاء القوم ـ يعنى كفار قريش ـ في مساكنهم ويمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويرون آثارهم .

وقيل معناه : إناأهلكناهم بغتة وهم مشغولون بصنايعهم ومشاؤن في منازلهم، إن في ذلك دلالات واضحات على حقارة الدنيا والحثّ على طلب الأمور الباقية ، أفلا يسمع هؤلاء الكفار من أهل التواريخ والحكايات ما يوعَظون به من المواعظ والمنبهات .

مكاشفة الهامية

« المشي في المساكن » إشارة إلى وقوف قوم على أوائل الأنظار ومبادئ الأفكار، وعدم خروجهم عن عتبة باب المحسوسات والأوليات مع غاية سعيهم فيما لايعني ونهاية جدهم في طلب هذا الفاني ، وهم يمشون في الحقيقة في مساكنهم ويجمعون تلفقات أقوام بلاروية جمعاً ، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١٨/١٠٣] ومشاهدة هذا الحال في أكثر الجهال المتشبهين بأرباب الكمال ، المتورطين في مواقع الهلاك والوبال ، الهائمين في أودية الشبه والضلال ، تنبيه بليغ وهداية واضحة ودلالة كاشفة لأهل الاستبصار والسلوك إلى عالم الملكوت وقرب الحق المهيمن المتعال ذي الجمال والجلال، فيتفطن اللبيب الذكي إنهم في وادٍ وأهلُ الآخرة في واد آخر، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون .

نصيحة

أهل الاستبصار لايستنكفون عن التعلم استبداداً بالرأي ، ولايجحدون الحق استتباعاً للنفس والهوى ، أوتقليداً وتعصباً للمذاهب والآباء ، ومما يؤيد هذا الوجه تعقيب هذه الآية بمثل وارد منه تعالى في غاية الملائمة لِما كُنا بصدده بحسب المضرب كما سنوجهه .

قوله سبحانه :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

السوق : الحثّ على السير . والجُرز : الأرض اليابسة التي جرز نباتها، أي قطع ، إما لعدم الماء أولأمر آخر كالرعي وغيره ، ولايقال للتي لاتنبت كالسباخ: « جرز » كما دلّ عليه قوله : « فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا » واشتقاق هذا اللفظ من قولهم : « سيفٌ جرّاز » أي : قطّاع لايبقي شيئاً إلاقطعه ، وفي « الجرز » أربع لغات : بضم الجيم والراء ، وبفتحهما ، وبضم الجيم واسكان الراء ، وبفتح الجيم واسكان الراء .

قد نبّه الله سبحانه الكفار بوجه آخر معطوف على الوجه السابق بقوله : أولَم يرَوا أنّا ـ أي : أولم يعلموا أنّا ـ نَسوقُ الماءَ بالأمطار والثلوج أو الأنهار والعيون إلى الأرض اليابسة التي لانبات فيها ، وقيل : نسوق الماء بالسيول إليها ، لأنها مواضع عالية وهي قرى بين الشام واليمن ـ عن ابن عباس ـ وقيل: هي أبين[1] .

(١) ابين ـ بفتح اوله وبكسر، بوزن أحمر ـ ويقال: يبين...وهو مخلاف باليمن منه عدن (معجم البلدان).

فنخرج به زرعاً تأكل منه - أي : من ذلك الزرع - أنعامهم من عصفه ، وأنفسهم من حبه كما في قوله تعالى: ﴿فَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [٨٠/٣١-٣٢] فلا ينصرون بدائع صنعه ولطائف رحمته في حق أنفسهم وفي حق أنعامهم .

مكاشفة قرآنية

لما كانت الآية السابقة بحسب ما وجّهناها وأوّلنا إليه، إشارة إلى الحثّ والترغيب للاهتداء بأنوار كتاب الله تعالى ، والارتقاء على أعلام الحقائق القرآنية ، و الزجر والتهديد والنهي والوعيد للقاعدين عن سلوك هذه الدرجة العظيمة ، بحكاية اهلاك قرون ماضية كانوا يمشون في مساكنهم السفلية ويترددون في منازلهم الحسيّة البدنية، لطلب الأغراض الخسيسة والمقاصد الحيوانية ، ففي هذه الآية إشارة تمثيلية إلى كون القرآن ماء يحيي به أراضي القلوب الميتة بموت الجهالة والنقص، كما يحيي الأرض الجرز بوابل السماء .

وتمثيل القرآن بماء المطر شائع في كتاب الله كما في قوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [١٦/٦٥] وكقوله يعني أولم يروا أنا نسوق ماء العلم القرآني من سماء الملكوت العقلي وجوّ العالَم الأعلى إلى أرض النفوس الساذجة المنقطعة عن شواغل الدنيا وعوائق الهوى، فنخرج به زرع العلوم الكشفية الإلهية والآداب و الأحكام العملية يتغذي ويتقوي بالأولي روح الإنسان وباطنه تكميلا للقوة العقلية ، ويتروض ويتهذب بالثانية نفس الإنسان وظاهره تكميلا للقوة العملية ، فإن النفس بمنزلة المَرْكب للروح العقلي، كما إن البدن بمنزلة المركب للنفس الحيوانية ، ولهذا استعير لفظ الرياضة الموضوعة لمن يروض الحيوان - أي : يمنعه عن العلف لتقبل التأديب والتعليم - لأجل النفس الحيوانية عند تسخير الروح العقلي إياها وضبطه لها عن اللذات ، لتشايع قواها الروح في سلوكه طريق الحق وسيره إلى الله .

فكما إن القرآن العظيم يوجد فيه علـوم الآخرة ومكاشفات الأسرار الإلهية والآيات الربوبية، فكذلك يوجد فيه أحكام الحل والحرمة، وطريق المعاملات، وكيفية المعاشرة مع الخلق وعلم التمدن والسياسات ، والجروح والقصاص ، والأقضية والحكومات ، فتلك الآخرة، وهذه الدنيا على وجه يكون وسيلة للآخرة ، فافهم واغتنم .

أفلا يبصرون: أي آثار الحيوة العقلية وشواهد الأنوار الملكوتية في القلوب المهتدية بآيات المعارف القرآنية ، والنفوس التي أنبت الله فيها بمياه الألطاف الروحانية (الرحمانيةـن) أشجار الكلمات الطيبات التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وتلك الأمثال نضربها للناس .

قوله سبحانه :

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

قال الفراء: المراد بفتح مكة ، وقال السدي: «الفتح» هو القضاء بعذابهم في الدنيا وهو يوم بدر ، وقال مجاهد: هو الحكم بالثواب والعقاب يوم القيامة .كان الكفار يسمعون المسلمين يستفتحون بالله عليهم ، فقالوا لهم: متى هذا الفتح ؟ فأمر الله نبيه ﷺ بأن يقول لهم وينبئهم على أن بعد الفتح لاينفع ايمان من كان كافراً من قبل ، كما في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَايَنفَعُ نَفْساً ايمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [١٦٩/٦] أي لايمهلون ولايؤخرعنهم العذاب .

هذا على تقدير أن تكون يوم الفتح القيامة ، وأما على أحدالوجهين الأخيرين ففيه إشكالان: أحدهما عدم مطابقة الجواب للسؤال في الظاهر ، والثاني إنه قدنفع الايمانُ الطلقاءَ يوم فتح مكة وناساً يوم بدر .

والجواب عن الاول: أن مقصود السائلين عن وقت الفتح واستعجالهم به على وجه التكذيب والاستهزاء ، فوقع الجواب على حسب غرضهم واسلوب استبعادهم له ، فقيل لهم: لاتستعجلوا به ولاتستهزئوا (تستبعدوه ـ ن) فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم به ، فلم ينفعكم ايمانكم بوم الحساب ولالكم الاستمهال عن حلول العقاب .

وعن الثاني: إن المقتولين منهم لاينفعهم ايمانهم في حال القتل ، كما لم ينفع ايمان فرعون حين الغرق .

كشف تنبيهي

«يوم الفتح» يطلق تارة على وقت الولادة المعنوية التي ينفتح مملكة البدن وعساكرقواها البهيمية والسبعية والشيطانية للروح ، وتارة يطلق على القيامة الصغرى وهو الموت الطبيعي الذي يفتح باب حجاب البدن ، وتارة يطلق على يوم القيامة الكبرى بظهور المهدي عليه السلام وغلبته على الدجّال والدجّالين، ولاينفع حينئذ ايمان المحجوبين ، لأنه لايكون ايمانهم بحسب الكشف والبرهان ، بل بحسب حديث النفس واللسان والمجادلة والبحث والغلبة والطغيان، فلايغني عن هؤلاء المحجوبين عذاب الطرد والبُعد والحرمان .

قوله سبحانه :

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

وانتظر يا محمد بوعدي لك ولقومك المؤمنين بالنصر على أعدائكم الجاحدين والمكذبين ، إنهم منتظرون حوادث الزمان فيكم من موت أو قتل أو غلبة منهم عليكم ،كما في قوله تعالى : ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [٥٢/٩] وفي

قراءة ابن السميفع «منتظرون» ـ بفتح الظاء ـ وقيل في معناه : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقّاء بأن ينتظر هلاكهم يعني : إنّهم هالكون لامحالة .

إشارةٌ

يحتمل أن يكون المراد : انتظر الفتح الحقيقي والخلاص من آلام الدنيا وعداوة أهلها و كيد الأعداء وملاقاة الأصدقاء ومشاهدة أرواح الأنبياء وملائكة الله في السماء، فإن الأرواح والملائكة ينتظرون قدومك عندالارتقاء إلى الملك الأعلى الذي بيده ملكوت الأشياء .



خاتمةٌ

في فضل السورة وعدد آياتها وموقع نزولها

عن أبي بن كعب[١] عن النبي ﷺ، قال: من قرء «الم تنزيل» و«تبارك الذي بيده الملك» فكأنّما أحيى ليلة القدر.

وروى ليث[٢] عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ لاينام حتى يقرء «الم تنزيل» و«تبارك الذي بيده الملك»، قال: ليث فذكرت ذلك لطاووس، قال: فُضلتا على كل سورة في القرآن، ومن قرأهما كتب له ستون حسنة ومُحي عنه ستون سيئة ورفع له ستون درجة.

وروى الحسين بن أبي العلاء[٣] عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرء سورة السجدة في كل ليلة جمعة، أعطاه الله كتابه بيمينه ولم يحاسبه بماكان منه، وكان من رفقاء محمد وأهل بيته صلى الله عليهم.

وفي الكشاف[٤] إنه قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ «ألم تنزيل» في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام.

* * *

وعدد آياتها تسع وعشرون آية بصري وثلاثون عند الباقين، والاختلاف في الآيتين: ألم ـ كوفي جديد حجازي شاميّ.

وهي مكية ماخلا ثلاث آيات منها فإنها نزلت بالمدينة، وهي: أَفَمَنْ كَانَ مُؤمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَايَسْتَوُون ـ إلى تمام الآيات.

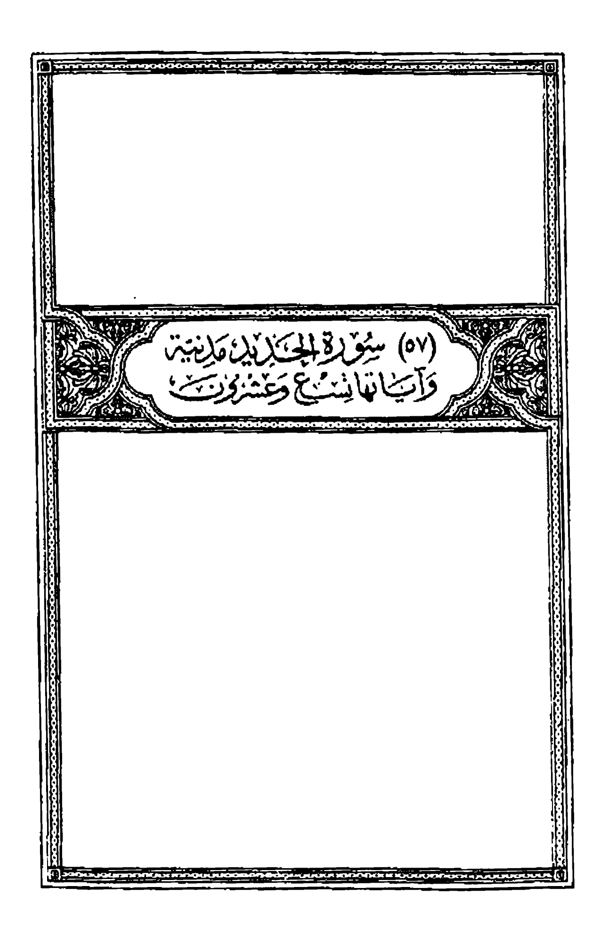
---

(١) مجمع البيان: ٤/٣٢٤.

(٢) الدر المنثور: ٥/١٧٠.

(٣) ثواب الاعمال: ١٣٦.

(٤) الكشاف: ٢/٥٢٧.


(٥٧) سورة الحديد مدنية
وآياتها تسع وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أفاض على قلوب أوليائه لآلي جواهر القرآن ودلائل كنوزه، وأشرق على ضمائر أحبّائه لوامع أسرار التبيان و شواهد رموزه ، وأنار أرواحهم بمعرفته وأراهم بهدايته ملكوت السموات حينما جنّ عليهم ليالي حجب الأجسام ليكونوا من الموقنين ، وكشف عن أبصار بصائرهم برياح رحمته أغشيةَ التعلقات المانعة عن شهود جلال رب العالمين ، وأيّد بنصره من يشاء من عباده لتقوية الدين ونصرة رجال المعرفة واليقين .

والصلوة على من أنزل عليه التنزيل بلسان جبرئيل، المنعوت اسمه في التوراة والإنجيل ـ محمّد ـ وأهل بيته المكرمين العالِمين بتأويل الأحاديث، العارفين بأسرار التأويل، المطهرين عن أرجاس مذاهب الجاهلية للأباطيل ، المقدسين عن أدناس العقائد الباطلة من التشبيه والتعطيل .

أما بعد : فيقول أفقر خلق الله وأحوجهم المستغني بتأييد مولاه عمّا عداه ، والمكتفي بنور هداه عمن سواه ـ محمد الموسوم بصدر الدين القوامي ـ قوّمه الله بلطفه الاعتصامي:

اوصيكم ـ أيها الإخوان الباحثين عن دقائق معرفة الله و ملكوته بقوة التفكر والانتقال، المتحيرين أن تقصدوا جوّ الملكوت وتطيروا سماء قدس اللاهوت بجناحي

الوهم والخيال - عليكم بحبل القرآن إن أردتم أن ترتقوا في الأسباب ، فإن من لم يعتصم بحبله فهو جندٌ ماهنالك مهزوم من الأحزاب ، مخذول عند أولي البصائر والألباب، في جميع الطرائق والأبواب. وإن من لم يحكّم أولاً قواعد ظواهر التنزيل وأركان بداياته ، ولم يتمرّن بالعمل بأحكامه وآدابه عند سماع آياته - حتى اللغة والقرائة والترتيل- فهو حريٌّ بأن لايبلغ نهاياته، بل عليه أن يقف عند ظواهر الشريعة موفياً حقوقها إذ لـم يرزق مـن لوامع أنوار الطريقة شروقها وبروقها وإلا فيقطع الشيطان طريقه بدقائق كيده وجلائله : ولا يبالي في أيّ واد يهلكه أويصيده بشرَكه وحبائله.

ثم أقول لطائفة أخرى من إخوان الايمان، الذين رزقهم الله فطنة يمكن لهم بها الارتقاء إلى مدارج العلم والعرفان، إذا سلكوا طريق الصدق في الايقان: إلى كَم ترغبون عن لباب القرآن الذي هو شفاء ورحمة للقلوب والصدور إلى التِبن والقشور الذي فيه متاع لكم ولأنعامكم وأجسامكم التي هي آلات القبور وتسلون (يتسلّونـن) بالقرطاس المنقوش عن الرقّ المنشور ؟

حتّامَ تطوفون على سواحل ظواهر التنزيل، وتعرضون عن غوص بواطن التأويل ؟

أما حان لكم أن تغبطوا لمن غاص في عمق نيل التنزيل لنيل جواهر ماأودعه الله على لسان جبرئيل؟ إلى كَمْ تقتصرون عن الوصول إلى غُررها وزواهرها بإدمان النظر والفكر إلى سواحلها وظواهرها؟ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وأن تصرفوا هممهم في التقرب إليه والابتغاء لوجهه دون من سواه ؟

فهذه - أخلائي في الكشف واليقين - بلّغكم الله إلى أقصى مناكم في معرفة لباب الدين - طائفة من قواعد أسرار القرآن المجيد، وجملة من لطائف نكات ودلائل معجزات لآيات بينات من الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ متعلقة بتفسير سورة الحديد - ذكرت فيها لُبّ التفاسير

المذكورة في معانيها ولخصت كلام المفسرين الناظرين في مبانيها، ثم أتبعتها بزوائد لطيفة يقتضيها الحال والمقام، وأردفتها بفوائد شريفة يفيضها المفضل المنعام، ونستعين به في أن يمهلني الزمان للاتمام، ويساعدني الدوران في الاختتام.

﴿ فاتحة ﴾

إن هذه السورة مشتملة على المقصد الأقصى واللباب الأصفى من كيفية ارتقاء العباد من حضيض النقصان والخسران إلى أوج الكمال والعرفان، وبيان السفر إلى الله تعالى طلباً للقائه، والارتحال من أسفل السافلين وتحت الثرى في البعد، والحرمان عن مجاورة الرحمن إلى أوج عوالي العليين وفوق السموات العلى من قرب ربّ الإنس والجان وخالق النيران والجنان.

فإن خلاصة دعوة العباد ونقاوة سياقهم إلى الملك الجبار منحصرة في أقسام ستة: ثلاثة منها كالدعائم والأصول المهمة، وهي تعريف الحق المسوق إليه المقصود له، وبيان الصراط المستقيم الذي يجب سلوكه للوصول إليه، وبيان الحال عند الوصول:

فالأول هو معرفة المبدء، والآخر هو معرفة المعاد، والأوسط هو معرفة الطريق.

وأما الثلاثة الأخيرة فهي كالمعينة المتممة التي كالنوافل، والقرب الحاصل بها للعبد من الحق هو قرب النوافل، كما إن القرب الحاصل بالثلاثة الأول هو قرب الفرائض المشار إليه في الحديث المشهور.(١)

فأحدها تعريف السالكين إلى الحق تعالى، المجيبين دعوة العزيز الوهّاب ولطائف تربية الرب لهم ودقائق صنعه فيهم لصفاء جواهرهم وطهارة أعيانهم عن الخبث والشين ونقاوة وجه مرآتهم عن الطبع والرَين وتهيؤهم واستعدادهم لقبول

(١) لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...

صورةالحق، وتوصيف الناكبين عن الطريق الضالين وكيفية حلول غضب الله عليهم وكيفية تنكيله بهم لسوء استعداداتهم وخبث جواهرهم وذواتهم وتراكم الرين والطبع على مرآتهم ، والمقصود فيه إما التشويق والترغيب ـ كما في أحوال المحبوبين ـ أو الاعتبار والترهيب ـ كما في أحوال المغضوب عليهم ـ .

وثانيها حكاية افتضاح حال الجاحدين وكشف عواقبهم وتسفيه عقولهم وتجهيلهم في تحزّبهم طريق الهلاك والبطلان بالمجادلة والمحاجّة على طريق الحق، والمقصود فيه في جنبة الباطل الافضاح للتحذير والتنفير، وفي جنبة الحق الايضاح للتثبيت والتقرير.

وثالثها تعليم عمارة المراحل إلى الله تعالى وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد، والمقصود فيه إن معاملة الإنسان مع أعيان هذه الدنيا يجب أن يكون مثل معاملة المسافر مع أعيان مرحلة من مراحل سفره البعيد الذي يُطلب به تجارةً لن تبور .

فهذه هي المقاصد الستّة المشتمل عليها المنحصر فيها سور القرآن وآياته ، وهذه السورة الواحدة لغاية شرفها وفضلها عقلا ونقلا حيث روي عن النبي[1] ﷺ «إن في المسبحات آية أفضل من ألف آية يشتمل عليها وينحصر فيها جميع القرآن» .

* * *

ولنشرع في استنباط هذه النفائس الشريفة عن هذا البحر الخضيم بقوة العزيز الحكيم ، ولنسم كل واحد من المعارف الثلاثة القرآنية التي هي الأصول باسم يناسبه كما فعله بعض أكابر العلماء وقد وجدناه في بعض مصطلحات العرفاء وذلك للدلالة على أن هذه المعارف في درجات متفاوتة من الشرف والفضيلة مع اشتراك الجميع في الخير والمنفعة ، فأين معرفة ذات الحق وصفاته وأفعاله من معرفة علف الدابة وسقيها في طريق السفر إليه .

فشرح المعارف الإلهية المشتملة على معرفة ذات الحق الأول ومعرفة صفاته

---

(١) أبي داود: كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم: ٤/٣١٣.

ومعرفة أفعاله هو المصطلح عليه بـ « **الكبريت الأحمر** » الحاصل من الخوض في لجـّة بحر القرآن وأبعاضه والغوص في أعماقها .

وشرح طريق السلوك إلى الله تعالى وتعريف التبتّل إليه والانقطاع عن الدنيا هو المسمى بـ « **العنبر الأشهب** » و « **العود الأنفر** » الحاصلين من السياحة في سواحل هذا البحر المحيط المتشعب عنه علوم الأواخر والأوائل ـ كما يتشعب من البحر الأنهار والجداول ـ .

وشرح أحوال المسافرين عند الوصول إلى المهيمن المتعـال هو الملقـّب بـ « **الترياق الأكبر** » و « **المسك الأذفر** » الحاصلين من التغلغل إلى جزائره عند استدرارهما من حيواناته .

ولك أن تسمي الثلاثة الروادف وأقسام كل قسم منها باسم يناسبه .

ولا يخفى على الزكي المتبصر مناسبة كل قسم بما وقعت التسمية به عليه ، وإياك وأن تحمل هذه الأسامي على الاستعارات الرسمية والتكلفات المجازية، فإنها ممقوتة عند ذوي الجدّ من أبناء الحقيقة ، بل تحتها رموز وإشارات إلى معان خفية يعرفها من يعرف الموازنة والمماثلة بين عالمي الملك والملكوت والشهادة والغيب، ولو ذهبنا إلى تحقيق الموازنة بين هذه الأمثلة الحسية وحقائقها الغيبية لأدّى إلى الإطناب .

فلنعرض عنه إلى الخوض في الكتاب مستمداً من العزيز الوهاب .

* * *

قوله تعالى :



سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

لمّا لاحَ لك إن المعارف الإلهية المشتملة عليهـا القسم الأول الذي يتوزع إلى معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال هي «الكبريت الأحمر» فاعلم إن هذه الثلاثة ليست على رتبة واحدة ، فكما إن أخص فوائد الكبريت هو الياقوت الأحمر لأنّه أجل قدراً و أعز وجوداً ، لايقع إلا يسير منه بيد الملوك والسلاطين ، وربما يظفر بما دونه بالكثير ، فكذلك معرفة الذات لكونها أجل قدراً ورتبة وأعظم رفعة لايظفر بشيء منها إلا ملوك الآخرة وسلاطينها ـ مثل الأولياء والأنبياء عليهم الصلوة والدعـاء «جلّ جناب الحق عـن أن يكون شريعة لكل وارد أويطلع عليه إلا واحداً بعد واحد» .

ولكون معرفـة الذات أضيق المعارف الإلهية مسلكاً ومجالاً وأصعبهـا على الضمير اعتقادا ومقالا وأعصاها على الروية والفكر اذعانا وأنفرها عن التحفّظ والذكر ضبطاً فلذلك لايشتمل القرآن منها إلاعلى إشارات وتلويحات يرجع أكثرهـا إلى

السلوب والتقاديس ، كقوله تعالى بعد ماختم سورة الواقعة بالأمر بالتسبيح .

سَبَّحَ لِلَّهِ ـ أي : نزّهه وقدّسه عما لايليق بشأنه مما يوجب التكثر والتغيّر ، وبرّأه من كل نقص ـ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ـ في ذاته ـ وٱلْحَكِيمُ ـ في أفعاله لكونها على أحكم ترتيب وأتقن نظام .

والصيغة تدل هيهنا على أنماأُسنداليه الفعل ذلك هجّيراه وديدنه ، ويؤكد ذلك مجيئه على صيغة المضارع أيضا في بعض الفواتح وهذاالفعل يتعدى باللام تارة وبنفسه أُخرى ، وأصله الثاني ، لأنه المنقول من سبّح إذا ذهب وبَعُد . فمعنى سبحته بعّدته عن الشين . فاللام فيه إما أن يكون كاللام في « نصحته » و «نصحت له» . أويكون معنى الكلام : احدث التسبيح ابتغاء لوجه الله خاصة مافيهما .

قال مقاتل : يعني كل شيء من ذي الروح وغيره وكل خلق فيهما . ولعل الغرض إن العقلاء يسبحونه قولاًواعتقاداًوماليس بعاقل من سائر الحيوانات والجمادات فيسبحه بمافيه من الأدلة الدالة على وحدانية مبدعه وصفاته التي تخصّه ، فعبّر سبحانه عن هذه الدلالة بالتسبيح كأنها إقرار منهم بلسان الحال من جهة امكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب لذاته .

و يجوز أن يحمل التسبيح على المشترك بين اللفظ و الدلالـة لإسناده إلى مايتصورمنه ، وعليهما عند من جوّزاطلاق اللفظ علىمعنييه وجوز بعضهم أنيكون «ما»هيهنابمعنى«من» ويؤيده ماحكى أبوزيد إن الحجازيين كانوا إذا سمعوا الرعد قالوا : «سبحان ما سبّحت له» وقيل : المرادمنه كل مايتأتّى منه التسبيح .

* * *

هذا تمام كلام الأعلام في هذا المقام ، ولايخفى عدم ملائمة كل من التأويل والتخصيص المستفادمن كلامهم لكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على تسبيح جميع الموجودات حقيقة ـ حتى المسمى بالجماد والنبات .

منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [٢٤/٤١].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [٢٢/١٨].

وفي هاتين الآيتين إشعار بأن هذا تسبيح فطريٌ وسجود ذاتيٌ نشأعن تجلي الحق لكل من خلق الله له وأنطقه الذي أنطق كل شيء، فأحبّوه وتواضعوا له من غير تكليف، بل اقتضاء ذاتي طباعي، والذي يمنع من هذه العبادة الذاتية الأفكار الوهمية والتخيّلات الشيطانية التي تكون لأكثر الناس التي بها يستحق كثير منهم العقوبة والعذاب، كقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [٢٢/١٨].

والنكتة في أن «أَلَمْ تَرَ» أتي بها بصيغة خطاب المفرد إن غير النبي لم يشهد ذلك فهو له عيانٌ، ولنا ايمانٌ.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [١٦/٤٨].

وكذا أمثالها ونظائرها من الآيات الدالة على وقوع التسبيح من جميع الموجودات حقيقة على وجه يستلزم الشعور والإدراك، وكفاك في هذا التعميم والشمول قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [١٧/٤٤].

وحكاية تسبيح الحصى في كفّ النبي ﷺ وسماعه و إسماعه أمر مشهور وفي ألسنة الرواة مذكور، وبالايمان والتصديق مقرون عند الجمهور.

ويعتضد أيضاً بماروي عن ابن مسعود إنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله حجرٌ ولا شجرٌ إلا ويقول السلام عليك يارسول الله [1]

وأمثاله كثيرة في الروايات فلا وجه للعدول عن الظاهر المنقول المتلقى بالقبول

(١) رواه الترمذي عن علي عليه السلام: كتاب المناقب، باب ٦: ٥/٥٩٣.

عند أرباب الكشف والشهود وأصحاب الايمان والتسليم .

فإن قلت : التسبيح بالمعنى الظاهر منتف عن الجماد لعدم الإدراك فيه .

قلنا : لانسلم ذلك لعدم مايدل على نفي الشعور فيه مطلقا ، بل الدليل قائم في العلوم العقلية على أن الطبائع النوعية لهاغايات طبيعية مترتبة على أفاعيلها، وفيها علل غائية وأسباب مستدعية لوقوع الفعل المخصوص منها ، إلا ان غير أهل الكشف والحال إذا لم يقنعوا بمجرد التقليد في العقائد والأقوال تأبّت عقولهم عن الايمان بهذا التسبيح وتعصّت عن دركه أفكارهم إلى أن يأتي الله لهم بالفتح أو أمر من عنده .

مكاشفة

و اعلم إن إثبات الشعور و الإدراك لجميع مافي العناصر والأفلاك مما دلّت عليه المباحثُ البرهانية وشهدت به العلومُ الذوقية وأيّدته المقاماتُ الكشفية كما أشرنا إليه ، وهو مذهب جمّ غفير من الراسخين في العلم واليقين ورأي طائفة عظيمة من المكاشفين ، منهم الشيخ العارف والمحقق المكاشف **محيي الدين** الأعرابي وأتباعه وتلاميذه .

قال ـ قدس سره ـ : إن المسمى بالجماد والنبات لهم أرواح بطنت عن إدراك غير أهل الكشف إياها في العادة [1] فلايحسّ بها مثل مايحسّ به من الحيوان ، فالكل عند أهل الكشف حيوان بل ناطق ، غير أن هذا المزاج الخاص يسمى إنسانا لاغير ، ونحن زدنا مع الايمان بالأخبار الكشف ، فقد سمعنا الأحجار تُذكّر اللهَ رؤية عين بلسان يسمعه آذاننا منه و تخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل

(١) وإنما قيد بقوله: «في العادة» لا مكان ظهورها والاحساس بها للمحجوبين ـ أيضا ـ على العادة بواسطة نور النبوة، كما في إسماع تسبيح الحصى في كفه صلّى الله عليه وآله كل من كان حاضرا ـ منه ره.

إنسان . إنتهى ـ .

* * *

وتحقيق هذا التسبيح يستدعي بسطا في الكلام لايسعه هذا المقام و ربمايؤدي ذلك إلى شنعة الجهال و اللئام عند سماعهم شيئاً يخالف مـا تلقفوه ممن أخذوا منه تعصباً وتقليداً ، والذي يليق ذكره هيهناهو إن لكل نوع من الأنواع الجسمانية ملكاً موكلا عليه مدبراً لآحاده ومعتنياً بتربية أفراده ـ كما ذهب إليه أفلاطن والحكماء المشرقيّون طباقاً للشريعة الحقةمن تسمية بعض ملائكةالله المدبرين لأنواع الأجسام بالإضافة إلى نوع مايتعلق به تعلق التدبير والتأثير بإذن ربه العليم الخبير، كملَك الجبال وملَك البحار وملَك الرياح وملَك الأمطار .

فهذه حزبٌ من الملائكة موكلة بجنس الأجسام ونسبة كل منها إلى أفراد مَظهره الذي يقال له في عرف بعض عرفاء الحكماء **الطلسم** أتم في باب المعية من نسبة النفوس إلى أبدانها ، بل نسبته إليها نسبة حقيقة الشيء وذاته المطلقة عن العوارض الخارجة إلى ذلك الشيء .

فكما إن الأفعال الصادرة عن الإنسان بالاختيار إنما يصدر عن هويته وذاته الباطنة عن إدراك الحسّ ـ وهو نفسه المدبّرة له ـ والبدن في ذاته من حيث هو بدن لاشعور له بل لاوجود له كما حقّقنا ذلك في موضعه ـ فكذلك هذه الأجسام الطبيعية إنما يصدر ماينسب إليها من الحركة والسكون والتغذية والتنمية والتوليد وغيرها من ملكوتها وبواطنها التي هي صورة حقيقتها ومقوم ذاتها ، لامن جسميتها ومادتها .

ثم إنه قد ثبت في المعارف الربوبية إن كل مايصدر عن المبادي الذاتية فهو إنما يصدر عنها تضرعاً ورجوعاً إلى باريها العالي ، لاالتفاتا إلى السافل ، وحقيقة التسبيح ليست إلاما يستلزم الخضوع والتمجيد سواء كان باللسان أوبآلة أخرى ، فأشخاص العالم بأسرها في هذه العبادة الذاتية وهذا السجود الفطري متدينة بهذا الدين الإلهي الذي قام به وواظب عليه الجميع ، إلا كل مخلوق له قوة التفكر والروية وليس إلا النفوس

الناطقة الإنسانية والحيوانية خاصة ـ من حيث أعيان نفوسهم لا من حيث هياكلهم ، فإن هياكلهم كسائر العالم في التسبيح والسجود له ، ألاتراها تشهد على النفوس المسخّرة لها يوم القيمة من الجلود والأيدي والأرجُل والألسنة والسمع والبصر وجميع القوى فالحكم لله العلي الكبير .

فإن قلت : فماتقول في الإستثناء الواقع في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [٣٤/٢] فإن السجدة المأموربها لآدم في الحقيقة سجدته لله تعالى وطاعة لأمره ، فإباءإبليس من سجدة آدم عين إبائه من سجدة ربه ولهذا كان من الكافرين ، فينافي ذلك بحسب الظاهر عموم الآيات المنقولة وكلية الحكم بعبادة كل موجود من حيث هو موجود عبادة جبليّة .

قلنا : إن اباء إبليس عن السجود واستكباره وعصيانه بحسب ظاهر الأمر هو عين سجوده وطاعته وخدمته وتواضعه لربه باعتبار القضاء الأزلي، فإن العزيز الجليل أقامه في حجاب العزة والجلال ذليلا محجوباً حتى يكونَ إبليس مطروداً ملعوناً محترقاً بنار البُعد والضلال في الدنيا ومعذباً بنار الجحيم والنكال في الأُخرى ـ حسب ما جرى عليه القضاء ـ فلم يكن له بدّ من موافقة علمه تعالى الذي هو عين إرادته، ولذلك أقسم بعزته تبارك وتعالى للإغواء، لأن الإغواء من مقتضيات العزة، والاحتجاب بحجب الجلال .

ولعل في قوله : « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » ـ في هذه الآية ـ ايماء بأن طاعة الموجودات وتسبيحها للحق تعالى على النهج الطباعي الشمولي الذي جرى عليه القضاء الأزلي ، ولايمكن لأحد التفصّي عنه والعدول إلى غيره ، فعصيان العصاة وتمردهم نحو من الطاعة والامتثال لحكم الأسماء فأهل الحجاب أو عباد الكثرات لايجيبون دعوة التوحيد ، ومن كان في مرتبة الجمع يطلع على مراتبهم ويعذر الكل فيما هم عليه ويعلم إن انكارَهم عينُ الإقرار وفرارهم عين الإجابة لدعوة العزيز الجبّار .

كما نقل عن سيد الأولياء أمير المؤمنين عليه السلام إنه قال: تشهد له أعلامُ الوجود على إقرار قلب ذي الجحود .[١]

* * *

قوله عزّوجل :
﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾

المالك للشيء هو المتصرف فيه بأي وجه أراد من التصرف ، وهذا بالحقيقة لايكون إلا لمن له ذات ذلك الشيء بحيث يحييه ويميته إذا أراد، وإلا لكان تصرفه متوقفاً على تأثير سبب مباين، فلايكون له التصرف بأي وجه شاء ، بل ببعض وجوه التصرف . فالمالك بالحقيقة من له ذات كل شيء فعبّر عن الجميع بالأجسام العظام لأنها الجليّة المكشوفة الواقعة في عالم الشهادة .

وفي قوله تعالى : « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» إشعار لطيف بما ذكر وبرهان شريف عليه ، لأن الموجودات مرتبطة بعضها ببعض، متوقفة بعضها على بعض كأعضاء بدن واحد ، فلو لم يكن الباري موجداً للكل لم يكن مالكاً للبعض بالحقيقة .

مُكاشفة

واعلم إن الموجود قد يكون وجوده لنفسه ، وقد يكون لشيء آخر كالأعراض والصُور لأن وجوداتها ليست إلا نعوتاً وأوصافاً لغيرها لا لذاتها ، بخلاف الأعيان الجوهرية لأن ماهياتها ليست نعوتاً لغيرها .

والتحقيق إن وجود الموجودات في أنفسها ليس إلا وجودها له تعالى ، لأن

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٤٩.

جميعها فعلُ الحق ، والفعل من حيث هوفعل لاقِوام له في نفسة إلابالفاعل ، وماوجد من الأفعال والآثار مستقلة دون ماتصدر عنها فليست هي بالحقيقةآثاراً لها بل يتعلق بها على نوع آخر من التعلق .

* * *

وموضع «يُحيي» ومايعطف عليه إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على أنه حال من الضمير المجرور في « لَه » . ويحتمل عدم تعلق هذه الجملة لشيء فلايكون لها موضع من الإعراب ،كقوله : « لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ » . أو معناه : يحيى النطفَ والبيضَ في الدنيا ، والموتى يومَ القيمة ، ويميتُ الأحياء في الآخرة .

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام : يحيي بالطاعة ويميت بالمعصية .

وعن أبي بكر الورّاق : يحيي بالعلم ويميت بالجهل .

وعن ابن عباس : يحيي عند البعث ويميت في الدنيا .

وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة في المعنى ، فإن حيوة العلم والطاعة من قبيل حيوة الأرواح فيالآخرة ، وموت الجهلوالمعصية من قبيلموت الأجسام فيالدنيا.

مكاشفة

إن نوع الإحياء مختلف في النشأتين ، لأن في الأولى تدريجي وفيالآخرة دفعيّ ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [٣٠/٢٧] مع كونه على كل شيء قديراً بنسبة واحدة من قِبله ، فلايتأبّى قدرته عن شيء من المقدورات كما لايعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولافي السموات .

فإن قلت : ماوجه صدور الإماتة منه تعالى مع كونه محض الرحمة ومنبع الخير والحيوة ؟

قلنا : فعل الإماتة منه تعالى لكونها مستلزمة للإحياء على وجه أبقى وأشرف حسَن ، كما إن الأمر بالقصاص لكونه يوجب الحيوة على وجه أكثر وأصح حسن .
أو نقول : موت البدن من ضروريات قوام الروح بذاتها حيّة موجودة بالفعل وإن كانت من أرواح الأشقياء المردودين وممن يأتيه الموت من كل مكان وماهو بميّت .
ومما يؤيّد إن الحيوة الآخرة نوع أقوى من الحيوة الدنيا قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [٥٠/٢٢] إذ حدة البصر والبصيرة تدل على قوة الحيوة والوجود .

قوله عزوجل :

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

الواوات الثلاثة للجمعية ، لكن الأولى للدلالة على أنه تعالى مجمع صفتي التقدم والتأخر ، والثالثة على أنه مجمع الظهور والبطون ، والوُسطى على أنه الجامع بين ذينك المجموعين ـ مجموع الأولية والآخرية ومجموع الجلاء والخفاء .
وعن عبدالعزيز : إن الواوات مقحمة والمعنى : هو الأوّل الآخر الظاهر الباطن . لأن من كان منّا أولاً لايكون آخراً ، ومن كان ظاهراً لايكون باطناً ، وهذا يلائم القول بأن أوّليته عين آخريّته ، وظاهريّته عين باطنيّته .
وعن ابن عباس : الأول قبل كل شيء بلا ابتداء ، والآخر بعد فناء كل شيء بلاانتهاء ، فهو الكائن لم يزل ، والباقي لايزال ، والظاهر الغالب العالي على كل شيء فكل شيء دونه . والباطن العالم بكل شيء فلا أحد أعلم منه .
وتوجيه هذا المنقول وإن كان فيه عدول عن الظاهر المفهوم إنه مأخوذ من بطن الشيء بمعنى علم باطنه ، ولهذا أردف بقوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن العالِم بوجود الشيء عالِم بما سواه .

وعن الضحاك : هو الذي أوّل الأوائل وأخّر الأواخر، وأظهر الظاهر وأبطن الباطن .

وقال البلخي : هو كقول القائل «فلانٌ أول هذا الأمر وآخره وظاهره وباطنه» أي : عليه يدور الأمر وبه يتمّ .

وقيل : هو المستمر الوجود في جميع الأزمنة الماضية والآتية ، الظاهر في جميعها بالأدلة والشواهد ، الباطن عن إدراك الحواسّ والمشاعر الجليّة ، فيكون حجّة على من جوّز رؤيته تعالى في الآخرة بهذه الحاسّة .

وقيل : إن الأول والآخر صفة الزمان بالذات ، والظاهر والباطن صفة المكان كذلك ، والحق تعالى وسع المكان ظاهراً وباطناً ووسع الزمان أولا وآخراً وهو منزّه عن الافتقار إلى المكان والزمان فإنه كان ولامكان ولازمان .

مكاشفة

الأولية قد يكون بمعنى كون الشيء فاعلا، والآخرية بمعنى كونه غاية مترتبة على وجود الفعل في العين ـ وإن كانت الغاية بحسب وجوده في العلم متقدمة أيضاً ـ فالله سبحانه **أول كل شيء** بمعنى أن وجوده حصل منه ، وبمعنى أن الغرض في حصول ذلك الشيء منه هو علمه بالمصلحة وكونه تماماً في الجود والرحمة ، فيّاضاً على الأشياء بلاعوض ، **وآخر كل شيء** بمعنى أنه الغاية التي تطلبه الأشياء وتقصده طبعاً وإرادة .

والعرفاء المتألهون حكموا بسريان نور المحبة له والشوق إليه في جميع المخلوقات ـ على تفاوت طبقاتهم .. فالكائنات السفلية كالمبدعات العلوية على اقتراف شوق من هذا البحر الخضيم ، واعتراف شاهد مقرّ بوحدانية الحق العليم ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [١٤٨/٢] فهو الحق الأول الذي منه ابتدأ أمر العالَم ، وهو

الآخر الذي إليه ينساق وجود الأشياء سيّما بني آدم ، إذ منه صدر الوجود ولأجله وقع الكون .

وهو الآخر أيضا بالإضافة إلى سير المسافرين إليه ، فإنهم لايزالون مترقّين من رتبة إلى رتبة حتى يقع الرجوع إلى تلك الحضرة بفنائهم عن ذاتهم وهويّتهم واندكاك جبل وجودهم وإنيّتهم ، فهوأول في الوجود وآخر في المشاهدة ، والله ـ عزّ اسمه ـ حيث أنبأنا عن غاية وجود العالَم قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٥١/٥٦] أي : ليعرفون : وقوله : **كنتُ كنزاً مخفياً فاحببت أن أعرف فخلقتُ الخلقَ لأعرف** . فدلنا على أنه الغاية القصوى لوجود العالم معروفاً كما أنه الفاعل له موجوداً، ودلّنا أيضاً على بعض الغايات المتوسطة الضرورية بقوله: **لولاكَ لَما خلقتُ الأفلاك** .

فالمبدأ والغاية لوجود العالَم ولقاء الآخرة هو الله سبحانه ولذلك بنى العالم ولأجله نظّم النظام .

قال بعض الحكماء : ولوأن أحداً من الخلق عرف الكمالَ الذي هو الخير الأقصى، ثم كان ينظّم الأمور التي صدرت منه على الوجه الذي صدرت هي عليه وعلى مثاله حتى كانت الأمور على غاية من النظام والتمام لكان غرضه بالحقيقة هو ذات الباري ، فهو الأول والآخر بهذا المعنى أيضاً .

﴿ تتميـم ﴾

قد انكشف إن الموجودات العالَمية كلها بحسب فطرتها التي فطرها الله عليها متوجهة نحو غايات حقة وأغراض صحيحة ، بل الغاية في الجميع أمر واحد هو الخير الأقصى، إلا انههنا غايات وهميّة زيّنت لطوائف من المكلفين، فهم سالكون إليها في لبس وعماية من غير بصيرة ودراية ، فهؤلاء الطوائف مع وليّ الوجود ومنبع الرحمة والجود في شقاق ، فهم ليسوا عبادالله في الحقيقة ولا الله موليهم الحق، وحيث مايتولّونه فلهم لامحالة وليّ، وهوشيطان من الطواغيت ، ولما كان

فعل الشيطان الوسوسة والإضلال ولا يطيعه الإنسان إلا بقوته الوهمية التي هي من جنود الشيطان ، فإن شئت سمّهم عبَدة الهوى وإن شئت سمّهم عبَدة الطاغوت فقد نزل لكل ذلك القرآن .

فمَن تولى اللهَ وأحبَّ لقائه وجرى على ما أجرى عليه النظام فقد تولّيهم و ﴿ مَوليٰهُمُ ٱلحَق﴾[٦٢/٦]﴿وَهُوَيَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ﴾ [١٩٦/٧] من كان لله كان الله له ، و ﴿ مَنْ كَانَ يَرجُوا لِقاءَ ٱللهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَآتٍ ﴾ [٥/٢٩] .

ومن تعدى ذلك وطغى وتولى الطواغيت واتّبع الهوى فلكل نوع من الهوى طاغوت ، فشخص كل إلى معبوده ووجّه إليه كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ ﴾ [٢٣/٤٥] .

وإنك لتعلم إن النظامات الوهمية والغايات الجزئية تضمحلّ وتبقى ، فكل مَن كان الهه هواه ووليّه الطاغوت- والطاغوت من جوهرة هذه النشأة الدنياوية التي هي دار الغرور وموطن الزور ـ كلما أمعنت هذه النشأة في العدم ازداد الطاغوت اضمحلالا فيذهب به ممعناً في وروده العدم ، متقلباً به في الدركات حتى يحلّه دار البوار .

عصمنا الله وإخواننا في اليقين من متابعة الهوى والركون إلى زخارف الدنيا وجعلنا من عباده الصالحين الذين يتولاهم رحمته يوم الدين .

* * *

وأما كونه ظاهراً : فلكونه نور السموات والأرض ، والنور حقيقته الظهور ، لأن ماليست حقيقته النور فإنما يظهر بالنور ، والنور بنفسه ظاهر وبذاته متجلّ .

وأما كونه باطناً ـ أي مختفياً ـ : فلشدة ظهوره وغاية وضوحه ولأجل ذلك يختفى على الضمائر والأنظار ويحتجب عن العقول والأبصار فذاته بذاته متجلّ للأشياء ولأجل قصور بعض الذات عن قبول تجلّيه يحتجب ، فبالحقيقة لاحجاب إلا في المحجوبين .

والحجاب هو القصور والضعف والنقص ، وليس تجلّيه إلا حقيقة ذاته ،

إذ لامعنى له بذاته إلا صريح ذاته ، لأن صفاته ليست زائدة على ذاته كما أوضحه الربانيون .

أولاترى الشمس التي هي أشد الأنوار الحسية وأقوى الأضواء البصرية كيف احتجبت لفرط ظهورها على الحاسّة البصرية حتى لايمكن للبصر لأجل ضعف قوته ملاحظتها إلا من وراء الحجاب كالمرآة أوالماء أوالسحاب الرقيق ، كما قال الشاعر:

كالشمس يمنعك اجتلاؤك وجهها * فإذا اكتستْ برقيق غيم أمكنا

فكذلك الحق سبحانه ، فإنه وإن لم تحط بحقيقته العقول والأفكار ولم يدرك ذاته البصائر والأبصار إلا انه ليس لوجهه نقاب إلا النور ، ولا لذاته حجاب إلا الظهور ، ولم يمنع القلوب من الاستنارة والاستجلاء بعد تزكّيها عن كدورات الشهوات إلا شدة الإشراق وضعف الأحداق .

فسبحان من اختفى عن بصائر الخلق نوره واحتجب عن عقولهم لفرط الوضوح ظهوره ، وهو بكل شيء عليم ، لأنه بنور ذاته يظهر جميع الأشياء على ذاته ، إذ العلم بالشيء ليس إلا ظهوره عند شيء آخر ومثوله بين يديه والله خالق كل شيء فلايخفى عليه شيء في الأرض ولافي السماء إذ بيده ملكوت الأشياء ، ومنه ينشأ حقائق الانباء .

قوله عزوجل :

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ

أصل الخلق : التقدير. والاستواء : الاعتدال والاستقامة ونقيضه الاعوجاج . والعرش : السرير ومنه : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [٢٣/٢٧] والعرش : الملك ، يقال : ثل عرشه . والعرش:السقف ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [٢٥٩/٢] .

والمعنى : إنه لماذكر إن جميع الموجودات يمجّدونه ويسبّحونه ويعظّمونه

- كل منها على قدر وعاء وجوده وحوصلة إدراكه وشعوره - لعظمته ومجده وجماله وجلاله، وبيّن ذلك بأن له التصرف في الجميع بالمالكية والإفادة والإحياء والإماتة ، وأنه أول كل شيء وآخره وظاهره وباطنه ، والمملوك لامحالة تكون خاضعاً ساجداً لربه ومطيعاً لخالقه ، فأراد أن يشعر بأن كونه بحيث يخضعه ويسجد له الجميع ليس أمراً جزافياً أو اتفاقياً ، أو حُكماً إجبارياً من غير استحقاق ، بل هو أمر يليق بشأنه ، واقع في مقابلة لطفه وإحسانه وكرمه وامتنانه ، حيث نظّم أُمور العالَم على أبدع نظام وأفاد وجود كليات الجواهر وعظائم الأجرام على أشرف وضع وانتظام .

إذ أنشأ أعيان السموات وأبدعها لامن شيء يقتضيه ولا على مثال يحتذيه ، ثم أمسكها بلاعماد وأنشأ الأرض وأوجدها بلااعتماد في ستة أيام - ولم يخلقها في لحظة واحدة وإن كان مقدوراً له تعالى،لأن خلقها في هذه المدة أصلح وأليق بحال الكائنات وأنسب بنظام المخلوقات - .

ورتّبها على أيام الأسبوع ، فابتدأ بالأحد وختم بالجمعة ، فاجتمع له الخلق يوم الجمعة ، فلذلك تسمى جمعة -- عن مجاهد - .

وقيل: إن ايجاد الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء على التدريج والترتيب أدلّ على كون فاعله عالماً مدبراً يصرّفه على اختياره كيف يشاء حريّاً بأن يعبده ويسجد له ويطيع أمره جميعُ عباده ومَن كان في ملكه وملكوته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي : استوى أمره إلى ملكه لأن الأمور والتدابير تنزل منه .

وعن الحسن : يعني استقرملكه واستقام بعد خلق السموات والأرض وظهر ذلك للملائكة .

وإنما أخرج هذا على المتعارف في كلام العرب كقولهم : «استوى الملكُ على عرشه » - إذا انتظمت أمور مملكته - وإذا اختلّ أمرُملكه قالوا : « ثلّ عرشُه » . ولعل ذلك الملك لايكون له سرير أصلا ولايجلس على سريره أبداً ، قال الشاعر:

إذا مابنومروان ثلّت عروشهم وأودت كما أودت أياد وحمير

وقيل معناه : ثم قصد إلى خلق العرش ـ عن الفرّاء وجماعة واختاره القاضي. ويلزم منه أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض، وليس بذاك مع بُعده عن اللفظ .

وروى عن مالك بن أنس إنه قال : الاستواء غير مجهول و كيفيته غير معلومة ، والسؤال عنه بدعة .

وعن أبي حنيفة إنه قال : اقرؤه كما جاء . أي : لاتفسروه .

مكاشفة

اعلم إنه خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير محكم ، فأبدع الافلاك ثم زيّنها بالكواكب مع نفوسها المجردة المحركة إياها بأمر باريها طاعة وخدمة لمبدعها وتشوّقاً إلى جاعلها، كما أشار إليه بقوله : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [٤١/١٢] .

وعمد إلى ايجاد الاجرام السفلية فخلق جسماً قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ، ثم قسّمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال وأشار إليه بقوله : خَلَقَ ٱلارضَ ـ أي : مافي جهة السفل ـ في يَوْمَين . ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانياً كماقال بعد قوله : « وَخَلَقَ ٱلارضَ فِي يَوْمَين » ـ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ـ أى مع اليومين الأولين ، لقوله في سورة السجدة : ﴿اللهُ ٱلذي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٣٢/٤] .

ثم لماتمّ عالم الملك بأمره عمد إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة ، فدبّر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب

وتمزيج القوى والكيفيات مما يلج في الأرض ومايخرج منها ، وإمدادها بما ينزل من السماء ، وهدايتها بما يعرج فيهـا ، وهو أقرب إلى كل شيء من هذه الوسائط لأن له التأثير والايجاد ومنها التهيئة والإعداد ، فهو تعالى مع كل شيء أينما كان ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت .

مكاشفة

اعلم إن المكشوف عند ذوي البصائر إن الحق سبحانه خلق السموات والأرض في ستة أيام من الأيام الإلهية التي كل يوم منها ألف سنة مماتعدّون ، وهي من زمان آدم إلى زمان محمد ﷺ جميع دور خفاء الذات واحتجابها بالأسماء ، وظهور الأسماء في مظاهر الأشياء كل يوم منها ميلاد واحد من الأنبياء العظام من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ .

ثم استوى على عرش الذات وهو الروح الأعظم باسم الرحمن في اليـوم السابع وهو يوم الجمعة لحشر الخلائق فيه وجمعهم وحسابهم وميزانهم لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ [١١/١٠٣] .

وقد اشتهر فيما بين الناس في جميع الأمصار إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة على عدد الكواكب السبعة ، فكل ألف سنة يوم من أيام الله لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٢٢/٤٧] .

فالستّة منها هي التي خلق الله فيها السموات والأرض وما فيهما لأن الخلق حجاب الحق . فمعنى خلق : اختفى بهما، فأظهرهما وبطن ويوم السابع هو يوم الجمع ، وزمان الاستواء على العرش ، والظهور بالأسماء ، وهذا الظهور يبتدي في السابع مع ظهـور محمد ﷺ كما روي إنه قال : « بعثتُ أنا والساعةُ كهاتيـن ـ وجمع بين السبابة والوسطى ـ »[1] .

(١) الترمذي: كتاب الفتن، باب ماجاء في قول النبي (صلّى الله عليه وآله): بعثت أنا...:٤/٤٩٧.

ويزداد إلى تمام سبعة آلاف سنة من لدن آدم أول الأنبياء إلى زمان خاتم الأولياء ـ المهدي صاحب الزمان عليه السلام ـ وتنقضي الخفايا لظهور التام لقيام الساعة ووقوع القيامة الكبرى ، وعند ذلك يظهر فناء الخلق والبعث والنشور والحساب والميزان ويتميز أهل الجنة والنار ويرى عرش الله بارزاً ـ كما حكى بعض العرفاء عن شهوده ـ .

وتمام ظهور هذه الأمور في الآخرة ، وإن كان العارفون يشاهدونها في مرآة الدنيا، فابتداء يوم القيمة ـ الذي قد طلع فجرُه ـ ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، فالمحمديون لكونهم خير اُمّة أخرجت للناس أهل الجمعة ومحمد صلى الله عليه وآله صاحبُها وخاتم النبيين.

واتفق أهل الملل كلها من اليهود وغيرهم إن الله فرغ من خلق السموات والأرض في اليوم السابع ، إلا ان اليهود قالوا : إنه السبت وابتداء الخَلْق من الأحد. وعلى ماذكر يكون هو الجمعة .

وإن جعَلنا الأحد أول الأيام ووقت ابتداء الخَلق كان جميع دور النبوة دور الخفاء وفي السادس ابتداء الظهور وازداد في الخواص كما ذكر إنه « يوم خلق آدم » ـ أي : الحقيقي ـ « ويوم الساعة » « ويوم المزيد » حتى ينتهي إلى تمام الظهور وارتفاع الخفاء في آخره عند خروج المهدي عليه السلام ، ويعمّ الظهور في السابع الذي هو السبت .

* * *

ولزيادة توضيح هذا المقام نمهّد مقدمة من الكلام ، فنقول :

إن ماأوجده الله تعالى بحكمته البالغة ونظّمه بنظمه البديع لايخلو عن قسمين: إما اُمور طبيعية جسمانية ، وإما اُمور إلهية روحانية .

أما الاَمور الطبيعية الجسمانية فحدوثها وإنشاؤها لايكون إلا على سبيل التدريج وممر الدهور والأزمان ، إذ المعنى بالطبيعي هو مايصدر عن الطبيعة بقدرة الله تعالى، والطبيعة بما هي طبيعة ليست حقيقتها إلا منشأ الحركة والسكون في الجسم الطبيعي ـ وهما زمانيان كما حقق في مظانه ـ والطبيعي إذن تدريجي لامحالة ، فوجود العالم

الجسماني ـ فلكياً كان أو عنصرياً ـ تدريجي ، لأن حقيقتها متقومة بالتغيّر .

فكل عاقل لبيب إذا فكر في كيفية ايجاد الأجسام الطبيعية وعوارضها وصفاتها الطبيعية يعلـم ويتحقق إنها واقعة في مقدار من الزمان ، ويتيقّن إن هيولى الكل قد أتى عليه دهر طويل وأمد مديد إلى أن تمحض وتميز اللطيف منها من الكثيف ، والعالي منها من السافل ، والفلكي منها من العنصري ، والنيّر من المظلم ، وتقبل الكرات الفلكية والأنوار الكوكبية وتحيط بعضها ببعض، وإلى أن استدارت الأجرام الكلية والكرات الكوكبية وركزت على مراكزها، وإلى أن تميزت الأركان الأربعة وترتبت مراتبها ومزّجت فنون تمزيجاتها لينتظم الكل كأنها شخص واحد متعاون بعضها ببعض ، منتفع بعضها من بعض كأبعاض بدن واحد إنساني في مدة العمر . والدليل على ذلك قول الله سبحانه : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٢٢/٤٧] .

وأما الأمور الربانية والأشعة الإلهية فهي كأنها من مراتب علمه الأزلي وعالم قضائه وأمره السرمدي وحجب ربوبيته وسرادقات عزته لايبلغ عقول البشر كنهها ، وقد يعبر عنها في لسان الشريعة بعبارات ورموز لايفهم مغزاهـا إلا من أيّده الله بتوفيق خاص وهي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [٥٤/٥٠] تنبيهاً على عدم تجددها وتغيرها وارتفاعها عن عالم الزمان والتغيير.

* * *

وقد وقع في بعض شرايع السابقين وملل الأقدمين إشارة إلى كيفية حدوث الأفلاك ومافي جوفها من أمر الله سبحانه على سبيل الرمز [١] :

إنه قد أتى دهر طويل على النفس الكلي ـ أي الملك الأعظم الحامل للعرش الرئيس على جملة الحمَلة والمدبرات السماوية ـ قبل تعلقها بالجسم ذي الأبعاد ،

(١) مقتبس من رسائل اخوان الصفا: الرسالة التاسعه من النفسانيات والعقليات: ٣/٣٥٣.

وكانت في عالمها الروحاني ومحلها النوراني مقبلة على مفيضها ومبدعها ومكملها يقبل عنه الفيض والفضائل الكثيرة وكانت منعمة ملتذة مستريحة فرحانة مـن تلك الفضائل والخيرات فأخذها شبيه المخاض ، فأقبلت تطلب ما تفيض عليه من تلك الخيرات وكان الجسم بحسب هيولبته فارغاً قبل ذلك من الأشكال و الصوّر والنقوش، فأقبلت النفس على الهيولى ليميزالكثيف من اللطيف ويفيض عليه تلك الفضائل والخيرات .

فلمّا رأى الباري جل ذكره ذلك منها ومن الجسم تهيؤآلها فخلق من ذلك الجسم عالم الأفلاك وأطباق السموات من لدن العرش إلى قرار الأرضين على أحسن نظام وترتيب ممّا هي عليه الآن، وهكذا يفيض تلك الفضائل والخيرات من الصور والكيفيّات متجددة متعاقبة في أزمنة متطاولة و دهور كثيرة لاستحالة الجمع بين الصورتين في زمان واحد .

فمهما استوفت إفاضة الصور والكيفيات المقدرة في قضاء الله وقدّره على المواد الفلكية و العنصرية سكنت الأفلاك عن الدوّران ، والكواكب عن السير ، والأركان عن الاختلاط والمزاج ، وكلّت القوى الجسمانية و الآلات ، وبلى الحيوان والمعادن والنبات، وخلع الصور والأشكال والنقوش، وانفطرت السموات وانشقّت ، وهدمت الجبال وبست ، وتبقى فارغة كما كانت بديّا .

فرجعت النفس المدبرة الكلية إلى عـالمها الروحـاني ومحلهـا النوراني وحالتها الأولى وأعرضت عن شغلها الذي كان وأقبلت نحو علتها المفيضة ولحقت بها. لأن مثل النفس في اقبـالهـا على الجسم و اشتغالهـا بتدبيره واصلاحـه ـ بعد ما كانت مقبلة على مبدعها مستفيدة منه الفيض ـ كمثل الرجل الخيّر العاقل المقبل أولا على استاذه المحب لعلمه ، الحريص في تعليمه للعلوم والحكم والمعـارف ، المتخلق بأخلاقه الجميلة وآدابه الصحيحة برهة من الزمان حتى امتلأ من الخيرات والفضائل والعلوم والحكم أخذه عند ذلك شبه المخاض واشتهى وتمنى وطلب من يفيض عليه من تلك الخيرات والفضائل ويفيده إيـاها ، فإذا وجد تلميذاً يعلم إنّه

يقبل منه ويفهم عنه علمه وحكمته أقبل عليه بالفيض والإرشاد والإفادة ـ طمعاً في اصلاحه وحرصاً على تعليمه و تأديبه تشبهاً بأستاذه الأول ـ فإذا فرغ من تعليمه وتأديبه أقبل عند ذلك على عبادة ربه وطلب الخلوات بمناجاة ربه وتمني اللحوق بأسلافه وأقاربه والدخول في زمرة الملائكة .

وهكذا كانت سيرة الأنبياء عليهم السلام وكذلك كانت سيرة الحكماء المتقدمين الذين أخذوا الحكمة من مشكوة النبوة ، كل ذلك تشبّها بالله في اظهار حكمته وفيض فضائله على بريّته واعطاء نعمته على خليقته .

كلام من الحكماء شبه رمز [1]

ذكروا إن ملكاً عظيم الشأن ، عزيز السلطان ، واسع المملكة ، كثيرالجنود والعبيد ولد له ولد ذكر كان أقرب الخلق به شبهاً وإلى والده (والديه ـ ن) طبعاً وخلقاً ، فلمّا تربى ونشأ وكمل ولّاه أبوه بعض مملكته وأمر أجنادَه وعبيده بطاعته ، وأوصاه بحسن سياستهم وأباحه جميع النعم ـ غيرأنه نهاه عن مرتبته ـ.

فمكث ذلك الإبن زماناً طويلا قدر نصف يوم متنعّماً متلذذاً إلا أنّه كان ساهياً ، فحسده بعض عبيد الملك ممن كان متيناً قبله ، فقال : « إنّك لست تعرف نعمة ، ولا تجد لذّة ، لأنك ممنوع من أرفع نعمة ، منهي عن ألذشهوة » .

فاغترّ بقوله وطلب ماليس له أن يتناوله قبل حينه فسقطت مرتبته وانحطت درجته عند أبيه وبدت له سوئته وخسته واستبانت خطيئته ، فهرب خوفاً من أبيه ذاهباً في مملكته شبه المستتر ، فأصابه العناء ولقيه البأساء والضراء والجهد والبلاء ، فتذكر يوماً ما كان فيه من نعمة أبيه ، فحزن على ما فاته وبكى أسفاً ، ثم نعسَ فنامَ ، فحُمل إلى أبيه . فقال : **«دعوه نائماً إلى يوم الجمعة»** .

ثم إنّه ولد في اليوم الثاني ابنٌ آخر أشبه الناس بأخيه ، فتربّى ونشأ وكمل.

(١) اخوان الصفا: الرسالة السابعة من النفسانيات والعقليات: ٣/٣١٥.

ونما وكان حكيماً وقوراً صبوراً شكوراً ، فولّاه أبوه بعض مملكته وأمرهم بطاعته وأوصاه بسياستهم . فدعاهم وأمرَهم ونهاهم . فلم يسمعوا ولم يطيعوا له أمره لأنه كان شبيه زُحل ، بل آذوه فصبر زماناً ثم شكى إلى أبيه ، فغضب عليهم و رمى أكثرهم في الماء .

فلمّا رأى ما أصابهم اغتمّ وحزن ونعس فنام وحمل إلى أبيه ، فقال : « اتركوه نائماً إلى يوم الجمعة » .

ثم إنه رزق في اليوم الثالث ابن آخر وكان أشبه بأخويه الذين تقدم ذكرهما ، وكان خيّراً فاضلا نجحاً ، فولّاه أبوه مكان أخويه وأمرهم بطاعته وأوصى إليه بما أوصى إلى أخويه من قبل ، فدعاهم وأمرَهم ونهاهم فلم يسمعوا ولم يطيعوا لأنه كان يشبه المشتري وفزعوه بالنار ، فذهب إلى أبيه و بنى له هيكلاً ونذر له قرباناً وعلّم مناسكاً . ونادى في الناس : «تعالوا لِترَوا مالم ترَوا ، وتسمعوا مالم تسمعوا».

ثم نام وحمل إلى أبيه فقال : « اتركوه نائماً إلى يوم الجمعة » .

وبقي نداؤه في مسامع النفوس يتوارثونه من غير أن سمعوا ويذهبون إلى هيكله فيرون ظاهره ــ ومرماه مما لايبصرون ــ ويفعلون شبه مناسكه ولكن أكثرهم لايفهمون لأنهم صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون .

ثم إنه رزق في اليوم الرابع ابن آخر ، فنشأ وكمل ونمى وكان جلداً قوياً مقداماً ، فولّاه أبوه مكان اخوته وأمرهم بطاعته ، فدعـاهم وأمرَهم ونهاهم ، فلم يسمعوا ولم يطيعوا ، لأنه كان يشبه المريخ . وبارزوه وبارزهم ، وناوشوه وناوشهم ونازعهم ، وكان مؤيداً بقوة أبيه فغلبهم وبدّد شملهم وفرق جمعهم وشتّت إلفهم ، ورمى بهم في البر والبحر ، ثم بقي وحيداً كالغريب يدعوا فلايجاب ويأمر فلايهاب ، فاغتمّ وحزن ونعس فنام وحمل إلى أبيه ، فقال : « دعوه نائماً إلى يوم الجمعة » .

ثم إنه رزق في اليوم الخامس ابن آخر أشبه الناس بأخيه الأول ، فتربّى ونشأ وكمل ونمى وكان هادياً رشيداً طيباً رفيعاً ، فولّاه أبوه مكان إخوته ، فدعاهم وأمرهم ونهاهم ، فلم يسمعوا له إلاقليلا ولم يطيعوه إلا يسيراً لأنه كان يشبه الزُهرة ،

ثم وثبوا عليه فأخذوا قميصه الذي ألبسته أمه ، فذهب إلى أبيه فاستقر عليهم بجنوده وأيّدهم [1] بروح منه ، فسرى في نفوسهم وتحكّم في لاهوتهم بدلاً وقصاصاً لما تحكّموا في ناسوته ، و أراد أن ينزل من الرأس ، فقال أبوه : « **اصبر إلى يوم الجمعة** » .

ثم قال الملك في يوم السادس للمنجمين : « اختاروا لابني الذي يشبه عطارد يوماً لينزل إلى عالم الكون والفساد فينبّه إخوته النيام ، ويناديهم إلى ربهم، فقد رضيت عنهم ، ويأمرهم بالاستعداد للصلوة فإن غدا هو يوم العيد ـ يوم الجمعة فيبرز للقضاء ويحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون » .

فاجتمع سادة النجوم ورؤساء الكواكب في بيت المريخ ، وتشاوروا بينهم فقال رئيس الكواكب وملكها: [2] «أنا أختار له من قوتي وأزوده من فضائلي : العظمة والجلالة ، والرئاسة والسلطان ، والعز والرفعة ، والبهجة والبهاء ، والمجد والثناء ، والبذل والعطاء » .

وقال شيخهم كيوان : « أنا اختار له من قوتي وأزوده من فضائلي : الحلم والوقار ، والصبر والثبات ، وبُعد الغور وعلوّ الهمّة ، والحفظ والأمانة ، و الفكر والرويّة » .

وقال برجيس القاضي العادل : « أنا أختار له من فضائلي وأزوده من قوتي: الدين والورع ، والخير والصلاح ، و العدل والانصاف ، والصدق و الصيانة والمروة » .

وقال بهرام صاحب الجيوش : « أنا أختار له من قوتي وأزوده من فضائلي: العزم والصرامة ، والنجدة والشجاعة ، والهمة والنشاط ، والظفر والغلبة ، والبذل والسخاء ، والتيقّظ والأنفة » .

---

(١) اخوان الصفا: فاستنفر عليهم بجنوده وأيده...

(٢) اخوان الصفا: وملكها الشمس....

وقالت نساهيد أخت النجوم : « أنا اختار له من قوتي وأزوده من فضائلي : الحُسن والجمال والكمال، والرأفة والرحمة ، والزينة والنظافة ، والحب والمودة والسرور واللذة » .

وقال أخوهم الأصفر ـ وهو أخفاهم منظراً وأجلهم مخبراً الذي صنعته أظهر وعلومه أكثروعجائبه أشهر ـ : « أنا اختارله من قوتي وأزوده من فضائلي واؤيده من مناقبي : النطق والفصاحة ، والتميز والفطنة والقرائة ، والعلوم والحكمة » .

قالت أمّ النجوم : «أنا أرضعه وأربّيه ، واختارله من قوتي وأزوّده من فضائلي : النور والبهاء ، و الزيادة والنماء ، والحركة في الأقطار ، والتنقّل في الأسفار ، وبلوغ الآمال ، والسير والاختبار ، وعلوم مواقيت الآجال » .

* * *

ثم إنه دارت الأفلاك وتمخّضت قوى الروحانيات ـ أهل السموات ـ فنزل إلى عالم الكون والفساد في ليلة القدر قبل طلوع الفجر صاحب النشور لينفخ في الصور ، فمكث هذا المولود في الرحم أربعين يوماً من أيام الشمس وعشرين يوماً في الرضاع ، حتى تربّى ونشأ وكمل ونمى، وكان أشد الناس شبهاً بأخيه الثالث ، لأنه كان يشبه العطارد الذي هو أخوالمشتري .

فصار هذا المولود من بين إخوته أتمهم بنية وأكملهم صورة ، وكان أديباً عالماً حكيماً ملكاً عزيزاً رحيماً إماماً عادلاً نبياً مرسلاً، فولّاه أبوه مملكة إخوته كلها، فظهروقهر من خالفه ، ورفع وأعزّ من وافقه ، وحكم في مملكته نحوثلثين يوماً من أيام الشمس ، ثم أصابته العين فاعتلّ وبقي على الفراش نحو يوم من أيّام القمر مريض الجسم عليل النفس ، ثم تحول إلى دار أخرى ونهض قليلا ومشى ونشط وانبسط ودخل إلى كهف أبيه ونام مع إخوته .

فمكثوا زماناً ، فلما انقضى دور الرقاد وتقارب الميعاد ناداهم الملك : «ألم يأن لكم أن تنتبهوا من نومكم ، وتستيقظوا وتذكروا ما نسيتم من أمر مبدأكم ، وترجعوا معادكم من أسفاركم ، وتأوون إلى دار مقامكم من غربتكم ؟ فقد تمّ

خلق السموات السبع في ستة أيام وغداً الجمعة يستوي بكم على العرش ويحمله يومئذ ثمانية » .

فانتبهت لذلك الإخوة الذين قيل: ﴿إِنَّهُمْ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بعدرقدتهم ثلثمأة وأربعة وخمسين من أيام الشمس بحساب القمر، يتذاكرون كم لبثتم في كهفكم؟ فقال أبوهم لأخيهم : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٢٢/١٨] .

فأخفى أمرهم وكتم أسرارهم لأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [٧/٥٨] وهو يوم جمع الخلائق كلهم للجزاء .

* * *

وكما [١] إن للملك مدينة فيها جنوده ومماليكه، ولأهل تلك المدينة عمّال وصنّاع لهم أجرة وأرزاق ، وفيها تجّار وبيّاع يتعاملون بموازين ومكاثيل ، ولهم مظالم وخصومات ولهم فيها قضاة وعدول ، ولهم فقه وأحكام وفصول ، وإن من سنّة القضاة البروز والجلوس في كل سبعة أيام يوم واحد : فهكذا يجري حكم النفوس الكلية وملائكة الله تعالى العمالة بإذنه في الأنفس الجزئية في كل سبعة أيام ـ كل يوم ألف سنة ـ لعرض الخلائق لدى العزيز الجبار ، الواحد القهار ، لفصل القضاء بينها باستخدام الملائكة العمالة بإذنه ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [٤٧/٢١] .

وروي عن النبي ﷺ : إنه قال : عمرُ الدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها ألفاً [٢] .

وقال ﷺ: لانبي بعدي على هذه الأمة .

---

(١) اخوان الصفا: الرسالة الثامنة من النفسانيات والعقليات: ٢١٩/٣.

(٢) الجامع الصغير: باب الألف بعده الدال: ١٧/٢: الدنيا سبعة الآف سنة، أنا في آخرها ألفا.

يقوم القيامة وهو يوم العرض الثاني، كما إن يوم العرض الأول ما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٢/٧] .

وبين اليومين مدة سبعة آلاف .

وكما إن في المدينة لأهلها جنان وميادين وأنهار وبساطين ، وفيها مجالس ومضائق ومساجن - فالأولى لنزاهة النفوس وبهجتها وسرورها ولذتها ونعيمها ، والثانية لعقوبتها وعذابها على قدر جرائمها وذنوبها - فهكذا في طبقات الوجود ومراتب الكون فسحة وسعة - أهلها في جنات النعيم وروح وريحان ونعمة ورضوان - ومجالس ودركات - أهلها في عذاب أليم وعقاب شديد وغصة عظيمة - كما ذكره الله في التوراة والإنجيل والفرقان في مواضع كثيرة من نعت الجنان ولذاتها، ووصف النيران وآفاتها .

* * *

هذا تلخيص ما وجدنا من كلام الأكابر العظام فاوردناه توضيحاً للمقام ، وليعذرني بعض أعلام الأنام من أولى الدراية والأفهام في الخروج عن طورهم لبعد المرام - والله ولي الهداية في البداية والنهاية .

قوله عزوجل :

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

أي : يعلم مايدخل في جوف الأرض ويسترفيها من البذور وغيرها ومايبرز من الأرض ومايتكوّن منها .

أو يعلم ما يتربّى في الأرض من المعادن والنبات والحيوان و ما يخرج منها

ويكون على ظهرها من هذا ، فيعلم أعيانها وأطوارها، وتقلباتها وأحوالها ـ من القوة والفعل ، والكمون والبروز ـ ومدة بقائها ووقت فنائها . ويعلم ما ينزل من السماء ـ من مطر وملك وغير ذلك حتى القوى والكيفيات ومباديها وفواعلها وأرزاق الخلق ، إذ الجميع مما ينزل من السماء لقوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [٢٢/٥١] ـ وما يعرج فيها ـ أي يصعد إليها ـ من الملائكة الحفظة وما يكتبون من أعمال الخلائق كلها .

وَهُوَ مَعَكُمْ ـ أي: عالم بكم أينما كنتم ، وفي أي أحوال من أحوالكم وصفاتكم التي أنتم عليها ، وأفعالكم وأقوالكم التي فعلتموها وقلتموها .

وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ـ من خير وشر ـ بَصِيرٌ ـ أي : شهيد فيجازيكم على وفق أعمالكم .

مكاشفة

يعلم ما يلج في أرض العالم الجسماني التي هي تحت عوالم الأمر من الصور النوعية لأنها من صور معلوماته ، وما تخرج من الأرواح التي تفارقها والصور التي تزائلها عند الفناء والفساد وهي بعينها هي التي تنزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة و تعرج فيها بعد الاستكمال وتطير إليها بجناحي العلم والعمل . أو ما ينزل من سماء الروح الكلي من العلوم الكلية والأنوار العقلية الفائضة على القلب وينزل منه إلى أرض النفس جزئية ، وما يعرج فيها من الكليات المنتزعة من الجزئيات المحسوسة وهيئات الأعمال المزكية .

والأول إشارة إلى العلوم الموهبيّة التي تفيض أولاً على القلب فتتمثل في الخيال حكايتها وتنزل إليه مثالها .

والثاني إشارة إلى العلوم الكسبية التي ترتقي إلى العقل بعد أن يقع الإحساس

بالجزئيات الجسمانية ، وتنتزع منه الكليّات لأجل المشاركات بينها والمباينات .

والأول طريق الأبرار ، والثاني مسلك النظّار .

وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُم ـ لأنّ موجوديّة أعيانكم الثابتة بظهوره في مظاهرها وتجلّيه في مرائيها .

وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ ـ لكونه مشهوداً له حاضراً عنده منقوشاً في الألواح العالية وملكوتها بحضرته .

﴿ لمعة الهيبة ﴾

إن معيّته تعالى للأشياء ليست كمعيّة جسم لجسم ، أو جسم لعرض ، أو عرض لعرض، وبالجملة ليست تلك المعيّة معيّة في الوضع والمكان ولافي الزمان والآن، ولافي المحلّ والحالّ، ولافي الفعل والانفعال ، ولافي الحركة والانتقال : لتعاليه عن هذه الأوصاف والأشباه والأمثال .

وليست أيضاً معيّة في الوجود، لكونه قبل كل موجود وقبليّته قبليّة لاتنقلب إلى المعيّة التي تقابلها . بل معيّته تعالى نحو آخر من المعيّة مجهولة الكنه .

وإنما يعرف الراسخون في العلم لمعة منها ويشمّون رائحة من كيفياتها وإذا أرادوا أن يفيضوا على غيرهم من المستعدّين شيئاً منها مثّلوا لهم مثال المرآة وقالوا : إن الله تعالى يتجلّى للأشياء كما تتجلّى صورة الشخص في المرائي المتعددة المختلفة صِغَراً وكِبَراً ، واستقامة واعوجاجاً ، وصفاءاً وكدورة ، وغشّاً وخلاصاً ، وإن التجلّي من قِبَله حاصلةٌ دائماً لجميع الأشياء ـ لأنه نور ، والنور من حقيقته التجلّي والظهور على المجالي والمظاهر ـ لكن عدم ظهور هذا التجلّي إما لضعف فيها وصغر في مرآة ذاتها لاتطيق احتمال النور العظيم الباهر ـ كما لاتطيق نورَ الشمس أبصارُ الخفافيش وعيونُ العمشان إلا ظلالا ضعيفاً منه ـ وهذا مثال الأجسام والنفوس الناقصة كالجماد والنبات ، وغير الناطق من الحيوان والناقص من الإنسان .

وإما لكدورة في المرآة ـ كالأبصار التي عليها غشاوة ـ وهذا مثال نفوس العصاة من الناس الذين على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة . أي على عقولهم وعلى أبصارهم التي بها يحصل معرفة الله وملكوته غشاوة المعاصي والشهوات التي بها يقع الحجاب من شهود معرفته تعالى .

وإما لاعوجاج وانكسار في المرآة تقع الصورة فيها على خلاف ماهو الواقع ـ كما في الحول وغيرها من الأمراض العينيّة التي يقع بسببها الغلط في رؤية مايتنوّر بنور الشمس من حقائق الأجسام ـ وهذا مثال نفوس الجاحدين للحق ، المتعصبين لمذاهب تقليديّة رسخت في نفوسهم من أول الأمر بحيث لايمكن زوالها أصلا، فتظهر لبصيرتهم الحولاء وفطنتهم العوجاء صوَرُ الحقائق المستنيرة بنور الله تعالى على خلاف ماهي عليها ، وإلا فالحق متجلّ على كل شيء .

كقوله ـ وهو أصدق القائلين ـ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [٥٠/١٦] .

وفي الحديث النبوي ﷺ : إنه تعالى فوق كل شيء وتحت كل شيء وقد ملاء كل شيء عظمته فلم يخلُ منه أرضٌ ولاسماء ولابحر ولابرّ ولاهواء، هو الأول لم يكن قبله شيء ،وهو الآخر ليس بعده شيء ، وهو الظاهر ليس فوقه شيء ، وهو الباطن ليس دونه شيء فلو دُلّي على الأرض السفلى لَهبطَ على الله .(١)

وفي طريق أهل البيت عليهم السلام أحاديث كثيرة متقاربة المعنى قريبة من معنى هذا، وكذا حديث قرب النوافل .

وقد روي عن موسى ـ على نبينا وآله وعليه السلام ـ : أقريبٌ أنت فأناجيك أم بعيدٌ فأناديك ؟ فانّي أحسّ حسن صوتك ولاأريك فأين أنت ؟

فقال الله : أنا خَلفُك وأمامك ، وعن يمينك وشمالك ، أنا جليس عند من

(١) جاء ما بقرب منه في الدر المنثور: ٦/١٧٠. والترمذي: كتاب التفسير، سورة الحديد: ٥/٤٠٣.

يذكرني ، وأنا معه إذا دعاني .[1]

فما عليك ـ أيّها المتقي عن المعاصي البدنية والقلبية إلا أن تنفي عن عين عقلك كدورته بالتخلّي عن الرذائل وتقوّي حدقته بكحل الطاعات والعبادات والقيام في الليالي والأوقات مع استقامة الفهم والتدبّر في المعاني العقلية والآيات ، فإذا هو فيه ، إذ ليس هناك ماينافيه ، فإذا غافصك تجلّيه ولم تثبت هناك فبادرت وقلت: إنه فيه ـ كما نقل عن المحجوبين بالحق عن مراتب مظاهر الإلهية ولوازم الأسماء ماقالوا ـ إلا أن يثبّتك الله بالقول الثابت فتقول : إن الصورة ليست في المرآة ، ولا المعيّة بينهما كمعيّة الحالّ للمحلّ، ولاالمتمكن للمكان ، ولا غيره من أنحاء المعيّة ، بل تجلّت لها وظهرت فيها ، ولو حلّت لما تصوّر أن تحلّ صورة واحدة لمرائي كثيرة مختلفة في حالة واحدة، بل كانت إذا حلّت في واحدة ارتحلت عن الأخرى ، وهيهات،فإنه يتجلّي لجملة من العارفين دفعة واحدة .

نعم ، يتجلّي في بعض المرائي أصح وأظهر وأقوم وأوضح ، وفي بعضها أخفي وأميل إلى الأعوجاج عن الاستقامة ، وذلك بحسب صفاء المرائي وصقالتها وصحة استدارتها واستقامة بسيط وجهها .

وكما يتجلّي حقيقة الحق لجملة من العارفين من الملائكة المقرّبين وعباد الله الصالحين كذلك يتجلّى بوجه ظلّي للأشياء جميعها ـ على تفاوت درجاتهم في الضعف والقصور ـ .

ولهذا المعنى قال واحد من الحكماء المتقدّمين : « إن المحسوسات كلّها يتشبّه بالحقّ ، إلا أنها لكثرة قشورها وقلّة نورها لاتقدر على حكاية الحقّ من وصفها » .

---

(١) جاء ما يقرب من هذا الحديث في الكافي: كتاب الدعاء. باب ما يجب من ذكر الله عز وجل في كل مجلس : ٤٩٦/٢. والتوحيد للصدوق: باب نفي المكان والزمان والحركة عنه تعالى: ١٨٢.

وبالجملة : لايخلوذرّة من ذرات الكائنات من نور الحق وتجلّيه وظهوره فيه ، لكن تحصيل هذه المعرفـة والوصول إلى مشاهدة هذا التجلّي هو الإكسير الأحمر المستفاد من بحرعميق من بحار القرآن .

قوله عزوجل :

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾

أي : يتصرف فيهما كيف يشاء ، إلا ان مشيّته تعالى تعلّقت بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتسكين الأرض في وسط الكل لقبولها الآثار النازلة عليها من السماء ـ من الأنوار والأمطار ـ ليتولّد منها المركبات ويتكوّن منهـا الكائنات ـ من المواليد الثلاثة وغيرها ـ الحاصلة من الأسباب الفعلية والانفعاليه السماوية والأرضية ، ثم يرجع إليه الأمور يوم القيمة لتجزى كل واحد بما عمل .

وقيل : جميع من ملكه شيئاً في الدنيا يزول ملكه ويتفرد هوسبحانه بالملك ـ كما كان كذلك قبل أن خلق الخلق ـ .

مكاشفة

اعلم إن كل مايصدر عن فاعل فهو في آخر الأمر يرجع إليه كما ينكشف لنا من تتبّع الأمثلة الجزئية فإن من بنى بيتاً ليسكن فيه فالداعي له في بنائه هو الراحة التي يتصورها عند تمام البيت ، فهومع هذا التصوّر فاعل لفعله الذي يصل صورة منه ثانياً إليه ، فكل مَن فعَل شيئاً فإنما يفعل لنفسه .

فلما أفادنا النظرفي خلق السموات والأرض ومافيهما إثبات فاعل لها، موجد له ملكها ، كذلك أفادنا إثبات غاية يرجع إليه الجميع ، ويجب أن يكون تلك

الغاية هي بعينها ماهو الفاعل لوجودها، لأنا لوجعلنا الغاية أمراً معلوماً لكان لوجودها غاية غيرها ـ كما ان لها فاعلا ـ فيتسلسل أو يدور .

وأيضا : لايكون مافرض غاية غاية ، إذ الكلام في الغاية القصوى ، ولكان الباري يحتاج في فعله إلى داع يستولي عليه ويجبره في فعله .

وأيضا : يلزم أن يكون ناقصاً في فاعليته مستكملا بغيره مما فرض غاية والتوالي بأسرها باطلة ، فكذا المقدم .

ثم إنا لو وصفنا كلا من الفاعل والغاية بالمباثنة الكلية يقتضي ذلك تعدد الباري ، ويقتضي أيضاً سلب الماهية عنهما ويستحيل وجود شيئين كل منهما لاماهية له ، فالله هو الأول الذي يبتدي منه الأمور والآخر الذي يرجع إليه الأمور ، فمنه يحصل الأشياء في الإبتداء ، وإليه ينساق الموجودات في الانتهاء وهو الفاعل للوجود والغاية له في الشهود .

فإن قلت : كيف يكون ماهو العلة الفاعلية علة غائية ؟ والفاعل قبل الشيء لينبعث منه الشيء ، والغاية بعد الشيء ليستتبعها الشيء ؟

قلنا : إن العلة الغائية ـ إن تأملت ـ فهي بالحقيقة هي العلة الفاعلية دائماً ـ لافي هذه المادة خاصة ـ فإن الجائع إذا أكل ليشبع فإنما أكل لأنه تخيل الشبع فحاول أن يستكمل له وجود الشبع فيصير من حد التخيل ـ وهو وجود ضعيف ـ إلى حد العين ـ وهو وجود قوي ـ فهو من حيث أنه شبعان تخيلا هو الذي يأكل ليصير شبعان وجوداً ، فالشبعان تخيلا هو العلة الفاعلية ، والشبعان وجوداً هو العلة الغائية فالأكل صادر من الشبع ومصدر للشبع ، فالشبع هو الذي كان علة فاعلية للأكل وعلة غائية له ، ولكن باعتبارين : فهو باعتبار الوجود العلمي فاعل وعلة غائية ، وباعتبار الوجود العيني غاية .

لكن يجب للعارف البصير أن يفرق بين الفاعل الناقص الواقع تحت الكون وبين الفاعل التامّ المرتفع عن الكون المقدس عن الإثنينية والتركيب لافي الذات ولافي الاعتبار ، لأن فاعليته تامة ليست له غاية زائدة على ذاته ، وعلمه بالأشياء

كباقي صفاته عين ذاته ، فإفاضة الخيرات منه على الماهيات إنما هي لكونه بذاته جواداً ، وبعلمه بوجه الخير في النظام ينشأ من الأشياء على أحسن الأنحاء وأفضلها في التمام .

قوله عزوجل :

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

أي : يدخل مانقص من كل منهما في الآخر حسب مادبّره فيه من مصالح العباد والبلاد ـ كما نقل عن عكرمة وإبراهيم ـ

وهوعليم بمكمونات أسرارخلقه وخفيّات ضمائرعباده كمايعلم وجوه الخير في نظام العالم ، كيف ولولم يكن عليماً بخفيّات الأسرار لم يصدرعنه المخلوقات على أفضل ترتيب وأحسن نظام ، فانظر أيها المتفكر في حكمة الباري وَجُوده إنه لولم يخلق الأجرام النيّرات على الوضع الذي يقع بها التفاوت بين الليالي والأيام والتفاضل بين النور والظلام بأن تلج إحديهما في الآخر بأمره تارة وبالعكس تارة أخرى كذلك على نسق مضبوط ونظام محكم من غير اختلال ولاقصور لما انصلح حال الخلايق والأنام على هذه الكيفية والتمام .

ألم تر كيف خلق الله النيّرات العلوية على هيئات وأوضاع ينتفع منها الكائنات السفلية من أنها لوثبتت أنوارها أولازمت دائرة الوجود لأثرت بإفراط فيما حاذاها وتفريط فيما وراء ذلك ولولم يكن لها حركة سريعة لفعلت مايفعله السكون واللزوم ، ولولم يكن الأنوار الكوكبية ذات حركة سريعة مشتركة وأخرى بطيئة مختصة ولم يجعل دوائر الحركات البطيئة وسموتها مائلة عن سمت الحركة لما مالت تلك الأنوار إلى النواحي شمالاً وجنوباً فلم تنتشرمنافعها على بقاع الأرض،

ولولا ان حركة الشمس على هذا المنوال من تخالف سمتها لسمت الحركة السريعة لما حصلت الفصول الأربعة التي يتم بها الكون والفساد وينصلح منها أمزجة البقاع والبلاد .

قوله عزوجل :

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

خاطب سبحانه كافة ذوي العقول من الآدميين دون الملائكة لكونهم مفطورين على العلم بالله ورسوله ، مقدسين عن مزاولة الخبائث لتحتاجوا إلي التزكية بالإنفاق دون سائر الحيوانات وماهو أدون منها من الجماد والنبات لانحطاط درجتها عن استماع هذا الخطاب ، فقال : معاشر العقلاء المكلفين ـ آمِنوا بِاللهِ ـ أي : اعتقدوا بوجود الحق الأول وكونه إله الخلق، وأقرّوا بوحدانيته وتنزيهه وتمجيده ـ وَرَسُولِهِ ـ أي : بكونه مرسلا إياه ، أوصدقوا رسوله واعترفوا برسالته لاتصافه بخصائص الأنبياء من خوارق العادات والعلم بالمغيبات ـ وانفقوا ـ تقرّباً إلى طاعته وتخلصا مما يلهيكم عن معرفته ويبعدكم عن جواره ـ مِمّا جَعَلَكُمْ مُستَخلَفِينَ فيه ـ أي : من مال الله وغيره الذي خلقه لمصالح عباده وإنما مولّيكم إياه لتكونوا خلفاء من قِبَل اللهِ في صرفه لوجوه المنافع والمحاويج ، وخوّلكم الاستمتاع والانتفاع .

فليست الأموال بالحقيقة إلا لمن خلقها ، لا لمن كان متصرفاً فيها بنقلها من موضع إلى موضع أومضافة هي إليه ، فإن مجرد الإضافة إلى شيء لايوجب التسلط لأنها نحو ضعيف من التعلق ، وإنما يكون التعلق القويّ والتسلط التام على شيء بالقدرة على ايجاده وإعدامه ، والقادر على مايشاء إنما كان هو الله تعالى دون غيره فالأموال كلها عارية في يد المتولّين بها إلا انه جعلهم الله برهة من الزمان بمنزلة

وكلاء مستخلفين فيها .

وإنما أوضح الله سبحانه كون المال عارية بيد صاحبه ليهان على الناس الإنفاق منه كمايهون عليهم النفقة من مال غيرهم إذا كانوا مأذونين فيه مأمورين به .

وعن الحسن : أنفقوا من المال الذي استخلفكم الله فيه بوراثتكم إياه عمّن قَبلكم . وفي هذا تنبيه على أن المال حيث انتقل وصار إليكم ممن قبلكم وسيصير منكم إلى من خلفكم ينبغي أن تعتبروا بحال من سبقكم وعدم انتفاعه به نفسه ، وأن تنفعوا أنفسكم بالإنفاق منها وأن يستوفوا حظوظكم البدنية والعقلية الدنيوية والدينية منها قبل أن يخرج الأمر من يدكم وينتقل المال إلى غيركم .

مكاشفة

واعلم إن هذا الحكم كما يشمل النعَم الخارجية كذلك يشمل النعَم الداخلية من الأعضاء والحواس والقوى التي أنعمها الله إيانا وخوّلنا الاستمتاع بها في الدنيا للانتفاع بها لأجل الآخرة ، بأن نصرفها في عبادة الرب ومعرفته وسيزول ويتخلف عنّا عن قريب ، بل النعم الداخلية البدنية كالنعم المالية الخارجية في كونها مباثنة لأرواحنا ، خارجة عن ذواتنا ، عارية في تصرفنا ، إلا ان بعضها نعمة طبيعية متصلة بالبدن موجودة له ، وبعضها نعمة خارجة عن البدن مباثنة له كما للروح ، وسيهلك البدن ويفنى كل ماعليه وفيه من القوى والآلات والمشاعر ، ويبقى الروح وحيداً منفرداً عنها عائداً إلى ربه إما شاكراً وإما كفوراً .

قوله عزوجل : ﴿ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : جزاء عظيم وثواب جسيم لايكدره آفة ولاينقصه زوال ، وإنما يكون كذلك لأن كمال الإنسان منوط بالعلم والعمل ليتزيّن ذاته العقلية بالمعارف الحقة والإلهيات ، ويتخلص نفسه العملية عن التعلق بالشهوات الموذيات باقتناء الفضائل والاجتناب عن

الرذائل ، ولاشك ان أفضل المعارف معرفة الحق الأول وصفاته وأفعاله وكتبه ورسله واليوم الآخر وهي المعنيّ بالايمان ، وأفضل الأعمال المزكية للقلب هو الانفاق بالمال الذي هو الوسيلة إلى جميع اللذات الحيوانية والشهوات البهيمية .

ويمكن أن يكون الايمان كناية عن العلوم الحقة (الحقيقية) مطلقاً، والانفاق عن الزهد في الدنيا مطلقاً ، إذ بهذين الأمرين يطير القلب بجناحيه إلى حظائر القدس ، ولعل في قوله تعالى : لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ايماء إلى أن أجر الآخرة جزاء لازم وثمـرة ضرورية مترتبة على اقتناء الملكات العلمية والعملية بحيث لايحتاج حصوله إلى جعل مستأنف وتأثير جديد ، كماأشيراليه بقوله : ﴿إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [٥١/٦] يعني إن الجزاء لازم كما إن الآلام والعقوبات الأخرويـة لواحق ضرورية لفعل المعاصي والشهوات ، الموجبة لرداءة الأخلاق والملكات ، كما يدلّ عليه قوله تعالـى : ﴿سَيَجْزِيهِم وَصْفَهُمْ﴾ [٦/١٣٩] ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [٩/٤٩] .

قوله عزوجل :

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

قرء أبوعمرو « أخذ » بضم الهمزة و « ميثاقكم » بالرفع ، والباقون بصيغة المعلوم ، ونصب « ميثاقكم » على المفعولية ، والضمير يعود إلى الله تعالى وجملة : « لاتؤمنون » حال من معنى الفعل في « مالكم » .

حاصله : وما تصنعون كفّاراً بالله ـ مع وضوح البراهين على وحدانيته ـ والحال إن الرسول يدعوكم للايمان بقواطع الحجج والبينات ويتلو عليكم الكتاب الناطق والآيات المبينات ؟ ففي الكلام حالان متداخلان .

وقرء : ومالكم لاتؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم . أي : وأي عذر

لكم في تركِكم الاعتقاد بوحدانية المعبود وما أتى به النبي ﷺ وقد أقيمت البراهين على ما تؤمنون به سمعاً وعقلاً ؟

أما الأول: فلأن الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم، والعقل السليم عن الأمراض والآفات النفسانية مجبول على الاعتقاد بصدق قوله بما أظهره الله على يده من المعجزات التي هي خارجة عن طوق البشر .

و أما الثاني : فلنهوض البراهين القاطعة الدالة على الايمان بالله والرسول ، وكون الغريزة الإنسانية مرتكزة فيها التصديق بحقائق الايمان مفطورة عليها، كما أشار إليه بقوله تعالى : وقد أخذ ميثاقكم .

و الحاصل إنه أيّ عذر لكم في ترك الايمان بعد ما أُزيحت عنكم العلل ، وأُوضحت لكم السبل ، بما ركب فيكم من غرائز العقول ، ونصب لكم من دعوة الرسول المؤيدة بالدلائل والآيات التي ينبه لكم بها على الايمان بمن هو ربكم ، دون من هو مربوبٌ مثلكم ؟ إنْ كُنتُم مُؤمنِين - أي : ممن يهمّكم التصديق بما يقوم البرهان الواضح على صحته ، فقد قام ذلك عقلاً وسمعاً وهما فطرة العقول ودعوة الرسول ؟

هذا إذا جعل خطاباً للمشركين ، فإن جُعل خطاباً للمؤمنين فمعناه : أيّ سبب يزيلكم عن الايمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى الثبات عليه وقد أخذ هو عليه ميثاقكم إن كنتم مؤمنين موقنين بشرائط الايمان ؟ وهو كقوله : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُم كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ [٣/ ١٠٠] وعلى التأويل الأول أخذ الميثاق من الله على عباده هو ميثاق الخلقة ، وقيل هو أخذ ميثاق الذرية .

مكاشفة

يحتمل أن يكون معنى قوله تعالى : إِنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ : إن كنتم ممن يتمشّى منه المعرفة و الا يقان ، لامن الذين انحطت درجتهم عن هذا و قيل فيهم : أُولئِكَ كَالأَنعَامِ بَلْ هُم أَضَلُّ سَبِيلاً ، ولامن الذين طَبِعَ عَلَى قُلوبِهِم فَهُم لَايَفْقَهُونَ،فالبراهين والدلائل العقلية والسمعية ليست نافعة في حق الأشقياء الناقصين بحسب الفطرة لامتناع قبولهم للهداية لعدم استعدادهم رأساً ، ولالأهل الجحود والانكار لزوال استعدادهم ومسخهم وطمسهم بالكلية لفساد اعتقادهم ، فهم أهل الخلود في النار إلاماشاءالله .

فالخطاب في هذه الآية إما لأهل الفضل و الثواب سواء كانوا من المقربين والسابقين أو من أصحاب اليمين على تفاوت طبقاتهم أو كانوا من أهل الرحمة الباقين على سلامة نفوسهم وصفاءقلوبهم المتبوئين درجات الجنةعلى حسب استعداداتهم من فضل ربهم لاعلى حسب كمالاتهم من ميراث عملهم ، أو كانوا من أهل العفو الذين خلطوا عملا صالحاً وآخر سيّئاً سواءكان العفو عنهم لقوة اعتقادهم و عدم رسوخ سيئاتهم أو لمكان توبتهم عنها وإنابتهم إلى الله - فأُولئِكَ يُبَدلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ .

أو لأجل نجاتهم من الجحيم بعد أن زال عنهم درن ما كسبوا من السيئات، كالسبيكة من الذهب التي تخرج عن النار خالصة ، وهم أهل العدل والعقاب ، وَالذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤلاءِ سَيُصِيبُهُم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا لكن الرحمة الإلهية تتداركهم وتنالهم بالآخرة.

* * *

قوله عزوجل :

هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

وقرء : «لرؤف» .

لماحث سبحانه المكلفين على المعرفة بالله وملكوته من جهة مارکّب فيهم من فطرة العقول و قرع أسماعهم من دعوة الرسول أخبر بأنه لزمت دعوته و قبولكم إياها لما أيده الله به من المعجزات البيّنة التي أظهرها على يديه ، أو الآيات الفرقانية خاصّة ليخرجكم الله سبحانه بواسطة تلك الآيات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الايمان والمعرفة .

أوليخرجكم الرسولُ بدعوته ، أوليخرجكم المنزل بمافيه من الحجج المنيرة والبراهين الواضحة .

وإنَّ اللهَ بِكُمْ لَرؤفٌ رَحيمٌ - حيث بعث الرسول ونصب الأدلة ، وهذا يدل على كمال الرأفة والرحمة ، و للإشعار به اقترن الكلام بوجوه من التأكيد : منها الجمع بين لفظين مترادفين ، و قيل : « الرأفة » على المضرور و « الرحمة » على المحتاج .

قيل : في هذه الآية دلالة على بطلان قول المجبرة ، فإنه بيّن ان الغرض في إنزال القرآن الايمان .

أقول : تحقيق هذا المقام يحتاج إلى طور آخر من اقتناص المعارف غير ما أكبّ عليه علماء الكلام ، لكن يجب على كل عاقل متفكر أن يفرق بين الغاية الأخيرة والمتوسطة ، وكذا بين الغاية بمعنى الداعي ومايسمى بالضروري الذي يلزم الفعل من غير أن يكون داعياً عليه ، كقوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً

وَحَزَنًا﴾ [٨/٢٨] .

مكـاشفـة

اعلم ان الله تعالى كما ينزل على أشرف رسله محمد ﷺ آيات بينات ليخرج الناس من ظلمة الغباوة والغواية إلى نور الدراية و الهداية ، فما من عبد من عباده المهتدين إلا ويأتيه من قِبَله تعالى إشارات وتنبيهات وينزل منه على قلبه أنوار متناليات ليخرج بها من ظلمة الحجب الدنياوية إلى نور المعارف الأُخروية ، و لكن الناس أكثرهم غافلون عنها لاشتغالهم بما يلهيهم عن ذكر الله وينسيهم أمر الآخرة ، فلا يبعد أن يكون هذه الآية بياناً لأخذ الميثاق المذكور في الآية المتقدمة ، فإن الله سبحانه خلق عباده على فطرة التجرد والنقاء عن علائق الأجرام ، والتقدس والصفاء عن كدورات الآثام ، والتهيؤ لقبول دعوة الحق والإلهام واستعداد الترقي بواسطة العلم والعمل إلى أرفع المنازل في دار السلام ، ثم إذا أنشأهم في هذه الحيوة الدنيا ربّاهم و أكملهم وأعطيهم العقل والتمييز وبعث إليهم الرسول مؤيداً بالمعجزات ، فلا يزال ينزل على قلوبهم آيات بينات من أنوار معرفته و يفتح عليهم أبواباً من فنون رحمته و هدايته ليهديهم إلى صراط مستقيم ويخرجهم من ظلمات الجحيم إلى أنوار النعيم .

وإنما ينسى الناس ذكر مواثيقهم الجبلية مع الحق وعهودهم الذاتية مع سكان ملكوته و سائر ما كانوا مفطورين عليه بطهارة ذواتهم المخمرة بيد القدرة أربعين صباحاً ـ واستعدادهم للمعرفه واليقين تعلقاتهم بمشاغل الكون لضرورة حياتهم الدنيوية ويشغلهم عما يرد على قلوبهم من أنوار المعارف باطناً وظاهراً ويلهيهم عن ألطاف الحق الواصلة إليهم داخلا وخارجاً ارتكابهم الخطيئات واقترافهم السيئات المبعدة لهم عن جوار الله و قربه ، لأن المعاصي تعمى أبصارهم وتصمّ أسماعهم عن إدراك أنوار الحق و إلهاماته ، فأعرضوا بها عن ذكر الله و سماع آياته البينات و اشتغلوا بما يلهيهم به الشيطان عما يلهمم به الرحمان ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ

الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٤٣/٣٦) .

* * *

وتمام التحقيق في هذا المرام : إن قلب الإنسان ذو وجهين :

وجه إلى عالَم الملكوت ـ وهو عالَم المعرفة، وعالم الآخرة ، وعالم الإلهام ـ ووجه إلى عالم الحسّ ـ وهو عالم الجهل وعالم الدنيا وعالم الوسواس ـ ثم إن الخواطر التي ترد على قلبه وتبعثه على الأفعال والحركات إما أن تنبعث من الجنبة العالية وتدعوه إلى الخير ـ كالعبادة و المعرفة ـ أو تنبعث من الجنبة السافلة وتدعوه إلى الشر ـ كالمعصية و الغفلة ـ فهما خاطران مختلفان ، فافتقر إلى اسمين مختلفين ـ أيضاً ـ و هما حادثان فاحتاجا إلى سببين مختلفين ، لأن اختلاف المعاليل الحادثة يدل على اختلاف عللها القريبة وإن كان المؤثر في فيضان الوجود مطلقا هو الله لبراءته عن شوائب الإمكان والدثور .

فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى في عرف الشريعة « ملكاً » و ذلك الخاطر «إلهاما» وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى «شيطاناً» والخاطر «وسوسة» . والله تعالى خالق كل شيء ، فخلق الملائكة لصفة رحمته و لطفه ، وخلق الشياطين لصفة قهره و غضبه ، وكما أن الجنة أثر من آثار رحمته ونور من أنوار لطفه ورأفته فكذلك النار أثر من آثار غضبه و شعلة من شعل قهره ، فالإنسان متى اشتغل بعبادة ربه و معرفة خالقه انخرط في سلك رحمته ودخل في زمـرة الملكوتيين ، و مهما اشتغل بالمعاصي و الشهوات و متابعة الهوى و الشيطان استعد لمقته و غضبه وعُدّ من جملة الشياطين فالإلهامات من جانب الحق بواسطة الملك لعباده الصالحين في مقابلة الوساوس من جانب الشيطان .

وإنما يسلط الشيطان على قلب ابن آدم بواسطة «الخذلان» الحاصل له من مخالفته الحق والعصيان ، وإلا فليس له في ذاته هذا التسلط على الإنسان و إنما يدفع كيده عنه بواسطة «التوفيق» الذي يجلبه الإنسان بفعل الطاعة و العبادة ، فإذا زال كيده ودفع وسواسه عن القلب استعد لقبول الإلهامات الداعية إلى الخير والنور ، الصارفة له

عن الشرور والظلمات ، فأهل الرحمة مآلهم إلى الجنة والنعيم ، وأهل السخط مآلهم إلى النار والجحيم ، وكل جنس يحنّ إلى جنسه ، وكل طائر يطير إلى عشه الأصلي ومعدنه الفطري ، إما من جهة التوفيق والهداية ، أو من جهة السخط والخذلان، والكل بمشية الله وقدرته .

وقوله سبحانه : هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ـ يمكن أن يكون إشارة إلى الواردات التي ترد من جانب الرحمن على قلوب السالكين من عباده بواسطة ملائكة الرحمة من الإلهامات والمعارف الحقة الواضحة لديهم إنها من جانب الحق.

وقوله : لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ ـ إشارة إلى ثمرة هذه الألطاف والأنعام في حقهم وفي حق غيرهم ، إذ بها ينتقل النفوس الإنسانية من القوة الهيولانية الظلمانية إلى العقل بالفعل المتنوّر بأنوار المعرفة والايمان بالله وآياته واليوم الآخر أو من ظلمات الصفات الشيطانية إلى أنوار الأخلاق الملكية ، أو الجمع بينهما ليكون بها للعبد الخروج من القوة إلى الفعل بحسب كلتا قوتيه ـ العلميّة والعملية ـ.

وكما ان الإنسان بالتأمل في أسرار معرفة الله وسماع آيات ملكوته والتفكر في أمر الآخرة يخرج من ظلمات الجهل والنقصان إلى نور المعرفة والكمال ، فكذلك في ارتكاب شهوات الدنيا ومتابعة الهوى والشيطان يخرج من نور الإدراكات الحسية إلى ظلمات العمى والحرمان عن مشتهيات الدنيا لفقد (لفتور ـ ن) الآلات عند الفساد والبطلان ، ويدل عليه قوله تعالى . ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ﴾[٢/٢٥٧] والله أعلم بأسرار كلامه .

* * *

قوله عزوجل :

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

قرءالقراءسوىابن عامر : «وَكُلًّاوَعَدَاللهُ »بالنصب على المفعولية لأنه بمنزلة « زيداً وعدت خيراً »وقر ءابن عامر : و كلٌ وعدالله . بالرفع محتجاً بأن الفعل إذاتقدم عليهمفعوله لم يقوعمله فيه قوته إذاتأخّر والدليل أن من قال : « زيدً ضَربتُ » وزيدٌ بحسب المعنى مفعول ضَربتُ،فإذا تأخّر المفعول فوقع بعدالفاعل يتغيّر إعرابهنصباً، فكذلك قولهتعالى : «كُلا وعَدَاللهُ الحُسنَى» يكون على إرادة «الهاء» وحذفها كما يحذف من الصفات والصلات .

وأمامعناه : فقدحثّ سبحانهعلى الإنفاق الذي هومن الأعمال الحسنةالجامعة لتكميل الشخص وتهذيبه من ذمائم الأخلاق المنوطة لمحبةالأمر الفاني مع مصلحة النوع ، إذبالإنفاق تنتشرمابهينتفع الناس ويصرففيوجوه المصالح كأهبةالمجاهدين و غيرها ليستحفظ به الشريعة ، فقال : وَمَالَكُمْ اَلاَتُنفِقُوا ـ أي : في أن لاتنفقوا في سبيلالله ـ أي : أيّ شيء لكم في ترك الإنفاق في طريق الحق و الجهاد في سبيله مع كونه خيراً نافعاً لكم و لغيركم و الحال أن المال في معرض الزوال عمن بيده عن قريب ، إما بهلاك أحدهما ، أو كليهما في نفسه عن الآخر ـ و لله ميراث كل موجود في السموات والأرض ـ إذالكل يفنى وهو يبقى فاللهيرثُ كل شيء فيهما

من مال وغيره ، فما أقبح للعاقل أن يبخل بمال يكون عارية بيده من غيره وسينتقل إليه وهو يأمره بالإنفاق الذي فيه صلاح له ولغيره، فالآية من أعظم الحثّ وأبلغ البعث على الإنفاق في سبيله .

ثم بيّن سبحانه مراتب المنفقين في الفضيلة والأجر وتفاوت درجاتهم بحسب الإنفاق في سبيله فقال : لايستوي منكم من أنفق ـ من قبل فتح مكة وشوكة الإسلام وكثرة أهله وقوتهم وقلة الحاجة إلى القتال ونفقة المقاتلين ، ومن أنفق من بعد الفتح. وحذف لوضوح دلالة الكلام عليه ، وقرء : «قبل الفتح ».

أُولٰئِكَ ـ أي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين أنفقوا قبل الفتح وجاهدوا في سبيل الله ـ أَعظَمُ دَرَجَة ـ عنده ـ من الذين انفقوا ـ بعد الفتح، ثم سوّى بين الجميع في الوعد ومطلق الخير والمثوبة الحسنى ـ وهي الجنة ـ مع التفاضل في الرتب والدرجات .

والله سبحانه ـ لكونه عالما لايخفى عليه شيء من الدقيق والجليل، خبيرٌ بما تعملون من إنفاقكم وجهادكم ، بصيرٌ بموازين الأفعال والأعمال ومراتب فضلها بحسب الصعوبة والمشقة ، ودرجات شرفها بحسب النية والبصيرة والإخلاص والسريرة .

مكاشفة

و اعلم إنه كما يتفاوت درجات المؤمنين بحسب أعمالهم البدنية و أفعالهم الظاهرية قبل انتشار نور الإسلام وظهور عزه وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجاً و بعده ، كذلك يتفاوت درجات أهل الله و أولياء معرفته بحسب سلوكهم الباطني وسفرهم إلى شهود معرفة الله ومهاجرتهم عن موطن النفس ابتغاء لوجه الله ومجاهدتهم مع أعداء الله وأولياء الطاغوت تقرباً إلى الحق بحسب معارفهم و علومهم الاعتقادية الحاصلة قبل المكاشفة ، فإن من كانت اعتقاداته حقة مطابقة لنفس الأمر

وعمل بموجباتها من الإنفاق والزهد و الجهاد في سبيل الله قبل كشف الغطاء ومعاينة الحقائق الدينية بالموت الإرادى فهو أعظم جلالة وأجلّ مرتبة من الذين زهدوا في الدنيا وجاهدوا مع النفس والهوى بعد ذلك .

إذ الإنسان لو لم يكن مؤيداً من قبل الله تعالى بتأييد قدسي ومدد سماوي لما كان حاله في ترك المشتهيات و مقاومة القوى النفسانية ومجاهدة الوساوس الشيطانية قبل كشف الغطاء وفتح مملكة البدن من يدي القوى الأمارة كحاله بعد ذلك إذ الزهد الحقيقي والورع عن محارم الله صعب على الإنسان وقت الاحتجاب ، وأما عند ظهور الحقائق معاينة فليس كذلك .

ويحتمل أن يكون في الآية إشارة إلى تفاوت درجات القوى التي للإنسان و تفاضل بعضها عن بعض بحسب الصفاء و الكدورة و القرب من عالم القدس و البعد عنه ، فإن في العالم الصغير الإنساني خلائق مختلفة و قوى متعددة بعضها ملكية شبيهة بضرب من الملائكة ، و بعضها شيطانية شبيهة بضرب من الشياطين وبعضها شهوية كالبهائم ، وبعضها غضبية كالسباع . والجميع خُلقت لتكون مطيعة لأمر الله ، مسخرة للقوة العاقلة ، و هي مكلفة بالمجاهدة مع هذه القوى الجسمية الشهوية ، والغضبية، والوهمية الفاسقة والظالمة والكافرة ، ودفع معارضتها ومنازعتها مع القوة العقلية التي هي من أولياء الله إذا كملت بالعلم والعمل ، وإنما انبعثت من جانب الله لتسخير قواها وإرجاعها من متابعة الطاغوت إلى متابعة الحق وعودها بالمجاهدة من عالم الغرور إلى عالم النور ، ومن معدن الكذب إلى مقعد الصدق.

والقوة العقلية التي أرسلت وجائت من عالم الملكوت مبعوثة على عالم البدن وجنوده وقواه مأمور من قبل الله تعالى بمعاداة الشيطان ومطاردة حزبه وجنوده ، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [٣٥/٥ -٦] .

فالإنسان بالقوة العقلية مأمور باتخاذ الشيطان وحزبه عدواً له وبالمناقضة معها

والمغالبة عليها ، ولايمكن الغلبةعليها إلا بتسخير القوى ، ومالايتم الواجب المطلق إلابه فهوواجب ، وكل واجب مأمور به ولو تبعاً .

فالقوة العقلية مأمورة من قبل الله بتسخير القوى البدنية وفتح هذه البلدة المحرمة التي هي فيها بجنود لم تروها ـ من الأخلاق السليمة و الصفات الملَكية الحاصلة بتأييده سبحانه وإمداده في بعض الآدميين وبجنود منقادة لها من عالم الجسم والبدن ، وهي التي ليست مزاحمة للقوة العقلية بعناية الله ولطفه ليتسلط على المملكة والجنود، فتصير القوى في جميع أوامرها وزواجرها طائعات ، و لسلوك سبيل الله مستتبعات بعدما كانت عائقات ـ وتلك الأخلاق الحسنة كقوة الذكاء ، وسرعة التفكر ،والجود، والكرم ، والعزم ، و الصبر الجميل ، و التوكل وغيرها مما يتفاوت ويتفاضل في الشرف بحسب أنواعها المختلفة بالحقيقة وأشخاصها المختلفة بالمحل ، وفي المطاوعة والمتابعة لرئيسها وخليفة الله عليها في أرض البدن ، فلايزال المطاردة والمقاتلة بين جنود الملائكة وجنود الشياطين قائمة في معركة النفس الإنسانية إلى أن تنفتح المملكة الآدمية لأحدهما فيستوطن فيها ويطرد الأخرى ويُخرجها عن البلدة بحيث لايكون لها الدخول فيها إلا اجتيازاً .

وأكثر النفوس مماقدفتح مملكتَها البدنية وسخّرها جنودُ الشيطان وملكوها ، فامتلأت بالوسواس الداعية إلى ايثار العاجلة وإطراح الآخرة ، وقليل منها قداستولت فيها القوة العاقلة على القوى الشيطانية وسخّرها ، فأسلمت وأطاعت كلمةَ الله وأمرها، وأجابت دعوة الحق وانخرطت مع سائر القوى المسلمة المطيعة طاعةرئيسها المطلق ومخدومها بأمر الحق .

والنفس الإنسانية لصفائها ولطافتها صالحة بحسب أَصل الفطرة لقبول آثار الملكية والشيطانية لتقلبها في النشئات وتطورها بالأطوار وتلوّنها بالألوان المختلفة كالإناء الزجاجي اللطيف الذي يتلون بلون مافيه .

كيف ، ولو لم يكن لها من اللطافة وقبول الأثر مايقبل كل صورة ويتنقش بكل نقش لم تقبل آثار الملكية ، ولم تنتقش فيها صور الحقائق الإلهية فهي في أول الفطرة

تصلح للآثار الحقة والباطلة ـ صلوحاً متساوية ـ و إنما يترجح أحد الجانبين على الآخر باتباع الهوى والشهوات ، والإعراض عنها .

فإن اتبع الإنسان مقتضى شهوته وغضبه ظهر تسليط الشيطان بواسطة اتباع الهوى و الشهوات بالأوهام و الخيالات الفاسدة الكاذبة ، فصار المملكة إقطاع [اقطار ـ ن]الشيطان ، وصار القلب عشّهومسكنه ، والهوى مرتعه ومرعاه لمناسبة مابينهما .

وإنجاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه ، وقابل بصفوف جنود الملائكة صفوفَ جنود الشياطين ، فتقابل الصفّان ، وتقاتل الجُندان ، وتدافع الحزبان فدفع كل من حزب الله مايقابله من حزب الشيطان ، فبقوة البرهان اليقيني بوجود النشأة الباقية عارَض الأوهام الكاذبة و الظنون الباطلة الداعية إلى الشهوات و الركون إلى زخارف الدنيا و الإخلاد إلى أرض البدن و الاقتصار على هذه النشأة الزائلة وبقوة الصبر عارَض الهوى ، وبقوة الخوف عن سوء العاقبة عارَض الأمن من مكر الله ، وبقوة الرجاء عارَض القنوطَ من رحمة الله ، وبالعزيمة طرد الكسل .

وهكذا يدفع بكل جند من جنود الرحمن جنداً يقابله من جنود الشيطان حتى ينفتح للقوة العاقلة أول بيت وضع للناس للذي ببكة الصدر ، و أول معبد ومسجد وضع للقلب الحقيقي بمكة الصدر المعنوي الذي هو مزدحم القوى المتوجهة إليه ، وهذا هو المسجد الحرام دخوله على القوى المشركة الطبيعية الدهرية لقوله تعالى: يَاأَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوا ـ خطاباً للقوة الدراكة ـ إِنَّمَاالْمُشْرِكُونَ ـ من القوى الطبيعية ـ نَجِسٌ ـ لمباشرتها الأرجاس البدنية والقاذورات بالإحالة والهضم و النقل من موضع إلى موضع ـ فَلاتَقْرَبُواالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ ـ وهو معبد (مسجد) القلب المتنور بنور المعرفة والإخلاص ـ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا ـ أي : عام الفتح وزمانه ـ وَإِنْ خِفْتُمْ ـ من منعها عن الدخول فيه عيلة من عدم الفعل الغاذية و غيرها ـ فَسَوفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه إِنْ شَاء ـ بأن يحصل لكم التقوّت بالمعرفة والاستغراق في شهوده بحيث لم يبق لكم

كثير حاجة إلى فعل هذه القوى كما يحصل لأهل الله [١].

ولقوله تعالى: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِٱلْكُفْرِ ـ لكونهم جسمانية والتجرد شرط الايمان والمعرفة ـ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ ـ بالمعرفة و العبودية ـ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ـ أي ذكر الله ـ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ ـ أي من الأجساد التي في تصرفه فتزكيها بتحليلها بالرياضات والعبادات في سبيل المعرفة ـ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ـ لكونه عالماً به وإِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ـ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ـ إلى طريق الآخرة وعالم القدس ـ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ـ اللتان هما فعل الغاذية والنامية، إذ القوى الطائفة بكعبة البيت الحرام في مسجد الصدر إنما تتقوت من فعل الغاذية وجسمية هذا المسجد إنما يتعمّر بفعل النامية ـ كَمَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ـ وهي القوة العقلية ـ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ـ بمعارضتها ومصادمتها للواهمة ووساوسها الشيطانية ـ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ـ من موطن الجسمية إلى عالم التجرد والملكوت ـ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِم ـ من المواد البدنية والقوى المحمولة لها ـ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [٢].

وكما إنه قد يستعين المجاهدون في مجاهدة طائفة من الكفار بطائفة أخرى منهم كذلك في مجاهدة النفس يقع نظيره، كما يدفع الإنسان ثورة (سورة) الشهوة بالغضب، فإن بالغضب ينكسر الشهوة كما ينهزم الخنزير من النمر، فالحكيم تارة يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه ومرة يدفع ضراوة هذا الكلب بتسليط الخنزير عليه، ليجعل الكل مقهوراً تحت سياسته، منخرطاً في سلك عباد الله المسلمين، ويظهر

---

(١) الآية من سورة التوبة: ٩/٢٨.

(٢) الآية من سورة التوبة: ٩/١٧ ـ ٢١.

العدل في مملكة البدن ويجري الكل على الصراط المستقيم .

إذا تحقق ماذكرناه فنقول : إن القوة العاقلة ــ التي هي خليفة الله في مملكة البدن إذا غلبت بجنودها التي هي من حزب الله ــ كالمعرفة والتقوى والذكاء والصبر وغيرها ــ على القوة الوهمية وجنودها وخوادمها التي هي من جنود الشيطان في أول الأمر وزمان الجاهلية الأولى وصارت مسلمة بيدها مقهورة تحتها إذا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ إيَّاهَا ، ودخلت سائر القوى في دين الله الذي هو طريق معرفة الحق والعمل بمقتضاها ــ أَفْوَاجًا ــ عندهذا الفتح المعنوي الذي هو عبارة عن مشاهدة حقائق هذه الأشياء كما هي ، فبعض هذه القوى منذ صحبت القوة العاقلة قبل حصول الكشف والشهود كانت مطيعة لأمر الله ، خادمة للقوة العاقلة ، مؤتمرة بأوامرها ، منتهية بنواهيها ، منفقة لمادتها البدنية ومحللة لرطوباتها الدماغية الحاملة لها في طريق التفكّر في آيات الله وسبيل ملكوته والمجاهدة مع كفرة الأوهام الكاذبة الفاسدة . وبعضها كانت عاصية إياها بعد ، متمردة من أوامرها ونواهيها .

فكل قوة أسلمت وأطاعت أمر الله وأنفقت في طريق المعرفة مايحملها من المواد الجسمية ، وجاهدت في سبيل الله ، وعارضت مع الكفرة والظلمة والفسقة تقرباً إلى طاعة الحق قبل الولادة المعنوية والولادة الحقيقية فهي أعظم أجراً وأجلّ رتبة من سائر القوى وأقربها إلى أفق المجردات النورية ، وكل من هذه الجنود والقوى لها استحقاق الحسنى من عند الله والمثوبة إذا أسلمت وصارت مسخّرة للقوة العاقلة ، ثابتة في طاعتها لأمر الله ومشايعتها إياها في السلوك إليه تعالى واستنارتها بنور المعرفة واهتدائها بهداها .

فإن قلت : هذه القوى الجسمانية قائمة بهذه المادة العنصرية ، فهي دائرة هالكة غير باقية بعد خراب البدن ، فأنّى تكون لها المثوبة والسعادة ؟

قلت : هذه القوى البدنية الدائرة ــ إدراكية كانت الحواس ، أوتحريكية ــ كالشهوة والغضب كلها آثار وظلال للقوى والمشاعر التي هي في ذات القوة العاقلة ، فإن لها في ذاتها بصراً وسمعاً وذوقاً وشمّاً ولمساً ــ من دون الحاجة إلى البدن ــ

وكذا لها في ذاتها محبة وقهراً وقبضاً وبسطاً وبدأً معنوية وجارحة روحانية ، وهذه بمنزلة المعلومات والآثار لتلك ، وكما ان الحواس البدنية كلها ترجع إلى حاسّة واحدة - هي الحس المشترك - فجميع حواس النفس ترجع إلى قوة واحدة - هي قوتها النظرية التي تشاهد بها المعقولات وتتصرف فيها وتحضرها عند العقل بقدرتها التي لها في ذاتها من دون البدن -

ألا ترى إن الانسان التي في حالة النوم - التي هي شبيهة حالة الموت في تعطل الحواس البدنية - يبصر ويسمع ويذوق ويلمس ويتحرك مع أن حواسه الظاهرة وكثيراً من قواها العلمية معطلة عن الإدراك والأفاعيل ؟

فللنفس الإنسانية قوى وخوادم في ذاتها وجنود معنوية وآلات روحانية باقية معها في النشأة الأُخروية .

وكما إن لها في الدنيا صور وأشكال وهيئات تناسبها فكذلك تحشر يوم القيامة وتظهر بصور وهيآت مناسبة لصفاتها وأعمالها حين يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

قوله عزوجلّ :

مَن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾

قُرء : فيضعفه . وقرئا منصوبين على جواب الاستفهام ، وبالرفع عطفاً على « يقرض » أو على الخبرية ، أي : فهو يضاعفه .

قد شبّه تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض الحسن ، فأطلق هذا اللفظ عليه مجازاً لعلاقة المشابهة من إعطاء شيء وأخذ شيء لغرض الإحسان .

فَيضَاعِفُه لَه ـ أي : يعطيه الله أجره على إنفاقه مضاعفاً بأضعاف من رحمته وجوده وله أجر كريم في نفسه وقد ضمّ إليه الأضعاف .

مكاشفة

القرض الحَسَن عند أهل الله والعرفاء أن ينفق الإنسان في طريق معرفة الله وسبيل ملكوته والتفكر في آيات جبروته موادّه الدماغيّة وأرواحه النفسانيه وقواه الطبيعية التي هي أعزّ نقود هذه البلدة وأجناسها ، ليعوّض عنها ويحصل في قلبه من نفائس الأثمارالمعنوية وشرائف نقود المعارف الإلهية التي بها يصيرالإنسان من أكابر الآخرة وأغنيائها ، فائقاً على الأشباه والأقران ، متخلّصا من سجّن الحسرة والحرمان ، وفاقة الجهل والنقصان .

فالله تعالى حيث هيّأ أسباب المعرفة والعبادة للناس سيّما ذوي البصائر والاكياسفكأنه أرادمنهم هذا القرضالحَسن ووعد إياهم بتضعيف أجرهم ، وأخبر أن هذا الأجر كريم في نفسه ، لأنالمعارف الربانية جليلة عظيمة ، لأن شرف العلم وكرامته بنسبة شرف المعلوم وكرامته ، وليس في الوجود ماهو أكرم وأشرف من ١٦
ذات المعبود وصفاته وأسمائه وأفعاله ، فالسعي في طريقة وصوله والإنفاق في ابتغاء وجهه يكون شريفاً كريماً أيضاً لأن وسيلة الشيء يناسب له .

قوله عزوجل : ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

الظرف متعلق بقوله: وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ . أومنصوب بتقدير«اذكر» تعظيماً لذلك اليوم . فعلى الأول معناه : يصل هذا الأجرالكريمإليهم يوم القيمة ــ وهويوم يسعى للمؤمنين نورَهم بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة ، فإن الطريق إلى جنّة المقربين إنما يكون على الوجه الأول ــ لأنها عقلية واقعة في سلسلة الأسباب المؤدية إلى وجود الإنسان يسلكها العالم الرباني مرتقياً إليها بأنوار المعارف العقلية ــ وإلى جنّة السُعداء على الوجه الثاني ــ لأنها جسمانية واقعة في السلسلة العرضية المعلولية ، فيتوجّه إليها أهل النسك والصلاح وأصحاب اليمين ، منعطفاً إليها بنور العبادة وقوة الأعمال الحسنة ، ولهذا المعنى قيل : اليمين طريق الجنة ــ .

وقد صرح بعض أهل الكشف والعرفان بأن البرزخ الذي يكون الأرواح فيها بعد المفارقة من النشأة الدنياويّة هو غير البرزخ الذي بين الأرواح المجردة والأجسام ، لأن تنزّلات الوجود ومعارجه دورية ،لكنهما يشتركان في كونهما عالماً نورانياً وموطناً ملكوتياً ــ فالسُعداء مطلقاً يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما ان الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم .

وقوله : بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ ــ بمنزلة الحال ، أي : يسعى نورهم حين يقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم « بُشريكم اليوم » ، و هذه الملائكة المبشرين بالجنات مختلفة الدرجات في القرب إليه تعالى حسب تفاوت منازل أهل الجنان في التقديس والخلوص ، مع اتفاقها في حصول الحقائق وصورها الحسان ، فالجميع ــ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوزُ ٱلْعَظِيمُ ــ أي : الخلاص عن كل مرهوب ، والظفر بكل محبوب ، فإن كل واحد من أهل الجنان له مايشتهيه

ويصل إليه همّته إلا ان الهمم متفاوتة حسب تفاوت الأحوال .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « هذا النور يكون على الصراط » . وقيل : « في عرصة القيامة » . ولا نور هنالك إلا نور الايمان والطاعة وكل يعطى نوراً على قدر علمه (عمله) .

مكاشفة

هذا النور المشار إليه في هذه الآية هو نور المعرفة واليقين ، فإن النفس الإنسانية من عالم النور والمعرفة لكنها بسبب التعلق بعالم الأجسام الكثيفة صارت ظلمانية محجوبة عن الإدراكات ، فإذا ارتاضت ذاتها بالرياضات الدينية و الأعمال الشرعية من الأفكار والأذكار والعبادات ، وخرجت من مرتبة القوى الهيولانية إلى مرتبة الفعلية حصل لها العقل المستفاد ، وهو نور يستضيء ويضيء في المعاد ، فصار نوراً على نور. وهذا النور العارض إنما يقذف في قلب المؤمن من عالم الملكوت بسبب اكتساب العقليات واليقينيات الصرفة عند تصوره الخير الحقيقي ، أو بسبب اكتساب الاعتقادات المحمودة والظنون الحسنة عند تصوّره الخير المظنون .

فالأول نور عقلي يختص بالمقربين يسعى بين أيديهم ويصعد بهم إلى جوار الله وجنّات المعارف العقلية التي قيل في وصفها : « مالا عينٌ رأتْ ولاأُذنٌ سمعت ولاخطر على قلب بشر» .

والنورالآخر نوريختصّ بغيرهم من السعداء يسعى بأيمانهم ويذهب بهم إلى جنات جسمانية منوّرة غاية مايتصورفيهالهم وفي حقهم من الصفاء والنورية والضياء. وإشراق نور كل أحد بقدر قوة معرفته وايمانه ، ولهذا وقع في الأخبار : إن أنوار الأخيار والأبرار مختلفة في الإضائة والآثار .

قال قتادة : « إن المؤمن يضيء له نوره كما بين عدن إلى صنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لايضيء له نوره إلا موضع قدميه » .

وقال عبدالله بن مسعود : « ويؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم مَن نورُه مثل الجبل وأدناهم نوراً نوره على قدرابهام قدميه فيضيء مرّة ويطفيء أُخرى فإذا أضاء قدمه مشى وإذا طفي قام » .

ولمّا كانت الحركة والإدراك متلازمين لقوله تعالى :﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [٢١/٥٠] فالأول إشارة إلى قوة التحريك والثاني إشارة إلى قوة الإدراك. ثم لكل إدراك حركة تناسبه ، فمرورهم على الصراط على قدر نور ايمانهم ، ومَن كان نورُه كالشمس كان مرورُه كطرْف العين ، ومَن كان نوره دون ذلك كان مروره على قدره ، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم كالسحاب، ومنهم كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كشدّ الفرس ، والذي أُعطي نور على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه يجرّ يداً ويعلّق أُخرى، ويجرّ رجلا ويعلّق أُخرى، وتصيب جوانبه النار ، فلايزال كذلك حتى يخلص ، وبهذا يقاس تفارق الناس في المعارف .

ولذلك جاء في الخبر : « إنه تعالى يُخرج يومَ القيامة من النـار من في قلبه مثقال ذرّة من الايمان ، ونصف مثقال وربع مثقال ، وشعيرة وذرّة »[1] .

كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الايمان بحسب قوة اليقين وإشراقه ، وسرعة التفطّن والتحدّس بحقائقه وأسراره وأن هذه المقاديرمن الايمان لايمنع دخولَ النار.

وقال بعض العلماء في مفهوم هذا الخبر: « إن مَن ايمانه يزيد على مثقال فإنه لايدخل النار إذ لودخل لأمر باخراجه أولاً ، وإنّ من في قلبه مثقال ذرّة لايستحق الخلودَ في النار وإن دخلها » .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٣/١٣٩] تفضيل للمؤمن العارف على المسلم وهو المقلّد مع سلامة قلبه عن النفاق .

وأما قوله تعالى:﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [٥٨/١١] فأراد هيهنا « بالذين آمنوا » الذين صدقوا تقليداً من غير علم برهاني

(١) جاء ما يقرب منه في سنن ابن ماجة: المقدمة، باب في الايمان: ١/٢٣.

أو كشفي ، وميّزهم عن الذين اوتوا العلم . ويدلّ ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد ـ وإن لم يكن تصديقه على بصيرة و كشف ـ .

وفسّر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[١١/٥٨] قال: يرفع العالم فوق المؤمن بسبعمأة درجةبين كل درجتهامابين السماء والأرض .

وقال ﷺ : أكثر أهل الجنة البله .(١) وعليون لذوي الألباب .

وقال ﷺ : فضل العالم على العابد كفضلي على رجل من أصحابي (٢)

و في كتاب الكافي عن أبـي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر .(٣)

فهذه الشواهد يتضح بها تفاوت درجات أهل الجنان بحسب تفاوت قلوبهم في الإشراق والكدورة .

* * *

وملخّص القول : إن اكتساب العلوم الحقة وفعل الحسنات في الدنيا ينتج تقرّرالأخلاق والملكات ورسوخ المعارف والاعتقادات ، والمعرفة إذاشتدّت صارت مشاهدة عند رفع الحجب بالموت ، فمشاهدة كل أحد بقدر معرفته ، وهي المراد من النور إلا انالمعارف اليقينية الدائمة(العقلية) البرهانية(الربانية) تورث المشاهدات والمكاشفات العقلية في جنّة الكاملين في العلم ، والمعارف الظنية الخيالية تورث المشاهدات الجسمانية في جنّة أصحاب اليميـن ، والصور الحسان التي فيها إنما هي بمنزلة تمثالات وعلامات لمافي تلك الجنات العُلى لأن العوالم متطابقة والنشآت متوافقة مع تفاضلها في الشرف والرتبة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [٢١/١٧] .

---

(١) الجامع الصغير: ١/٥٣.

(٢) في الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: «كفضلي على أدناكم»: ٥/٥٠.

(٣) الكافي: كتاب العلم، باب ثواب العالم والمتعلم: ١/٣٤.

قوله عزوجل :

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ
مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ
لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ
أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ
وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ
هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قرء حمزة «انظرونا» بقطع الهمزة وفتحها وكسر الظاء من «النظرة» وهي: الإمهـال . اطلق على الابطاد والتبطي في المشي إلى أن يدرك المتأخر المتقدم .
وقرء الباقون : «انظرونا» بهمزة الوصلة المضمومة أي انتظرونا ، لأنهم كالبروق الخاطفة مـروع بهم على ركاب تذف وهؤلاء مشاة حفاة بطيئة السير ، أوانظروا إلينا لنستقبلكم بوجوهكم فنستضيء بكم ، لأن النور قدّامهم فيحصل الاقتباس من نورهم عند المواجهة .

وقرأ أبوجعفر وابن‌عامرويعقوب : « لاتؤخذ منكم » بالتاء لتأنيث الفاعل ، وقرأ الباقون بالياء للفصل الواقع بين الفعل‌والفاعل ولأنّ التأنيث غيرحقيقي .

وقرأ : «الغُرور»بضم الغين ، معناه‌الاغترار- بتقدير المضاف ، أي وغرتكم بالله سلامة الاغترار، أي سلامة حالكم مع اغترار كم .

وقال الزجاج : الغَرور كل ماغرّ من متاع الدنيا .

وقوله : «يقول» بدل من «يوم ترى» يعني : ذلك اليوم يوم يقول أهل النفاق للذين آمنوا ظاهراً وباطناً : «انظرُونَا نستضيء بنوركم ونبصر الطريق فنتخلص من هذه الظلمات » لأن المنافقين إذا خرجوا من قبورهم اختلطوا فيمشون في نورهم، فيسرع المؤمنون بقوة ايمانهم فيتباعد المنافقون عنهم بالتخلّف فيقطع أثر نورهم عنهم .

قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَائكُم: القائل إما المؤمنون، أوالملائكة الهادين لهم .ارجعوا إلى الموقف خلفكم فالتمسوا هنالك النور حيث اعطيناه ، فمن ثمَّ يقتبس ويحمل، فيرجعون فلايجدون نوراً لظنهم أنهم أخذوا النور من موضع هناك ، ولايعلمون إن هذا النور يكتسب في الدنيا بتحصيل سببه - وهوالايمان- بل هذا النورهو نفس الايمان والمعرفة ليظهر إشراقه عند القيامة . وقولهم : «ارجعوا» توبيخ في صورة الأمر لاستحالة هذا الرجوع أوالتناسخ . أوأمر بمعنى: تنحّوا عنا خائبين. فالتمسوا نوراً آخر فلاسبيل لكم إلى هذا النور. وهوإقناط وتخييب لهم لأنهم يعلمون أن لانور ورائهم ويحتمل أن يكون للمنافقين مرتبة ضعيفة من النورغير كافية للمشي إلى الجنة وهم تدعون الزيادة ، فوقع المنع لهم من المؤمنين أن ليس لكم إلا ما اكتسبتم من خلفكم - أي الدنيا فارجعوا من هذا الاطلاع على ماورائكم فالتمسوا نوراً من عملكم واكتفوا به ضرورة - فيكون أمرا تحقيقاً .

فَضُرِبَ بَينهم - أي بين الفريقين بسور- والباء مزيدة - أي حجاب حائل بين شقّ الجنة وشقّ النار. وقيل : هوحائط بين الجنة والنار. وقيل : هوالأعراف .

لَه بابٌ - أي : لذلك السور باب ، وقيل : أي طريق لأهل الجنة يدخلون إليها . باطن السورأوالباب الذي يلي الجنة فيه الرحمة ، وظاهره الذي يظهر لأهل النار- من قبله - اى من عنده ومن جهته العذاب ، وهوالظلمة والنار.

يُنادُونَهم - أي : ينادى المنافقون المؤمنين - ألم نكن معكم فى الدنيا والمنازل والمساجد نصلّي كما تصلّون ونصوم كما تصومون - بناء على أنّهم

وافقوا المؤمنين في الأعمال الظاهرة من الصلوة والصيام وغير ذلك ـ قالوا بلى كنتم معنا في ظواهر الأعمال دون بواطن النيّات والمعارف ـ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ـ أي محنتموها بالنفاق وأهلكتموها . وقيل أثمتم . وَتَرَبَّصْتُمْ ـ أي : انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ، أو بالنبي ﷺ كما قالوا : ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [٥٢/٣٠] وقيل : دافعتم الأوقات بالايمان بالله ورسوله على الإخلاص . وقيل : أخرتم التوبة ـ وَٱرْتَبْتُمْ ـ أي : شككتم في حقيقة الإسلام . أو في البعث ـ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ـ الكاذبة والآمال الطويلة ـ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ـ وهو الموت ومابعده. ـ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ـ أي : الشيطان بـأن الله لايعذّبكم لأنه غفور كريم ، ولم يفقهوا أن منشأ العذاب خسّة جوهرهم وقبح سريرتهم ، أو الإغترار والطمع في الدرجات الأخروية من غير سبق عمل ، كما حكى الله عن بعضهم : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [١٨/٣٦] .

فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ـ أي : مايفتدى به ـ ولامن المعلنين بالكفر ـ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ـ أي : هي أولى بكم كما في قول لبيد :

فَغدَتْ كِلا الفرجين تحسب إنّه　　*　　مولى المخافة خلفها وأمامها[١]

أو : هي ناصركم ، أي : لاناصر لكم سواها . والمراد نفي الناصر على القطع . ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [١٨/٢٩] ونحو قول العلماء : الحق تعالى موجود لذاته بذاته في ذاته . أي : لالغيره ولابغيره ولا في غيره .

وقيل : تتولاكم كما تولّيتم في الدنيا أعمال أهل النار .

---

(١) يريدانه أولى موضع أن تكون فيه الحرب. وقوله: «فغدت» تم الكلام. كأنه قال: فغدت هذه البقرة. وقطع الكلام، ثم ابتدء كأنه قال: تحسب أن كلا الفرجين مولى المخافة ـ لسان العرب، ولي.

مكاشفة

اعلم إن الدرجات الأخروية ودركاتها يتوزّع على الحسنات والسيّئات فإن مبادي أحوال الآخرة أحوال الدنيا ، لأن الدنيا عبارة عن حالتك قبل الموت والآخرة عبارة عن حالتك بعد الموت وقدومك إلى الله ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك، يسمى الداني منها « دنياً » والمتأخّر «آخرة » وهما من جنس المضاف يعرف مفهوم كل منهما مع الآخر، والانتقال من الأولى إلى الأخرى كالانتقال من المحسوس إلى المعلوم ، ولهذا المعنى قيل : « مَن فقَدَ حِسّاً فَقَدَ عِلماً » .

فالآخرة نشأة علميّة وكما ان في هذا اليوم المعلوم غائب ، والمحسوس حاضر، ففي يوم الآخرة على عكس ذلك ، يتجلّى الغائب ويخفى الظاهر لأنها «يوم تبلى السرائر » ونحن الآن نتكلم في هذه النشأة الدنيا الحسية من النشأة الأخرى العلمية ، ولا يتصوّر شرح النشأة العلمية لمن هو في عالَم المحسوس - من حيث هو في عالم المحسوس - إلا بمثال ، فإن من تفطّن بالعقليات فهو إنما يعقلها من حيث كونه في عالم المعقول ، كما قال الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَايَعقِلُهَا إِلاّ ٱلعَالِمُونَ﴾ [٢٩/٤٣] .

وهذا لأن هذا العالَم نومٌ بالإضافة إلى ذلك العالم كما قال ﷺ : الناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا انتبَهوا .

وما سيكون في اليقظة لايتبيّن في النوم إلا بضرب الأمثال المحوِجة إلى التعبير، وكذا ماسيكون في يقظة الآخرة لايتبيّن في نوم الدنيا إلا في كسوة الأمثال على طرز مايثبت في علم التعبير، فإن التعبير من أوّله إلى آخره أمثلة فيعرفك ممارسة ذلك العلم طريق ضرب الأمثال .

وليس للأنبياء ﷺ أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلّفوا

أن يكلموا الناس على قدر عقولهم لأنهم في النوم ، والنائم لاينكشف له شيء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق .

وإنما يعني بالمثل أداء المعنى في صورةٍ إن نظر إلى معناه وُجد صادقاً ، وإن نظر إلى صورته وُجد كاذباً .

* * *

فإذا تقرر هذا فنقول : هذه الآية مثال يوضح به سوء عاقبة حال أهل النفاق ووخامة مآل المغرورين من الجهّال المتشبّهين بأصحاب الكمال، فإنهم باشتغالهم بظواهر الأعمال الحسَنة الممدوحة عند الجمهور ـ كمدارَسة العلوم وفعل الطاعات ـ ظنّوا أنفسهم علماء أخياراً وهم مع ذلك من الحَمقى الأشرار ، وهم عند أنفسهم من المقربين ، وفي نفس الأمر من الفجّار المنافقين ، والله يشهد إنهم لكاذبون .

وذلك لأنهم لم يراقبوا قلوبهم ، ولم يهذّبوا أعمالهم من الأغراض الدنياوية والشهوانية فإذا انكشف الغطاء وارتفع الأشباه والمغالطة ظهر إن قلوبهم من أنوار المعرفة خلاء، وأيديهم من آثار الهداية صفر وهم في ظلمة الجهل والاغترار مغروقون، وفي مضائق عالَم الجهل محبوسون ، لاينكشف لهم من طريق الحق موضع قدم لفَقد نور البصيرة عنهم أصلا ، ولافي باطنهم قوة السلوك إليه رأساً .

و ذلك لعدم قصد منهم وتوجّه لهم شطرَ الحقّ خالصاً : أما الإدراك : فلم يدركوا إلا اعتقادات موروثة تعصبية متبنّية على أغراض نفسانية ، فرسخت في قلوبهم وصارت مسامير مؤكّدة ، لأن طبائعهم كانت أليفه إليها في مبادىء النشؤ أنيسة بها ، وقد أخذوها من معلّميهم بحسن الظن في أول التعاليم ، فصارت حجاباً لهم عن إدراك الحقائق الحقة ، فبقوا في ظلمة شديدة لاأوحش منها .

وأما العمل فإنه فرع العلم فمتى لم يكن المعبود في التصوّر معبوداً حقاً لم يكن العبادة له عبادة للحق ، فلم ينتج ذهاباً إليه وقرباناً منه .

فنقول قوله سبحانه : انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم ـ مثال لحال بعض المشبهين بالعلماء من أهل الظاهر حيث انتبه قليلا في آخر أمره عند خمود حرارة

الشهوات والأغراض الدنياوية وانطفاء أنوار الحواس وفتور القوى على فقدان نور المعرفة وبَرْد اليقين في قلبه، ومع ذلك مغرور من جهة أنه يظن إنه بأدنى اشتغال إلى التعلم وطلب استفاضة أنوار المعارف من حامليها من المعلّمين على الحقيقة يصير ذا علم ومعرفة ونور عقليّ، فيتوجه نحو المؤمنين حقيقة والعلماء حقاً فيخاطبهم ويأمرهم بالتوجّه إليه والالتفات نحوه قائلاً: انظُرونا نقتبسْ مِنْ نُورِكم ـ ظناً منه ان ذلك منّة عليهم لأنه من جملة المعتبرين عند نفسه وعند بعض الحَمقى الجاهلين.

فالعلماء حقاً لحسن ارشادهم وغاية إشفاقهم على أمثاله من الناقصين يهدونهم طريق السلوك إلى الحق، ويرشدونهم إلى كيفية استفاضة المعارف قائلين: إن لكل مسئلة من المسائل الإلهية والأسرار الناموسية مبادي ومقدمات لايمكن التفطّن إلى تلك المسئلة إلا بعد التفطّن بها، سواء كان بحدس وحركة سريعة ـ كما هو طريقة الأنبياء والأولياء وذوي الأبصار ـ أو بفكر وحركة بطيئة ـ كما هو طريقة العلماء والنظّار وأولي الإعتبار ـ وقبل الخوض في العقليات واستحصالها يجب الإشتغال بعلم اللغة، والنحو، والصرف، وعلم الأخلاق، وعلم الحلال والحرام، ومن لم يحصّل شيئاً منها على وجهه مع نيّة صادقة وإخلاص في العمل لايمكنه الدخول في فقه الأسرار وعِلم الأنوار، لقوله تعالى: ﴿وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[٢/١٨٩] فقوله تعالى: قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآئَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً ـ إشارة إلى هذا الحال.

ومن هذا القبيل ماحكاه الله سبحانه عن حال الجاهلين المغرورين من أصحاب النار وامتناع استفاضتهم المعارف من المعلمين والرؤساء الذين هم من أصحاب الجنة بقوله سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي من ماء المعارف الإلهية التي تكون بها الحيوة الأخروية العقلية أو شيء من سائر العلوم العقلية التي رزقها الله للعلماء مزيداً لكمالهم وحالهم ﴿ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ * ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [٧/٥١].

ومثال هذه الحكاية إن رجلاشيخاً من الجهـّال الذي كان بليداً في أصل الفطرة، فاشتغل في أيام عمره بشيء من العلوم التي لاتسمن ولا تُغني ، ثمّ تصدّى للأمور الدنياوية كالقضاء وتولية الأوقاف وغيره من الأعمال التي يتقلّده المشبّهين بأهل العلم في أكثر الأزمان ـ من غير استيهال ـ وهذا الشيخ الجاهل البليد لم يتعلّم أيضاً من المقدمات شيئاً يعول عليه في اكتساب العلوم اليقينية ، ولم يمارس المقاصد الإلهية أصلا ، فيقول لعالم رباني ارتاضت نفسه بفنون من العلوم العقلية وغيرها : « أفضْ على قلبي من دقائق علومك الإلهية » . فيقول : « إن الله حرّمه على الجاهلين » .

معناه : إن الاستعداد لقبوله إنما يكتسب بذكاء أصلي وممارسة طويلة ، بعد تعلّم مايتوقف عليه من العلوم الأدبيـة وغيرها مع اخلاص في النيّات وتنزّه عن الفحشاء والمنكر والبغي ـ من الأغراض الشهوية والغضبية والشيطانية ـ وإذا بطلَ الاستعداد وفاتت المناسبة الأصلية فاستحالت الاستفاضة وحرّمت كما يستحيل إفاضة العلوم العقلية على أجسام البهائم والسباع التي لاشغل لها سوى طاعة الشهوة والغضب التي أمر بها نفوسهـا ، لأن الناطقة التي خدمت القوة الشهوية منزلتها منزلة أبدان البهائم المطيعة لنفوسها بل أنزل منها رتبة ـ كما بينّاه في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [١٧٩/٧] .

* * *

وأما قوله تعالى : فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ـ إلى آخره ـ فهومثال لصورة الشريعة الحقة التي ظاهرها حصْن يحرس الناس عن المقاصد والأعمال القبيحـة والعقائد الباطلة ومن تطرّق إغواء المضلّين والشياطين من أهل البدَع والمذاهب الجاهلية . وباطنها أسرارحقة وأنوارمحضة بها يصل العبد إلى رحمة الله ورضوانه ، فالشريعة سوط الله بها يسوق عبادَه إلى رضوانه ، فمَن نظرإلى صورة السوط التي لأجل تأديب المستعدّين لم يرَ منه إلا عذاب أليم ، ومَن نظرإلى الغرض المكمون في باطنه يعلم إنه محض الشفقة .

كذا من اغترّ بظواهر الشريعة من غيرتدبـّرٍ في أسرارها وبواطنها لم ير فيها

إلا تعبَ الجوارح ورياضة الجسد الموجب لظلمة الإعياء ، لاسير الفكر الموجب لزيادة النور في قلوب العقلاء ، فيثقل عليه حملها والعمل بها لعدم اطلاعه على المقصود منها .

أو لاترى إلى الصلوة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾[٢/٤٥] فإنها قُرّة عيونهم كما قال رسول الله ﷺ : «قرّة عيني في الصلوة» .[1]

ظاهرش برتن اثيمان بند * باطنش بردل حكيمان پند

وأما قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ : حكاية لحال المنافقين المغترّين بأعمالهم التي يوافق أعمال المستبصرين في الصورة ، إلا إنها كانت مشحونة بأنواع الأغراض الشيطانية والشرك الخفي، من طلب الجاه والمنزلة عند الناس، والتفوّق على أهل الله بسبب التقرب إلى الظلَمة والأمراء ، وتعجّبهم من تخلّفهم عن مراتب الرجال ، وسلوكهم طريق الضلال مع توافقهم مع هؤلاء في الأفعال والأعمال .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ـ إلى آخر الآية ـ كشف فضائحهم وايضاح أحوالهم وهتك أستارهم لأن الآخرة يوم الحساب ويوم تبلى السرائر. أي: جعلتم أنفسكم بسبب مباشرة تلك الأعمال ممتحنة بفنون الأغراض الدنيوية والمحن الشديدة حالاً أو مآلا ، كل ذلك طلباً للجاه الوهمي وتهالكاً على الترأس الخيالي والتبسط في البلاد ، والشهرة عند العباد ، وتربّصتم الفساد والهلاك ـ ولوضميراً ـ لمن خالفكم ولم يصدقكم في آرائكم الباطلة ، ولم يمكّنكم في طلب الترفّع وإن كانوا على الحق وأضمرتم النفاق والفساد لأهل الحكمة والمعرفة ـ وهم المؤمنون حقّاً ـ وشككتم في دينكم منذ كنتم لتصادم الشكوك وتعارض الأدلّة التي لايخلص منه إلا المخلصون ـ وهم على خطر عظيم وخوف ووجل شديد ـ وغرّتكم الآمال التي منشأها ظواهر الأعمال ، وغرّكم بالله الشيطان ـ وشركه وحبائله وخدعه وغروره أكثرها يعتري المنتسبين إلى العلوم الدينية من

(١) الجامع الصغير: حرف الحاء: «حبب إلي»: ١٤٦/١.

غير تهذيب الباطن ـ عصمنا الله وإخواننا الصالحين حيث ماكانوا ـ .

وعلى ماذكر يكون شديد المناسبة إليه قوله عزوجل :

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

قرء نافع « وما نزل » خفيفة الزاي . والباقون بالتشديد . فعلى الأول يكون المرفوع ضميراً عائداً إلى الموصول ، وعلى الثاني هوعائد إلى الله ، والعائد إلى الموصول ضمير منصوب محذوف من الصلة .

وقرء رويس : « ولاتكونوا » بالتاء على الالتفات . أو على النهي عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب . والباقون بالياء عطفاً على « تخشع » .

ألَم يأنَ ـ من « أنى الأمرُ يأنى » : إذا جاء إناه ، أي وقته . و «الخشوع» : لين القلب والانقياد للحق ومثله « الخضوع » . و « القسوة » : غلظ القلب بالجفا عن قبول الحق. و« الحق » : مادعا إليه العقل السليم من الأمراض النفسانية، وهو الذي من عمل به نجا ، ومن عمل بخلافه هلك .

وهذه الآية قيل : إنها نزلت في المنافقين بعد الهجرة لسنة . وقيل : إنها نزلت في المؤمنين .

قال ابن مسعود : ماكان بين إسلامنا وبين أنعوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً .

وعن ابن عباس: إنالله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن بهذه الآية .

وعن الحسن : أما والله لقد استبطاهم الله وهم يقرؤن من القرآن أقل ممّا تقرؤن ، فانظروا في طول ماقرأتم منه وماظهرفيكم من الفسق .

وقيل : كانت الصحابة بمكة مجدبين ، فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة سنين ، فتغيّروا عما كانوا عليه وينبغي للمؤمن أن يزداد يقيناً وإخلاصاً في طول صحبة الكتاب .

والمعنى : أما حان للمؤمنين ـ أي المنتسبين إلى الايمان ـ **أن تخشعَ قلوبهم** وترق لذكر الله ـ مما يذكرهم الله وصفاته وأفعاله وكيفية كونه مبدءاً للعباد ومعاداً لهم يوم الميعاد ومانزل من الحق من الآيات والنذر القرآنية ؟ والمراد من الخشوع لها خشية القلوب عند ذكر الله وتقوى ايمانهم عند تلاوة آياته ، كقوله : ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [٢/٨] .

ومن شدّد فالمراد مانزله الله من المعارف الحقّة .

وَلا يَكُونُوا ـ كأهل الكتاب الذين كانوا في العهد الأول فطال عليهم الأمد ، أي : الزمان بينهم وبين نبيّهم ، أو الأمد للجزاء ـ أي : لم يعاجلوا بالعقوبة أو مجيء القيامة . وقرء : « أمدّ » أي الوقت الأطول ،فاغترّوا بذلك فقَسَتْ قُلوبُهم ـ أي : غلظت وجافت ـ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ـ خارجون عن دينهم ، متمرّنون على المعاصي ، معتادون بها ، فكانوا بحيث لاينفعهم نصح الأنبياء ولاينجع لهم وعظ الواعظين ، ومن لاينفعه في الدنيا نصح الناصحين لاتنفعه في الآخرة شفاعة الشافعين ، فلاتكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ماحكم فيهم .

* * *

مكاشفة

ينبغي أن يكون هذا الخطاب متوجهاً إلى جماعة مخصوصين من أهل الايمان ومعالم الدين لم يوجد منهم خشوع فحثّوا على الرقّة كما يدلّ عليه قوله تعالى : أَلَم يأنَ . أي أما حان وقتُ الخشوع منهم فكيف فِعله ؟ ففي الآية تنبيه عظيم وإشعار بليغ على قُبح سيَر أولئك المخصوصين وفساد بواطنهم وقسوة قلوبهم ، حيث نُهوا عن مماثلة اليهود والنصارى التي كانت أغلظ الناس قلباً ، وأسوئهم ضميراً وأظلمهم باطناً في قسوة القلوب بعد أن وبّخوا ، وذلك لما نقل إن بني اسرائيل كان الحق يحول بينهم و مشتهياتهم ، وإذا سمعوا التورٰية و الإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلب عليهم الجفاء والقسوة فاختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره .

وأكثر من وردت التشديدات العظيمة في حقهم في القرآن والحديث هم العلماء السوء الذين قصدهم من الاطلاع على معالم الدين وتعلّم مناهج الشرع المبين التنعّم بالدنيا والتوسل إلى الجاه و المنزلة عند ذريها وبنيها ، فدلت الأخبار والآثار من المصطفين الأخيار وشهدت بصائر أصحاب الاستبصار وأنوار ضمائر أرباب الفكر والمتفكرين في مراتب الصنع والايجاد الفائضة عن الله القهار على أن أشد الأشرار عذاباً في النار هم العلماء السوء الذين ظواهرهم ظواهر الأخيار وبواطنهم بواطن الكفّار .

وقال النبي ﷺ : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه » (١) .

---

(١) الجامع الصغير: ٤٢/١.

والسر في ذلك إنهم يريدون أن يتوسّلوا بأشرف الأشياء و هو العلم بالله وأحكامه إلى أخسّ الأشياء ، وهو الجاه والمنزلة في الدنيا والتفاخر بسافيها والركون إلى زخارفها و الإخلاد إلى الأرض . و هذه أمور وهميّة باطلة كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [٦٤/٢٩] .

و قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَزِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَ ٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [٢٠/٥٧] فقد مثّل الله تعالى الدنيا وشهواتها في كثير من آيات القرآن بأمور وهمية باطلة يغترّ بها نفوس الجاهلين والناقصين ، كما في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [٢٤/ ٣٩] فويل لمن يعدّ نفسه من العلماء وهو في الحقيقة من الحمقى الجاهلين المغترّين بلوامع السراب الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحيوة الدنيا . فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله .

و مثّل الله تعالى في القرآن بلعم بن باعورا - و كان عالماً فاجراً أخلد إلى الشهوات - بالكلب حيث قال سبحانه ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ حتى قال : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ [١٧٦/٧] في الإخلاد إلى الشهوات سواء أوتي الحكمة أولم يوت فهو مصرٌّ فيها ، مخلد إليها .

وقيل : مثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها خضر وباطنها نتن ، ومثل قبور الكفرة والظلمة ظاهرها عامرة وباطنها اللعنة والعذاب .

همچو گور كافران بيرون حلل وز درون قهر خدا عزّوجلّ

و قد قيل : أقلّ درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا و خسّتها و كدورتها وزوالها و انصرامها ، وعظم أمر الآخرة و دوامها و صفاء نعيمها و جلالة ملكها ، ويعلم إنهما متضادّان متفاسدان ، مهما صلحت إحديهما فسدت الأخرى ، و إنهما كالضرّتين مهما ارتضيت إحديهما أسخطت الأخرى ، فإن من لم يعلم حقارة الدنيا

و كدورتها و انصرام مايصفونها بحسب الوهم فهو فاسد العقل ، فكيف يُعدّ من لاعقل له من العلماء ؟ ومن لايعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الايمان ، فكيف يكون من لاايمان له من العلماء ؟ ومن لايعلم مضادة الدنيا للآخرة وإن الجمع بينهما مستحيل فهو جاهل بشريعة الأنبياء كلهم -صلوات الله عليهم أجمعين - بل كافر بالقرآن من أوله إلى آخره فكيف يُعدّ من زُمرة العلماء ؟ ومَن علم هذا كلَّه ثمّ يؤثر الدنيا على الآخرة فهو جاهل أسير شيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته، فكيف يعد من أحزاب العلماء من هذه درجته في الخسة ؟

فهذا دليل واضح على أن من آثر الدنيا على الآخرة فهو مغرور وقد ركّب فيه جهل الجهال وفتنة الدجّال .

وكتب رجل إلى أخ له : «إنك قد أوتيت علماً فلا تطفين نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم» .

وقال عيسى عليه السلام : « كيف يكون من أهل العلم مَن مسيره إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه » !

وقال صالح بن كيسان البصري : «أدركت الشيوخ و هم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنّة » .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه قال : أوحى الله إلى بعض الأنبياء : « قل للذين يتفقّهون لغير الدين ، ويتعلّمون لغير العمل ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون للناس مسوك الكباش ، وقلوبهم قلوب الذئاب ،ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر : إياي يخادعون، وبي يستهزؤن، لأفتحنّ لهم فتنة تذر الحكيم حيراناً»[1] .

وإليه أشار قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [٢/١٠] .

(١) قال العراقي (ذيل احياء علوم الدين: ١/٦٢): «أخرجه ابن عبد البر باسناد ضعيف».
وجاء ما يقرب من هذا الحديث في الترمذي: ٤/٦٠٤.

وقوله تعالى : ﴿اللهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[١٥/٢] .

و في طريق أهل البيت عليهم السلام أحاديث كثيرة في ذم علماء الدنيا المُعرضين عن الآخرة .

منها مارواه الشيخ الجليل محمد بن يعقوب الكليني في كتاب الكافي عن سليم بن قيس ، قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : منهومان لايشبعان ـ طالبُ دنيا وطالبُ علم ـ فمَن اقتصَر من الدنيا على ما أحلّ الله له سلم ، ومن تناولها من غير حلّها هلك ، إلاأن يتوب أو يراجع ، ومن أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجى ، ومن أراد به الدنيا فهي حظّه(١) .

وعن أبي عبدالله (ع) : من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب (١) .

وعنه (ع) قال : إذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتّهموه على دينكم ، فإن كل محب لشيء يحوط ماأحب .

و قال صلى الله عليه وآله : أوحى الله إلى داود (ع) : لاتجعلْ بيني و بينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبتي ، فإن أولئك قطّاع طريق عبادي المريدين ، إن أدنى ماأصانع بهم أن انزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم (٢) .

وعن أبي جعفر (ع) قال : من طلّب العلم ليباهي به العلماء ويماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس اليه فليتبوء مقعده من النار إذ الرئاسة لاتصلح إلا لأهلها(٣)

وعن علي بن إبراهيم ـ رفعه إلى أبي عبدالله (ع) قال : طلّبة العلم ثلاثة فاعرفوهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ،

(١) الكافي: كتاب العلم، باب المستأكل بعلمه: ٤٦/١.

(٢) الكافي: الباب السابق: ٤٦/١. وفيه فروق يسيرة.

(٣) الكافي: الباب السابق: ٤٧/١.

وصنف يطلبه للفقه والعقل .

فصاحب الجهل والمراء موذٍ ممار متعرّض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، قد تسربل بالخشوع وتخلّى من الورع ، فدقّ الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه .

وصاحب الاستطالة والختل ذو خبّ وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ويتواضع للأغنياء من دونه ، فهو لحلوائهم هاضم ، ولدينه حاطم ، فأعمى الله على هذا خبره ، وقطع من آثار العلماء أثره .

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنّك في برنسه وقام الليل في حندسه ، يعمل و يخشى وجلاً داعيا مشفقاً مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه ، مستوحشاً من أوثق إخوانه ، فشدّ الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه(١) .

وعن الحسين الصيقل ، قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول لايقبل الله عملا إلا بمعرفة ولامعرفة إلابعمل ، فمن عرف دلّته المعرفة على العمل ، ومن لم يعمل ،فلامعرفة له إلاان الايمان بعضه مثل بعض(٢) :

وعن أمير المؤمنين عليه السلام يحدّث عن النبي صلى الله عليه وآله : ـ إنه قال في كلام له ـ العلماء رجلان : عالم آخذ بعلمه ، فهذا ناجٍ . وعالم تارك لعلمه ، فهذا هالك . وإن أهل النار يتأذّون عن ريح العالم التارك لعلمه ، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله تبارك وتعالى فاستجاب له وقبل منه ، فأطاع الله فأدخله الله الجنة وأدخل الداعي إلى النار بتركه علمه واتّباع الهوى وطول الأمل . أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وطول الأمل ينسي الآخرة (٣) .

* * *

(١) الكافي: باب النوادر من كتاب العلم: ١/ ٤٩.

(٢) الكافي: كتاب فضل العلم، باب من عمل بغير علم: ١/ ٤٤. وجاء فيه: «بعضه من بعض».

(٣) الكافي: الصفحة السابقة. وفيه فروق يسيرة.

فهذه الأخبار تبيّن إنّ العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخسّ حالاً و أشد عذاباً يوم القيمة من الجاهل ، **و إن علماء الآخرة هم الفائزون** المقربون ولهم علامات :

منها : مامرّ ذكرها من إعراضهم عن الدنيا وزخارفها وزهدهم في شهواتها، وإقبالهم إلى الآخرة ، ورغبتهم في درجاتها ومعارفها وحقائقها .

ومنها : أن يكون أكثر اهتمامهم بالمعارف الباطنية ، ومعرفة عالم الملكوت والروحانيّات ، وأسرار المبدء والمعاد ، ومعرفة النفس الإنسانية ، وكيفيّة ارتقائها إلى الكمال ، وخلاصها من النقص ، و طريقها إلى الآخرة ، حتى تصير نفسه عالماً معقولاً موازياً للعالم المحسوس مشاهداً لصورة (كمال) الكلّ آخذاً هيئة الوجود من المبدء الأوّل ـ إلى الترتيب الصدوري النزولي منه ، و العروجي إليه ـ وكيفية استكشاف هذه الأمور بالمجاهدة و المراقبة و مباشرة العبادات والأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة ، والانقطاع إلى الله عما سواه ، فذلك مفتاح الإلهام و منبع الكشف ، فلا يكون مزاولتهم للعلوم الشرعية الظاهرة أكثر من مواظبتهم للمعارف الإلهيّة ، بل ما لم يحيطوا بحظ وافر منها لم يشتغلوا باستقصاء مسائل الحلال والحرام إلا ما هو الواجب العيني بقدر ما لابدّ منه ـ دون الواجب الكفائي الذي يقوم كل أحد فيه مقام الآخر ـ وذلك لوجوب الاشتغال أولاً بالأهم ـ والأهم : هو العلم بالله وملكوته وصفاته وأفعاله و كتبه ورسله واليوم الآخر ، دون العلم بأوامره ونواهيه .

* * *

كما قال الشيخ الفاضل والفقيه الكامل زين المجتهدين رحمه الله ـ ناقلاً في بعض مولّفاته عن بعض المحققين ـ : [1] العلماء ثلاثة :

عالم بالله غير عالم بأمر الله ، فهو عبد استولت المعرفة الإلهيّة على قلبه

---

(١) منية المريد: ٣٠.

فصار مستغرقاً لمشاهدة نور الجلال و الكبرياء فلا يتفرغ لتعلّم علم الأحكام إلا مالابد منه .

و عالم بأمر الله غير عالم بالله ، و هو الذي يعرف الحلال و الحرام ودقائق الأحكام ، لكنه لايعرف أسرار جلال الله .

وعالم بالله وبأمر الله ، فهو جالس على الحدّ المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات ، فهو تارة مع الله بالحبّ له ، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة، فإذا رجع من ربه إلى الخلق صار معهم كواحد منهم كأنه لايعرف الله ، و إذا خلا بربه ، مشتغلا بذكره وخدمته ، فكأنه لايعرف الخلق .

فهذا سبيل المرسلين والصديقين ، وهو المراد بقوله ﷺ : سائِل العلماء ، وخالِط الحكماء ، وجالِس الكبراء .

والمراد بقوله : «سائل العلماء» العلماء بأمر الله غير العالمين بالله فأمر بمسائلتهم عند الحاجة إلى الاستفتاء وأما الحكماء فهم العالمون بالله الذين لايعلمون أوامر الله ، فأمر بمخالطتهم. وأما الكبراء فهم العالمون بهما ، فأمر بمجالستهم ،لأن في مجالستهم خير الدنيا والآخرة .

ثم قال : ولكل واحد من الثلاثة ثلاث علامات : فللعالم بأمر الله : الذكر باللسان دون القلب ، والخوف من الخلق دون الربّ والاستحياء من الناس في الظاهر ولايستحي من الله في السرّ .

والعالم بالله :ذاكر ، خائف ، مستحي . أما الذكر : فذكر القلب لا اللسان ، والخوف : خوف الرجاء لاخوف المعصية ، و الحياء : حياء مايخطر على القلب لاحياء الظاهر .

و أما العالم بالله وأمره له ستّة أشياء : الثلاثة المذكورة للعالم بالله فقط مع ثلاثة اخرى : كونه جالساً على الحد المشترك بين عالَم الغيب وعالَم الشهادة، وكونه معلما للمسلمين ، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه وهو مستغن عنهما فمثَل العالم بالله و بأمر الله كمثَل الشمس لاتزيد ولاتنقص ، ومثَل العالم بالله فقط كمثَل

القمر يكمل تارة و ينقص أخرى ، و مثل العالم بأمر الله كمثل السراج يحرق نفسه ويضيء غيره - انتهى كلامه-

* * *

ومنها : أن لايكون متسرّعاً إلى الفتوى مشتاقاً إليه ، بل يكون متوقفاً متحرزاً ماوجد إلى الخلاص سبيلا ، فإن سئل عمّا يعلمه تحقيقاً بنصّ كتاب أو نصّ حديث أو إجماع أو مشاهدة باطنية جلية أفتى ، وإن سئل عما شك فيه قال : لاأدري، وهذا اللفظ كأن علماء هذا الزمان حرّموا على أنفسهم التلفظ به عند الاستفتاء عنهم .

وفي الخبر : ان العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، وسُنة قائمة ، ولاأدرى .

وقيل : «من سكت حيث لايدري لله فليس أقل أجراً ممن نطق» لأن الاعتراف بالنقص أشد على النفس ، فثوابه أزيد وهكذا كانت عادة السابقين ، وكان بعضهم يقول حين سئل عن الفتوى : أتريدون أن تجعلونا جسراً تعبرون علينا إلى جهنم.

قال ابن مسعود : «الذي يفتي للناس لمجنون»

* * *

ومنها أن يكون أكثر بحثه في علم الأعمال عما يفسدها ويشوش القلب ويهيج الوسواس ويثيب الشرور ، وذلك للتوقي عنه والاحتراز من الشر لا للمرايا والممارات كما أن وضع علم المغالطات في المنطق إنما هو لأن يحترز الإنسان عن الغلط ، لا لأن يوقع غيره في الغلط .

وأمّا علماء الدنيا فأكثر اهتمامهم بتتبّع غرائب التفريعات في الأقضية والحكومات والتعب في استنباط الصور الدقيقة والاحتمالات البعيدة التي تنقضي الدهور ولايقع مثلها ، وإن وقع كان لغيرهم لالهم ، ومع ذلك لايخلو الأرض عمن يقوم باستنباطه والشعف بتحصيله طلباً للجاه والشهرة حسبما قدره الله وأودع في غريزة كل أحد مايناسبه وينتظم به أمور غيره في عالمه - وماأبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر ايثاراً لخدمة الخلق و قبولهم على القرب من الله و حضوره عنده وتهالكاً على أن يسميه البطالون فاضلا عالماً بالدقائق ،وجزاؤه من الله تعالى ماذكره

بقوله : ﴿ أُوْلَٰئِكَ لَاخَلَاقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَايُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَايَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَايُزَكِّيهِمْ ﴾ [٧٧/٣]

* * *

ومن علامات علماء الآخرة وأولياء الله ومجامع نعوتهم إنهم منبعثون من موت الجهالة منتبهين من رقدة الغفلة ، عارفين بحقائق الأشياء مشاهدين حساب يوم الدين ، قوم تستوى عندهم الأماكن والأزمان وتغاير الأمور وتصاريف الأحوال، فقد صارت الأيام كلها [عندهم] عيداً واحداً ، وجمعة واحدة ، وصارت الأماكن كلها مسجداً واحداً، والجهات كلها محراباً واحداً ـ وذلك لخروجهم بعقولهم الصافية وأذهانهم العالية عن مطمورة عالم الزمان والمكان ـ وتوجهت قلوبهم شطر الحق وتولّت ذواتهم وجه الله ، فصارت حركاتهم كلها عبادة لله وسكناتهم كلها طاعة له، واستوى عندهم مدح المادحين وذم الذامّين ، لايأخذهم في الله لومة لائم ، قياماً لله بالقسط ، شهداء لله بالحق وهم على صلواتهم دائمون تحققوا بقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [١١٥/٢] ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ وَلَاتَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾ [٢٣/٥٧] .

وصار دعاؤهم مستجاباً لأنهم لايسئلون إلا مايكون ، ولا يكون إلا ماقد كان في سابق العلم؛ فقلوبهم في راحة من التعلق بالأسباب ، وأرواحهم فارغة من التكلف بمالايعني ، ونفوسهم ساكنة عن الوسواس، وأبدانهم في راحة من أنفسهم، والناس منهم في راحة وأمان ، لايريدون لاحد سوء ولايضمرون لأحد شراً ـ عدواً كان أو صديقاً ـ وذلك لعلمهم بحقارة الدنيا وخسّة شركائها ودثور أهلها ، وارتفاعهم عن الالتفات إلى هذا المنزل الأدنى .

كما قال اميرالمؤمنين عليه السلام : « والله لدنياكم عندي أهون من عراق خنزير في يد مجذوم » . [١]

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة رقم ٢٣٦.

وقال أيضاً : « والله مادنياكم هذه إلا كعفطة عنز » .[1]

* * *

إن أردت ياحبيبي أن لايشتبه عليك الفرق بين علماء الدنيا المغترّين بلامع السراب ﴿الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [١٠٤/١٨] وبين علماء الآخرة الناجين من عذاب يوم الحساب ، الفائزين بشهود رب العالمين ، فتأمل فيما وصفناه ، وتذكر ماذكرناه من خواص أهل الله لتعرف منه خواص أضدادهم وأضداد خواصهم ، وإن شئت زيادة التميز بين هاتين الطائفتين فتأمّل في حكاية وقعت بين رجلين أحدهما من أولياء الله وعباده الصالحين الذين أنجاهم من عذاب جهنم وأعتقهم من أسرها ، وأخلص نفوسهم من عداوة أهلها ، وأراح قلوبهم من آلام المعذبين فيها . والآخر من الهالكين المعذبين فيها بألوان (بأنواع) العذاب ، المحترقة قلوبهم بحرارة عداوة أهلها ، المتألمة نفوسهم بعقوباتها :[2]

* * *

قال الناجي للهالك : كيف أصبحت يافلان ؟

قال : أصبحت في نعمة من الله طالباً لزيادة راغباً فيها ، حريصاً على جمعها، ناصراً لدين الله ، معادياً لأعدائه ، محارباً لهم .

فقال الناجي له : من أعداء الله ؟

قال : كل من خالفني في مذهبي واعتقادي

قال : إن ظفرتَ بهم ماذا تفعل ؟

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الشقشقية: «ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».

(٢) المحاورة الآتي وشطر مما مضى مقتبسة من رسائل اخوان الصفا: الرسالة السابعة من النفسانيات والعقليات: ٣١٢/٣.

قال : أدعوهم إلى مذهبي ورأيي واعتقادي

قال : فإن لم يقبلوا منك ؟

قال : أقاتلهم وأسفك دمائهم وأسبي ذراريهم .

قال : فإن لم تقدر عليهم ؟

قال : أدعو عليهم ليلا ونهاراً ، وألعنهم في صلوتي . كل ذلك قرباناً إلى الله تعالى .

قال الناجي : فهل تعلم إنك إذا دعوت عليهم ولعنتهم أيصيبهم شيء ؟

قال : لاأدري ، ولكن إذا فعلت ماوصفت لك وجدت لقلبي راحة ولنفسي لذة ، ولغليل صدري شفاء .

قال له الناجي : أتدري لِم ذلك ؟

قال : لا . ولكن قل أنت

قال : لأنك مريض النفس ، معذّب القلب معاقب الروح . لأن اللذة إنما هي الخروج من الالم وليس في هذا الذي ذكرته من أحوالك تصلّب في الدين من شيء، ولاتقوية للشرع المبين ، وإنما هي خدمة لقوّتك الغضبية التي تسلّطت عليك، وجعلت قلبك مسخراً إياها في دواعيها ، رهينا لمآربها السبعيّة . وقد استهزأ بك الشيطان حيث غرّك بأن هذا ترويج للدين ، وخدمة للشرع المبين وبه تمنّ على سيد المرسلين ــ عليه وآله الصلوة والسلام ــ شبه ماحكاه الله سبحانه عن بعض المنافقين بقوله : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَاتَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ﴾[١٧/٤٩].

واعلم بأنّك محبوس في طبقة من طبقات جهنم ــ وهي : ﴿الْحُطَمَةُ * نَارُاللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [١٠٤/٧] وإنما تشاهد عذابها يوم القيامة عياناً، إلا أن تتقى منها بالفكر الصحيح والعقل السليم ، وتتخلّص بنفسك من عذابها وتنجو بقلبك من عقابها إنشاء الله كما وعد بقوله : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ــ بمفازتهم ــ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ [١٩/٧٢] .

ثم قال الهالك للناجي : فأخبرني أنت عن رأيك ومذهبك وحال نفسك .

قال : نعم ، أما أنا ، فإنّي قد أصبحت في نعم الله وإحسان لايُحصى عددها ولا يؤدى شكرها ، راضياً بما قسم لي وقدّر ، صابراً لأحكامه ، لاأريد لأحد من الخلق سوء ، ولا أضمر له دغلا ، ولا أنوي لهم شراً . نفسي في راحة ، وقلبي في فسحة، والخلق من جهتي في أمان . أسلمت لربي، مذهبي وديني دين أبي إبراهيم عليه السلام أقول كما قال : ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٣٦/١٤] ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١١٨/٥] .

* * *

واعلم أيّها السالك إلى جوار الله إن أمثال هذه الآراء والاعتقادات كثيرة ، وأكثر هذه الجدليّات مؤلمة لنفوس معتقديها ومعذبة لقلوبهم ، وهو جزاء لنفوسهم وعقوبة لهم في الدنيا إلى وقت معلوم وأجل معدود وفي الآخرة أشد وأدهى ، وهي إذا اشتدت في الآخرة بحسب الظهور والتحقق صارت نيرانات ملتهبة نزّاعة للشوى وحرقات مشتعلة فطّاعة قطّاعة للقلوب كما أشار إليه بقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [٣٦/٧٩] وقوله : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [٧/١٠٢] .

واعلم إنه لايصل الإنسان إلى معرفة الله على الحقيقة إلا بعد جوازه على بعض هذه الآراء الفاسدة ــ إما في أيام صباه أو بعد ذلك ــ ثم إن الله يهدى من يتّقى الشرك به ويُنجيه منها كما وعد وقال : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [٧٢/١٩] .

* * *

قوله عزوجل :

اعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قيل : يحييها بالنبات بعد يبسها وجدوبتها ، فكذلك يحيي قلب الكافر بالهدى إلى الايمان بعد موته بالضلال والكفر . وقيل : هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب ، وإنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض . وقيل : معناه إن الله يلين القلوب بعد قسوتها بالألطاف والتوفيقات .

قَد بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ ـ من شواهد العقل والنقل كالحُجج الواضحات والدلائل الباهرات ـ لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ ـ فتعلمون بمقتضاها وترجعون إلى العبودية التامة .

مكاشفة

اعلم إن مرجع هذه الأقوال الثلاثة إلى شيء واحد في المثال والممثّل له جميعاً ، فإن الأرض مثال للنفس الناطقة الإنسانية ، المعبّر عنها بالقلب الحقيقي ، لتقلّبها بالأحوال ، لا الجسم الصنوبري الموجود في الحمير والبغال ، وموتها مثال لكونها هيولانية ليس فيها شيء من المعارف والعلوم الحقّة التي بها يستتم حقيقة الإنسان أو بتوسطها وإعدادها يستعد للحيوة العقلية .

والآيات المبيّنة له إشارة إلى المقدمات اليقينيّة التي يتوسل بها في تحصيل الكمال العقلي ، وهو صيرورته عقلا وعاقلا بالفعل بتأييد من الحق الأول بواسطة بعض ملائكة العلامة الفعّالة للحقائق بإذنه تعالى .

وهذه الحيوة العقلية هي التي وقعت الإشارة إليها بقوله : ﴿ وَلَاتَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ [١٥٤/٢] ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَيٰهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [١٦٩/٣] وظاهر إن المراد من الحيوة التي يكون عند الله هي الحيوة المعنوية دون الجسمية (الحسية) .

والمراد من رزق الله أن يكون عنده رزق المعارف والعلوم التي بها يتغذّى ويتقوّى الأرواح المقدسة ، لاالأغذية الجسمية التي تنمو بها الأجسام المحسوسة ، كما في قوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٣١/٢٠] .

وإن أردت حقيقة المقال في بيـان النفس الإنسانية ومراتبها في الاستكمال وبلوغها إلى حد الكمال فعليك بمطالعة مابيّناه في معرفة النفس في كتاب « **المبدء والمعاد** » فإنهـا من الغوامض التي قلما يصل إليها ـ إلا من أيّده الله تعالى بنور الكشف والشهود ـ ولايذكر من علم النفس في كتب الحكماء إلا قدر يسير ومرتبة نازلة منه مناسبة لمباحث الطبيعة وأحوال البدن ، وذلك القدر اليسير أيضا قرّة عين السالكين وقد غفل عنه الجمهور كغفلتهـم عن سائر المعارف الضرورية في سلوك سبيل الحق .

ومما يجب لاأقلّ على كل عارف(عاقل ـن) أن يعرف من أحوال نفسه التي هي مرقاة إلى معرفة الله سبحانه إنها جوهر ملكوتي من شأنها أن تعرف ربها ويتقرّب إلى الله تعالى، ويعلم إن من الله مبدأها وإلى الله منتهاها إذا سلكت طريق الحق واكتسبت المعارف الحقيقية والعلوم ويعلم إنها غير البدن الذي أوّله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وهو فيما بينها حامل العذرة ، ويعلم إيضا إن جهلها موتها وهلاكها في الآخرة ـ كما ذهب إليه كثير من الحكماء والعرفاء ـ وإن حيوتها الأخروية عبارة عن وجود نور مستفاد هو مبدأ للتعقلات ومنشأ لفعل الخيرات ، كما إن حيوتها الدنيوية البدنية عبارة عن كونها منشأ الاحساس والتحريك ، وهو نور يقذف من الحقّ الأول فيها فينفعل منه كما ينفعل من نور الشمس وجه الأرض، فأشرقت بها كما أشرقت الأرض بنور ربها ؛ فعند ذلك يظهر بها الحقائق والماهيات التي ليست معقولة بذاتها كما

يظهر بضوء النهار الأجسام الأرضية المظلمة الذوات المستنيرة بنور الشمس، وحينئذ يستعد للاتصال بالملاء الأعلى وعالم القدس .

ولما كان كل مايخرج من القوة إلى الفعل ، ومن الموت إلى الحيوة ، ومن الظلمات إلى النور يخرج بسبب متوسط بينه وبين الله لكونه تعالى في غاية الوحدة والإشراق والعظمة لايحتمل شدة نوريّته النافذة في العالم ضعفاء البصائر والأبصار إلا بمتوسط عقلاني وعالم رباني، ورسول من الحق إلى الخلق ـ كالملائكة للأنبياء، والأنبياء للخلائق ـ فيجب أن يخرج هذه القوة الميّتة الهيولانية بشيء يكون كاملا بالذات ، فعّالا للمعقولات ، والأنوار العقلية كالشمس الفعالة للأنوار المحسوسة ، وليست فيه شائبة نقص وآفة وقوة إلا الإمكان الذاتي الذي هو اعتبار مافي الذهن وقد صار مخفياً تحت سطوع النور الأول الحق بحيث يمتنع ظهوره من كتم الخفاء لتحقّق هذا الجوهر العقلي بالوجود الحقاني واتصافه بالوجوب الارتباطي ولكونه تعالى قهّاراً للعدم بالوجود والتحصيل ، جبّاراً لما بالقوة بالفعل والتكميل ، فما يفيض منه سبحانه على سُنّة الإبداع هي أوائل الموجودات والمهيّمات في ملاحظة جماله وجلاله ، لاالتفات لهم إلى ذواتهم النورية المنورة بنور الأول تعالى فضلا عن غيرهم من عالَم الأجسام والظلُمات .

فتلك الطبقة العليا من الجواهر المفارقة أنوار عقلية لاظلام في عالمها وصباحات ضوائية لاليالي لها ، وإنما توجد من الطبقة التالية العرضية التي هي في صف آخر من صفوف العقول والملائكة القادسة ، وهم الأدنون في أسافل العالَم الجسماني ليال عشر من غير التفات منها إلى مادونها ، بل عند التفاتهم إلى ذواتهم المستنيرة بنور الحق الأول المشاهدة له سبحانه وقعت منهم ظلال الأجسام الكلية وليالي الهيولانات العشر ـ تسع للأفلاك وواحدة للعناصر ومايتركب منها ـ وكما يفيض مما يلينا منهم والأقرب بالقياس إلينا هيولى هذا العالم السفلي ، فكذلك يفيض منه على القوابل والأراضي العقلية والحسية بما فيه من آثار رحمة الله الصور والنفوس والهيئات والنقوش من كمالاتها الثانوية كما في قوله : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ

كَيفَ يُحيِي ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا ﴾ [٣٠/٥٠] ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [٣٠/١٩] .

فمن هناك يفيض على أرواحنا العلوم الحقة والمعارف اليقينيّة الحاصلة فيها من ذلك العالم ، إذ من المتحقق أن صور جميع ما أوجده الله تعالى حاصلة في عالم الجبّروت على وجه مقدس لايشاهَد بهذه العيـن الدائرة ، فذلك الفيّاض للعلوم والمعارف ، المكمّل للأرواح والنفوس وهو المسمى بـ «روح القدس» وهو المعلم الشديد القوى والمؤيد بالقاء الوحي والإلهام للأنبياء والأولياء الذي كتب في قلوبنا الايمان والمعارف إذا توجّهنا شطر كعبة الحق والجنبة العالية، وإذا أعرضنا عنه بالتوجه إلى مشاغل الجنبة السافلة انمحت تلك النقوش عن النفوس ، كمرآة صقيلـة إذا أقبلت إلى النيـّر تشعشعت ، وإذا أعرضت عنه تخلـّت ـ من غير تغيـّر في النيـّر الأعظم بل في أحوال المرآة ـ .

فإذا تحقّق هذا المجمل الذي قد فصـّل في مقامه علم علماً يقينيـّاً : إن الله تعالى يحيي أراضي النفوس القابلة والعقول الهيولانية بعد موتها ـ أي تعلّقها بالبدن وغمودها في النشأة الحسية التي هي منبع الجهل والغفلة والموت بتبييـن الآيات العقلية وإفاضة المعارف اليقينية التي بها يتنوّر نفس الإنسان ويحيى بروح المعارف ويخلص من موت الجهالة ، ويستيقظ من نوم الغفلة ، ويتنبـّه من رقدة الطبيعية ، ويصير معقولا وعاقلا بذاته ، فاعلا للصور المعقولة ، وإليه أشار بقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعقِلُونَ ﴾ .

* * *

قوله عزوجل :

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

قرء ابن كثير وأبوبكر بتخفيف الصاد في اللفظين ، والباقون بتشديدهما .

فمن خفّف كان الكلام عنده بمنزلة قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ [٢٧٧/٢] لأن المصدقين ـبالتخفيفـ مأخوذ من « صدق » بمعنى « آمن » ، فهم الذين آمنوا واقرضوا ـ أي : عملوا الصالحات ـ إما لأن القرض الحسن من جملة الأعمال الصالحة ، لأن معناه أن يتصدق من المال الطيّب عن طيبة النفس وصحة النيّة على من استحق للصدقة ، أو لأن المراد منه مطلق الفعل الحسَن والعمل الصالح التي له أجر كريم ، سواء كان بايتاء أمر عينيّ أو غيره ، كما أن التصديق حينئذ يتضمن الصدقة .

ومن شدّد كان الوجه عنده أن قوله : اقرضوا الله قرضاً حسناً ـ اعتراض بين الخبر والمخبرعنه ، فهو للصدقة أشدّ ملائمة منه للتصديق، ولأحد أن يمنع كونه اعتراضياً ألبتّة ، لاحتمال أن يكون معطوفاً على معنى الفعل في المصدّقين ، لأن اللام فيه بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا أو صدقوا .

وقرء « يضعّف » بالتشديد و« يضاعِف » بكسر العين، أي : يضاعف الله لهم من الجزاء أمثال ماأنفقوا في وجوه الخير ـ وَلَهُم أَجْرٌ كَرِيمٌ ـ لأنه يترتب لذاته على فعل الخير، وكلما يترتب على فعل الخير يكون أجراً كريماً ، لأن أمور الآخرة تكون شديدة قوية في الإلذاذ ـ إن كانت لذيذة ـ وفي الايلام ـ إن كانت أليمة ـ لعدم الغشاوات والموانع عن الإدراك هناك ، وكون المدرك قوياً ، والمدرك مكشوفاً وليست اللذة إلا إدراك الملائم ، ولاالالم إلا إدراك المنافي .

فالمدرك للملائم والمنافي إذا كان في غاية القوة والحدة ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [٥٠/٢٢] - والمدرك منهما إذا كان كنه حقيقة الشيء ولبّه وباطنه وسريرته ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [٨٦/٩] والإدراك أيضا في غاية التحقيق واليقين حيث ينتهي إلى مشاهدة العين ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [١٠٢/٨] - يكون الإلذاذ والايلام في غاية القوة والشدة ، وهذا هو البيان في كون أمور الآخرة في بابها عظيماً شديداً .

مكاشفة

النكتة في أن فعل الحسنة يكون أجره مضاعفاً وفعل السيئة يكون أجره مثله - كما في قوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [٦/١٦٠] - وجهان : أحدهما من جهة القابل ، والآخر من جهة الفاعل .

أما الوجه الأول : فهو إن حقيقة النفس الإنسانية من عالَم الأمر وعالَم الآخرة وسنخ الروحانيات النوريّة ، فوقعت في هذا العالَم الجسماني الظلماني لجناية صدرت من أبيه آدم الأول ، وهبطت من الجنة إلى الأرض غريباً وحيداً أسيراً في أيدي الظلمات ، ملسوعاً بلسع حيّات الشهوات وموذيات اللذات، مسحوراً بسحر الطبيعة ووساوس الشياطين ، كما في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [٩٥/٥] .

ثم إن كل عمل وفعل صدر من الإنسان في هذا العالَم يحصل منه أثر في قلبه لارتباط شديد بين النفس والبدن ، فيحصل من تكرّر الأفاعيل في النفس أخلاق وملكات هي مواريث المعاملات ، فإذا تكررت الأفاعيل الحسنة - من الصيام ، والقيام، والاطعام ، والصدقات بحسن النيات وصدق الطويّات - ظهرت من دوام

تكررها هيئات حسنة راسخة في النفس، فيتنور عندها بنور الصفات الملكية ويسهل معها صدور الفضائل والخيرات ،كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [٩٢/٥-٧] .

وكذلك إذا تكرّرت الأفعالُ الذّميمَة والسيّئات ـ من البخل ، والاستكبار، والكذب ، وغيرها ـ حصلت من دوام تكرّرها صفات ذميمة راسخة في النفس ، فتتكدر عندها بكدورة المعاصي ، فيسهل معها صدور القبائح منها مما لم يكن يصدر قبل ذلك بتلك السهولة ،كما قال سبحانه : ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [٩٢/٨-١٠] ولو لم يكن تكرر الأفاعيل مورثاً لحصول الملكات في النفس لم يحصل للإنسان الصناعات العلمية والعملية .

ثم لما كانت الأفعال الحسنة مناسبة لعالم القدس وموطن النفس مقرّبة لها من عالمها ، مذكّرة لها عهدها القديم مع أقاربها وألّافها . والأفعال القبيحة ، مناسبة لعالم الجحيم ، مبعدة لها عن عالمها ـ والمناسب للشيء يكون أسرع تأثيراً من المخالف الغريب في إخراج ذلك الشيء عما يقتضي طبعه ـ فالأفعال الحسنة والخيرات أقوى تأثيراً في سعادة النفس وكمالها وتذكرها وقربها إليه تعالى من الأفعال القبيحة والشرور في شقاوتها ونقصها ونسيانها وبعدها عنه تعالى .

* * *

وثانيهما إن رحمته تعالى فائقة على غضبه ، سابقة عليه ،كما قال : « **سبقت رحمتي غضبي** ».[1] حتى أن عين الغضب وماهيته إنما وجدت منه تعالى برحمته التي وسعت كل شيء . كيف والوجود الفائض منه على كل شيء هو عين الرحمة عليه ، فوجود الغضب إنما هو من رحمة الله على عين الغضب فسبقت نسبة الرحمة إليه تعالى على نسبة الغضب ، وذلك لأن الرحمة ذاتية للحق وعين الغضب ناشية من عدم قابلية بعض الأشياء للكمال المطلق والرحمة التامة ، وإليه الإشارة في قوله

(١) البخاري: كتاب التوحيد ، ٩/١٦٥.

سبحانه : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٤/٧٩] أي من سوء استعدادك وإن كان الكل من عندالله إذ لااستقلال لغيره في الايجاد .

وفي الحديث النبوي ﷺ : إن الخير كلّه بيديك والشر ليس إليك .

ومن أمعن النظر في لوازم الغضب ـ من الأمراض والآلام والفقر والجهل والموت وغير ذلك ـ يجدها كلها أموراً عدميّة ، فالرحمة ذاتيّة للحق ، والغضب عارضة ناشية من أسباب عرضية .

فإذا كان كذلك كان باعث الرحمة أسهل وجوداً وأقلّ أسباباً وأيسر تحققاً ، إذ يكفيه امكان القبول لها . وباعث الغضب بخلافه . إذلايكفي مجرد إمكان المحل، بل لايتحصّل إلا من وجود المنافي للرحمة ، المانع إياها ، فقابل الرحمة وداعيها لايحتاج إلى تعمّل كثير ، غير صفاء الذات ، وخلوص الفطرة ، وصقالة وجه القلب عن الكدورات ، بخلاف داعية الغضب ، فإنها لوجود المعاصي والقبائح الغريبة من الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها ، ولهذه الدقيقة عبّر عن باعث الرحمة « بالكسب » ، وعن باعث الغضب « بالاكتساب » لما في مفهومه من التعمّل الزائد على مافي الطبع في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[٢/٢٨٦].

* * *

فإن قلت: ماالوجه لخصوصية ذكر العشرة في التضعيف لاغيرها من الأعداد؟

قلنا : وجه ذلك كون الإنسان معوقاً في الدنيا عن فعله الخاص به ـ الذي هو ذكر الله ومعرفة ملائكته ورسله والدار الآخرة ـ لانغمار نفسه في الحسيات واشتغاله بالجسمانيات، وهذا بخلاف فعل المعاصي والشهوات ، فإنها ممايلائم البدن وقواه، فلايزاحمنا بل يعين عليها القوى البدنية . ولما كان المبدأ الإدراكي للأفاعيل العقلية والطاعات قوة واحدة ـ هي الناطقة ـ والمبدأ الإدراكي للأفاعيل الحسيّة والمعاصي قوى عشرة ـ أي الحواس الخمس الظاهرة ، والخمس الباطنة ـ فكل حسنة تصدر عن القوة العاقلة لابد فيها ـ لكونها على خلاف طبائع القوى ـ من مجاهدة وقعت من العاقلة مع كل واحدة من تلك العشرة ، وكل مجاهدة لها أجر

واحد ، فكل حسنة تستلزم عشر حسنات مستدعية لعشرة أمثال أجر إحديها ، وإليه الإشارة في قوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٨/٦٥] .

قوله عزوجل :

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ

الصدّيق : الكثير الصدق المبالغ فيه . وهو اسم مدح وتعظيم .

قال الزمخشري : « أي : هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق ، واستشهدوا في سبيل الله - لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ - أي مثل أجر الصدّيقين والشهداء ومثل نورهم » .

ثم استشكل بعض المفسرين في هذه المماثلة بينهم في الأجر والجزاء مع تفاوت قدرهم . فأجاب عنه بعضهم باعطاء الله تعالى أجر المؤمنين مضاعفاً بفضله ورحمته ، حتى يساوي أجرهم مع المضاعفة أجر أولئك .

وفيه نظر بعد ، لأن باب الرحمة والتضعيف كما انفتحت لهؤلاء ، انفتحت لأولئك ، لأن الله تعالى واحد لاتغيّر فيه فيّاض على الجميع ، ولو كان المراد إن أجر هؤلاء مع التضعيف مثل أجرهم - لامعه - يفوت مدح المؤمنين - والمقام مما يقتضيه - .

والأولى أن يراد من الايمان بالله والرسول مرتبة كاملة من المعرفة التي لايتحقق إلا في العلماء ، أو يراد منه الايمان الحقيقي الباطني الكشفي ، وهو الذي يكون للاولياء والعرفاء خاصة ، فإنهم هم الصدّيقون والشهداء لغاية تصديقهم الحاصل بالكشف ، وفنائهم عن ذاتهم الحاصل بسبب المجاهدة الباطنية مع النفس وقواها الأمّارة .

قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صدّيق شهيد ـ وقرء هذه الآية .

لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ : أي لهم ثواب طاعتهم ونور ايمانهم وهو النور الذي يهتدون به إلى طريق الجنة ، وهذا قول عبدالله بن مسعود ورواه البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ .[1]

وروى العياشي بالأسناد عن منهال بن قصاب ، قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : ادع الله أن يرزقني الشهادة .

فقال عليه السلام : المؤمن شهيد ـ وقرء هذه الآية ـ

وعن حارث بن المغيرة ، قال : كنّا عند أبي جعفر عليه السلام فقال : العارف منكم هذا الأمر ، المنتظر له ، المحتسب فيه الخير كمن جاهد والله مع قائم آل محمّد بسيفه .

ثم قال بل : والله كمَن جاهَد مع رسول الله ﷺ بسيفه .

ثم قال الثالثة : بلى والله كمن استشهد مع رسول الله ﷺ في فسطاطه وفيكم آية من كتاب الله ـ وقرء هذه الآية ثم قال : ـ صرتم والله صادقين شهداء عند ربّكم [1]

وقيل : إن «الشهداء» منفصل عمّا قبله مستأنف ، والمراد بالشهداء : الأنبياء الذين يشهدون للأمم و عليهم ـ وهو قول ابن عباس ومسروق و مقاتل بن حيان ، واختاره الفراء والزجاج .

وقيل : هم الذين استشهدوا في سبيل الله ـ عن مقاتل بن سليمان وابن جرير .

* * *

(١) مجمع البيان: في تفسير الآية.

مكاشفة

اعلم - أيها السالك - إن لفظ « الايمان بالله و الرسول » يطلق بالاشتراك والمجاز العرفي بين مراتب متفاوتة في المعرفة :

إحديها : ماتلقفه العامي تقليداً أوتسليماً من غير بصيرة كشفية ولامعرفة كسبية سواء كانت برهانية أوجدلية - وهو الايمان باللسان ، وفائدته : العصمة لصاحبه في الدنيا عن السيف والسنان .

و ثانيتها : مايستفاد من صناعة الجدل و طريق المتكلمين ، وفائدتها : حراسة العقيدة عن الجاهدين والمفسدين وقطّاع طريق الحق للسالكين ، و ليس فيه انشراح وانفتاح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة خالداً - إن كان مع شرائطه -

والثالثة: مايستفاد من البرهان اليقيني - كما في طريقة الحكماء ، وفائدتها: حصول المعرفة الحقيقية للمبدء القيّوم وصفاته وأفعاله .

و الرابعة : ما يستفاد من الرياضات و المجاهدات و تـرك التعلقات والزهد الحقيقي عن الدنيا وطيباتها ، وفائدتها : الوصول إلى جناب الحق ومشاهدة صفاته وأسمائه وأفعاله من حيث هي أفعاله.

فالايمان ينقسم إلى قشر ، وقشر القشر ، ولُب ، ولُب اللُب ، كالجوز مثلا فإن له قشرين ولبيّن :

فالمرتبة الأولى أن يقول : «لاإله إلاالله» وربما كان مع الغفلة أو مع الانكار القلبي كمافي المنافقين.

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ ضميراً ، كمايصدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد بوجه له مناسبة إلى ماهو الحقيقة بخلاف الأول فإنه تقليد محض.

و الثالثة : أن يشاهد ذلك بالنظر إلى طبيعة العالم و امكانها و افتقارها إلى

مايرجّح وجودها على عدمها ، ثم بمايلزم الوجوب الذاتي من الرحمة والجود ، وهداية الحق بإرسال الرسل و إنزال الكتب ، و الجزاء لهم يوم المعاد و الثواب للمحسن والعقاب للمسيء اوالعفو عنه ، إلاأن يكون فيمايناقيه من الكفر و الإصرار والجهل والاستكبار .

الرابعة : أن يشاهد ذلك مشاهدة الموجود الحقيقي وصفاته وآثاره، ولايرى للأفعال والآثار وجوداً استقلالياً ، فلاينظر إلى شيء إلاويرى الحق فيه مع تفاوت المرائي صفاء وكدورة ، وتفاوت ظهور الحق فيهاجلاء وخفاء.

و هذا عبد قد استولت عليه الأنوار الأحدية ، و ظهرت له سواطع العظمة الإلهية ، فجعله هباءمنثوراً ويندك عنده جبل إنيته ، فيخر له خروراً ، وفي هذاالمقام يستهلك في نظره الأغيار ، ويحترق بنوره الحجب والأستار ، فينادى الحق : لمن الملك اليوم ؟ و يجيب بنفسه لنفسه : لله الواحد القهار . و المؤمن بهذه المرتبة يقال له :« الولي » و« الصدّيق » و« الشهيد »

أما كونه ولياً ، فلأنه لايحب الله أحداً غيره وهولايحب غيرالله ، أماالأول: فلأن غيره لايعرف الله ، و المحبة تتبع المعرفة بل عينها ـ لأنها إدراك الملائم من حيث هوملائم ، والملائم لكل أحد لوسلم مذاقه عن الأمراض النفسانية ولم يخدر طبعه بالمعاصي الجسمانية ، هوالمعبود الحق الذي بهوجود كل شيء وكماله ـ وأماالثاني : فلأن غيرالله لاوجود له عندالولي ، والمحبة تتبع الوجود للشيء عند المحب .

وأما كونه صديقاً : فلكون كمال رتبة الصديق يكون بكمال رتبة المعرفة ، وأكمل مراتب المعرفة هو المشاهدة ، فمن شاهدالوجودالحقيقي ومرتبته في الكمال وشمول الإفاضةوعموم الرحمة منه على كل شيء بحيث لامشارك له ـ لافي الوجود ولافي الايجاد ـ فهوالصديق الأعظم لاغيره ممّن لايعرف الحق وفيضه إلابالدليل أو التقليد من غير بصيرة و كشف.

وأما كونه شهيدا : فلشهادة نفسه في طريق الحق وعدم التفاته إلى هذه الحيوة

الدنيا ، إذ الشهادة عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله ، و خرج حب جميع الملاذ و الشهوات عن القلب ، لأن من يهجم على صف القتال فهو يوطن نفسه على الموت حباً لله ، و طلباً لرضاه ، وبائعاً دنياه بآخرته ، راضياً بالبيع الذي بايعه الله ، إذ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [٩/١١١] و البائع راغب عن المبيع لامحالة ، ومثل هذه الحالة تحصل للقلب في بعض الأحوال في غير العرفاء ، ولكن لايتّفق زهوق الروح فيها ، فالوقوع في صف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحال ، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة و الغنيمة و الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله ـ وإن قتل في المعركة ـ فهو ليس بشهيد ، لبُعده عن مثل هذه الرتبة ، كما دلت عليه الأخبار .

فقد علم إن رتبة الشهداء إنما يحصل لأجل إنهم جردوا أنفسهم عن التعلق بالحيوة الجسماني ابتغاء لوجه الله ونصرة لأوليائه في نيّة اظهار شريعته وخرجوا عن الدنيا عند تكلف هذه الحالة ، ففازوا بالنعيم الأبدي .

وأما العرفاء فقد خرجوا عن التعلقات بماسوى الله تعالى ، وقصّروا النظر على وجه الله ، من غير التفات إلى ذواتهم فضلاً عن غيرها وحصل لهم الموت الإرادي عن هذه النشأة الدنياوية ، و هذه الحالة هجّيراهم من غير تمحّل و كلفة ، فهم الشهداء بالحقيقة قبل حصول الموت الطبيعي أو القتل لهم ، لأنهم قبل انقضاء هذه الحيوة الدنياوية و انهدام بناء هـذه الجثة الطبيعية ـ أحياء عند ربهم حيوة طيبة عقليّة ، يرزقون بالأرزاق المعنوية والأغذية العلميّة فرحين بما آتيهم الله من فضله. فحينئذ يستقيم معنى الآية من غير تمحّل .

* * *

قوله عزوجل :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

الكفر : هوعدم الايمان عمّا من شأنه أن يكون مؤمناً ، والايمان - كما علمت - هو المعرفة بالله و كتبه ورسله واليوم الآخر ، فالكفر هو الجهل بهذه المعارف، سواء كان مع الجحود والاستكبار و تكذيب الرسول وما أتى به ، أم لا و الأول يستلزم الخلود في النار قطعاً ، والثاني يحتمل النجاة و لو بعد المكث طويلا أو قصيراً ، ويدل على خلود الكفّار المكذبين في النار التعبير عنهم و الحكم عليهم بأصحاب الجحيم .

مكاشفة

كما إن مجامع سعادات الإنسان ترجع إلى تحلية قوته العلميّة بالعلوم الحقيقية وحقائق الايمان بالله و اليوم الاخر ، وتخلية قوته العملية من ذمائم الأخلاق ورذائل الملكات ، كذلك جوامع الشقاوات ترجع إلى انتقاش النفس بنقائض المعارف الحقة واتصافها بنقائص الصفات الذميمة .

وإنما صار الجهل الراسخ - المعبّر عنه بالكفر - والخلق الكريه - المؤدي إلى تكذيب الرسول المؤيد بالمعجزات - موجباً للخلود في النار لأن الجنسية علة للضم ، و المرء يحشر مع محبوبه ، و الجحيم إنما هي من حقيقة هذه الدار لكن ظهورها في هذه الدنيا بصورة الشهوات و اللذات ، و في الآخرة بصورة النيران والجحيم والزقوم ، فإذا رسخت محبة الدنيا في النفس ونسيت عن ذكر الله ، صارت في الآخرة محجوبة عن لقاء الله ولقاء أوليائه الصالحين ، وبقيت في كرب السعير

و عذاب الجحيم ، لرسوخ محبتها إياها في هذه النشأة و ارتكان [ارتكاز ـ ن] تعلقها بها .

وإنما لم يتألم النفس بعذاب الشهوات ، و لم يتأذ بلسع حيّات ملاذ الدنيا وعقاربها قبل الموت مع كونها متصلة محيطة بها غير مفارقة عنها ـ لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [٩/٤٩] لخدر الطبيعة و سكرها الحاصل بسبب قلة المعرفة ، وكثرة الاشتغال باكتساب أسباب الدنيا وجمع حطامها .

وربمايوجد من الناس من يجد الالم عين الراحة والراحة عين الالم،فيأكل الحميم والزقوم في هذه الحيرة الفانية مشتهياً لذيذاً عند إدراكه ، ويعوق عن إدراك العقائد الحقة التي هي العسل المصفى . واللبن الذي لم يتغير طعمه، لكونه محجوباً عن إدراك كل من القبيلين بصورته الظاهرة ، فالشهوات لذيذة حلوة عنده،والموعظة الحسنة والكلمات الحقة كريهة مُرة لديه .

وهذا لأجل مرضه الواقع بسوء العادات ، كمايلتذ بعض الناس بأكل الطين، و كما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ، و يستحلى الأشياء المرة ، كمن به مرض «بوليموس» حيث يأوف حسه لغلبة الخلط السوداوي ، ويخدر ذائقته عن إدراك الطعوم على وجهها ، فيجد المُرحلواً والحلومُراً ، كماقيل شعراً :

فمن يك ذافم مُرٍّ مريض ... يجد مُراً به الماء الزلالا

وإلافالقلب السليم والعقل الصحيح لايلتذ إلا بذكر الله و معرفته ولقائه ، لأن ذلك كماله وغذاؤه وقوته ، لاالأمور المحسوسة الدنياوية من المال والبنين وغيرهما من الأمور التي خلقت لأجل الانتفاع بها في طلب الآخرة و السلوك إلى الله تعالى ، لاللالتذاذ و التمشق ، ولما كان الكمال الحقيقي والخير المحض هو معرفة الحق الأول وملكوته التي ستقلب في الآخرة مشاهدة له ، وهوإنما يتأتي بالقلب السليم من مرض العادات السيئة من مؤانسة المحسوسات ، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَابَنُونَ إِلَامَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٢٦/٨٩].

* * *

قوله عزوجل : ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

زهدالله سبحانه الناس عن الركون إلى الحيوة الدنيا ورهّبهم عن التورط في مشتهياتها بأبلغ وجه و آكده حيث بيّن ان محقرات مشتهياتها و مختصرات لذاتهاليست فيالواقع وعند أولياءالله الذين نظرهم على حقائق الأمور و بواطنها إلاأموراً وهمية باطلة زائلة ، وهي اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر ، لاانها كذلك من باب التجوز والتشبيه لعلاقةالاشتراك بينهما فيعدم البقاء ـ كما وقعفي بعض التفاسير ـ فإن ذلك بحسب النظر الجليل و إدراك أهـل الحجاب . ولا إنها كذلك بحسب المبالغة والتخييل كماهو عادة الشعراء وأهل القصص ـ أعوذ بالله أنأكون منالجاهلين ـ بلهي بحسب التحقيق ليست إلاهذه المذكورات وليست إلامتاع الغرور ، كما مثلالله تعالى : ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [٢٤ /٣٩] وكما انأمورالدنيا ليست إلاأوهاممحضةوخيالات صرفة فأمورالآخرة بعكس ذلك ، إذليست إلاأموراً عظيمة ثابتة إلهيّة . لأنهابواطن الأشياء وحقائقها التي لاتبيد ولاتنقص .

وقيل : « اللعب » مارغب في الدنيا ، و«اللهو» ماألهى عن الآخرة و«الزينة» مايتزينون بها فيالدنيا ويتحلون في أعين أهلها ثميتلاشى .

و منشأ التفاخر بين الناس هـو القوة الغضبيـّة والهيئة السبعيـّة التي لاتزال توجب التفوق علىالأقران والترفّع على الأشباه ، ومنشأ التكاثرهوالقوة الشهويـّة والصفة البهيميـّة التي لاتزال تطلب تزايدالمشتهيات .

ثمإنهتعالى مثـّل حال الدنيا وسرعة انقضائها وفنائها مع قلـّة جدويها بنبات أنبته المطر فاستوى و استكمل و أعجب الكفـّار نباته ـ دون غيرهـم ـ لأنهم هم المغترون بالأمور الباطلة الواهية الباطلة ، بسبب مـا يخيل ويروق لهم من ظواهر زينتها بما ينكرون الآخرة و لايعرفونها ، فهم بها أعلق ، و هي لها أروق وألمـع ، لالأهلالله والمؤمنين حقاً .

وليسالمراد منه المبالغة في وصف النبات وبيان حسنه بأنهيعجب الكفـّار مـع جحودهم لنعمةالله فيمارزقهم ـ كماقيل ـ بل إعجاب الكافر بيان للواقع في الحكاية التي مثّل بها الحيوة الدنيا ويجوز أن يكون إشارة إلى القصة المذكورة فيالقرآن لصاحب الجنـّةوالجنتين .

و قيل : الكفار : الزراع ثم بعث عليه الآفة فهاج ـ أي يبس و اصفرّ وصار حطاماً ، اي : ماينحطم و ينكسر بعد يبسه عقوبة لهم على جحودهم و كفرانهم ـ وفيالآخرةعذابشديد ـ أي : لمنرغب فيالدنيا فيشغلهعن ذلكالآخرة ـ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ ـ أي : لمن تزود منها للآخرة .

وَمَاٱلحَيٰوةُ ٱلدُنيَا ـ لمن ركن إليها وتطمئن بها ـ إلَامَتاعُ ٱلغُرُور ـ كلامع السراب للظمآن حيث يتخيـّل له لغاية ظمائه إن لـه حقيقة . كذلـك حكم الدنيا للناقصين وضعفاء العقل يتخيـّل لهم مافيها لذة وكمالا فيغترون بها .

* * *

اعلم [١] إن ما يوجب عقوبة أهـل الجحيم في الآخرة و تعذيبهم بالعذاب

---

(١) من هنا إلى قول المصنّف : «فإن قلت: كيف حكم الله» ـ ص ٢٣٩ س ٥ ـ. جاء في نسخة بين قوله : «بقلب سليم» و«اعلموا إنما الحيوة..» ص ٢٣٥.

الأليم هو بعينه موجود معهم في الدنيا يعذب باطنهم بنيرانه ، وذلك هو الاعتقادات الفاسدة و الأخلاق الردية التي كلها نيرانات ملتهبة و حرقات مشتعلة يوذى صاحبها ويوجب العداوة والبغضاء لهمع أبناء الدنيا الذين سيصيرون من أصحاب الجحيم، والخصومة معهم في مقاصدهم ومآربهم الخسيسة الدنياوية ، وهذه الجهالات وذمائم الملكات كمايوجب التعذب بها لصاحبها في الأولى ، فهي بعينها التي توجب التعذب بها لهم في الأخرى على وجه أشد و أبقى ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٢٧/٢٠] فإن أمور البدن و أشغال الدنيا هيهنا يلهي ويغفل الروح عن دركها كماهي ، بخلاف النشاة الثانية ، فإن البدن الأخروى لايلهي الروح عن إدراك الآلام إن كانت شقيّة ـ كما لايلهيها عن إدراك اللذات الأخروية إن كانت سعيدة .

فأهل النار إذا دخلوها تسلط النار على ظواهرهم وبواطنهم لأن ظواهرهم عين بواطنهم ـ كما حققناه في بعض كتبنا عند إثباتنا المعاد الجسماني بالاستبصار العقلي أيضاً ، كما هو ثابت عند الجمهور من الملّيين والحكماء الإسلاميين بالنصّ النقلي ـ وليس لحقيقة العذاب تسلط هيهنا على ظواهر الأشقياء ، لكن ظواهرهم مباينة لبواطنهم ـ إلا نحواً ضعيفاً لم يتنبهوا عليه لخدر الطبيعة وسكر البدن وجهل المادة.

فإذا تسلط عذاب النار على ظاهرهم و باطنهم و أحاط بهم سرادقهم ملكهم الجزع والاضطراب ، فيكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، متخاصمين متقاولين، كمانطق به كلام الله في مواضع متعددة مثل قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [٣٨/٧] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [٦٤/٣٨] .

و كما ان هيآت أمراض الجهل وغيره من الصفات إذا كانت راسخة مقرونة مع العناد والاستكبار لايمكن أن يزول أصلا ، فكذلك الأشقياء المردودون من الكفَرة والمتجبرين لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون ، فكلما طلبوا أن يخفف عنهم العذاب وأن يقضى عليهم واستغاثوا أن يرجعوا إلى الدنيا فلم يجابوا إلى طلباتهم ، كما حكى الله تعالى عن اقتراحهم و استغاثتهم بقوله تعالى : ﴿ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ و عن عدم اجابتهم بل منعهم عن السؤال وطردهم عن الاقتراح بمثل قوله

تعالى : ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [٤٣/٧٧] ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ﴾ [٢٣ر١٠٨]

فلمايئسوا وطئوا انفسهم على العذاب والمكث على ممر السنين والأحقاب ، وتعللوا بالأعذار ، ومالوا إلى الاصطبار وقالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْصَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [١٤ر٢١] .

* * *

فإن قلت : كيف حكَمَالله على الحيوة الدنيا بأنها لهو ولعب ـ أي باطل موهوم لاحقيقة لهامع أنها ثابته في الواقع والثابت في الواقع لايكون باطلاًموهوماً؟

قلنا : يمكن الجواب من هذا بحسب جليل النظر إنه ليس المراد مماذكره سبحانه إن الحيوة الدنيا التي هي القوة على الحس و الحركة أمر موهوم ، إذلاشك في أنها أمر ثابت في بعض الأوقات ـ وإن لم يكن دائمياً ـ بل الغرض منه إن هذه الحيوة ليست حقيقية يمكن ثبوتها في حق الإنسان بما هو إنسان ـ أي ذوجوهر روحاني هو محل معرفةالله ـ لأن حيوته حيوةعلمية نطقية أخراوية ـ و الحيوة الحسية الدنياوية هي حيوة تتصف بهاالحيوانات بماهي حيوان ـ أي ذوجوهر حساس ـ وإذااتصف بهاالإنسان في بعض الأوقات فإنمايكون بماهوبه حيوان ، لابماهو به إنسان .

فاتصاف الإنسان بتلك الحيوة الحسية باعتبار أن له قلباً حقيقياً هو محل معرفةالله أمر وهمي ، إذلاوجود لها للإنسان إلامجازاً لعلاقةالارتباط بين حقيقة الإنسان ـ الذي هو روحه المشار إليها بـ« أنا » ـ والجسد الحيواني الواقع تحت جنس الحيوان عند أخذه لابشرط شيء أي بالاعتبار الذي به حيوان ـ لابماهو به بنية ومادة ـ وقدتبيّن الفرق بينهما في علم الميزان .

ويمكن أن يقال بحسب دقيق النظر : إن المراد من الحيوة الدنيا نفس الإدراك الحسي للأمور الدنياوية ـ تسمية للشيء باسم ماينبعث عنه ويتمّ به ـ فإن الحيوة الحيوانية إنمايتم بالحس والحركة . وغايةالحركة أيضا هوالحس في غير الإنسان. والإحساس بالشيء لايتم إلا بالتوهم والتخيل ، والموهوم أوالمتخيل بماهوموهوم أومتخيل لاوجود له في الخارج ـ بل في الذهن ـ وكل مالاوجود له في الخارج

فهو لهو ولعب أي باطل .

ولو تفطن منفطن لعلم أن كل من يلتذّ بأمر من الأمور الدنياوية أو يتألم به فإنما يتلذ ويتألّم بما هو حاضر في ذهنه - مع قطع النظر عن الخارج حتى لو جزم إنسان بوجود أمر ملائم له لكانت لذته بذلك الملائم متحققاً وإن عدم في الواقع. وذلك كمّن عشق واحداً واعتقده في غاية الحسن والجمال، إذ ربما كان التذاذه بوجوده وتشوقه بجماله ثابت مدة مديدة يظن أنه موجود في موضع كذا من داره - وهو قدمات منذ أول تلك المدة- فعلم إن وجوده الخارجي ليس موضوع هذه المحبوبية لفقده، فقس عليه حال جميع المحبوبات والمعاشيق الدنياوية في أنها أوهام محضة لا وجود لها في الخارج ، والحيوة الدنيا ليست إلا حالتك قبل الموت بالقياس إلى هذه المحسوسات .

ومما ينبغي لك أن تعلم إنه ليس حصول التعقلات الكلية، وإدراك المعارف الإلهية ، ونيل الحقائق الكونية على النحو الذي هي عليه للإنسان من جملة الحيوة الدنيا الحسية أصلا، بل إنما هي له لأجل ما به من النشأة الأخروية والحيوة الإدراكية العقلية

وقد علم مما ذكرناه إن هيهنا حكمين: أحدهما كون الأمور الدنياوية من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث في أنفسها وبحسب جواهرها وذواتها أموراً وهمية . وثانيهما : إن وجود هذه الأشياء للإنسان وهمي . وكلا الحكمين حق وصواب .

أما الثاني : فلما أشرنا إليه من أن وجود الذهب في نفسه ليس ملذاً للإنسان بل الاعتقاد بوجوده له مما يلتذّ به .

وأما الأول : فلما حققّناه في موضعه موافقاً لما عليه المحقّقون من العلماء فضلاً عن الأولياء والعرفاء من أن المركبات المحسوسة الجزئية لا وجود لها منفرداً عن الحقائق البسيطة المعقولة التي يتقوم بها تلك الجزئيات، وقد صرحوا بأن مناط وجود الجزئيات المادية محسوسيتها ومناط المحسوسية وجود الشيء للجوهر الحاسّ وقد علمت إن الإحساس لا يتمّ إلا بالتوهّم، أي الوجود للقوة الوهمية التي

هي من جنود الشيطان .

* * *

واعلم إن لذّات الحيوة الدنيا إنما هي لعب ولهو لأنها من فعل الشيطان ، وإلا فليست أمورالدنيا بماهي هي ـ أي بالحيثية التي بها ثابتة وحق ـ لذيذة ، لأن لكل شيء حقيّة، وحقية أمورالدنيا، تجددها وزوالها وانصرامها وفنائها، لأنها أكوان ناقصة واقعة في جهة السلوك إلى الله تعالى والارتقاء إليه . والسالكُ بما هوسالكٌ ليس له في حدود سلوكه كمال ، فإن الحركة هي نفس الخروج من القوة إلى الفعل ، فهي مابين صرافة القوة والفاقة ومحوضة الفعل ، والوجود واللذة الحقة من توابع الوجود الحق الذي يتوجه إليه الموجودات ، والتوجه إلى الحق إنما هوبقطع الحجب الظلمانية الساترة للحق لأجل الوجود الموهوم ينسب إليها بحسب القوة الوهمية ، فعالَم الكون كله خيال في خيال كما يقال :

كل مافي الكون وهم أوخيال   أوعكوس في المرايا أوظلال

فحقيّة العكس أوالخيال أوالظل إذا أُخذ من حيث كونه عكساً أوخيالا أوظلاً وإما إذا أُخذ العكس أصلا والخيال عيناً و الظل شخصاً فيكون كل منها باطلاً ، كما في قول لبيد :

ألا كل شيء ماخلا الله باطل   وكل نعيم لامحالة زائل

لأن ماخلا الحق تعالى معلول ممكن ، والمعلول إذا أُخذ منسوباً إلى الحق كان حقاً بحقيّة الحق وواجباً بوجوبه ، وإذا أُخذ غيرمنسوب إليه ـ بل منفرداً عنه ـ كان باطلاً ، فالعالَم بماهوعالَم وسوى الحق باطل ، لكنه موهوم الوجود ، كما إن الظل موهوم الوجود ، والوهم من فعل الشيطان ، والواهمة من جنوده ، وكذا كل متوهِم من حيث هومتوهِم ـ أي مذعن لأحكام الوهم ـ من جنود الشيطان .

كما ان العقل من جنود الحق ، وكذا كل عاقل ـ أى مذعن لأحكام العقل ـ وقد علمت إن التطارد بينهما في معركة القلب الإنساني قائم كما مرّ ، والمعقولات جَنّة العقل وجنوده، يلتذّ بها ويتبوّء فيها حيث يشاء، كما ان الموهومات جَنّة الوهم

وجنوده يستلذ بها وينسرح فيها حيث يشاء .

* * *

قال بعض العلماء : إن ابليس لماتمت حيلته على آدم ، ووصل بالأذية إليه ، ونال بغيته وبلغ أمنيته ، وسأل ربه الإنظار إلى يوم يبعثون فأجيب إلى يوم الوقت المعلوم ، اتخذ لنفسه جنّة غرس فيها أشجاراً وأجرى فيها أنهاراً ليشاكل بها الجنّة التي أسكنها آدم ، وقاس عليها وهندس على مثالها هندسة فانية مضمحلة لابقاء لها وجعل مسكن أهله وولده وذريته وهي كمثل السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وذلك إنه من الجن ، وقد قيل : إن للجن التخيّل والتمثل لما لاحقيقة له ،كذلك فعل إبليس وجنوده إنما هوتمويه وتزويق ومخاريق لاحقيقة لها ولاحق عندها ليصدّ بها الناس عن الطريق القويم والصراط المستقيم ، وبذلك وعد ذريّة آدم إذ قال : ﴿لآتينَّهُم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِم وَلَاتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٧/٧] .

والجنة التي غرسها إبليس لذريّته ليصدوا بها ذريّة آدم عن الجنة التي كان فيها هي الأمور الدنياوية والشهوات الدنيّة الوهمية وفعل الخطايا والمآثم، وارتكاب المحارم ، وحب القنية الفانية ، والخروج عن طاعة الله ومتابعة الذين أخلدوا إلى الأرض ورغبوا في الدنيا وعاجلها ، ودعوا الآخرة وآجلها ، التي هي دار القرار ومحل الأخيار ومقام الأبرار وجميع هذه الأمور لعب ولهو كما وصفها الله تعالى به ، فالعاقل هو الذي وفّق للخروج من جنّة إبليس فيرجع إلى جنّة أبيه وذريّته الطاهرين ويتخلص من أدناس ذرية إبليس أجمعين وأتباعهم ، وهم المعتكفون على الأمور الدنياوية المكبّون على اللذات والشهوات الدنية التي ستنقلب بعينها في الدار الآخرة إلى ألوان العقوبات وأنواع الآلام والمحن الشديدة كما أشار سبحانه بقوله في هذه الآية: ﴿وَفِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فهم في العذاب مشتركون وبذلك وعد ربهم إذ قال لابليس : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُم أَجْمَعِينَ ﴾ [٨٥/٣٨] .

قوله عزوجل :

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

الإعداد : التهيئة . أي : وضع الشيء لما يوجد في المستقبل على مايقتضيه أو يناسبه . و « الفضل » و « الإفضال » و« التفضّل » واحد وهو : النفع . وهوإما المعنى الحدثي المصدري أو الأمر الحاصل به ، والثاني هو المراد هيهنا .

ومعنى الآية : إنه تعالى بعدمابيّن إن الحيوة أمر لاحقيقة لها سوى كونها خيالا موهوماً ـ بالوجه الذي مرّ بيانه ـ ومثّلها بمثال ينبه العاقل على دثورها وزوالها ، وأشارإلى أن الحيوة الآخرة أمرمحقق ثابت في نفس الأمر، لكنها إما عذاب شديد، وإما غفران ورضوان ، أحدهما للسعداء والآخر للاشقياء ، ثم كرّر الإشارة إلى أنها لمن لم يعمل لآخرته هي متاع الغرور، فرغّب سبحانه في المسابقة إلى طلب أحد الأمرين الأخرويين ـ المشارإليهما في الآية السابقة ـ وهو الذي يترتب على استعمال الحيوة الدنيا في طلب التوصّل إلى لقاء الله واليوم الآخرقائلا: سَابِقُوا ـ أي سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم ونظرائهم في المضمار، واردعوا العوارض القاطعة عن السلوك إلى البغيـة بالأعمال الصالحة العلمية والعملية مقبليـن إلى مايوجب الفوز بمغفرة من ربكم .

قال الكلبي : إلى التوبة . وقيل: إلى الصف الأول للصلوة. وقيل: إلى النبي . وفي معناه : إلى كل هاد ودليل من الأئمة وبعدهم من المشايخ والمعلمين ، وإلى ـ جنّة عرضها كعرض السماء والأرض ، أي : وسابقوا إلى استحقاق ثواب جنّة

هذه سعتها وعظمتها . وفي ارتكاب حذف المضاف أو مافي حكمه في الموضعين نظر كشفي لايسع المقام .

قال السدي : كعرض سبع السموات وسبع الأرضين .

وفي ذكر العرض دون الطول وجوه :

أحدها : إن كل ماله امتدادان مختلفان فإن عرضه يكون أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط وأمد .

وثانيها : إن الطول قد يكون بلاعرض ، بخلاف العكس .

وثالثها : الإشعار بأن طولها لايمكن أن يقاس إلى شيء من هذا العالم .

ورابعها : إن المراد منه مطلق البسطة ، كقوله تعالى : ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [٥١/٤١] وقوله ﷺ في غزوة أحد : « ياعثمان ذهبت عريضاً » .

قال الحسن : إن الله يفني الجنّة ويعيدها على ماوصفه ، فلذلك صحّ وصفها بأن عرضها كعرض السماء والأرض .

وقال بعضهم : إن الله قال: «عرضها كعرض السماء والأرض» والجنة المخلوقة في فوق السماء السابعة فلاتنافي .

وقوله : أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ـ أي : ادّخرت للمؤمنين بالله ورسله ، وفيه مالايخفى من التمحّل ، وذلك ـ أي الفوز بالمغفرة والجنة ـ من فضل الله ـ لكونه موجوداً كاملا تاماً فوق التمام ، فيفضل منه الوجود وكمال الوجود على غيره ممن يشاء ـ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ـ لأن العالم ومافيه من فضل وجوده وفيضه ، فلااستبعاد في أن يجزى الدائم الباقي على العمل القليل الفاني ، ولو اقتصر على قدر مايستحق بالأعمال كان عدلاً ، لكنه تفضّل بالزيادة . كما انه لو أمسك عن إفاضة الوجود على العالَم كان تاماً في واجبيّته ومملكته وسلطانه ، لكنه تفضّل بوجود العالَم نافلة من غير ضرورة زائدة على ذاته ، وداعية مستولية عليه ، وإن أحداً لاينال خيراً في الدنيا والآخرة إلا بفضل الله ، فإنه لو لم يدعنا إلى الطاعة ، ولم يبيّن لنا الطريق ، ولم يوفقنا

للعمل الصالح لما اهتدينا إليه ، فذلك كله من فضل الله .

وقال أبو القاسم البلخي : إن الله سبحانه لو اقتصر لعباده في طاعتهم على مجرد إحسانه السابقة إليهم لكان عدلا ، فلهذا جعل سبحانه الثواب والجنة فضلا .

قيل : وفي هذه الآية أعظم رجاء لأهل الايمان ، لأنه ذكر إن الجنة معدّة للمؤمنين ، ولم يذكر مع الايمان شيئاً آخر ، **وأنت علمت مما سبق إن الايمان** بالله والرسول وماجاء هو به أجلّ مراتب الكمالية للإنسان ، وبه يستحق للسعادة العظمى ، والغرض من الأعمال الصالحة هو خلاص النفس عن العلائق الدنيّة ، المكدرة لمرآة القلب ، المانعة عن إدراك الحقائق والمعارف الايمانية ، فالعقيدة الحقة الإلهية لايتيسّر إلا بقطع الأغراض الدنياوية بالأعمال الصالحة المقربة للقدس، ولايتيسر الإخلاص في العمل إلا بالعقيدة الايمانية ، فالايمان هو المبدء والغاية في كل خير وكمال على وجه لايدور على نفسه دوراً مستحيلا، ويحتاج بيانه إلى كلام مشبع لايناسب المقام .

مكاشفة

في أن الجنة والنار حق

اعلم إن قوله تعالى : ﴿ اُعِدَّتْ لِلذِينَ آمَنُوا ﴾ وكذا قوله : ﴿ اُعِدَّتْ لِلمُتقِينَ ﴾ دليل واضح على أن الجنة مخلوقة الآن ، موجودة للمؤمنين والمتقين ، لأنها نتيجة أعمالهم (وإن فيها جزاء لهم ونتائج لأعمالهم ـ ن) وأفعالهم .

ومن جملة الآراء السخيفة رأي من زعم إن الجنة والنار لم توجدا بعدُ ، ولاتوجدان إلا بعد بوار العالم وتهافت السموات الأرضين ، وأشير إلى فساد هذا الرأي في قوله : ﴿ اِنَّهُمْ يَرَونَهُ بَعِيداً وَنَرَيهُ قَرِيباً ﴾ [٧٠/٦] وفي قوله ﴿ اُولئِكَ

يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٤٤/٤١] .

ومن الآراء السخيفة أيضا اعتقاد أكثر الناس إن أجسام أهل الجنة أجساد لحمية كثيفة ، مركبة من أخلاط أربعة قابلة للاستحالات معرضة للآفات . وإذا تأمّل أحد فيما وصف الله تعالى من صفات أهل الجنة ظهر له فساد هذا الرأي ، وذلك قوله سبحانه : ﴿لَايَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [٤٨/١٥] و : ﴿ لَايَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوتَ ﴾ [٥٦/٤٤] وانهم ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٥/٢] و : ﴿لَاخَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦٢/٢] .

ومن علامات حقيّة الاعتقادات أن لايقع فيها تناقض وتخالف، وهرج ومرج، وأكثر آراء المجادلين والمتشبهين بالعلماء ـ كأكثر الكلاميين ـ يكون بحيث إذا أعرض صاحبه على عقله أنكره ضميرا ـ وإن أقرّ به لساناً ـ ويجده مناقضاً لسائر اعتقاداته واصوله ، فيقع عند ذلك في شك وحيرة وسوء ظن بربه ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٢٣/٤١] .

* * *

ولابد لكل أحد أن يعلم إن **الجنة والنار الجسمانيتين** غير معلومتي الكُنه إلا للمكاشفين ، الذين اكتحلت عيونهم بنورالله وغلب عليهم ظهورسلطان الآخرة، فصاروا بحيث يكون أبدانهم في الدنيا ساكنة ، وأرواحهم في الآخرة سائرة ، فهم من أهل الاطلاع على حقائق الأمور الأخروية ، ولابد للمحجوبين ومن لم يقف على أسرارهم ولم يصل بعدُ إلى مقامهم أن يعتقدوا ايماناً بالغيب إن الجَنة التي عرضها السموات والأرض موجودة في عالَم الغيب ، بحيث لايمكن مشاهدتها بهذه العين ، وليست أجسام الآخرة من هذه الأجسام حتى يقع بينهما تزاحم وتضائق ، بل التزاحم والتضائق من خواص هذه الأجساد التي يشاهد بهذه الحواس الداثرة المستحيلة ، وتلك الأجساد لانشاهد إلا بالبصيرة الباطنية .

ولابد أيضا أن يعلم كل من آمن باليوم الآخر إن للأعمال والأفعال الدنيوية

ـ باعتبار تأثيرها في عادات النفس وملكاتها ـ علاقة طبيعية مع أعيان الأمور الأخروية. فكما إن الأمر المسمّى « بالمعصية » في الدنيا يؤدي لصاحبها في الآخرة إلى الاحتراق بالنار، والتعذيب بالحميم والزقّوم ، والتصلية للجحيم ، فكذا المسمى « بالطاعة » يظهر في الآخرة بصورة الجنة والرضوان ، والتنعم بالفواكه والحور والغلمان ، والولدان، فهذه الأفعال المحمودة التي هي الطاعات إنما يراد لأجل اكتساب الأخلاق الحسنة ، وكذا الأفعال المذمومة إنما يترك لأجل أنها ستنجرُّ إلى الأخلاق السيئة .

فالغرض من الأوامر الشرعية ـ أفعالا كانت أو تروكاً ـ إنما هو تحسين العادات ،وتقويم الملكات، وتبديل السيئات منها إلى الحسنات بتوفيق من الله وتأييد منه ، كما قال سبحانه في حق المخلَصين من عباده : ﴿ أُولٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [٢٥/٧٠] .

وكما ان في الدنيا كل صفة تغلب على باطن الإنسان وتستولي على نفسه بحيث تصير ملكة لها يوجب صدور أفعال منه مناسبة لها بسهولة ويصعب عليه صدور أضدادها غاية الصعوبة ، وربما يبلغ ضرب من الأولى حد اللزوم ، وضرب من الثانية حد الامتناع . فهكذا حال الملكات والأخلاق في الآخرة ، إذ كل صفة بقيت في النفس ورسخت فيها وانتقلت معها إلى تلك الدار صارت كأنها لزمتها ولزمت لها الآثار والأفعال الناشية منها بصور تناسبها ، وليست الأفعال والآثار الدنياوية في لزومها لمصادرها التي هي الملكات بتلك المثابة ـ إذ الدنيا دار اكتساب ، وللعلل الاتفاقية فيها تداول وجوَلان، وللدواعي والصوارف الخارجية تسلط ودوَران ، فالشقيّ ربما يصير بالاكتساب سعيداً وبالعكس ـ بخلاف الدار الآخرة ـ فإن باب الاكتساب والتحصيل فيها مسدود ، ولكل نفس فيها حد محدود ،كما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾[٦/١٥٨] ولأن الدنيا دار تعارض الأضداد وتفاسد المتمانعات بخلاف الآخرة ، لكونها دار الجمع والاتفاق من غير تزاحم ولا تضاد، فالأسباب هناك لا يكون إلا عللا ذاتية كالفواعل الحقيقية والغايات الذاتية دون العرضية، فكل ما يصلح أثراً لصفة نفسانية لا يتخلّف

عنه هناك ـ كما يتخلف عنها هيهنا ـ فلاسلطنة هناك للعلل العرضية والأسباب الاتفاقية، بل الملك لله الواحد القهار كما في قوله : ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [٣٤ر٢٣] أي لا تأثير هناك للعلل الاتفاقية ، بل الذاتيه . وكذا في قوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [٢ر٢٥٥] وقوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [٧٤ر٤٨] أي العلل الاتفاقية دون المأذونين في الشفاعة كالرسول ﷺ لأجل حصول الاستعداد والمناسبة الحاصلة من دعوته لأمته التي كانت خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

* * *

وهذا القدر من المعرفة أقلّ ما يكفي المستبصر لأن يؤمن بجميع ما وعده الله ورسوله أو توعّدا عليه بلسان الشرع من الصور الأخروية المترتبة على الاعتقادات والاخلاق المستتبعة للذّات والآلام إن لم يكن من أهل المكاشفة الباطنية والمشاهدة الأخروية .

وأما معرفة التفاصيل في نتيجة كل صفة وعمل وعد فيه أو توعّد عليه الشرع الأنور بحكومة أخروية فيتوقف على كشف تام ومعرفة كاملة واتصال قوي بعالم الغيب ، وتجرد بالغ عن علائق هذا العالم ، فكل من له تحدث في العلوم يجب عليه أن يتأمل في الصفات النفسانية والأخلاق الباطنية ، وكيفية منشأيّتها للآثار والأفعال الظاهرة منها ، ليجعل ذلك ذريعة لأن يفهم كيفية استتباع الأخلاق المكتسبة في الدنيا من تكرر الأفاعيل للآثار المخصوصة في الآخرة ، تحقيقاً لقوله ﷺ : «الدنيا مزرعة الآخرة» .

فكما إن شدة الغضب والغيظ في رجل غضبان توجب ثوران دمه ، واحمرار وجهه ، وحرارة جسده، واحتراق مواده الرطبة ـ التي أرطب من الحطب اليابس ـ على أن الغضب صفة نفسانية موجودة في عالم الروح الإنساني وملكوته ، والحركة والحمرة والحرارة والاحتراق من صفات الأجسام، وقد صارت هذه الصفة الواحدة النفسانية مصورة بهذه الهيئات والعوارض الجسمانية في هذا العالَم ، فلاعجب من

أن يكـون رسوخُ هـذه الصفة المذمومة ممايلزمها في النشأة الآخرة نارَجهنم التي تطّلع على الأفئدة فتحرق صاحبها .

وكمايعرض أيضا له بسببها هبهنا أمورمستنكرة وأفعال مستكرهة إذالم يكن له صارف عقلي ـ من ضرَبان العروق واضطراب الأعضاء وقبح المنظر، وربمايؤدي بصاحبها إلى الضرب الشديد والقتل لغيره ـ بل لنفسه ـ وربمايموت غيظاً ، فكذا القياس فيمايعرض هناك على وجه أشد وأبقى .

وبهذه الموازنة بين النشأتين يشعرقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٦/٦٢] فإذا تأمّل أحد في استتباع هذه الصفة المذمومة الواحدة لتلك الآثارواللوازم الذميمة فيمكن له أن يقيس عليها باقي الصفات الموذيات ، والاعتقادات المهلكات ،و كيفيةانبعاث نتائجها ولوازمها منهايومَ الآخرة ـ من النيران وغيرها ،كمافي قوله تعالى : ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [٦/١٣٩] .

و كذا حال أضدادها من حسَنات الأخلاق وحقائق الاعتقادات، و كيفيةاستتباعها للنتائج والثمرات ـ من الجنان والرضوان ، والوجوه الحِسان ـ فعلى هذا يثبت القول بوجودالجنة والناربالحقيقة، ولايحتاج إلى تجوّز في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٣/١٣٣] وقوله : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [٩/٤٩] .

قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢)

«المصيبة في الأرض» نحو الجدب ، وقلة النبات ، وآفات الزروع ونقص الثمار، وتلف الحيوانات ، وموت الإنسان . « والمصيبة في الأنفس » نحو الأدواء والأمراض والأوجاع والثكل بالأولاد والموت وغيرها من الشرور والآفات الخارجية والداخلية ، وربما كان بعض أنواع الوجودات والخيرات لطائفة من الناس - هي بعينها - مصائب وآفات لجماعة أخرى منهم بالإستجرار .

إلّا في كِتَابٍ - يعني : إلا وهو مثبت مذكور في لوح محفوظ من الألواح العالية المحفوظة من التحريف والفساد والبطلان .

مِنْ قَبلِ أنْ نَبْرَأَهَا - يعنى : المصائب أو الأرض أو الأنفس .

إن ذٰلِكَ - أي : اثبات ذلك على كثرته وتفصيله هيّن على الله سهلٌ يسير ، وإن كان عسيراً على غيره .

مُكاشفة

اعلم إن حقائق الأشياء مسطورة أولاً في العالم المسمى باللوح المحفوظ ، بل في قلوب الملائكة المقربين المحفوظين بحفظ الله وتبقيته وحراسته إياهم عن الخلل والنقصان والنسيان ، وكما أن المهندس يسطر صورة أبنية الدار في نسخة ، بل في خياله أولا ، ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة المسطورة أولا في الخيال - سطراً لايشاهد بهذه العين - فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في العالم الأعلى العقلي ، ثم النفسي ، ثم الخيالي ، ثم أخرجه على وفق تلك النسخة إلى الوجود الحسي المدرك بإحدى الحواس .

فعلمه تعالى بالأشياء الكائنة على هذا الترتيب بالوجه العقلي ، بخلاف علمنا الانفعالي بها ، الذي يحصل منها على عكس هذا الترتيب ، فإن العالم الموجود الذي خرج إلى الوجود بصورته يتأدى منه صورة أخرى إلى الحواسّ، ثم إلى الخيال ثم إلى النفس ، ثم إلى العقل المنفعل المتحد بالعقل الفعال. **فترتيب الصعود العودي** على عكس ترتيب النزول البدوي ، فالحاصل في العقل الإنساني موافق للعالَم ، الموجود قبله على التعاكس في أنحاء الحصول .

وتوضيح ذلك : إن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغضّ بصرَه ، يرى صورة السماء والأرض في خياله كأنه ينظر إليهما ولو انعدمت السماء والأرض في أنفسهما كأنه يشاهدها أو ينظر إليها ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى العقل ، فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال ، فالعالم الموجود في ذهن الإنسان موافق للموجود في الكون، وهو مطابق للنسخة الموجودة في اللوح العقلي، وهو سابقٌ على وجوده في القدَر والصوَر المثالية، وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الخارجي الكوني ، ويتبع وجوده الخارجي وجوده الخيالي ، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي - أعني وجوده في القوة العاقلة الإنسانية المتحدة بالعقل الفعال - وكما أن تلك الصور ومحالّها نازلة من الله تعالى في سلسلة البدو فكذلك صاعدة إلى الله تعالى في سلسلة العود فالله تعالى منه البدو وإليه الرجعى .

ثم لمّا كانت بعض هذه الموجودات روحانية عقلية ، وبعضها مثالية ، وبعضها حسّية ، فكان الموجود الصادر من الحق عقلا، ثم نفساً ، ثم حسّاً ، فدار على نفسه فصار حسّانياً ، ثم نفسانياً ، ثم عقلانيا .

* * *

وإن اشتهيت زيادة الاطلاع على حكمة الله تعالى في خلق العالم وعجائب صنعه في الموجودات حيث أبرز مكنونات المكونات بقدرته وإرادته أولا في قضائه وقدَره ، ثم أظهر مستورات الحقائق وخفيات المخلوقات ثانياً بتوسط القلم

الأعلى واللوح الأعظم على منصّات الأكوان في عالم الزمان والمكان ، فاستمع لشرحه اليسير الذي يتيسّر سماعه للمحدق البصير:

فنقول : إن الباري تعالى لمّاشرع في الإفاضة والجود فأول ما أفاد وجودَه هو **العالم العقلي** المشتمل على صور روحانية هي جواهر مجردة عن الأجسام والمواد ، منزهة عن العوائق الخارجية والفساد ، مدركة لذواتها ولماعداها بذواتها ـ على مابيّن بالبرهان ، ونص عليه في الحديث والقرآن ، وصرح به في كتب أهل العرفان ـ وهي من عالم الأمر كما قال : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [٨٥/١٧] .

وروي عن النبي (ص) : «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي . فهي مكتوب عنده فوق العرش» . (١)

وهذا العالَم عالم الملائكة الموكلين بعالَم السموات والأرضين على وجه الإفاضة والتأثير ، وأعلى منهم **الكرّوبيون** ، وهم العاكفون في حظيرة القدس لاالتفات لهم إلى الأجسام ، بل لاالتفات لهم إلى غيرالله لاستغراقهم بشهود جمال الحضرة الربوبية وجلالها ، ولايستبعد أن يكون في عباد الله من يشغله جلال الحق عن الالتفات إلى غيره .

وقد وقع في الحديث عن رسول الله (ص): «إن لله أرضاً بيضاءاً مشحونة خلقاً لايعلمون إن الله يُعصى في الأرض، ولايعلمون إن الله خلق آدم وإبليس» . (٢) رواه ابن عباس .

وهذا الصنف من المفارقات التي ليست واقعة في سلسلة علل الأجسام

(١) البخاري: كتاب التوحيد: ١٦٥/٩ : «لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي».

(٢) جاء ما يقرب من هذا الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام، راجع بصائر الدرجات: ٤٩٠.

وليست فيها جهة نقص يكون بإزائها قصور في معلولاتها القريبة الجسمانية فعبر عن تلك الجهة بعدم علمها بعصيان العصاة لأن علومها فعلية - فتدبر.

* * *

وبالجملة الجميع أنوار محضة عقليـة ، إلا انها بعضهم المهيّمون - وهم الأعلون - وبعضهم الأدنين في الصفّ الأخير ، وهم أنوار قاهرة فيما تحتها من النفوس والأجرام بتأثير الله تعالى، وقاهريتها صورة صفة قاهرية الله تعالى وجباريته، كما أن نوريتها من سبحات وجهه وجماله تعالى ، وبهذه الاعتبار يسمى «الملائكة المقربين» وعالمها عالم القدرة ، وعالم الجبروت ، إذ يفيض فيها صور الأشياء وحقائقها بإفاضة الحق سبحانه وكذا يفيض عنها صفاتها وكمالاتها التي بها يجبر نقصاناتها ، فعلم إن جميع الحقائق بأعيانها وكمالاتها منتقشة فيها ، وبهذا الاعتبار يسمى «عقولاً» .

وذلك الانتقاش هو صورة القضاء الإلهي ، فالقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي ، ومحله عالم الجبروت لتقدسه تعالى عن شوب الكثرة ، وهو المسمى «بأم الكتاب» الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿يَمْحُو ٱللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ [١٣/٣٩] .

وكل مايفيض علينا من العلوم الحقة موسومة بالعلوم اللدنية يفيض عنه كما قال تعالى: ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ* الذي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [٩٦/٣-٤] وتلك الجواهر خزائن غيبه كماقال : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [١٥/٢١] .

وكما ان العالم الروحاني بجوهره المجرد محل القضاء ، فالعالم النفساني بجرمه السماوي محل القدر، إذ الصور العقلية الكلية في عالم القضاء في غاية الصفاء والوحدة لايترائى ولايتمثل لغيرها لشدة نوريتها كمرآة مضيئة ترد البصر عن إدراك مافيها من الصور بشعاعها ، فينتسخ تلك الصور منه في النفس الناطقة الكلية التي هي قلب العالم ، كما ينتسخ بالقلم في اللوح صوراً معلومة مضبوطة منوطة بعللها

وأسبابها على وجه كلي ، كما يظهر في قلوبنا عند استحضارنا للمعلومات الكلية كالصور النوعية ـ مثلا ـ وكُبريات القياس عند الطلب للرأي الجزئي المنبعث عنه العزم على الفعل، وهو «**اللوح المحفوظ**» ومحل القضاء لانضباط تلك الصور فيها وانحفاظها عن التغيّر والزوال .

ثم ينتقش منه في النفوس الحيوانية الجزئية السماوية، التي هي قوى نفوسها الناطقة ، منبعثة منها ، منطبعة في أجرامها نقوشاً جزئية مشخصة بأشكال وهيئات معينة ، مقارنة لأوقات معينة مقدرة لمقادير وأوضاع معينة من لواحق المادة ـ على مايظهر في الخارج ـ كما ينتقش في قوتنا الخيالية المعلومات الجزئية كالصور الشخصية وصغريات القيـاس مثلا ، ليحصل بانضمـامها إلى تلك الكبريات رأي جزئي ينبعث عنه القصد الجازم إلى الفعل المعين ، فيجب عنه ذلك الفعل بعينه ، وذلك العالَم هو « **لوح القدر** » .

«فالقدَر» عبارة عن حصول جميع الموجودات في العالم النفسي على الوجه الجزئي ، مطابقة لما في المواد الخارجية ، مستندة إلى أسبابها ، واجبة بها ، لازمة لأوقاتها . وعالَمه : «عالَم المثال» ، لأنه خيال العالم وسماء الدنيا التي تنزل إليها الكائنات أولا من غيب الغيوب، ثم يظهر في عالم الشهادة ـ كما ورد في الحديث ـ

وتلك النفوس من قوى نفوسه الناطقة بمثابة قوانا الخيالية من نفوسنـا ، وكل منها «كتابٌ مبين» كما أُشير اليه بقوله تعالى : ﴿وَلَاحَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَارَطْبٍ وَلَايَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [٦/٥٩] . وقوله : ﴿مَامِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [١١/٦] .

وحصول تلك الصور المعينة المقيدة بوقتها المعين هو «**قدر الشيء**» المعيّن الخارجي كما قال : ﴿وَمَانُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [١٥/٢١] ومحل هذا القدَر هو الهيولى الأولى ، التي هي بعينها «لوح ذلك القدَر» الذي محله الملكوت العمّالة بإذن الله ، كما أن محل القدر ولوح القضاء هو « العالَم النفسي » ومحل القضاء هو «عالم الجبروت» .

وهذه التي ذكرناها جملة يحتاج إلى التفصيل والتدقيق في غير هذا الموقف، وقد فصّلناها وبسطنا القول فيها وفي نظائرها من المقاصد الربوبيات في كتابنا الكبير المسمى بـ «**الأسفار الأربعة**» .

ومن عجائب صنع الله سبحانه أنه أبدع نظائر جملة هذه الحقائق المتعلقة بذاته المقدسة من القلم ، واللوح ، والقضـاء ، والقدر ، وعالمي الخلق والأمر ، والشهادة والغيب، والدنيا والآخرة. وأودع من كل واحد من تلك المعاني أنموذجا ومثالا في فطرة الآدمي وروحه ليصير صورة الإنسان مثالا له ذاتاً وصفاتاً وأفعالا ، وإن لم يكن مثلا له لتعاليه عن الشبه والمثل .

فكما ان لأفعال الإنسان عند إرادة صدورها منه وبروزها من مكامن غيبها إلى مظاهر شهادتها **أربعة مراتب** : لكونها أولا في مكمن روحه العقلي الذي هو غيب غيوبه في غاية الخفاء كأنها غير مشعور بها، ثم ينزل إلى حيّز قلبه الحقيقي ونفسه الناطقة عند استحضارها وإخطارها بالبال كلية ، ثم ينزل إلى مخزن خياله ونفسه الحيوانية مشخصة جزئية ، ثم يتحرك أعضاؤه عند إرادة إظهاره فيظهر في الخارج فكذلك الحال فيما يحدث في العالَم بمثـابة الله تعـالى وإرادته من الحوادث ، إذ الأول بمثابة القضاء، ومحله بمثابة القلم ، والثانية بمثابة نقش اللوح المحفوظ ، ومحله اللوح المحفوظ من الفساد لأنه جوهرٌ روحاني ناطق لايفسد بفساد البدن .

والثالثة بمثـابة الصورة في السمـاء الدنيا ونقش لوح القدر على مانراه ، ومحله اللوح المقدر والجسم الصيقل البخاري الدخاني المشابه للسماء وهي دخان ، والرابعة بمثابة الصور الحادثة في المواد العنصرية .

ولاشك إن النزول الأول لايكون إلا بإرادة كلية ، والنزول الثاني بإرادة جزئية خفيّة ينظمّ إلى الإرادة الأولى الكلية فيتخصص بها وتصير جزئية ، فينبعث بحسب ملائمتها ومنافرتها رأي جزئي يستلزم إرادة جازمة داعية إلى اظهاره، فيتحرك الأعضاء والجوارح ويظهر الفعل ، فحركة الأعضاء بمثابة حركة السماء ، وظهور الفعل هو القدر على المذهب الثاني .

وكما ان سلطان الروح الذي هوالتعقل والإدراك في البدن لايظهر إلا في الدماغ ـ لمكان الروح الدماغي النفساني ـ فكذلك سلطان الروح الكلي ـ الذي هوروح العالم ـ لايكون إلا في العرش لمكان القوة المحركة السارية فيه ، فهو من العالم بمنزلة الدماغ من الإنسان .

وكما ان مظهرالأول فينا هو«القلب» الذي هومنبع الحيوة ، فكذلك مظهره الأول فيه هو«الفلك الرابع» الذي هوفلك الشمس ، ووسط العالم ، ومنبع حيوة العالم ، ومنشأ تدبيرالكائنات ومنورها بالنورالحسي المظهرلكل شيء من الأجرام، والمعطي لها حقها من الحيوة الحيوانية الحسية ،كما ان الباري تعالى منبع الحيوة العقلية للذوات العقلية النورية، والمنورلذواتها ، والمكمل لها بإفاضة العشق والنور والوجود على ذواتها التي أبدعت على كمالها الأتم وعشقها وتألهها منذ أول الفطرة، من الله مبدأها وإليه منتهاها .

فالشمس مثال الله الأعظم ، وخليفته في عالم الأجسام بروحها وقوتها الساريتين في كل جسم من العالم ، وكذلك القلب مثاله وخليفته في عالم البدن الإنساني بروحه الحيواني وقوتها الساريتين في كل عضومن الإنسان .

فروح الفلك بمثابة الروح الحيواني الذي في القلب ، إذ به يحيى جميع الأعضاء . وهو «البيت المعمور» المشهور في الشريعة إنه في السماء الرابعة ، المقسم به في التنزيل حيث قال : ﴿وَٱلطُّورِ* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ* فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ* وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ* وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ* وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [۶/۵۲] ولهذا جعلت مقام عيسى روح الله ـ على نبيّنا وآله وعليه السلام ـ و « الكتاب المسطور » هو نقش القضاء الأول الثابت في الروح الأول العقلي ، و ذلك الروح هو « الرق المنشور » ، « والسقف المرفوع » هو السماء الدنيا المذكورة وقريب بالبيت المعمور لنزول الصورة منها ونفخ الروح منه فيتم بهما خلق الحيوان ، و« البحر المسجور» هو بحرالهيولى السيّالة المملوة بالصور ، وهي الهاوية والجحيم عند ظهور القيامة والله أعلم ـ .

قوله عزوجل :

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

وقرء أبوعمرو : «بماأتيكُم» - بالقصر- ويكون الفاعل الضمير الراجع إلى الموصول . والآخرون بالمد ايكون هو الضمير العائد إلى اسم الله ، و«الهاء»محذوفة من الصلة ، تقديره : بماآتيكموه .

لماذكرسبحانه إن جميع ماأوجده الله تعالى مثبت في كتاب سابق ، أراد أن يعلل ذلك ويبين حكمته فيه ، فقال : لكيلاتأسوا ولاتفرحوا . أي : فعلنا ذلك لئلا تحزنوا على مايفوتكم من نعم الدنيا ، ولاتفرحوا بماأعطاكم الله منها ، والذي يوجب نفي الأسى والفرح إن الانسان إذا علم إن كلماحكم عليه في القضاء السابق الأزلي ليس إلا من مقتضيات ذوات الأشياء التي لايمكن التفصي عنها ، يحصل لها الاطمئنان الكلي والراحة الكلية على أن كل كمال يقتضيه حقيقته وكل رزق صوري أومعنوي يطلبه عينه لابد أن يصل إليه .

كماقال ﷺ : «إن روح القدس ينفث في روعي : إن نفساً لن تموت حتى يستكمل رزقها . ألا فأجملوا في الطلب» (١) .

فيستريح عن تعب الطلب، وإن طلب أجمل ولايخاف من الفوات ولاينتظر ، لعلمه بأن الله سبحانه في كل حين يعطيه من خزائنه مايناسب وقته واستعداده ، فهو واجد دائماً من مقصوده شيئاً فشيئاً ، ومالايقدر له لايراه من الغير ، فلايبقى له حزن

---

(١) جاء ما يقرب منه في سنن ابن ماجه: كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة: ٧٢٥/٢.

على فوات شيء وكذلك من علم إن بعض الخيرواصل إليه وإن وصوله لايفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله .

فإن قلت : بعض الإنسان ربماكان مقتضى ذاته أموراً لايلائم نفسه كالفقر، وسوء المزاج ، وقلة الاستعداد ـ ولايرى سبباً للخلاص، إذ مقتضى الذات لايزول، فيحصل له غاية الإساء من هذا الوجه ، ولذلك قيل : « **العلم بسرّ القدر يعطي النقيضين** : الراحة الكلية والعذاب الدائم » فكيف يستقيم الحكم بعدم الاسى والحزن على فوات الأمور؟

قلنا : ليس المراد نفي الاسى والفرح الصادرين عن الشخص بحسب الطبع ، بل المراد نفي صدورهما من العاقل على سبيل الإختيار المنبعث عن تصور الفائدة والنفع ، وليس للحزن فائدة فيماذكر.

ويمكن أن يقال : إن العالِم بسرّ القدر لايكون شقياً ، والشقي لايكون عالماً به فمن قال : «إن العلم بسر القدر يعطي النقيضين» فلاوجه له ظاهراً .

وأما ماقيل في بيان عدم الإساء والفرح : إن الإنسان إذا علم إن مافات منها ضَمن الله تعالى العوض عليه في الآخرة فلاينبغي أن يحزن لذلك ، وإذا علم إن مانالہ منها كلف الشكر عليه والحقوق الواجبة فلاينبغي أن يفرح لذلك فكلام حسن محمود في المواعظ .

فإن قلت : إذاكان عدم الحزن والفرح عند المضرة والمنفعة الواصلتين للإنسان ليس مقدوراً له ـ إذ لايملك أحدٌ نفسَه عند ورود أحدهما عن أحدهما ـ فكيف يلائم ويحسن هذا التعليل ؟ والعلة الغائية أوالغاية الذاتية للشيء ينبغي أن يكون بينها وبينه علاقة سببية ، أوأن تكون الغاية بحيث مترتبة على الفعل .

قلنا : المراد به نفي الأثر المذهل صاحبه عن الصبر ، المانع له عن التسليم لأمرالله ، والفرح المطغي الملهي عن الشكر ، الموجب للبطر والاختيال، فأما الحزن الذي لايكاد أحد يخلو منه مع الاستسلام لحكم الله والسرور بنعمة الله مع إعطاء حقه ـ من الشكر ـ والتفطّن لمايلزمه من الانتقال والدثور والعمل بموجبه فلابأس بهما.

وللاشعار بأن المراد من الفرح المذكور هو الذي يوجب البطر والخيلاء عقّبه بقوله : وَاللهُ لايُحبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُور - أي : معجب بما أوتي ، متكبر على الناس بالدنيا ، فإن الفرق بين «الخيلاء» «والفخر» كالفرق بين « العجب »«والتكبر» في أن أحدهما بحسب نفس الموصوف به ، والآخر له بالقياس إلى غيره دون مقابله، لأن النكتة في ذكر شقاوة الموصوف بأحد المتقابلين دون الآخر إن هذا أشقى منه ، ولأن الاتصاف بأحد هذين الوصفين يستلزم الإتصاف بالآخر إذ قلّ من يكون له الفرح المطغي عند حظّ دنياوي ولايضطرب عند المصيبة ، بل الغالب أن لايثبت نفسه حالة الضراء ، كما لايثبت نفسه حالة السرّاء ، فكل مختال فخور يكون جزوعاً غير صبور ، وكِلا الأمرين نقص وخسّة ، والله لايحب كل ناقص خسيس .

ففي هذه الآية إشارة إلى أربعة أشياء :

أحدها : حسن الخلق . لأن من استوى عنده وجود الدنيا وعدمها لايحسد ، ولا يعادي ، ولا يشاحّ ، لأنّ جميعها من أسباب سوء الخلق ، وهي من نتائج النقص والخسّة .

وثانيها : استحقار الدنيا وأهلها إذا لم يفرح بوجودها ولم يحزن بعدمها ، **وإليه أشار** - عليه وآله السلام - بقوله : « لايفقه الرجلُ كلَّ الفقه حتى يرى النّاسَ أمثال الأباعر » [١] . يعني لايحفل بوجودهم ولا يغيّره ذلك كما لايغير بوجود بعير عنده - وتمام الخبر: « ثم هو يرجع إلى نفسه فيكون أعظم حاقر لها » .

وثالثها : تعظيم الآخرة لما سئل الله فيها من الثواب الدائم الخالص من الشوائب ، لأنه لما يئس من وجدان اللذة والنعيم في الدنيا ، توجه إلى طلبهما في الآخرة ، وأهل الدنيا بعكس ذلك ، لأنهم لما يئسوا من الآخرة ولذّاتها ونعيمها انكبّوا إلى الدنيا واطمأنّوا بها ويئسوا من الآخرة «كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

---

(١) بحار الانوار: باب مواعظ النبي (صلّى الله عليه وآله) من كتابه الروضة: ٨٣/٧٧.

ورابعها : الافتخار بالحق والتشبث به دون أسباب الدنيا ، **ويروى إن علي ابن الحسين** عليه السلام جاء رجل عنده فقال : ماالزهد ؟

قال : الزهد عشرة أجزاء ، فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا ، وإن الزهد كله في آية واحدة من كتاب الله ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [1]

وقيل لبزرجمهر : مالكَ أيها الحكيم لاتأسف على مافاتَ ولا تفرح بما هو آتٍ ؟ فقال : لأن الفائت لايتلافى بالعبرة ، والآتي لايستدام بالحبرة .

مكاشفة

قد وضح من هذه الآية إن كل ماوقع أو سيقع في هذا العالَم مقدّر بهيئته وزمانه ، مكتوب بوصفه وخصوصيته في عالم آخر قبل وجوده ، فإن اشتبه عليك الحال في الأفعال المنسوبة إلى الاختيار وتُخيّل إليك إنها على هذا التقدير يلزم أن تكون بالاضطرار، فما بالنا نجد الفرق بين المضطر والمختار؟ ولماذا نتصرف فيها بالتدبير والتغيير ونصرِّفها بالتقديم والتأخير؟

ثم إذا كان الكلّ بالقضاء والقدَر فلماذا يؤاخَذ بها ويعاقَب عليها أو يوجَر ويثاب بقصدها ؟ ومالفرق بين سهونا وعمدنا ؟ فكيف يتجّه المدح والذم لنا؟ وأي فائدة للتكليف بالطاعات والعبادات ودعوة الأنبياء بالآيات والمعجزات؟ وأي تأثير للسعي والجهد؟ وأي توجيه للوعيد والوعد ؟ ومامعنى الابتلاء في قوله تعالى :﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٦٧/٢] ومالايحصى من الآيات الدالة على أن مدار التكليف هو الاختيار وبناء الأمر في الاختبار على الاختيار ؟

---

(١) مجمع البيان: ٢٤١/٩. وجاء الحديث بلا اشارة الى الآية في الكافي: ١٢/٢.

فتأمل جريانَ الأمر والنهي في مجاري القضاء والقدَر، وتفكَّر في سلسلة الأسباب والعلل ، وتدبَّر في مباني الأمور حق التدبر ومعاني الآيات بقوة التفكر - إن كنت من أهله وخُلقت لأجله - عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، وينكشف لك ماينكشف لأهل اليقين والراسخين في العلم ، وتتخلص عن الشرك الخفي ، فبادر عند التفطن بما يتفطن به العرفاء الكاملون إلى الاعتـذار والتوبة والاستغفار .

* * *

واعلم إن القضاء والقدَر إنما يوجبان مايوجبان بتوسط أسباب وعلل مترتبة منتظمة ، بعضها فاعلات مقتضيات كالمبادي العاليـة من الجواهر العقلية ، وبعضها مدبرات ومعدات كالنفوس السماوية والحركات والأوضاع الفلكية والصور واللواحق والأمور الجارية مجرى الأشياء الإتفاقية - التي هي لزومية من وجه - وغيرها من الإدراكات والإرادات الإنسانية والحركات والسكنات الحيوانية ، وبعضها قوابل واستعدادات ذاتية أو عارضية إياهـا تختصّ بسببها بحال دوْن حال وصورة دون صورة - ترتيباً وانتظاماً متقناً معلوماً في القضاء السابق - فاجتماع تلك الأمور من الأسباب والشرائط مع ارتفاع الموانع علة تامة يجب عند وجودها ذلك الأمر المدبَّر والمقضيّ المقدّر ، وعند تخلف واحد منها أو حصول مانع بقي وجوده في حيّز الامتناع . ومع قطع النظر عن وجود جميع الأسباب وعدمه بقي في حيّز الإمكان .

فإذا كان من جملة الأسباب - وخصوصاً القريبة منها - وجود هذا الشخص المكلّف الإنساني وإدراكه وعلمه وإرادتـه وقبوله التكليف بتفكره وتخيّله الذين يختار بهما أحد طرفي الفعل والترك، كان ذلك الفعل اختيارياً واجباً وقوعه بجميع تلك الأمور المسمّاة علة تامة ممكناً بالنسبة إلى بعض منها ، فوجوبه لاينافي إمكانه ، ومجبوريته لاينافي كونه بالاختيار، كيف وإنه ماوجب إلا بعد كونه ممكناً وماجبر عليه إلا بعد كونه مختاراً .

فمَن نظر إلى بعض الأسباب قاصراً نظره إلى القريبة منها ، ورآها مؤثرة

بالاستقلال قال بالقدَر والتفويض ـ أي بكونها واقعة بقدرتنا الاستقلالية مفوضة إلينا . ولهذا قال ﷺ : « القدَريةُ مجوسُ هذه الأمة »[١] لأنها تثبت مبدأين قادرين مستقلّين كالمجوس القائلين بيزدان وأهرمن ، وإن أحدهما فاعل الخير ، والآخر فاعل الشر بالاستقلال .

ومن نظر إلى السبب الأول وكون تلك الأسباب والوسائط مستندة بأسرها على الترتيب المعلوم في سلسلة العلل والمعلولات إلى الله تعالى استناداً واجباً وترتيباً معلوماً على وفق القضاء والقدَر ، وقطع النظر عن الأسباب القريبة أو نفى التأثير مطلقاً في العلل والمعلولات وأبطل حكمةَ الله في نظم الأسباب وتقدمها على المسببات قال بالجبر وخَلْق الأفعال ، ولم يفرق بين أفعال الأحياء وأفعال الجمادات .

وكلاهما أعور دجّال لا يبصر بإحدى عينيه . أما القدَري فبالعين اليمنى ـ أي النظر الأقوى ـ الذي به يدرك الحقائق . وأما الجبري فباليسرى ـ أي الأضعف ـ الذي به يدرك الظواهر .

وأما من نظر حق النظر فأصاب فقلبُه ذوعينين ، يبصر الحق باليمنى فيضيف الأفعال إليه ـ خيرها بالذات وشرها بالعرض ـ ويبصر الخلق باليسرى فيثبت تأثيرهم في الأفعال به سبحانه لا بالاستقلال ، وبالإعداد لا بالايجاد ، ويتحقق بمعنى قول الصادق عليه السلام : « لاجبرَ ولا تفويضَ بل أمرٌ بين أمرين »[٢] فيتذهّب به ، وذلك هو الفضل الكبير .

وأما من أضاف الأفعال إلى الله تعالى بنظر التوحيد وإسقاط الإضافات ومحو الأسباب والمسببات ـ لا بمعنى خَلْق الأفعال فينا أو خلق قدرة وإرادة جديدتين متباينتين

---

(١) الحديث معروف عن النبي صلّى الله عليه وآله، وروى في التوحيد: باب القضاء والقدر ٣٨٢ عن الصادق عليه السلام أيضا.

(٢) التوحيد: باب نفي الجبر والتفويض : ٣٦٢..الكافي: باب الجبر والقدر: ١٦٠/١.

لقدرته وإرادته عند صدور الفعل عنا ، فهو الذي طوى بساطَ الكون ، وخلص عن مضيق البون ، وخرج من البين والأين وفنى في العين ، لكنه بقي في المحو ولم يجيء إلى الصحـو ، مازاغ بصره عن مشاهدة جماله وسبحات وجهـه وجلاله ، فاضمحلت الكثرة في شهوده واحتجب التفصيل عن وجوده وذلك هو الفوز العظيم .

فإذا رجع إلى الصحو بعد المحو ، ونظر إلى التفصيل في عين الجمع ، غير محتجب برؤيـة الحق عن الخلق ، ولا بالخلق عن الحق ولا مشتغل بوجود الصفات عن الذات ، ولا بالذات عن الصفات ، فهو الولي ّ المحق الصد ّيق ، صاحب التمكين والتحقيق ، يَنسِب الأفعال إلى الله تعالى بالايجاد ، ولا يسلب عن العباد بالإعداد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَارَمَيتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [٨/١٧] .

﴿ تكميل وتوضيـح ﴾

فعلم ممـّا ذكر إن الدعوة والتكليف والإرشاد والتهذيب والوعد والترغيب والايعاد والتهديد أمور جعلها الله تعالى مهيـّجات الأشواق ، ودواعي إلى خيرات وطاعات ، واكتساب فضائل وكمالات ، ومحرّضات على أعمال حسنة وعادات محمودة وأخلاق جميلة وملكات فاضلة مرضية نافعة في معاشنا ومعادنا ، يحسن بها حالنا في دنيانا ، ويحصل لنا سعادة عقبانا ، أومحذرات عن أضدادها من الشرور والقبائح ، والذنوب والرذائل ، مما يضرنا في العاجل ، ويشقى بنا في الآجل ، لم يحصل لنا شيء من الطرفين إلا بتلك الأسباب ونقائضها ، وكانت تلك الوسائط أيضاً مقدرة لنا واجبة باختيارنا كما قال ـ عليه وآله السلام ـ لمن سأله : **هل يغني الدواءُ والرقيةُ من قدَر الله ؟**

قال : « الدواء والرقية أيضاً من قدر الله .. » (١)

ولما قال ﷺ : « **جفَّ القلمُ بما هوكائنٌ** » قيل : « ففيمَ العمل ؟ »

---

(١) الترمذي: كتاب القدر، الباب ١٢. ابن ماجه: كتاب الطب ١١٣٧/٢.

فقال : « اعملوا ، فكلٌ ميسرٌ لماخلق له » [١]

ولما سئل : « أنحن في أمر فرُغ منه أو أمر مستأنف ؟ »

قال : « في أمر فرُغ منه ، وفي امرمستانَف . »[٢]

ومن هذا علم إن كل مايصدرعنا من الحركات والإرادات والحسنات والسيئات محفوظة مكتوبة علينا ، واجبٌ صدوره عنّا ، مع كونه باختيارنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ [٥٤/٥٣] .

وقال : ﴿ وَنَكْتُبُ مَاقَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [٣٦/١٢] فهي معرفات لسعادتنا وشقاوتنا في العقبى، وليست بموجبات لهما، وكذلك مايصل إلينا من الرغائب والمكاره ، كما قال النبي ﷺ : « اعلم إن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفّت الصّحف » .[٣]

وقال اميرالمؤمنين علي عليه السلام : « اعلموا علماً يقيناً إن الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته وقويت مكيدته واشتدت طلبه أكثر ممّا سمّي له في الذكر الحكيم» [٤] ـ أي اللوح المحفوظ ـ والشواهد في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

* * *

وأما الإبتلاء : فهو إظهار ما كتب علينا في القدر وإبراز ماأودع فينا وغرز

---

(١) روى الحديث بألفاظ مختلفة: الترمذي: المقدمة، باب ١٠: ٣٥/١.
وراجع أيضا المعجم المفهرس لالفاظ الحديث: ٣٥٠/١.

(٢) جاء الحديث بألفاظ مختلفة ولم أجد فيها «وفي أمر مستأنف». راجع المعجم المفهرس ١٢٢/٥.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة، الباب ٥٩: ٦٦٧/٤.

(٤) الكافي: كتاب المعيشة، باب الاجمال في الطلب: ٨١/٥.

في طباعنا بالقوة ، بمايظهره من الشواهد، ويخرجه إلى الفعل من الوقائع والحوادث والتكاليف الشاقة ، بحيث يترتب عليه الثواب والعقاب ، فإنهـا ثمرات ولوازم وتبعات وعوارض لأمور موجودة فينا بالقوة ، فإذا لم يصدر عنا مباديها في الدنيا لم تخرج هي إلى الفعل في العقبى ، فكما إن المثوبات الأخروية ليست بقصد وإرادة جزافيه واقعـة من الحق المقدس من النقص والشين ، والتفات حاصل من العالي بالقياس إلى السافل ، بل من باب الاستجرار ونظم الاسباب وترتيب المسببات عليها بحكمة المدبر العليم ، وإرادة الصانع الحكيم ، الذي له الملك والملكوت ، وبذاته التامة الفاعلية يفيض الأشيـاء ويخلق مايشاء من غير مصلحة زائدة وإرادة متجددة ، فكذلك العقوبات الإلهية والتعذيبـات الأخروية ليست من باب الانتقـام من فاعل يحدث فيه انفعال غضبي ينتقم لأجل التشفي والتخلص من حرقه الغضب وشدة اللهب ، بل النفس الشقية العاصية إنما هي حمـالة حطب نيرانها لسوء أفعالها ورداثة أخلاقها ، كمن به مرض أدت نهمته السابقة إلى المحن الشديدة والأوجاع والآلام على سبيل اللزوم والانجرار ، لا لمنتقم خارجي، فكيف يحصل الأسباب والمقدمات لشيء ولا يحصل ثمراتها وتبعاتها التي هي عوارضها ولوازمها ، والجميع معلومة لله تعالى قبل وجودها ومعه وبعده من غير تغير في ذاته ولافي صفاته ، بل باعتبار تجدد الأشياء وتعاقبها في مرتبة حضورها وشهودهـا التجددي ، الذي هو أخيرة مراتب علمه بالأشياء ، التي هي عين الأشياء .

فقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ﴾[٣١/٤٧] وأمثالها معناه : نعلمهم موصوفين بهذه الصفة بحيث يترتب عليها الجزاء ، وأماقبل ذلك الابتلاء فإنه علمهم مستعدين للمجاهدة والصبر، صائرين إليها بعد حين .

* * *

فإن رجعتَ وقلتَ إذا كانت الأسباب والمقدمات ـ وبالجملة الفضائل والرذائل ، والطاعات والمعاصي ، والخيرات والشرور ـ كلها مقدرة مكتوبة علينا قبل صدورها منا ، معجونة فينا مربوطة بأوقاتها ، فما بالنا لانتساوي في الفضيلة

والنقص ؟ ولانتعادل في الخيرات والشرور ؟ ولِمَ لانتشاكل في الطاعات والمعاصي ولانتماثل؟ وكيف نحترز عما يجب الاحتراز عنها فننجو من وبالها وتبعاتها ؟ وبأي شيء يتفضل السعيد على الشقي وقد تساويا فيما قدّر لهما ؟ وأين عدْلُ الله فينا وقد قال تعالى : ﴿وَمَآأَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [٥٠/٢٩] ﴿وَمَاظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ﴾ [١٦/١١٨] ؟

فنجيبك ياأخا الجدل بمثل ماقال الشاعر :

هو ن على بصرى ماشقّ منظره فإنما يقظات العيـن أحلام

فاصبر واستمع مايشفيك من غيضك ويكفيك في إزالة ريبك، واعلم إن الأعيان والماهيات متنوعة، والصفات والاستعدادات متفنّنة ،والأرواح الإنسية بحسب الفطرة الأولى مختلفة في الصفاء والكدورة ، والضعف والقوة، مرتبة في درجات القرب والبعد من الله ، والمواد السفلية بإزائها بحسب الخلقة متباعدة في اللطافة والكثافة ،ومزاجاتها متبائنة في القرب والبُعد من الإعتدال الحقيقي ، فقابليتها لما يتعلق بها من الأرواح متفاوتة ، وقد قدّر بازاء كل روح مايناسبه من المواد بحسب الفيض الأقدس، فحصل من مجموعها استعدادات مناسبة لبعض العلـوم والأخلاق والصفات والكمالات موافق لبعض الأعمال والصناعات دون بعض على ماقدّرلها في العناية الأولى والقضاء السابق كما قال ﷺ : « الناس معادنُ كمعادن الذهب والفضة » .[1]

وتتفاوت العقول والإدراكات والأشواق والإرادات بحسب اختلاف الطبائع والغرائز فيسرع بعضهم بطبعه إلى ماينفرّ عنه الآخر، ويستحسن أحدهم بهواه مايستقبحه الثاني ، والعناية الإلهية تقتضى نظام الوجود على أحسن مايمكن ويتصور .

على أن الموجودات مظاهر لصفاته العليا ، ومجالي لأسمائه الحسنى ، وهي متخالفة في المفهوم ، متباعدة في المعنى مع أحدية ذاته الحقة وبساطة حقيقته المقدسة، فكل واحد من الممكنات مبدأه ومعاده إلى اسم من الأسماء الإلهية ، محكوم بحكمه ،

---

(١) المسند: من حديث أبي هريرة: ٢/٥٣٩.

ملائم لما يتوجه إليه ، مناسب لما يبتدأ منه « وكل ميسر لما خُلق له » ، ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ .

كيف ـ ولو تساوت الأشياء في الاستعدادات لفاتَ الحُسن في ترتيب النظام وارتفع الصلاح عن العالم، ولبقوا كلهم في طبقة واحدة ، على حالة واحدة ، في مرتبة واحدة ، ولا يتمشّى أمورهم ، ولبقيت في كتم العدم المراتبُ الباقية ـ مع إمكان وجودها ـ فكان حيفاً عليها وجَوراً ، لا عدلا وقسطاً وبقي الاحتياج إليها في العالم مع فقدها ، فالعدل هو تسوية المواد والأشباح بحسب الصور والأرواح ، وتعديل الأمزجة بحسب الأنواع وتوزيعها على الأصناف والأشخاص ، وتوجيه الأفراد من الأجناس إلى مايناسبها من الأمور والأشغال .

فمن أساء عمله وأخطأ في اعتقاده فإنما ظلم نفسه بظلمة جوهره وكثافة طبعه وقصور استعداده ، وكان أهلا للشقاوة في معاده ، ينادي على لسان المالك : مهلاً « فيداكَ أوكَتا وفوكَ نفخ »[1] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [١١/١١٩] واختلاف الغرائز والشمائل كاختلاف الأشكال والطبائع .

وأما إنه كيف السبيل إلى الاحتراز عما يجب الاحتراز عنه : فإن شريف النفس بحسب الجوهر طيّب الأصل قلّما يهم بشيء خسيس مما ليس في فطرته و لم يقدر له من الفواحش والرذائل لعدم المناسبة ، وإذا همّ نادراً لغلبة صفة من صفات نفسه وقواه ، واستيلاء هواه ، وهيجان شهوة أو غضب فيه بأمر قبيح ينزجر بأقل زاجر من عقله وهداه ، وربما يعود قبل صدور الفعل وإمضاء الهمّ النفساني الي

---

(١) مثل يضرب لمن يجني على نفسه الحين. قال الميداني: «أصله إن رجلا كان في جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبر على زق نفخ فيه، فلم يحسن إحكامه، حتى إذا توسّط البحر خرجت منه الريح فغرق. فلما غشيه الموت استغاث برجل. فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ». (مجمع الامثال: ٢/١٤١٤).

عقله وتقواه من غير عزم على الفعل ،كما قال تعالى في يوسف : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [١٢/٢٤][1] .

وإذاكان دون ذلك في صفاء الفطرة والاستعداد ، فلاينزجربزاجر من الشرع والسياسة والناصح والأديب لخسَّة نفسه وخبث جوهره ودناءة طبعه ، وكل يشتاق إلى مايفعله بطبعه ويحبه ويستحسن ، وإن كان الآخر يعلم أن ضدّه أجود وأحسن، كمحبة الزنجي ولده مع قبحه ، دون الغلام الترك مع علمه بحسنه .

ولكل من القسمين مرتبة خالصة عن الآخر، وطبقات متفاوتة متفاضلة يكون في كل منها نصيب من الآخر المقابل له ، ويكون النجاة ومقابلها بحسب الغلبة لصفات الخير على صفات الشر أو بالعكس .

وبالجملة ـ فأعظم السعادات مطلقاً لأجود الاستعدادات ، وأكمل الكمالات لأشرف الأرواح الذي هو القطب الحقيقي ، والحقيقة المحمّدية ـ وهو القطب المطلق ـ لاالقطب الإضافي بحسب كل وقت وزمان ـ كسائر الأنبياء سابقاً وسائر الأولياء لاحقاً ، سيّما أولاده المعصومين ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ كما قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ـ إلى قوله ـ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [٢/٢٥٣]وقوله :﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾[٣/٣٤]فله المرتبة العظمى في الاستعداد، والسعادة الكبرى في المعاد ، المعبّر عنها «**بأعلى علّيين**» ، وكلما قصر الاستعداد نقصت السعادة وقصر العرض بينها وبين الشقاوة القصوى المعبّر عنها «**بأسفل سافلين**» فلكل صفو كدر ، ولكل صاف عكر، وتقابل كل نور ظلمة ، وبازاء كل حسْن قبْح .

والسعادة قسمان : دنيوية وأخروية :

---

(١) فإن الهمّ المنسوب إلى يوسف الصديق ـ على تقدير الوقف على ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ والانفصال عن «لولا أن رأى» ـ ليس بمعنى العزم ـ بل بمجرد الميل النفساني، من غير طلب واستدعاء ـ كما فهمه بعض الناقصين وذهبوا إليه، لذهولهم عن مقام الأنبياء والصديقين (منه ـ رحمه الله).

والدنيوية قسمان : بدنية كالصحة والسلامة ووفور القوة والشهامة . وخارجية كترتب أسباب المعاش وحصول مايحتاج إليه من المال .

والأُخروية أيضاً قسمان : علمية كالمعارف والحقائق . وعملية كالطاعات . والأولى جنّة المقربين . والثانية جنّة أصحاب اليمين ، وكما ان الحسن والجمال من عوارض القسم الأول من الدنيوية ، فالفضائل والأخلاق الجميلة من عوارض القسم الأول من الأخروية .

ويتعدد **أقسام الشقاوة** بإزائها .

قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : « صِف العالِم » ؟ فوصفه .

فقيل : « صِفِ الجاهل » ؟ فقال : قد فعلتُ » .

فالسعادة والشقاوة بحسب العلم والجهل ذاتيان أزلا وأبداً ، مخلدتان دائماً وسرمداً . وبحسب الأعمال الحسنة والسيئة تترتب عليهما المكافات والمجازات وتتقدر بحسبهما المثوبات والعقوبات ، كقوله تعالى ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٨٢/٩] ، ولايكون هذه الشقاوة مخلّدة إلا ماشاء الله ، وقد يتركّب بعضها مع بعض وينفرد ، إلا ان أكثر السيئات وأكبرها يتبع الجهل ، وأغلب الحسنات وأعظمها يتبع العلم .

* * *

اللهم اجعلنا من السعداء المقبولين ، ولاتجعلنا من الأشقياء المردودين .

ولقد أشبعنا في الكلام ، ونقلنا شطراً من كتب الكرام لكثرة تحيّر الناس في هذا المقام ، وقد بقي بعد خبايا من الخفايا بهايتمّ المرام ، تركناها في سنبله مخافة شنعة اللئام ، الذين أرادوا أن يعرجوا إلى كنه المعارف ، بعلم الكلام ، الموضوع لحراسة عقائد العوام من إفساد المجالدين الخصام ، وقطّاع طريق النجاة في الإسلام ، وقد فرّقنا كثيراً من المكاشفات المتكررة المتعلقة بهذا المقصد في كتبنا ورسائلنا سيّما مايتعلق بتعذيب الجاحدين والكافرين مؤبداً وبقائهم في الجحيم مخلداً .

وفيما ذكرناه كفاية لمن تيسّر له ، ولاينجع أكثرمنه لمن تعسرعليه ، فليرجع من أراد الوقوف والاطلاع إليه ـ وبالله العياذ من التقصير، وبه يتيسر كل عسير.

قوله عزوجل :

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قرء نافع وابن عامر: « إن الله الغني » وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك ، والباقون بإثبات « هو » لوجوده في مصاحفهم . والضميرينبغي أن يكون فصلا ، لامبتدأً ، لأن حذف الفصل أسهل ـ إذ لاموضع له من الإعراب ـ بخلاف المبتدأ ، ألاترى إنه قد يحذف فلايخل بالمعنى . وقرء : « بالبخل » .

وقوله : « الذين » بدل من قوله : «كُل مُختَـالٍ فَخُور»كأنه قال : لايحب الذين يبخلون . وفيه دلالة على أن ذا الفرح المفطي متكبرٌ بما أُوتي ؛ فخورٌعلى الناس . وإذا رُزق هو وأشباهه مالا وحظاً من الدنيا فلابتهاجهم به والتذاذهم منه وعزته لديهم، وعظمته في أعينهم ـ لأجل قصور عقلهم ونقص فطرتهم وخلل جوهرهم ـ يزوونه عن حقوق الله ويبخلـون به ، ولا يكفيهم ذلك حتى يأمروا الناس بالبخل ويحملونهم عليه ، ويرغبونهم بالإمساك ويزيّنونه لهم ، وذلك كله من نتائج فرحهم به وبطرهـم عند إصابته ، والفرح بالمحقرات الدنيّة الدنياويّة من لوازم قصور الذات وخسّة الجوهر وقلة العقل، حيث لم يتنبّه بدثورها وفنائها، ولماكان الابتهاج بمتاع الحيوة الدنيا والبخل عن أداء الحقوق الواجبة وغيرذلك من ذمائم الأخلاق ناشية عن التوجه إلى الجنبة السافلة المستلزم للإعراض عن الحق والتولي عن قبول أوامره ـ كالإنفاق ـ ونواهيه ـ كالبخل ـ أشار إلى أنه غنيٌ عن العباد وإنفاقهم ، محمود في ذاته ، لايقدح في كمال ذاته ووجوب وجوده الإعراض عن شكره .

مكاشفة

إن في قوله : « هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ » من التهديد مالايخفى، للإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة يعود إلى المنفق ، فإذا فات عنه ماهو المصلح لذاته ، المذكى له عن ذمائم الأخلاق ـ كالبخل وحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة ـ كانت عاقبة السوء .

وليس في بخل العبد وإمساكه ضرر على الله تعالى ، بل الأمر بالإنفاق والتأكيد فيه إنما وقع من الله تعالى لغاية رحمته على عباده ، حيث هداهم طريق التخلص عن عذاب الأخلاق الذميمة في الدنيا والآخرة مع كونه غنياً عن العالمين، فكيف عن العبد وإنفاقه .

وقد بالغ في الحث على الإنفاق حتى طلب الصدقات عنهم بقوله : ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾[٢/٢٤٥] وقال: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَاتِ﴾ [٩/١٠٢].

وقد سلك طائفة من المخذولين طريق الاباحة وقالوا : إن الله غني عن إنفاقنا ، وغني عن أن يستقرض منا ، فأيّ معنى لقوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾؟ ولو شاء إطعام المساكين لأطعمهم ، فلاحاجة لنا إلى صرف أموالنا إليهم. كما قال الله تعالى حكاية عن الكفار بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [٣٦/٤٧] وقال تعالى إخباراً عنهم : ﴿لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [٦/١٤٨] .

فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم .

فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق ، وإذا شاء أصعد بالجهل .

كه آدم رازظلمت صد مدد شد ❊ زنور ابليس ملعون أبد شد

ربّ تالِ القرآن والقرآنُ يلعنه . رُب رجل فقيه متعبد يكون فقهه وتعبده سبباً

لهلاكه ، ورُب جاهل مذنب يكون تحسّره وحزنه على قصوره وعصيانه سبباً لنجاته ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ .

فهؤلاء لماظنوا انهم استخدموا لأجل المساكين أو لأجل الله تحيرت عقولهم وضلّت أفهامهم فقالوا : لاحظّ لنا في المساكين ، ولاحظّ لله فينـا وفي أموالنا « أنفقنا أو أمسكنا » . ولم يعلموا إن المسكين الآخذ لمالك يزيل - إذ يقلّل - حبّ البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجّام يستخرج الدم من عروقك ليخرج العلة المهلكة من باطنك .

ولما كانت الصدقات مطهّرة للبواطن ومزكاة لهـا عن خبائث الصفات ، وغسّالة لذنوبهم - لأن بالمال يتمكّن الإنسان من المعاصي - امتنع رسول الله ﷺ من أخذها وانتهى عنها ، كما نهى عن كسب الحجّام ، وسمى الصدقات أوساخ أموال الناس وشرّف أهل بيته بالصيانة عنها .

* * *

فهذا هو القول الكلي والسبب العقلي في وجوب الإنفاق، وقد سبق إن الأعمال مؤثرات في القلب ، والقلب بحسب تأثيرها يستعد إما لقبول الهداية ونور المعرفة والإلهام ، وإما لقبول الغواية وظلمة الجهل والوسواس ، ولايبعد أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [٣٧/٦٩] إشارة إلى حال عاقبة عمّال الزكوة ومتولّي الأوقاف الذين يأكلون حقوق المساكين من غير استيهال ولااضطرار .

* * *

قوله عزوجل : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

أقسم سبحانه إنه أرسل الرسل المبعوثين منه ـ وهم الملائكة والأنبياء عليهم التقديس والتسليم ـ بالحجج والمعجزات الباهرة ، وأنزلمعهم الوحي والميزان . والأول للهداية إلى العلوم والتعليمات ، والثاني للإرشاد إلى الأعمال والمعاملات، ولهذا عقّبه بقوله : لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ـ أي : في معاملتهم بالعدل .

روي إن جبرئيل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال : « مُرْقومَك يَزِنوا به » . (١)

وعن ابن زيد والجبائي ومقاتل بن سليمان معناه : وأنزلنا معهم من السماء الميزان ذا الكفّتين.يوزَن به ـ وفيه سرّ ـ .

وعن قتادة ومقاتل بن حيان : معناه أنزلنا صفة الميزان ، أي أمرنا الناس بالعدل ،كقوله : ﴿ اللهُ الّذي أنزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ ﴾ [١٧/٤٢] .

وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ـ الذي يتخذ منه آلات الحروب للذبّ عن بيضة الإسلام ولبأس أهل الفساد ومنفعة الناس، إذ مامن منفعة ينتفع به الناس ديناً ودنياً إلا والحديد آلتها كالكتابة والزراعة وغيرهما .

روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن الله ـ عزوجل ـ أنزل أربع

(١) الكشاف: في تفسير الآية.

بركات من السماء إلى الأرض : أنزل الحديد والماء والنار والملح (١)

ومعنى الإنزال عند أهل المعنى الإنشاء منها ، لأن الحوادث الكونيـة إنما يخلق من الله بتوسط الأسباب الفاعلة السماوية والمواد القابلة الأرضية ، فمعنى قوله أنزلنا الحَديدَ : أنشأناه وأحدثناه ، كقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلأَنْعَامِ ثَمَانِيَـةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [٣٩/٦] وعلى هذا المعنى أيضاً يحمل أمثال قوله : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ [٢٥/٤٨] ، فإن السموات ليست حياضاً وغدراناً للمياه ولا إصطبلا للدواب ، وإلى شبه هذا ذهب مقاتل فقال « معناه : بأمرنا كان الحديد » .

وقال قطرب : معنى «أنزلنا» هيهنا « هيّأنا » من النُزّل ، وهومايهيّأ للضيف ، أي : أنعمنا بالحديد وهيّأنا لكم .

وقيل : « نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة » .

وروى : ومعه المرّ والمسحاة .(١)

وقوله : لِيعلَـمَ ٱللهُ مَن ينصُرُه وَرُسُلَه ـ معطوف على قوله : لِيَقُومَ النَـاسُ بِالقِسْطِ ـ أي : ليعاملوا بالعدل وليعلم الله نصرة من ينصره ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح . ويحتمل أن يكون معطوفاً على محذوف دلّ عليه ماقبله ، فإنه حال متضمّن تعليلاً ، واللام صلة لمحذوف ، أي : أنزله ليعلم الله ـ .

وقوله : بالغيب ـ حـال من المستكنّ في : « ينصره » أي : ينصره ورسله غائباً عنهم بمجرد العلم الواقع بالنظر والاستدلال من غير مشاهدة حسيّة ، كما قال ابن عباس ينصرونه ولايبصرونه .

إنّ اللهَ قَويٌّ ـ على إهلاك من أراد إهلاكه ـ عَزيزٌ ـ منيع لايفتقر إلى نصرة ، وإنما كلّفهم الجهاد لينتفعوا به في العاجل ، ويستوجبوا الثواب بامتثال الأمر به في الآجل ، وليجمعوا بين الرحمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة .

---

(١) الكشاف: في تفسير الآية.

مكاشفة

هذه الآية كنظائرهـا مشتملة على إشارات إلى فوائد نفيسة من علـم المبدء والمعاد ، وتنبيهات على فوائد شريفة من معرفة سلوك طريق الآخرة وأخذ الزاد ينبغي التنبيه عليها :

الأولى : الإشارة إلى كيفية إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وبيانه : إن سعادة الإنسان منوطة بأمرين : أحدهما الاطلاع على الحقائق والمعقولات بالعلوم الكلية . وثانيهما الاتصاف بالصفات المحسنات والتنزّه عن القيود والمضائق السفليات بالآراء العلمية .

وهذه الكمالات ممايخلو الإنسان في أول الحدوث لكونه ضعيف الخلقة ، كما أشار إليه بقوله : ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [٢٨/٤] بل فائضة عليه من الله تعالى بتوسط الملائكة العلوية ، وليس كل واحد من الناس ممايتيسّر له التفطّن بالكمالات ، والاتصال بعالم العلويات إلا من أيّد بروح قدسي يتصل بفيض علوي ، ويعلم الأشياء بإلهام غيبي ومدد سماوي ، وهذا الإنسان هو «النبي» أو «الولي» ومايقبله بحسب صفاء باطنه وإشراق روحه عن الملك الملقي إليه المعارف هو «الوحي» للأنبياء أو « الإلهام » للأولياء . وستعلم الفرق بينهما .

فلابد لهداية الخلق وإرشادهم إلى طريق النجاة وايصالهم إلى المعـاد من وجود متوسط بينهم وبين الله يأخذ منه العلوم والكمالات من غير تعليـم بشري ، ويوصل إليهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كيف ولو أخـذ كل إنسان علمه من إنسان آخر ـ من غير أن ينتهي إلى الوحي والإلهام ـ لادّى ذلك إلى غير النهاية ، فلابد من الإنتهاء إلى من يأخذ العلـوم والكمالات من معدن اللاهوت بلاتعلّم أوتقليد .

ولايتوهمن إن النبي يأخذ العلوم عن الملك الموحي إليه على سبيل التقليد ـ هيهات ـ العلم التقليدي ليس علماً في الحقيقة ، إذ العلم هو اليقين ، وهو لايحصل إلا مع الظفر بالمبادي والأسباب بسبب اتصال النفس القدسية بالملائكة وأخذها العلوم منهم ، فإن الغير المنطبع لولا احتجابه بالبدن وقواه وتعلقه بالدنيا وإخلاده إلى الأرض يتصل بالمبادي العالية والملائكة المقربين ، وخصوصاً بما يقرب إلينا ويؤثر في عالمنا هذا وهو المسمى بـ «روح القدس» المعلم للأنبياء ، و«جبرئيل» على لغة السريانيين ، فإذا اتصلت به لتلألأت فيها النقوش العلمية والصفات الكمالية التي فيها ، إذلامبائنة بين المجردات إلا المادة ، ولامنع ولاتقصير ولابخل في الإجادة والإفاضة ، لأن هذه الأشياء من خواص عالم الأجسام لتضائقها وتمانعها ، فلدى الارتفاع عن ذلك يطالع المغيبات .

ومن جرّب من نفسه صحة منامات ـ والنوم إنما هو انحباس الروح عن الظاهر في الباطن ـ لايستبعد من أن يكون نفس شديدة الارتفاع عن هذا العالم ، قويّة الاتصال بالملكوت الأعلى يتلقى منه المعارف الكلية والحقائق العقلية ، كما يتلقى أكثر النفوس في بعض الأحانين من الملكوت الأوسط شيئاً من المغيبات الزمانية المادية .

ومنبع المكاشفات العقلية المعنوية عالم العقول والملائكة العقلية ، ومعدن المكاشفات الصورية الحسية عالم النفوس الفلكية والملائكة العملية .

فالمكاشفة العقلية أحد أجزاء النبوة ، وهو جزء مشترك بين الأنبياء والأولياء، وللنبوة جزئان مختصان: أحدهما أن يكون النبي مأموراً من السماء بإصلاح النوع والثاني طاعة الهيولى العنصرية له ، بل طاعة هيولى الأفلاك بالشق والرمّ بسيدهم وخاتمهم ﷺ لظهور المعجزات وخوارق العادات .

* * *

وتحقيق ذلك إن الإنسان ملتئم من أجزاء ثلاثة ، من عوالم ثلاثة ، هي مبادي إدراكات ثلاثة : **التعقّل ، والتخيّل والإحساس** .

فبكل من هذه القوى يتصرف في عالم من العوالم الثلاثة: الدنيا ، والآخرة، وما هو فوقهما ـ أي عالم الوحدة ـ وقد ثبت إن كل إدراك هو ضرب من الوجود، فكمال كل واحد من هذه القوى يوجب التصرف في عالم من تلك العوالم، والنبي هو الإنسان الذي يقوى فيه ويكمل ويشتد جميع هذه القوى الثلاث ، فبالقوة العاقلة يتصل بالقدسيين ويجاور المقربين و ينخرط في سلكهم ـ بل يفوق عليهم عند اتصاله بالحق وفنائه عن الخلق واندكاك جبل إنيته ، كما أخبر عن نفسه بقوله ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لايسعني فيه ملك مقرب ولانبي مرسَل» .

وبالقوة المصورة يشاهد الأشباح المثالية والأشخاص الغيبية ويتلقى الأخبار الجزئية منهم ويطلع بهم على الحوادث الآتية والماضية .

وبالقوة الحساسة ـ المساوقة للقوة المحركة ـ يتسلط على الأفراد البشرية ، وينفعل عنه المواد ويخضع له القوى والطبائع الجرمانية تسلط العالي على السافل وخضوع السافل للعالي .

فالدرجة الكاملة من الإنسان بحسب نشأته الجامعة لجميع العوالم هي التي يكون الإنسان بها معظماً عندالله ، مؤيداً منه بتأييد تـامّ، وإلهام غيبي ، وإمداد ملكي ، وإعانة فلكية يكون بحسبها قوي ّ القوى الثلاث كلها ليستحق بها خلافة الله ورئاسة الخلق من قبله .

* * *

فعلم مما ذكرنا إن اصول المعجزات والكرامات هي كمالات ثلاثة تختص بقوى ثلاث :

الخاصية الأولى : كمال القوى العاقلة ، وهي أن يصفو عقل الإنسان صفاء يكون شديد الشبه بالملائكة المقربين ـ المسماة عند بعضهم بالعقول الفعالة ـ ليتصل بهم من غير كثير تفكروتعمل ، حتى يفيض عليه العلوم اللدنية من غير توسط تعليم بشري، بل يكاد أرض نفسه الناطقة أشرقت بنور ربها، وزيت عقله المنفعل يضيء لغاية الاستعداد بنور العقل الفعّال الذي ليس هو بخارج عن كمال ذاته وإن لم تمسسه

نار التعليم البشري لكن عند تميز ذاته القابلة للمعقول عن ذات المقبول من العقول صارت نوراً على نور ـ يهدي الله لنوره من يشاء .

* * *

الخاصية الثانية : كمال القوة المصورة وهو كونها في الشدة والقوة بحيث يشاهد في اليقظة عالم الغيب ـ كما قد يشاهد النائم في نومه ـ وذلك لأن قوى النفس وإن كانت متجاذبة متنازعة كلما انجذبت النفس إلى بعضها كالظواهر انقطعت عن الأخرى كالبواطن ، لكن إذا لم تكن ضعيفة منفعلة عن الجوانب بل كانت قوية غير منفعلة عنها وسيعة للجانبين تحفظ الجميع فعند استعمال الحواس الظاهرة تستعمل الباطنة ، و تشاهد المغيبات في اليقظة ، فتدرك المعقولات و الكليات عن الوسائط العقلية ، و تشاهد الصور الجميلة والأصوات الحسنة المنظومة على الوجه الجزئي في مقام هورقليا أوفي غيرها من العوالم المتوسطة البرزخية الباطنية .

وليعلم إن العوالم متطابقة متحاكية ، فكل مايدرك هذا الإنسان من عالم العقل يقع له حكاية منه في عالم الأشباح الباطنية ، فذات العقل المفيض للمعارف عليه يتشبح له صورة حسية متكلماً بكلام فصيح مطابق لتلك المعاني ، مطابقة البدن للروح واللفظ للمعنى ، فيكون الصورة المحاكية للجوهر الشريف العقلي **هو الملك الذي يراه النبي والولي** ، أما النبي بما هو نبي فعلى طريق الحكاية والصورة ، وأما الولي والنبي بما هو ولي فعلى طريق التجرد الصرف ـ **وهذا أفضل أجزاء النبوة** .

لكن النبي لكمال قوته البدنية و العقلية ـ جميعاً ـ يدرك الملك الموحي على الوجهين ـ بخلاف غيره من الأولياء ـ وكذا الحكم في المعارف التي تصل إلى النبي معنى و حكاية وإلى الولي معنى فقط ، فالشخص الملقي للمعارف على الوجه المذكور هو الملك الموحي باذن الله ، والكلام النازل منه في غاية الفصاحة هو كلام الله والوحي .

فعلم مما ذكر إن للملائكة ذواتاً حقيقية أمرية وذواتاً بحسب القياس إلينا من جهة القوة المصورة التي شأنها حكاية المعقولات ـ حكاية صحيحة طبيعية ، وكذا

للقرآن حقيقة معقولة لايطلع عليها أحد إلا مَن شاءالله تعالى ، وحقيقة بالقياس إلى مداركنا و حواسنا ، كما إن للحق تعالى ذاتاً أحدية لايكتنهها أحد غيره ، و ذاتاً متصفة بالإضافات والإستواء على العرش .

فلينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه ، وفي ايصال كلامه إلى أفهام خلقه ، وانظر كيف يجلب لهم إياه في حروف و أصوات ـ هي صفات البشر ـ و لـو استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لماثبت لسماع كلامه عرش ولاثرى و لتلاشى مابينهما من عظمة سلطانه و سبحات نوره ، ولولا أن ثبّت الله موسى ـ على نبيّنا وعليه السلام ـ لما أطاق سماع كلامه ، كمالم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكّاً دكّاً .

وقد عبّر بعض العارفين عن هذا وقال: إن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف ، وإن الملائكة لواجتمعت على الحرف الواحد أن نقلوه لما أطاقوه حتى يأتي إسرافيل ـ وهوملك اللوح ـ فيرفعه فينقله بإذن الله لابقوته وطاقته، ولكن الله طوقه ذلك واستعمله به .

فقوله: «كل حرف من كلام الله أعظم من كذا . . .» المراد منه إن كل معنى من المعاني العقلية بحيث لايمكن حمله بقوة جسمانية ـ لماثبت من أن المعنى العقلي لايحمله المحل الجسماني ـ والملائكة الذين لايطيقون حمل المعاني العقلية الكلية هم الملائكة الجسمانيون ، فحق إن المعاني القرآنية مالم تنزل بكسوة التعينات الجزئية و الأصوات والألفاظ لايحمله الطبائع الجسمانية و المَدارك الخيالية الانطباعية

والمراد بإسرافيل إما الملك العقلاني المفيض لفلك الشمس التي هي بمنزلة قلب العالم ـ كمامر ـ أو الملك النفساني المدبر لها. وظاهر أن العقول المجردة لايحمل المعاني الكلية إلا بافاضة الله تعالى عليها .

* * *

الخاصية الثالثة : قوة في النفس الإنساني من جهة جزئها العملي وقواها التحريكية ليؤثر في هيولى العالم بإزالة صورة ونزعهـا عن المواد ، وبايجـادها

وكسوتها إياها ، فيؤثرفي استحالة الهواء إلى الغيم ، وحدوث الأمطار، وحصول الطوفانات ، واستهلاك امة فجرت وعتتّ عن أمرربها ورسله ، واستشفاء المرضى، واستسقاء العطشى ، وخضوع الحيوانات .

وهذا أيضا غيرمستحيل لماقد علمت إن الأجسام مطيعة للمجردات ، بل هي ظلال لها وعكوس منها، فكلما أزدادت النفس تجرداً وتشبّهاً بالمبادي القصوى ازدادت قوة وتأثيراً في مادونها ، وإذا صادقت أن مجرد التصور والتوهم يحدث هذه التغيرات والانفعالات في هيولى البدن وليس ذلك لكون النفس ملاصقةبالبدن منطبعة فيه ، بل لتعلق قهري وارتباط عِليّ (عقلي) وعلاقة شوقية لها به ؛ فلاتتعجب من نفس شريفة قوية تؤثر في بدن الغير وفي هيولى العالَم مثل هذا التأثير ، لأجل مزيد قوة شوقية ، واهتزاز علوي ، ومحبة إلهية لها وشفقة لها على خلق الله شفقة الوالد لولده والأم لولدها ، فيؤثر نفسه في إصلاحها وإهلاك ما يضرها والمجاهدة مع ما يفسدها .

وكما إن الخاصية الثانية توجد بوجه غير مرضي ولامحمود في نفوس الأشرار ، فكذا هذه الخاصية يوجد شيء منها في بعض النفوس القوية من غير تأله ولامعرفة ، بل لشدة قوته التأثيرية قد يتعدى تأثيرها في بدن آخرحتى يفسدالروح بالتوهم ، ويعبّرعن هذا **بإصابة العين** .

كما روي عنه ﷺ إنه قال : «العين يُدخل الرجلَ القبرَ، والجملَ القِدرَ» وقال ﷺ أيضا : «العين حق» [1]

فإذا كان هذا النحو من التأثير - أي بدون آلة جسمانية - ممكناً في حق الأشرار ، فما ظنك بنفوس عظيمة شديدة القوة شديدة البرائة عن المواد ، كيف لايتعدى تأثيرها عن بدنها وعالَمها الصغيرإلى غيره فيؤثرفيهيولى العالم تأثيرها في بدنه ، ومثل هذا يعبّربالكرامة والمعجزة عند الناس .

---

(١) الجامع الصغير: باب العين، ١/ ٧٠.

والخاصية الأولى أفضل أجزاء النبوة عند الخواص، ولهذا كان أعظم معجزات نبينا ﷺ القرآن، و هو كما ترى مشتمل على المعارف الإلهية . وحقائق المبدء والمعاد ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، وبيان أحوال الواصلين إليه تعالى على وجه عجز عن دركه إلا الأقلون من الراسخين من أمته . وفيه الإخبار عن المغيبات والأفعال الخارقة للعادات ، مع أن نفسه أيضا من المعجزات العقلية التي كلّت أذهان العقلاء عن دركها ، وخرست ألسن الفصحاء عن وصفها .

فهذا ما أوردناه من معنى إرسال الرسل وكيفية إنزال الكتب .

الفائدة الثانية

الإشارة إلى تكميل القوة النظرية وتعديل القوة العملية المستفادين من لفظي الكتاب و الميزان والإقران بينهما في الإنزال ، و التعليل لهما بقيام الناس بالقسط

و بيان ذلك إن للإنسان هويّة مجردة عن الأحياز والأمكنة ، و هي لطيفة ملكوتية ، و كلمة روحانية مضافة إلى الحق ، فائضة بأمره من غير وساطة المواد واستعدادها إلا بالعرض - كما حققناه في موضعه - وهي المشار إليه بقولنا : «أنا» و هي الجوهر الباقي منا إلى يوم الحشر والحساب مع اضمحلال الأجزاء البدنية ، وهي المحشور إلى ربها عند القيامة بالبدن الأخروي المماثل لهذا البدن، بل عينه ، لأن هوية البدن و تشخصه إنما هي بالنفس في مدة بقاء الكون و إن تبدلت الأعضاء بالاستحالات الحاصلة من الحرارات الغريزية الطبيعية، والغريبة الداخلة ، والمطيفة بالبدن الخارجة .

وبالجملة حقيقة الإنسان ليست إلا ذاته المجردة، وكل ذات إنما يكون هلاكها في نقصها وضعفها و آفتها و مجاورة ضدها وبقاء ها في كمالها و قوتها و صحتها ومجاورة أشباهها، ولكل شيء كمال خاص، فكمال القوة الشهوية نيل المشتهيات

واللذائذ الحسية، وكمال القوة الغضبية الظفر بالانتقام، وكمال القوة الحسية إدراك المحسوسات، وكمال القوه المتخيلة تصوير المتمثلات ، وكمال الواهمة الظنون والرجاء .

و للنفس الإنسانيةفي ذاتها كمال يخصها ، و لها قوتان : إحديهما عاقلة نظرية متوجهة إلى الحق، والأخرى عاملة محركةللبدن متوجهة إليه،فكمال النفس بحسب قوتها النظرية بمعرفة حقائق الأشياء و كلياتها والمبادي القصوى فيالوجود وبالجملة معرفة الحق الأول بماله من صفات جماله، ونعوت جلاله، وكيفية صدور أفعاله عنه ورجوعها إليه ، ومعرفة كونه غاية الأشياء الذي يتوجه إليه الموجودات في بقائها، كما يبتدي منه في حدوثها، إلىغيرذلك منالمعارف الحقّة التي كانت مستعدة لها أولا عند كونها هيولانية الذات، ثم يحصل لها بسبب حصول المقدمات صورها على نحو البرهان الدائم اليقيني، ثم سيصير مشاهدة إياها فائضة من الحق الأول، ثم يصير متصلة بها، منخرطة في سلكها، مستغرقة في شهودمبدئها ومعادها ، بحيث لا يلتفت إلى ذاتها العارفة به تعالى ، فضلا عن غيرها ، بل الاضمحلال في المعروف يذهلها عن كلشيء حتىعن ذاتها وعنعرفانها لمبدئها.

فاليقين الأول هوالعلم ، والثاني هو العين ، والثالث هو الحق فهذا هو كمال النفس بحسب قوتها النظرية ، ولاشبهة في أنه لايحصل هذا الكمال إلابسبق معرفة الحقائق والعلم بالمعقولات ، ولاشبهة في أن كتاب الله مشتمل على جلها بل كلها ، و لا شك في أن حصول المعارف و العلوم متوقف على وساطة الرسول ، ووساطته إنما تحصل بإنزال القرآن ، فقوله تعالى : ﴿ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُم ٱلْكِتَابَ ﴾ إشارة إلى ما يستكمل به القوةالنظرية .

و أما كمال النفس بحسب القوة العملية الذي يكون الميزان إشارة إليه فبيانه : إن النفس لما كانت في أول نشأتها ناقصة ضعيفة القوام بذاتها ، فيحتاج في استكمالها بالكمال الذي قد سبق ذكره إلى مادة بدنية تفيض و تستفيد بواسطة آلاته الجسمانية و مشاعره الإدراكية مبادي ادراكاتها التصورية والتصديقية من

الأوليات الحاصلة من المشاركات والمباثنات بين مايقع الإحساس بها من المحسوسات الجسمانية ، فتكون النفس في أول الاستكمال محتاجة إلى البدن وقواه على الوجه المذكور، ولذا قيل: « مَن فقَدَ حِساً فقَدَ علماً ».

ثم إن البدن جسم مركب من عناصر متضادة فله بحسب كل منها أضداد يجب الاحتراز عنها في مدة بقائها، وهو في أول التكون قليل المقدار صغير الجسم لكون كل بدن حاصلا من مثله في النوع بفضلة تحصل منه ، و فضلة الشيء لا يمكن أن يساويه، فلهذا الوجه ولوجوه أخر مذكورة في مقامه لابد أن يكون في أول الحداثة قليل المقدار غير تام الخلقة ، ويكون تمامه بورود الجسم الشبيه به .. قليلا قليلا ـ في مدة حيوته وهو الغذاء وطلبه إنما يكون بالشهوة ، و الشهوة لا بدلها من إدراك سابق لأن كل جسم لايصلح للتغذي، إذربما يكون سماً قاتلا أومضراً، فيحتاج الإنسان إلى قوة ما يدرك المصلح عن المفسد في الأجسام الغذائية ، ولا بدّ أن يكون مدركاً بإدراك جزئي من الحواس الظاهرة ـ لأجل التميّز ـ والباطنة ـ لأجل الحفظ والذكر ـ إذربما لايكون في كل جسم ما يشهد كونه ملائماً أو منافيا في كل وقت.

فثبت إن استكمال النفس متوقف على بقاء البدن مدة، و بقاء البدن متوقف على **قوى ثلث لأمور** ثلاثة: قوة العلم للتميز بين المصلح والمفسد، وقوة الغضب لدفع المفسدة ، وقوة الشهوة لجلب المنفعة .

و مباشرة النفس لهذه القوى الثلاث من باب الضرورة كما علمت ، و إلا فكمالها في التجرد عنها ، ومن ابتلي بصحبة الأخسّاء من الأضداد فما دام اشتغاله بها و عدم الخلاص عنها فالتوسط بين الأضداد بمنزلة الخلوّ عنها، فإن الماء الفاتر بمنزلة الخالي عن الحرارة والبرودة. فكمال النفس ـ عند استقلالها بالقوى الثلاث واستعمالها إياها ـ توسطها بين الإفراط والتفريط فيها لأن لاينفعل عنها ولا يطاوعها في مآربها، بل يستعملها على هيئة الاستعلاء عليها لاالانقهار عنها، وهي إنما تحصل بالتوسط فيها.

أما قوة العلم ـ أي استعمال الحواس الظاهرة والباطنة في أمور الدنيا ـ

فتوسطها و اعتدالها يسمى «بالحكمة» وهي معناها غير العلم العقلي بحقائق الأشياء بالقوة النظرية، فإنها كلما كان أوفر كان أفضل ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٢/٢٦٩] وإفراط هذه القوة يسمى « بالجربزة » وهي المكر والخديعة ، وتفريطها هي«البلاهة» و«السفاهة» وكلا الطرفين مذمومان .

وأما قوة الغضب: فتوسطها واعتدالها «الشجاعة» ـ و هي فضيلة كالجود ـ و كلاجانبيهاـ وهما «التهوّر» و «الجبن»ـ رذيلتان، كما إن طرفي الجود ـ كالبخل والإسراف ـ مذمومان لقوله تعالى: ﴿ وَلَاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَاتَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾[١٧ر ٢٩] وقوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا﴾ [٢٥ر٦٧] .

وأما قوة الشهوة فتوسطها واعتدالها هو «العفة»، وطرفاها ـ و هما «الشره» و«الخمود»ـ رذيلتان .

و من تركيب هذه القوى الثلاثة و امتزاج أوساطهاالثلاثة تحصل قوة أُخرى لها توسطـ هي الفضيلةـ المعبّر عنها«بالعدالة».

ولها طرفانمذمومان : فإفراطها « الظلم » وتفريطها « الانظلام » .

* * *

فهذه الصفات الأربع أُصول الفضائل العلمية، وأطرافها الثمانية هيالرذائل ومجموعها حسن الخلق إذا صارت ملكة ينوط بها خلاص الإنسان منذمائم الأخلاق الموجب لسخط الباري و غضب الخلّاق ، والتعذب بالاحتراق بالجحيم لأجل الانحراف عن العدالةـ المعبّر عنها بالصراط المستقيم، فخير الأمور فيهذاالعالم أوسطها، فكماإننفس الطريقالمستقيم ليستمقصوداً، بل جوازها يؤديإلىالمقصود فكذلك حسن الخلق ليس كمالا ، بل الاتصاف به يورث الخلاص من الجحيم ، وإنما الكمال الحقيقي والمقصود الأصلي هو معرفة الحق الأول ومايليهمنالصفات الجمالية والأفعال الإلهية التي تكمل بها النفس ، و تقرّ بمشاهدتها العين السليمة من الأمراض الباطنية، فالميزان الذي تقوم فيه الناس بالقسط و يعتدل به نفوسهم

ويحسن خُلقهم هو إشارة إلى مجامع الأخلاق الحسنة .

وقد روي عن النبي ﷺ إنهقال : أثقل ما يوزن في الميزان خُلقٌ حسَن [1]

وقال ﷺ:«بعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق» [2] .

وقيل: « ماالدين؟ » فقال ﷺ: « الخلق الحسَن ».

وقالﷺ: « حُسن الخُلق خُلقالله » [3] .

وقالﷺ أيضاً: «أفضل المؤمنين ايماناً أحسنهمخُلقا» [4] .

و إليه الاشارة في قوله تعالى: ﴿ وَ نَفْسٍ وَمَـا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَـا وَتَقْوَيٰهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيٰهَا* وَقَدْخَابَ مَنْ دَسَّيٰهَا﴾[٩١ر٧-١٠]

وكما إن للحُسن الظاهر أركاناً ـ كالعين ، والأنف ، والفم، والخـد ـ ولايوصف الظاهربالحسن مالميحسن جميعها، فكذلك للنفسالتيهيباطن الإنسان وجه إلىالخلق ، و وجه إلى الحق ، و وجهها التي يلي الحق هو جهة وحدتهـا وبساطتها، و وجهها التي يلي الخلق جهة تركيبها من الأخلاق ، وللأخلاق أركان وأصول، فلا بد من حسن جميعها حتىيحسنالخلق، ولهذا كانَ في الأدعية النبوية «اللهم حسّن خُلقي» [5] لحسن الوجه العملي التدبيرى، و: «اللهم أرني الأشياء كما هي » لحسن الوجه العلمي الشهودي .

والعدالة عبارةعن هيئة تحصل به حسن وجه النفس ، وهي فضيلة متضمنة

---

(١) المسند : ٤٤٢/٦.

(٢) روى بألفاظ مختلفة. راجع المسند: ٣٨١/٢ والموطأ: باب ما جاء في حسن الخلق: ٩٧/٣. ومجمع الزوائد: ١٥/٩.

(٣) الجامع الصغير: ١٤٨/١.

(٤) الجامع الصغير: ٥١/١. وفي المسند: ٩٩/٦ : «أكمل المؤمنين..» وجاء مثله في الكافي: ٩٩/٢ عن أبي جعفر عليه السلام.

(٥) المسند: ٦٨/٦ و ١٥٥ : «اللهم أحسنت خَلقي، فأحسن خُلقي».

لجميع الفضائل الخلقية، كما ان الحُسن الظاهري فضيلة جسمانيةمتضمّنة لكمال سائر الفضائل الخَلقية ، و تناسب جميع الهيئات البدنية ، والتخاليط و التشكيلات الجسمانية، ويعبر عنها بالميزان لاشتراكها معه فيما يعرف به مقدار الشيء، إذيعبر (يعرف ـ ن) بها فقد الأخلاق ـ التي بها زينة جوهر الذات الإنسية عن زيفها واستقامة الأعمالعن ميلها وحيفها، وخلاصها عن غشّها .

والموازين لايجب أن يتساوى الجميع في الذات والماهية، بل في كونها ميزاناً،وإنهامما يعرف بهحال الشيء كمية أو كيفية، فإن الاسطرلاب ميزان،والمسطرة ميزان، والعَروض ميزان، والنحو ميزان، والمنطق ميزان، لاشتراك جميعها فيما به يسمي الميزان ميزاناً، وإن اختلفت في الماهية، لكن هذا الميزان الذي كلامنا فيه هو بعينه ما سيعود يوم القيامة بصورته المناسبة للنشأة الآخرة ، فيعرف به كل واحد من الناس مقدار عمله بمعيار صادق ، ثم يحاسبون على أقوالهم و أفعالهم وضمائرهم ونيّاتهم مماأبدوه أوأخفوه، ثم يساقون إلى الصراط وهوجسرممدود بين منازل الأشقياء والسعداء أحدّمن السيفوأدقّ من الشَعر، يخفّ عليهمن استوى في الدنيا على الصراط المستقيم الذي هوصورة العدالة ومثاله في الآخرة .

وقدأشرنا إلى أن فضيلة العدالة ليست فضيلة حقيقية للإنسان وخيراً حقيقياً بل هيطريقمستقيم يؤدي إلىالكمال والخيرالحقيقيين،فلابد منجوازهاحتى تصل النفس إلى كعبةالمقصود، ويتنعّم بالنعيم ومجاورة المعبود .

فهذا ما أردنا من بيان معنى الميزان الذي يقوم به الناس بالقسط.

الفائدة الثالثة

الإشارةإلىترتيب سلسلة الموجوداتوتقدم بعضها على بعض و تأخر بعضها عن بعض بحسب الشرف و الكمال و الحاجة والافتقار فيالنزول منهوالصعود إليه :

وبيان ذلك بأن أوائل الموجودات الصادرة عنه تعالى التي صدرت بمحض

الجود والخير من غير استعداد وتركيب ـ وهي التي تسمى «بعالَم الأمر» لوجودها عنه تعالى بمجرد أمره، من غير توسط وجود قابل، واستدعاء افتقار ثابت وتضرع بلسان استعداد لوجودها، و صدورها عنه تعالى على هذا الوجه، وهي عقول مفارقة هي «الملائكة المقربون» وعالَمها «عالَم القضاء».

ثم نفوس مجردة هي «الملائكة المدبّرون» وعالَمها «عالم التقدير والتدبير»

ثم أجرام سماوية و عالمها « عالم الأعمال و الحركات » التي تنشأ منها العناصر الأربعة بتوسط هيولاها المشتركة، وهي نهاية تدبير الأمر المشار إليه في قوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ [٣٢ر٥]﴾ .

و أما الموجودات الفائضة عنه بتوسط المواد والقوابل و الاستعداد فهي المركبات على هذا الوجه: المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ثم أول درجة الإنسان و هو الذي في أوائل العقول ، ثم مرتبة أهل الايمان ثم مرتبة العلماء ثم الأولياء والأنبياء .

وعند الوصول إلى رتبة الأولياء والأنبياء وقع الوصول إلى الحق ، فرجع سلسلة الموجودات في الصعود إلى الحق ثانياً عند ارتفاعها عن درجة النقصان والخسّة إلى حيث نزلت منه تعالى أولا، فهو تعالى مبدء الأشياء وغايتها ، وهو الأول والآخر.

* * *

وإذا تمهد هذا : فقوله : لقد أرسلنا ـ إشارة إلى عالم الملكوت المتوسطة بينه وبين الخلق ، و هو مشتمل على الملائكة والأنبياء ، ولايتم النبوة إلا بالملك النفساني الذي يخبر بالحوادث الآتية والماضية ، ولاينصلح اخباره للرسول إلا بعد استعلامه من الملك العقلاني المتوسط بينه وبين الله ، الذي يستفاد منه حقائق الاعتقادات الكلية ، فكما إن الأنبياء يصلحون اعتقادات الخلائق ، فكذلك الملائكة يصلحون بعضهم بعضاً إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل قوام ، ومطلع كل حسن ونظام .

و قوله : ﴿أَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ـ إشارة إلى الملك النازل على قلوب الأنبياء بالوحي ، وحكم الأنبياء عند اتصالهم بعالم الغيب و مشاهدتهم الملائكة هو بعينه حكم الملائكة في منزلتهم و مرتبتهم في الوجود ، وإن صدّق عليهم حين نزولهم من عالم تقدسهم إلى درجة أفهام الخلق قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [٤١/٦] .

ثم إن الإرسال والإنزال أمران نسبيّان يدلان على المنزل والمهبط بالالتزام، ومهبط نزول الرسل (الوحي ـن) والملائكةعالم الأجسام ، والهبوط لابد فيه من المرور على المراتب المتوسطة بينعالم القدس و عالم الجرم الأرضي الذي هو أسفل السافلين ، فقدوقعت الإشارة إلى المراتب الكلية لسلسلة النزول .

وأما الإشارة إلى سلسلة الصعود : فلفظ الميزان ممايحتمل أن يكون إشارة إلى التعادل فيالعناصر الذي يقال له المزاج ، المشار إليه بقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [٥٥ / ٧] وهوالذيبه يتهيأ المواد العنصرية لأن تحصل منه المواليد الثلاثة ، فإن المانع عن قبول الحيوة والشرف من اللهتعالى في الأجسام السفلية هي التضاد ، وإلا فالجود مبذول و الرحمة واسعة ، أو لاترى إن الأجرام العلوية لخلوها عن التضاد فيالكيفيات حيّة مطيعة لله تعالى في أوامره و نواهيه ، لاكارهة كالأرضيات كما وقعت الإشارة في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَو كَرْهاً ﴾ [٤١ / ١١] وقوله : ﴿ وَ أَوحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ [٤١ /١٢] .

فكلما أوغلتالعناصر عندالامتزاجفي الاعتدال والتوسط بينأطرافالأضداد الذي هو بمنزلة الخلو عنها يستعد لإفاضة كمال أشرف وحيوة أرفع .

فأول مايحصل لها منالتوسطوالاعتدال هو مايحصل منه المعادنعلىمراتبه ثم النبات كذلك ، ثم الحيوان على أنواعه ، ثـم الإنسان على طبقاته في الشرف والبرائة من الأضداد ، وقدتقرر في العلوم الإلهية : إنالطبيعة مالمتستوفالنوع الأخسّ لمتتخط إلى النوع الأشرف ، فقوله : ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾إشارة

إلىوجود صورة الإنسان بحسب القسط والعدل في كيفيات عناصره وكمياتها وهو المزاج المعتدل الإنساني الذي هو أشرف الأمزجة المعبَّر عنه بالتسوية في قوله : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [١٥/٢٩] .

وكونالميزان إشارة إلى الاعتدال في الكيفيات والصفات الجسمانيةلأجزاء البدن لاينافي كونه إشارة إلى العدالة في الأخلاق النفسانية ، أما علمت إن وجوه فهم القرآن لاينحصرفي واحد ، فإن للقرآن ظهراًوبطناًوحداً ومطلعاً ـ كماورد في الحديث[1] عنه ﷺ ـ بل ذلك الوجه يلائم هذاالوجه ويطابقه تطابق الظاهر للباطن ، إذالعوالمتطابقة ، والنشئات متحاذية ، فالاعتدال في المزاج يستدعي أن تكون الصورة الإنسانية الفائضة عليه عدلاً في الصفات المعنوية و أصول الأخلاق النفسانية ، التيهي بمنزلة صور الكيفيات الجسمانية .

وقوله : وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ـ إشارة إلىدرجة المعادن ، وهي الدرجة النازلة منالمواليد ، كما إن الدرجةالإنسانيةمنالحيوان ـ المشارإليها بقوله : لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ـ هيالدرجة العالية منها .

وقوله : وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ـ يومي إلى درجة النباتات لأن الحديدآلة الحرث و الغرس . على أن من الإشارة إلى الجماد وإلى نوع من الحيوان وهما الطرفان النازل والعالي من المركبات ـ لزمت الإشارة إلى النبات بالالتزام على مامرمن توقف النوع الأشرف على النوع الأخسّ في سلوك الطبيعة درجات الصعود إلى الحق ، كمايتوقف الأخسّ على الأشرف في النزول عنه ، وإلىالحيوانبالتضمن، لأن الحيوان بماهو حيوانجزءمنالإنسان ، ودلالة الشيء على جزئه بالتضمن .

وأماقوله : وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُه ـ إشارة إلى درجة أهل الايمان والمعرفة ، لأنهم ينصرون دينالله بالمجاهدة معالكفار ، وهم متفاوتون فيالفضيلة ، وأفضلهم

---

(١) قال العراقي (ذيل احياء العلوم: ١/٩٩) : أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود، ورواه العياشي (١/١١) بلفظ آخر.

العلماء الذين ينصرون دينه تعالى بالاجتهاد والاستنباط بالفكر الصحيح.

و قوله : وَرُسله ـ إشارة إلى درجة الأنبياء والأولياء الذين بهم ينتهي ارتقاء المكونات في توجههم شطر كعبة الحق وتلقاء مدينة الخير الحقيقي الذي لايشوبه شوب قصور وزوال ، وهو الله العزيز المتعال ، القوي الشديد في الآثار و الأفعال ، ولذلك وقع الإنتهاء باسم ذاته تعالى صريحاً مع ذكر صفة كمالية إضافية، وأخرى جلالية سلبية ، كماوقع الإبتداء بهضمناً وكذا وقع الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، لأن السلسلة الأولى شعورية ، والأخرى إشعارية فابتدأت الأولى بمايناسبهامن الشعور دون الإشعار ، وانتهت الثانية أيضاً بمايناسبها من الإشعار ، ولأن أهل السلسلة الأولى أصحاب الجبر والاستغراق في الشهود والفناء والهيمان ، فلا التفات لهم إلى ذواتهم ولاإرادة لهم سوى إرادة الله وأهل السلسلة الثانية أصحاب الاختيار والإرادة المنفصلة عن إرادة الله ، وذلك لوجود الوهم والخيال فيهم و هو مناط التكليف لزعمهم أن لهم وجوداً مستقلا بالذات ، فالإضمار و التكلّم يناسب الأولى ، و الإبراز والغيبة يناسب الثانية.

﴿ الفائدة الرابعة ﴾

الإشارة إلى علمه بالجزئيات الزمانية على الوجه الجزئي

وهو الذي حارت فيه أفهام الحكماء والفضلاء حيث ذكروا إن العلم بالشيء على سبيل التجدد والتعاقب يوجب التجسم والتغير في ذات العالم ، مع أن القرآن مشحون بذكر مايدل على تجدد اختبار وابتلاء ، واستيناف نحو من أنحاء العلم ، كقوله تعالى في هذه الآية : ﴿لِيَعلَمَ اللّهُ مَنْ يَنصُرُه﴾ وكقوله : ﴿ لِيَبلُوَكُم أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً﴾ [١١/٧] .

ومن هذا القبيل كل آية وقعت فيها نسبة الابتلاء إليه تعالى ، وهذا أمر لايعرفه النظار بقوة البحث والنظر إلا من أيّده الله بتوفيق خاص إلهي يصل بـه إلى إدراك

الحق بأقدام العبودية و الإخلاص في العلم والعمل ، وقدأومأنا إليه وإلى كشفه في مواضع متفرقة من الأسفار .

الفائدة الخامسة

الإشارة إلى الفرق بين معاني الغاية التي قديقع بإزائها حرف « اللام »

فإن الغاية قد يراد بها « السبب الغائي » وهومابه يكون الفاعل فاعلا تامّاً ، وقديراد بها «مايؤدي إليه الفعل» من غير أن يكون مقصوداً للفاعل في فعله ويقال له «الضروري» ، وقديراد بها « ما ينتهي إليه الفعل » بحسب الذات والقصد جميعاً .

و الغاية بالمعنى الأول في أفعاله تعالى لاتكون إلا ذاته ، لأنه تامّ الفاعلية والايجاد ، وبالمعنى الثالث لوأريد به آخر ماينتهي إليه الفعل فهو أيضا ذاته ، وقد يكون غيره كما في الحديث القدسي عنه تعالى : « لَولاكَ لَماخَلقتُ الأفلاك » .

وأما المعنى الثاني فهولايكون إلاغير ذاته .

ومثال المعنى الأول : تصورالسكنى في بناء البيت للباني ، بل تصورالراحة التي يتصورها عند السكنى ، ومثال المعنى الثاني : المنفعة الحاصلة للأجير في بنائه ومثال الثالث : وجود السكنى أوالراحة الذي ينتهي إليه الحركات البنائية .

فقوله : أرسَلْنَا رُسُلَنا ــ وماعطف عليه ــ إشارة إلى العلة الغائية بالمعنى الأول ، لأن الإرسال والإنزال فعلان إختياريان لابد فيهما من علة غائية ، وقوله : لِيقومَ الناسُ إشارة إلى الغاية بمعنى الضروري ، وقوله : وَلِيعلَمَ اللهُ مَنْ يَنصُرُه ــ إشارة إلى الغاية الذاتية التي ينتهي إليها الفعل بالذات .

الفائدة السادسة

الإشارة إلى عنايته وحكمته في خلق الحديد وعجائبه وفوائده ، وكيفية حدوثه من الأدخنة والأبخرة المحتبسة في الجبال والمعادن مدة مديدة بإذن الله تعالى

بتوسط الكبريت والنفط والقير وغيرهـا مما يتوسط في القوام بين رقّة الأدخنة ولطافتها وغلظ الحديد وكثافته، وإطاعته للإنسان في قبول الذوبان واللين بالحرارة النارية ، وقبول الاستطراق تحت المطارق وبقـاء لينه عند الطرق حتى يتخذ منه الآلات الصناعية على أي وجه أريد ، ثم رجوعه إلى جموده الأصلي عند التبرد لتبقى التشكلات المقصودة منه في كل صنعة .

فانظر إلى رحمة الله كيف هدى الناس إلى تحصيله من الجبال، ثم إلى كيفية تليينه بالنار، واتخاذ آلات الصنائع منها لجلب المنفعة ودفع المضرة الحاصلتـان عنداستعمالها بداعية العمال الشهوية والغضبية، المنبعثتين عنداستعمال النفس المدبرة إياها بإشارة العقل المكمل الهادي إليها بإلهام الحق له، وهو تعالى الأول في البداية، والآخر في النهاية ، ومنه الإفاضة والجود في المبدء والغاية .

* * *

قوله عزوجل :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٢٦)

عطف سبحانه على ماتقدم من ذكرالمرسلين مجملا بذكر نوح وإبراهيم ـ على نبيّنا وعليهاالسلام ـ مفصلاوإنما خصّهما بالذكروذكرقصتهما لفضلهماوكونهما أبوي الأنبياء ، كمايدل عليه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ﴾ فإن الأنبياء كلهم من نسلهما وذريتهما ـ عن ابن عباس ـ .

الكتاب : الخط بالقلم . يقال : كَتَبَ كِتاباً وكِتابةً .

ثم أخبرتعالى عن حال الذرية بحسب النشأة الأخروية ، فقال : فَمِنْهُم ـ أي فمن الذرية ، أومن المرسل إليهم ـ لدلالة ذكرالإرسال عليه ـ مُهْتَدٍ ـ إلى طريق الحق ـ ومنهم فاسق ـ عن أمرربه والغلبة للفساق .

مكاشفة

اعلم إن لوجودكل من الصنفين مصلحة وخيراً يخصّه ويليق به لئلايلزم أن يكون الخيرقليلا والشركثيراً في أشرف أنواع الكائنات .

فليس لأحد أن يقول أكثرأفراد الإنسان يغلب عليهم الشرعلى مادلت عليه الآية ، ولأن مناط تحصيل السعادة والشقاوة للنفس الآدمية إنما هو استعمال قواها الثلاثة : ـ الإدراكية ، والشهوية ، والغضبية ـ إذ هي مبادي الأفاعيل والانفعالات ، ومن تكرر الافاعيل والانفعالات تحصل أخلاق وملكات هي المنتجة للسعادة أو الشقاوة في العاجل والآجل ، والغالب على أكثر الناس على مانراه هي أضداد الأخلاق الحسنة ـ من الجهل ، وغلبة الشهوة ، واستيلاء حب الدنيا ، وميل الرياسة ،

والبخل ، والحسد ، والكبر، والريا ، وأشباهها . ومايترتب عليها وينبعث عنهامن الفسوق والمعاصي ، فيلزم كونهم من الأشرارالمردودين عن رحمة الله ، على أن رحمته وسعت كل شيء ، فمامعنى كونه تعالى محض الرحمة التي لاجهة شريّة فيها ؟ ومامعنى قول الربانيين من الحكماء : « إن الخير مرضيّ والشر مقضي» ؟

لأنّا نقول : لابد أن يعلم إن الخُلق الذي لانجاة معه في الآخرة هي صفة واحدة للنفس من حيث جزئها العلمي ، وهي ضرب من الجهل وهو مايكون مركبا مع الاعتقـاد الراسخ المضـادّ للحق ، وأما من حيث جزئهـا العملـي فليس كل رذيلة توجب الحرمـان عن الغفران ، بل الرذائـل التي رانَت على القلوب وصيـّرتها فاسدة الجوهر ،كجرم المرآة التي أحاطت بها النداوة ظاهراً وباطناً وغاصت فيها وأفسدتها سطحاً وعمقاً، وكون أكثر الناس فسّاقاً ذوات صفات ذميمة لايستلزم كونهممطرودين من رحمة ربهم، بل كماإن الجهل المركب الراسخ المضاد لليقين الذي يوجب الشقاوة الأبدية نادر كوجود اليقين الذي يوجب خيراً كثيراً وقسطاً وافراً من السعادة ، والجهل البسيط الذي لايضرفي المعـاد عام فاشٍ في هذا النوع فكذلك حال القوتين الأُخريين .

فالبالغ في فضيلة العقل والخلق- وإن كان نادراً- كالشديد النزول فيهمالكن المتوسطين على مراتبهم أغلب وأوفر، وإذا ضم إليهم الطرف الأعلى كانت لأهل النجاة غلبة عظيمة .

ومأشبه حالالأرواح في انقسامها إلى هذه الأقسام بحسب السعادة والشقاوة الأخرويتين بحال الأبدان في انقسامهـا بحسب السعادة والشقاوة الدنيويتين إلى البالـغ في الجمال والصحة والمتوسط فيهما ـ وهوالأكثر- والقبيح السقيم ـ وهو أقل من عدد المتوسط فضلا عن مجموع القسمين ـ .

فإذن قد ثبت إن السعيد اكثرمن الشقي، فالحكم بأن رحمة الله تعالى لاتنال إلاقليلا من عباده غيرصحيح، وقدقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [١٥٦/٧] . وأما خلود أهل الكفرفيالنارففيه سرلاينكشف لأحد إلا من يشاء منخلّص عباده وهوالعليم الحكيم .

قوله عزوجل : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

قرء الحسن «الأنجيل» ـ بفتح الهمزة ـ والأمرفيه هيّن لأن الكلمة أعجمية لايلزم فيها حفظ أبنية العرب، بخلاف أمر«البرطيل» «والسكين» فيمن رواهما بالفتح

وقرء «رآفة» على وزن فعالة .

و«التقفية» جعل شيء إثرشيء على نهج الاستمرار، ولهذا قيل لقواطع الشعر «قوافي» إذا كانت تتبع البيت على إثر بيت مستمراً في غيره على منهاجه .

و«الرّهبانية» أصلها من الرهبة والخوف ، يوصف بها النصارى لترهّبهم بعد موت عيسى عليه السلام في الجبال فراراً من الفتنة في الدين لظهور الجبابرة على مؤمني ذلك الزمان ، وإخلاصا لأنفسهم في عبادة الرب عند التفرد عن الخلق، فهي «الفَعلة» المنسوبة إلى الرّهبان بالفتح ، وهو الخائف «فَعلان» من «رَهب» كخشيان من خَشي وقرء «ورُهبانية» بالضم منسوبة إلى «الرُهبان» وهو جمع «راهب» كرُكبان جمع راكِب ، وهي عبادة مخصوصة بالنصارى لقول النبي [١] صلى الله عليه وآله : « لارُهبانية في

(١) في البحار: كتاب الايمان والكفر، باب النهي عن الرهبانية: ٧٠/١١٥ : «ان الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله». راجع أيضاً: ١٤/٢٧٧. والمسند: ٦/٢٢٦ و ٣ و ٨٢.

الإسلام» وقوله ﷺ: « رُهبانية أُمتي الحج والجهاد » .

وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر، أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، ويجوز أن يكون معطوفة على ماقبلها ، والجملة بعدها صفة لها في محل النصب، والمعنى: ثم أتبعنا بالإرسال على آثار المذكورين كنوح وإبراهيم ومن أرسلنا إليهم أو من عاصَرهم من الرسل برسل آخرين ، أي : أتبعنا رسولا بعد رسول وقفّينا سابقاً بلاحق انتهى الأمر إلى عيسى بن مريم بعدهم ، فأرسلناه رسولا وأعطيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه من الحواريين وأتباعهم للتراحم والتعاطف بينهم رأفة ورحمة ، بأن أمرهم الله بهما ورغّبهم فيهما، أوخلق في قلوبهم الرأفة والرحمة

وإنما مدحهم على ذلك وإن كان من فِعله لأنهم تعرّضوا لهما وابتدعوا رهبانية لم يكتبها عليهم ، وهي خصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة ، إما في كنيسة (شعشعة - شعثة - ن) ، أوتوحش عن الخلق ، أوتفرد عن الجماعة ، أوغير ذلك من الأمور التي تعلق بنسك صاحبه .

وقيل : إن التي ابتدعوها من رفض النساء واتخاذ الصوامع - عن قتادة - وعلى تقدير عطفها على ماقبلها يكون المعنى: وجَعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم . بمعنى : وفّقناهم للتراحم بينهم ، ولابتداع الرهبانية المبتدعة الغير المكتوبة عليهم منّا - إلا ابتغاء رضوان الله - إي ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ، والاستثناء منقطع، أي ما فرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها طلباً لمرضات الله ، ويحتمل الاتصال بتضمين : « ماتعبّدناهم بها » حتى يكون مشتملا على نفي الايجاب والندب المستلزمين لمطلق الراجحية والتقرب ، وهذا وإن كان مخالفاً لقوله : «ابتدعوها» لكن يوجه بأن يقال : معناه ولكنهم ابتدعوها ثم ندبوا إليها .

وابتدعوها : بمعنى : استحدثوها من قِبَل أنفسهم ووافوبها ، فمارعوها حق رعايتها ، أي : الذين بعدهم مارعوا جميعاً للرهبانية ، أوللمذكورات من الرأفة ، والرحمة ، والرهبانية - حق رعايتها ، ولكن بعضهم رعاها ، وبعضهم ضمّ إليها

التثليث ، والقول بالإلحاد، وقصد السمعة والرياء والكفر بمحمد ﷺ ، ونحوهذه الأشياء ،كما إن المنسوبين إلى التصوف في هذه الأزمنة والدورة الإسلامية بعضهم ماراعوا حقّه ـ من تصفية الباطن، والتزهد في الدنيا ، والانقطاع عن أهلها وذويها طلباً لمرضات الله ـ وأكثرهم لم يراعوا حقّه ، بل ضموا إليه السمعة والرياء ، والتغنّي والسماع ، والاشتغال بالملاهي وصحبة الأباطيل ، والمعطّلين عن الفكر والسير في الملكوت وعن ذكر الله إلا بمجرد اللسان عند مجمع الخلائق .

فآتينا المؤمنين المراعين منهم لها أجرهم وكثيرمنهم فاسقون ـ وهم الذين لم يراعوها ولم يوفوا بها .

قال الزجاج : إن تقدير « مَاكَتَبنَاها عَلَيهم » : ماكتبنا إلا ابتغاء رضوان الله وهو اتباع ماأمر به ـ فهذا وجه ـ .

قال : وفيها وجه آخر في التفسير وهو إنهم كانوا يرون من ملوكهم مالايصبرون عليه ، فاتخذوا أسراباً وصوامع وابتدعوا ذلك ، فلما ألزموا أنفسهم ذلك التطوع ودخلوا عليه لزمهم تمامه ،كما إن الإنسان إذا جعل على نفسه صوماً لم يفرض عليه لزمه أن يتمّ .

قال : وقوله : « فَمارَعوهَا حق رِعايتها » على ضربين : أحدهما أن يكونوا قصّروا فيما ألزموه أنفسهم ، والآخر ـ وهو الأجود ـ أن يكونوا حين بعث النبي ﷺ فلم يؤمنوا به ، وكانوا تاركين لطاعة الله ، فما رعوا تلك الرهبانية حق رعايتها ، ودليل ذلك قوله : ﴿فَآتَينَا ٱلذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين آمنوا بالنبي ﷺ ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي كافرون ـ انتهى كلام الزجاج ـ .

ويؤيّده ماروي عن ابن مسعود قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يابن مسعود ـ اختلف مَن كان قبلكم عن اثنتين وسبعين فرقة ، نجا منها اثنتان وهلك سايرهنّ ، فرقة قاتلوا الملوك على دين عيسى عليه السلام فقتلوهم ، وفرقة لم يكن لهم طاقة لموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم الى دين الله تعالى ودين عيسى عليه السلام فساحوا في البلاد وترهّبوا وهم الذين قال الله لهم : « وَرَهبَانيَة ابتَدَعوها

مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم » .

ثم قال ﷺ : من آمن بي وصدّقني واتّبعني فقد راعا حقّ رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون .[1]

مكاشفة

في هذه الآية حجة على عدم خلوّ الزمان عمن يقوم به حجة الله على خلقه ، إذ علم إنه بهذا جرت سنّة الله من لدن آدم ونوح وآل إبراهيم إلى وقت نبيّنا ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ولن تجد لسنّة الله تبديلا ، لكن النبوة قد ختمت برسولنا ﷺ والولاية التي هي باطن النبوة باقية إلى يوم القيمة ، فلابد في كل زمان ـ بعد زمان الرسالة ـ من وجود وليّ يعبد الله على الشهود الكشفي من غير تعلّم ، ويكون عنده مأخذ علوم العلماء والمجتهدين ، وله الرئاسة العامة في أمر الدين والدنيا ، وهو الداعي للخلق بحسب الفطرة من قِبل الله ، سواء أطاعته الرعية أولا ، والناس أجابوه أو أنكروه ، وسواء كان ظاهراً مشهوراً ، أو مستتراً مغموراً ـ كأكثر الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ـ .

وكما ان النبوة والشريعة قد ختمت برسولنا ﷺ فالولاية التي هي باطنها تختم بآخر أولاده المعصومين ، **وهو الذي يواطي اسمه اسم رسول الله ﷺ ،** ومعناه معناه ، وبوجوده أُقيمت البلاد ، ورُزقت العباد ، وبظهوره يملأ الله الأرض قسطاً وعدلا بعدما ملئت ظلماً وجوراً .

* * *

---

(١) الظاهر إن المصنف نقل الحديث والكلام المنقول قبله عن الزجاج عن مجمع البيان (٢٤٣/٩) وجاء الحديث مسنداً مع فروق في اللفظ في المستدرك للحاكم: ٤٨/٢ . والدر المنثور: ١٧٧/٦.

وفي حديث كميل بن زياد النخعي عن أمير المؤمنين عليه السلام مايدل على هذا المطلب، وهو قوله - بعد كلام سابق - :

« ياكميل مات خزّان الأموال والعلماء باقون مابقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، آه آه إنّ هيهنا - وأشار بيده الشريفة إلى صدره المقدس - لَعِلماً جمّاً لوأصبت له حملة، بلى أصيب له لقناً غير مأمون، يستعمل آلة الدين في الدنيا، ويستظهر بحجج الله على خلقه، وبنعمه على عباده، أو منقاداً للحق لابصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض شبهة. ألا - لاذا ولا ذاك، أو منهوماً باللذات سلس القيادة للشهوات، أو مغرى بالجمع والإدّخار ليسا من دعاة الدين في شيء، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى، لاتخلو الأرض من قائم لله بحجة، ظاهراً مشهوراً، أو مستتراً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيّناته وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلّون عدداً، الأعظمون خطراً، بهم يحفظ الله حجته وبيّناته حتى يودعوها نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقائق الأمور، وباشروا روح اليقين، واستلانوا مااستوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إلى رؤيتهم . - انتهى الحديث -[1] .

* * *

وفيه إشعار بأمور :

الأول : إن العالم الحقيقي له الولاية على الدين والرئاسة فيه .

والثاني : إن سلسلة العرفان بالله والولاية المطلقة لاتنقطع أبداً .

---

(١) كمال الدين: باب ما أخبر به علي عليه السلام من وقوع الغيبة:٢٩٠؛ نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام: رقم ١٤٧.

والثالث : إن عمارة العالم الأرضي ووجود أفراد الإنسان وسائر الحيوانات وغيرها من الكائنات إنما يكون بوجود العالم الرباني ، وقد يقام عليه البرهان في الحكمة المتعالية ، **فيلزم منه الاعتراف بوجود إمام حافظ للدين في كل زمان.**

الرابع : إن هذا القائم بحجة الله لايجب أن يكون ظاهراً مشهوراً كمولانا أمير المؤمنين عليه السلام في أيام تمكّنه من الخلافة الظاهرة ، بل ربما يكون خاملاً مستوراً - كهو عليه السلام قبل ذلك الوقت ، وكأولاده الاحدى عشر بعده ، **سيما القائم المنتظر إمامنا الهادي** - سلام الله عليه وآله وآبائه الطاهرين - المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [٣/٣٤] .

وفيما روي عن النبي صلى الله عليه وآله لايزال أمتي بخير ماوليهم إثنا عشر خليفة كلهم من قريش .[١]

الخامس : إن من خواصّ أوليـاء الله وحججه أن يكون علومهم ومعارفهم حاصلة بحدس تامّ وإلهام من الله من غير تعمـّل وتكسـّب ، كما دلّ عليه قوله عليه السلام : « هجمَ بهم العلمُ على حقائق الأمور ، وباشَروا روحَ اليقين » أي اطلعهم الله على حقائق الموجودات، وقذف في قلوبهم نوراً من لدنه ؛ يريهم الأشياء كما هي، وهذه هي الحكمة الحقيقية التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً .

السادس : إنه قد علم شرف الحكمة الإلهية ومنزلة حامليها ، حيث اشتاقت نفسه الشريفة عليه السلام إلى لقائهـم مع كونه قدوة الربانيين ومقدّم السائرين إلى الله بقوة الحكمة والعرفان ، وبه ينتهي سلسلة السالكين وأصحاب الطريقة والصوفيين ومَن يحذو حذوهم في التألـّه والمعرفة - لافي مجرد الرياضة البدنيـة وجلوس الصوامع ولبس الخرقة ، إذ لا كمال فيه يعتدّ به - .

وذلك لأن الجنسية علـّة الضمّ ، والجنس يحنّ إلى جنسه ، ولأن فنون التقرب إلى الله تعالى متعددة ، وأذواق الكاملين مختلفة ، مع اشتراكهم في غلبة جانب

---

(١) راجع البحار : ٣٦/٢٢٦ - ٢٧٣.

التوحيد والعلم والفناء والبقاء ، فلايبعد أن يكون الاشتراك في جهة الكمال المطلق ومظهرية الذات الأحدية يوجب أصل المحبة ، والاختلاف في ظهور بعض المظاهر الأسمائية والصفاتية وخفاء بعضها يوجب التشوق بجهة خفاء اسم أوصفة إلى جهة ظهور اسم أوصفة ، فإن تجلّيات الحق بحسب الأسماء والصفات غير متناهية عدداً، فكذلك يختلف المظاهر والمجالي اختلافاً غير متناه شخصياً .

ومما يدلّ على وجود الإمام المطاع في الأحكام في جميع الأزمنة مااتّفقت روايته بين الخاصّ والعامّ في قوله ﷺ : « مَن ماتَ ولم يعرف إمامَ زمانه مات ميتة جاهلية » [1]

* * *

وقد اتّفقت الإمامية على أن الإمام في زماننا هذا هو المهدي عليه السلام الموعود ظهوره في آخر الزمان ، واستبعاد أهل السنة في وجوده وبقائه إلى الآن في غاية السقوط ، إذ الادلة الطبيّة والنجومية على امتناع بقاء الإنسان بعد المأة والعشرين غير تامّة ، ومع ذلك منقوض بوجود الأعمار الطويلة للسابقين كما هو المشهور من آدم ونوح عليهما السلام وغيرهما وببقاء دجّال اللعين من اللاحقين مدة طويلة هي من زمن الرسول ـ عليه وآله السلام ـ إلى وقت خروج المهدي عليه السلام .

وأسقط من ذلك تشنيعهم على الفرقة الإمامية بأن أي ثمرة في وجود إمام لايمكن التوصّل إليه وأخذ المسائل الدينية منه ؟ فإن مجرد المعرفة بإمامته ورئاسته، والتصديق بوجوده وأنه خليفة الله في أرضه ثمرةٌ ينتفع بها، وليست الفائدة منحصرة في مشاهدته ، أولاترى إن من كان في عهد النبي ﷺ وصدّق بوجوده وبرسالته كان مؤمناً حقاً وإن لم يره مشاهدةً كاويس القرني ـ رضي الله عنه ـ فكذا هيهنا .

وروي عن جابر بن عبدالله الأنصاري : « إن النبي ﷺ **ذكر المهدي** فقال : ذلك الذي يفتح الله على يده مشارق الأرض ومغاربها، يغيب عن أوليائه غيبة

---

(١) روى بالفاظ مختلفة، راجع الكافي: ١/٣٧٦.

لايثبت فيها إلا من امتحن اللهُ قلبَه للايمان .

قال جابر : فقلت : يارسول الله ـ هل لشيعته انتفاع به في غيبته .

فقال ﷺ : اي والذي بعثني بالحق، إنهم يستضيئون بنوره ، وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها السحاب » .[1]

والعجب إنهم حملوا الإمام في قوله ﷺ على أهل الشوكة الظاهرة من ملوك الدنيا ـ كائناً من كان ، عالماً أوجاهلا ، عادلا أوفاسقاً ـ فتشنيعهم على الإمامية مقلوب عليهم بأشدّ وجه بأن يقال: أي ثمرة يترتب على معرفة الجاهل الفاسق ليكون من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية ؟

وأما رجوعهم عن هذا الحمل لغاية سخافته إلى أن المراد بالإمام في ذلك الحديث هو « الكتاب » فدفعته الإمامية بمانقله بعض الأعلام منهم بقوله : إن إضافته إلى زمان ذلك الشخص يشعر بتبدّل الأئمة في الأزمنة ، والقرآن لاتبدّل له ـ بحمدالله ـ على مرّ الأزمان ، ولأن المراد بمعرفة الكتاب إن اريد بها معرفة ألفاظه أو الاطلاع على معانيه أشكلَ الأمر على كثير من النـاس ، حيث يكون موتهم ميتة جاهلية ، وإن أريد مجرد التصديق بوجوده فلاوجه للتشنيع علينا إذا قلنا بمثله .

* * *

اعلم إنه ذكر الشيخ محيي الدين الأعرابي في الباب الثلاثمـأة والستّ والستين من كتاب الفتوحات المكية كلاماً بهذه العبـارة يدل على أنه كان معتقداً لوجود المهدي ؑ ، وقد نقل بعض الأعلام من الكرام تمام هذا الكلام في كتاب الأربعين[2] من أراد الاطلاع عليه فلينظر فيه ونبذ منه هذا :

« وإن لله خليفة يخرج من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة ؑ يواطي اسمه اسم رسول الله ﷺ، جده الحسين بن علي ؑ، يبايع بين الركن والمقام »

---

(١) كفاية الأثر للخزاز: باب ما جاء عن جابر في النص...: ٥٤.

(٢) الأربعين للشيخ البهائي، الحديث السادس والثلاثون.

ـ وعدّ بعض نعوته وأوصافه الشريفة إلى أن قال : ـ « يبايعه العارفون من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه، لولا أن السيف بيده لأفتى الفقهاء بقتله ، ولكن الله يظهره بالسيف والكرم فيخافون ويقبلون حكمه من غير ايمان ، ويضمرون خلافه ، ويعتقدون فيه إذا حكم فيهم بغير مذهب أئمتهم إنه على ضلال في ذلك . » ـ انتهى ـ .

* * *

واعلم إن كل عالم رباني ذو مكاشفة تامة يعرف طريق التبتل إلى الله تعالى وكيفية التخلص عن ورطة التعلق بالمهلكات الدنياوية والموذيات النفسانية ، فإن اتّباعه وتعلم السلوك منه واجب عقلا ، كما ان اتّباع الرسول والأئمة ﷺ واجب عقلا وسمعاً فكما ان المريض ومن به داء مهلك عند التساهل عنه إذا وجد طبيباً حاذقاً يعرف معالجة ذلك المرض المهلك يجب عليه اتباعه وقبول ماأمر به بحسب ماجبل عليه من التحفظ على الحيوة البدنية ، فكذلك من به مرض الجهل وداء الخلق الردي النفساني الذي به يفوت الحيوة السرمدية يجب عليه بالضرورة أن يتبع العارف الواقف بكيفية ازالة الجهل وسائر الأخلاق الذميمة ويتعلم منه طريق الاستكمال ويتأسى به ويسلك بسلوكه ويقبل منه النصائح في كيفية التقرب إلى المبدء الفعال .

وكما ان من تيسر له خدمة عالم متألّه ، ثم تساهل في ملازمته وتحمّل المعارف منه ـ خوفاً من سقوط منزلته عند الناس وتحفظاً على جاهه الحقير لدى العوام الناقصين ـ فيوشك إنه اذا خرج الإمام المهدي عليه السلام الذي وجبت إطاعته عقلا تمرد عن حكمه وتحاشى عن اطاعته إذا انحطت عند ذلك مرتبته عند الناس وسقط به جاهه الخسيس ، اللهم الا خوفاً أوطمعاً ، لاتقرباً إلى الله تعالى ، وإلا لأطاع كل من له قدم راسخ في العلم بالله وملكوته ، وذلك لمرض نفسه ، وخبث جوهره ، وقصور ذاته بحسب نفس الأمر ، وسقوط منزلته عند الله حيث يصده المنزلة عند

الخلق عن تحصيل المنزلة عنده ، ويرجح عنده رضاء الخلق على رضاء الخالق ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [٩/٧٢] .

قوله عزوجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢٨)

الكِفل : النصيب .

يَاأيُها الذينَ آمَنوا ـ أي:اعتقدوا توحيده وعلمه وقدرته وصدقوا بأنبيائه ﷺ ـ اتقوا الله ـ فيمانهاكم عنه من قبائح الأفعال ورذائل الصفات ـ وآمنوا برسوله ـ محمد ﷺ .

أو ياأهل الكتاب الذين آمَنوا بموسى وعيسى آمِنوا بمحمد ﷺ .

وعن ابن عباس : ياأيها الذين آمَنوا ظاهراً ، آمِنوا باطناً يعطكم نصيبين من رحمته ، نصيباً لايمانكم بمحمد ﷺ ، ونصيباً لايمانكم من قبله من الأنبياء ﷺ ، إن كان خطاباً لمؤمني أهل الكتاب ، ولايبعد أن يثابوا بما عملوا في دينهم السابق وإن كان منسوخاً .

هكذا قيل ، وفيه تفصيل : فإنهم إن لم يكونوا معاندين ، بل كانوا منقادين للحق إذا ظهر عليهم ، فكل ماعملوا سابقاً طلباً لمرضات الله كانوا مثاباً به إلى أن وصل إليهم صيت الإسلام ، فإذا اجتهدوا في تحقيق الأمرحتى ظهر لهم فلاشبهة في أن لهم كفلين من رحمة الله ، وإن لم يكونوا كذلك بل كانوا متعصبين لدينهم متصامين عن استماع الحق فلااعتداد بالأعمال التي فعلها الإنسان تعصباً وتجاهلاً من غير طلب البصيرة .

وقيل : الخطاب للنصارى ، الذين كانوا في عهده ﷺ .

وإن كان خطاباً لغير أهل الكتاب فالمعنى : اتقوا الله واثبتوا على ايمانكم برسوله يؤتكم ماوعد مؤمني أهل الكتاب من الكفلين في قوله : ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾[٥٤/٢٨] ولاننقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في أن لاتفرقون بين أحد من رسله .

ويجعل لكم يوم القيمة نوراً تمشون به ـ أي : هدى يهتدون به .

وعن ابن عباس : « النور » : القرآن لما فيه من الأدلة النيّرة على كل حق والهداية إلى كل خير ، وبه الاستحقاق لحصول الضياء في القلب الذي يمشي به يوم القيامة .

ويغفر لكم ـ أي : يستر عليكم ذنوبكم التي أسلفتم من الكفر والمعاصي .

روى سعيد بن جبير[١] : بعث رسول الله ﷺ جعفراً في سبعين راكباً إلى النجاشي يدعوه ، فقدم عليه ودعاه ، فاستجاب له وآمن به ، فقال أناس ممن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلا : « ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم »[٢] .

فأذن لهم . فقدموا مع جعفر، وقد تهيأ ﷺ لوقعة أحد ، فلمارأوا مابالمسلمين من خصاصة استأذنوا رسول الله ﷺ فرجعوا وقدموا لهم بأموال لهم ، فواسوا بها المسلمين ، فأنزل الله : ﴿ الذينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ مِنْ قَبلِه هُمْ بِهِ يُؤْمِنُون ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٥٤/٢٨] .

فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَين بِمَاصَبَرُوا﴾ فخروا على المسلمين فقالوا : « أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرتين ، وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجرٌ كأجركم ، فما فضلُكم علينا » ؟

فنزلت الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة .

وروي إن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون

---

(١) الدر المنثور: في تفسير الآية: ١٧٨/٦.

(٢) فنلمّ به ـ نسخة.

أجرهم مرتين وادعوا الفضل عليهم، فنزلت [١].

مكاشفة

ياأيها المعدودون من أهل الايمان اتقوا الله بتكثير الحسنات وتنقيص السيئات، وآمنوا برسوله أي: حصّلوا لأنفسكم ملكة المعرفة بالله، وكيفية إرسال الرسول، وإنزال الكتب عليه، وإفاضة الحقائق العلمية على قلبه بواسطة الملك الموحي إليه بإذن الله والتصديق برسالته واطلاعه على المغيبات وحقّيته في كل ماأتى به.

والأول رعاية للجزء العملي من النفس الإنسانية ومحافظة على حصول ثمرته التي هي تصفية وجود (وجه) النفس بتقوى الله والزهد الحقيقي عن كدورات الشهوات الدنياوية من المعاصي والقبائح.

والثاني رعاية للجزء النظري منها وايصاله بكماله الذي هو المقصود من وجود الإنسان وهو اكتساب المعارف الحقة الباقية معه أبداً مخلداً.

وحيث كان كمال الإنسان ومنزلته عندالله وحصوله المثوبة الأخروية له منوطاً بثمرة استكمال كل من هاتين القوتين، فلابد لكل من آمن بالله واليوم الآخر أن لايتوانى عن اكتساب الأحوال والأعمال، واقتناء العلوم والملكات المؤدية إلى هاتين الثمرتين.

أما ثمرة الأعمال الصالحة فالتخلص من ذمائم الأخلاق ورذائة الأوصاف والتعلقات الدنياوية المانعة عن قبول الرحمة والهداية، وإلا فالجود مبذول والرحمة واسعة عند عدم المانع، **وأما ثمرة العقائد** الحقة فمشاهدة الأعيان الشريفة

---

(١) المصدر السابق.

النورية ومنادمة الملائكة القدسية وأهل الصفوة وعباد الله المقربين وقبول التجليات الإلهية .

أما صاحب رتبة العمل دون العلم فهمّته متوجهة نحو لذات الجنان ، والمشتهيات من الحور والغلمان وكل ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين بقوة التخيّل وتصل همّتها إليه ـ وإن كان نازلاً عما يهمّه ويقصده المقربون من العرفاء كالسدر المخضود والطلح المنضود ، وأما صاحب المعرفة فهمّته متوجهة نحو عالم المقدس والوحدة ، ومشاهدة الجمال والجلال ، فله المثوبة الكبرى والدرجة العظمى ، والمشرب الكافوري ـ وماهو دون ذلك إن أراد كالمشرب الزنجبيلي ـ .

فلما أمر سبحانه أهل الايمان بالتقوى والمعرفة وكل منهما ينتج ثمرة خاصة ونصيباً مخصوصاً من فيضه ورحمته وقعت الإشارة إلى حصول النصيبين لهم من الرحمة ، نصيباً لأجل العلم ، ونصيباً لأجل العمل .

ولما كانت ثمرة العلم أجل رتبة وأفضل قدراً من ثمرة العمل ـ فضيلة الإدراك على الحركة ، وشرافة العين على القدم ـ أشار أولا إلى ذكر ثمرة العلم وتعيين ماهيّتها بقوله : ﴿ وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ فإن هذا النور بعينه هو النور المذكور في قوله : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى ﴾ [٦٦/٨] .

ثم أشار إلى ثمرة العمل بقوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ثم أشار إلى كون ذاته تعالى منشأ جميع الخيرات ومبدأ فنون المبرّات بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ نظراً إلى إمداد لطفه في اجتناب الإنسان عن الرذائل وقبول توبته ـ رَحِيمٌ ـ نظراً إلى إفاضة جوده في تلبّس الإنسان للفضائل .

* * *

قوله عزوجل :

لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

« لا » في « لئلا يعلم » زائدة . و « أن » في « أن لايقدرون » مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف وهو الشأن ، أوضمير راجع إلى أهل الكتاب أي : لأن يعلم أهل الكتاب إنه لايقدرون على شيء مماذكر من فضل الله من الكفلين والنور والمغفرة ، ولايتمكّنون من نيل شيء منه ، لأن جميعه مشروط بالاعتقاد الصحيح في حق الله ورسوله وهم لم يؤمنوا برسول الله ، فلاينفعهم ايمانهم بغيره من الأنبياء بعدما فرقوا بين رسل الله ، وليعلموا إن الفضل بيد الله وقدرته ، يؤتيه من يشاء بمشيّته السابقة وإرادته الأزلية المنبعثة عن علمه باختلاف القوابل وتفنن الماهيات ـ وَاللهُ ذُوالفَضلِ العَظيمِ ـ بإفاضة نور الوجود على هياكل الممكنات .

وقيل : إن المراد بفضل الله هيهنا النبوة ، أي : لايقدرون على نبوة الأنبياء ، ولاعلى صرفها عمن يشاء الله أن يخصّه بها ، فيصرفوا عن محمد ﷺ إلى من يحبونه ، بل النبوة كسائر الفضائل الموهبية بيد الله لامدخل لتعمّل الناس في استجلابها يعطيها من يشاء ممن هو أهلها ومستحقها .

وقيل : « لا » هيهنا في حكم الثبات ، والمعنى : لأن لايعتقد أهل الكتاب إن النبي والمؤمنين به لايقدرون على شيء من فضل الله ولا ينالونه ، فعلى هذا يكون الضمير في « يقدرون » للنبي والمؤمنين ، ويكون « أن الفضل » عطفاً على « أن لايعلم » . أو لأن لايعلم أهل الكتاب إنهم لايقدرون أن يؤمنوا ، ويكون المراد : لكي يعلموا إنهم يقدرون على الايمان وطلب الفضل والثواب .

وقرء الحسن : « لَيلا يَعلم » ـ بفتح اللام وسكون الياء ـ وروي بكسر اللام

أيضاً - وتوجيهه على ماقيل بأن حذفت الهمزة من « لأن » لثقلها حتى صار « لن » ثم أدغمت « النون » في « اللام » للمجانسة بينهما ، فصار « لِـلّا » - بالكسر - ثم ابدلت اللام الثانية المدغمة في الثالثة « ياء » كابدالهم الواو المدغمة وغير المدغمة ياء في « ديوان » و « قيراط » فإن الانتقال من المضاعف إلى المعتل متعارف عند أهل اللسان .

وأما الفتح - كما في قراءة الحسن : فعلى أن أصل لام الجر هو الفتح ، وقرء : « لكي يعلم » و « لكيلايعلم » و « ليعلم » و« لأن يـّعلم » - بادغام النون في الياء ، و« لين يـّعلم » بقلب الهمزة ياء وإدغام النون في الياء كما ذكرفي الكشاف .

مكاشفة

إنما يستشعرمن الآية الكريمة إن لأهل الايمان اقتدارا على استجلاب فضل الله وتمكناً من استدرار رحمته ، ومفهـوم الخلاف وإن لم يكن معتبراً عند الأكثر ، سيما في مثل هذا المقام حيث عقـّب بقوله : ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ إلا أنه مما يمكن تصحيحه هيهنا بوجه عقلي ، فإن الفضل وإن كان كله من عند الله بحسب مشيـّته بلا تأثير لغيره في الإجارة ، وتوسيط لما سواه في الإفاضة ، لكن لابد من تعلق المشيـّة بواحد دون واحد من مخصص لامتناع الترجيح من غيرمرجح - كما هو المذهب المنصور - .

فللعبد اختيار في اكتساب المرجـّح بتحصيل المعارف الايمانية والعقائد الحقة - أولا - ثم العمل بمقتضاها - ثانياً - ثم الانتظار لهبوب رحمة الله وفضله - ثالثاً - .

فإن من حصـّل المعرفة بالله ورسوله واليوم الآخر والاعتقاد والثواب للمحسن، والعقاب للمسيء - وإن كان على وجه التقليد والظن - حصـّل لنفسه تشوق إلى تكميل

جوهره بتحصيل اليقين والوصول إلى ثواب الله والتقرب اليه ، فيبعثه ذلك على قمع الشهوات الظاهرة عن النفس - أولا - ثم على قلع الصفات الذميمة الباطنة عن القلب - ثانياً - ثم يختار العزلة والخلوة عمّا يشوّش ذكره ويوسوس طبعه فيجلس للمراقبة والذكر والفكر ، ثم يؤدى به ذلك إلى أن يجعل همومه ومقاصده وأغراضه واحداً - هو التشوق إلى طلب الحق - .

وإذا غلب ذلك على قلبه فهو بعد ناقص محروم مالم يكن من المتفكرين وأهل العلم، فإن كان له مجال في التفكر وحركة معنوية في الباطن شغَله ذلك عند التجرد عن محاربة الشيطان ووساوس الوهم بإبداء الشبهات والشكوك في قلبه حتى يضلّه ذلك عن الطريق ، وإن لم يكن له سير في الباطن وحركة معنوية في الملكوت فلا ينجيه الأوراد المتواصلة والصلوات المتعاقبة ، بل يحتاج معها إلى تكليف الحضور لقلبه بالأفكار المعنوية ، فإن التفكر في الباطن هو الذي يستغرق القلب ويسخّر النفس دون الأوراد الظاهرة .

وربما لم يسلم مع ذلك من الآفات الشاغلة له في بعض الأوقات من الفكر والذكر ضرورية كانت أوغير ضرورية ، كمرض وخوف ، أو ايذاء من مخاصم ، أو طغيان من مخالط لضرورة المعيشة أو اشتغال بمطعم أوملبس ممايحوجه إلى شغل تولاه بنفسه ، فإن تيسر له قطع هذه العلائق ليسلم له أكثر الأوقات ، فيصفو قلبه ، وينشرفكره في عالم الملكوت ، وينكشف له من أسرارالله مالايقدرعلى شيء قليل منه جملة الأذكياء المشتغلين بقلوبهم بالدنيا وعلائقها .

* * *

وهذا أقصى المقامات التي لاختيارالعبد مدخلية في أن تنالها بالاكتساب والجهد ، فأما مقادير ماينكشف له من فضل الله ، ومبالغ مايرد عليه من رحمته فهو خارج عن اختياره واقتداره فإنه يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق والطالع الأسمائي ، الذي طالع طالعه السمائي ، فقد يقلّ الجهد ويجلّ الصيد ، وقد يطول الجهد ويقصر الحظ ، فالمعول بعد ذلك على جذبة من جذبات الحق التي توازي

عمل الثقلين ، وليس ذلك باختيار العبد ، وإن كان له اختيار في أن يتعرض لتلك الجذبة بالاكتساب من الرياضات الفكرية والعملية (العلمية) .

وإليه الإشارة بقوله : إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرّضوا لها.(١)

وذلك بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فإن المجذوب إلى أسفل السافلين كيف ينجذب إلى أعلى عليين ، وذلك لأن تلك النفحات والجذبات أرزاق معنوية بمنزلة الرزق الصوري، فلها أسباب سماوية رحمانية، كما أن للرزق الصوري أسباب سماوية جسمانية ، إذ قال ، ﴿وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [٢١/٥١] فإن هذه السماء الجسمانية مثال وظل لمبدء رحمانيته تعالى المنبعث عنها الأرزاق الصورية والمعنوية كلها ، ولهذا وقعت الإشارة بقوله . ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ .

وهذا الذي كلامنا فيه من أجل مراتب الرزق المعنوي ، فهو أيضا من أسباب سماوية قدسية ، والأمور السماوية غائبة عنا فلايدري متى يسر الله أسباب الرزق ، فما علينا إلا تفريغ محل القلب والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله ـ كالذي يصلح أرض الزراعة وينقيها من الحشيش ويبث فيها البذر ـ بأن يصفي المريد القلب عن ذمائم الصفات ، ويبث فيه بذر المعارف الإلهية ـ وكل ذلك لاينفعه إلا بنزول المطر ولايدري متى يقدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله وسنته في أن لايخلي الأرض سنة عن مطر ، فكذلك قلّ مايخلو قلب المريد الصافي في شهر أو يوم عن جذبة من جذبات الحق .

* * *

وبالجملة ـ فقد علم أن تطهير القلب عن حشيش الشهوات ، والتبذير فيه ببذر الايمان بالله ورسله وملكوته ، وجعله عرضة لمهابّ فضل الله مما لاختيار العبد مدخل فيه ، إلا أن يكون في غاية الجمود والقساوة لسبق الكفر المتمادي أو الفسوق المتراكمة كالجاحدين من أهل الكتاب .

---

(١) الجامع الصغير: باب الالف بعده النون: ٩٦/١.

وأما نزول أمطار الفضل ، وهبوب رياح الرحمة ، فلااختيار للعبد فيه ، بل كله بيد الله يؤتيه من يشاء .

فقوله : لِيعلَمَ أهلُ الكِتَابِ أنْ لَايقدِرُون عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ نعي عليهم وابعاد وويلٌ لهم ، حيث لايمكنهم تطهير الباطن وتصفيته عن الرذائل لاستدرار رحمة الله وفضله ، وذلك لجمود قرائحهم الجاسية وفساد قلوبهم القاسية .

كماقال : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [٢٢/٣٩] .

* * *

خاتمة

هذه السورة مدنية وهي تسع وعشرون آية ، وقيل: ثمان وعشرون والاختلاف في قوله : ﴿مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [١٣] و﴿آتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ﴾ [٢٧] .

وعدد كلماتها خمسمأة وثلث وسبعون .

وحروفها ألفان وأربعمأة وتسعون .

وانتظام ختم الواقعة بافتتاحها إنهما في التسبيح .

وانتظام السورتين إن تلك السورة في ذكر السابقين وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين، وهذه السورة في كيفية الإرتقاء إلى درجة السابقين وأصحاب اليمين بالمعارف الحقة والأعمال الصالحة ، وفي حثّ الفائزين بالوصول إلى درجة المقربين والسعداء بسبب الايمان على تقويته وتوسيع دائرته وتكثير فوائده ودفع المطفين لأنوازه والجاحدين لآثاره من الكفرة الفجرة وترغيب المؤمنين في مجاهدة الكافرين والإنفاق على المجاهدين .

* * *

(١) *فافتتحت السورة بتقديس الله عن النقائص وصفات الممكنات وسمات الحادثات ، بلسان كل مَن في سموات عالم الملكوت ، ومافي أرض عالم الملك، وبذكر أن جميع ماوقع عليه اسم الوجود ملكه وتحت تسخيره، جارعليه سلطانه ،

(*) الأرقام التي وضعناها في الخاتمة تشير إلى رقم الآيات الشريفة.

نافذ فيه حكمه ، سارفيه أمره يصرفه كيف يشاء بالإحياء والإماتة .

(٢) ثم ذكر إن منشيء مملكةالسموات والأرض وبانيها مع تمادى أزمنةبقائها واتّساع أمكنة أرضها وسمائها - مما لايغيب عنده زمان عن زمان ولايفوت لديه مكان عن مكان، بل جميع الأزمنة والزمانيات لاحاطته القيومية في حكم آن واحد في الحضور لديه ، وكافة الأمكنة والكائنات بتمامية الإلهية في حكم نقطة واحدة في المثول بين يديه ، من غير تطرق تجدّد وتغيّر في ذاته أو احتمال تجزّ وتكثّر (تجبّر وتكسّر - ن) في صفاته ، وذلك لأنه هو الأول في عين آخريّته ، وهو الظاهر في عين باطنيّته ، ولما كان هذا مستلزماً لشمول علمه بجميع الموجودات وإحاطة شهوده بجملة الكائنات ذكر عقيبه : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

(٤) ثم أشير إلى أن علمه بكل شيء بنحو العلم بأسباب ذلك الشيء وعلله - الذي هو أجلّ مراتب العلم وأوثقها وأتقنها - ليعلم إن عالميّته بالأشياء بأي نحو من ضروب العالميّة ، وليعلم إنه ليس بإحساس ولا بانفعال ، وإلا يلزم استكمال الكامل بالناقص ، وانفعال العالي عن السافل ، فذكر إنه مبدع الأشياء ، وخالق الأرض والسماء في أقل من عدد كامل - هو السبعة - أعني الستّة .

ثم لمّا كان أسباب وجود الكائنات وشرائط حفظها وبقائها من الأرزاق والآجال ينزل من عنده بواسطة السموات وقواها المحركة لها شوقاً إلى طاعة بارئها فنون الحركات وصنوف اختلاف الأوضاع والنسب التي تنشأ منها الكائنات ، وينبعث منها الحيوان والنبات على ماجرت عليه سنّة الله التي لاتبديل لها ، وجملة المتحركات السماوية والأكر الكوكبية في فلك واحد عظيم مشتمل على الجميع اشتمال الشخص الإنساني على أعضائه وجوارحه وأركانه ، هو المحدد بجسميّته للجهات والأبعاد ، وبمقدار حركتـه للأزمنة والحركات ، فهو بنفسه وعقله يدبّر الكل ويسوس الجميع بإذن مبدعه ومحركه ومدوّره وموجد نفسها ومحركها، تحريكا شوقياً بالحركات النفسانيـة ، والأوراد والأذكار القدسية ، والانتقالات العلميـة ، والطاعات الملكية ، كل ذلك تشوقاً إلى جنابه ، وتقرباً إلى طاعته ، وامتثالا لأمره،

وتضرعاً وابتهالا نحوه وتشفعاً لديه لانجاح مقاصد الملهوفين، واستغاثة عنده لاغاثة المحتاجين ، وإصلاح أحوال الهابطين إلى معدن الظلمات ، وإعلاء مرتبة النازلين في مهوى عالم الجهالات من أهل الاستعداد ، وإصعادهم عن رتبة السافلين إلى أوج العلّيين بإلهامهم معرفة المبدء والمعاد ، وتوسطاً لجبر كسير وخلاص أسير. فأريد التنبيه على أن هذه الوسائط مما لامدخلية لها في الايجاد والإعطاء ، بل هي مظهر الرحمة ومستوى الرحمن ، وهو الذي استوى على العرش لانتظام مافي الكون ، وتسبيب الأسباب ، وتهييج الأشواق ، وإنشاء الدواعي ، وتوسيط القوى الفعّالة ، ووضع القوابل المنفعلة ، كل ذلك على سبيل العناية بالسافلات ، وترشيح الخير الدائم على المنفعلات الكائنات بوساطة عالم الحركات العاليات، الصادرات بأمره تعالى عن الملائكة المدبرات ، وعباده الساجدات الراكعات ، كما أشير إليهم بقوله تعالى : ﴿غِلَاظ شِدَاد لَايَعْصُونَ ٱللّهَ مَاأَمَرَهُمْ وَيَفعَلُونَ مَايُؤمَرُونَ﴾ [٦٦/٦] .

ثم عاد إلى بيان علمه بالجزئيات بزيادة استيضاح على هذا الوجه المذكور من سبيل أخرى فأشار إلى أن من هوشأنه هكذا لابد وأن لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولافي السماء ، بل يعلم الوالج في الأرض من أسباب قابلية الوجود للكائنات ـ كالبذور والنطف وغيرها من المقادير والكيفيات الاستعدادية ـ والخارج منها ـ كاجساد المواليد الثلاثة وأبدانها من الجماد والنبات والحيوان ـ والنازل من السماء ـ كقواها وصورها ونفوسها ومايتحصّل ويتقّوى به أعضائها وأجسامها كالأمطار والثلوج وغيرهما ـ والعارج فيها من العقول الصافية الإنسانية التي صارت طيوراً سماوية طائرة إليها من أقفاص الأبدان بجناحي العلم والعمل، بخلاف النفوس المتعلقة المقيدة بشهوات هذه العالم التي يكونأ بدانهم بالقياس إلى نفوسهم البهيمة إسطبل الدوابّ لاأقفاص الطيور، فليس لهم قوة الارتقاء إلى ملكوت السماء، ولالهم سبيل إلى عالم التقديس وعالم المعنى .

ثم لما تقدم إنه سبحانه مما لايتجدد عليه شيء بالغيبة والحضور ، والوجود والدثور ، ولايفوته شيء من الأشياء ، بل الماضي والمستقبل بالنسبة إليه كالآن في

الحضور لديه ، ومع ذلك هو القائم على كل نفس بما كسبت بيديه لاستوائه برحمانيته على عرش وجود الحوادث والكائنات، واستقلاله بالإفاضة والايجاد على الموجودات من غير تأثير لغيره إلا في الإعداد . فظهر أن لاواسطة بينه وبين كل موجود ، ولاتفاوت فيها عنده ، ولاتعاقب لوجود على وجود لديه ، بل هو بوحدته مقوّم ذات الجميع ، وبفردانيته مقرّر ماهية الكل ، أثبت معيّتَه لنا أينما كنا ومتى كنّا، عالين أوسافلين، سابقين أولاحقين، فإذا كان كذلك كان علمه حضورياً شهودياً، إشراقياً نورياً ، فعبّر عن ذلك بأنه ﴿ بِمَاتَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

(٥) ولما عُلم مما ذكر سابقاً كونه مبدءاً فاعلياً للجميع أراد التنبيه على أنه المبدء الغائي أيضا للكل، وحيث كان الأول كاشفاً عن الثاني مستلزماً له ، ذكر رجوع الأمور إليه بعدما أعاد ذكر نسبة ملك السموات والأرض إليه ، ليعلم إنه الغاية القصوى للكل كما إنه المبدء الأعلى للجميع بتوسط (بتوسبط ـ ن) المنافع والغايات الجزئية وتسبيب(تسبب ـ ن) الأسباب المتوسطة لوجود الأشياء على الوجه الذي أراد وشاء .

(٦) ثم لما مرت الإشارة إلى الأسباب القابلية الأرضية والفاعلية السماوية لخلق المركبات العنصرية أراد أن يشير إلى أن تأثير الأسباب العالية في القوابل السافلة متوقف على الحركة المتجددة ليقرب المعلول إلى علّته ـ فإن الأمور مرهونة بأوقاتها الحاصلة من حركات أسبابها وتغيّراتها ، فاختلاف الحركات والأوقات سبب لاختلاف الحوادث والكائنات ، كما يشاهد تبدل الفصول الموجب لتخالف الليالي والأيام ، المستلزم لاختلاف أحوال الخلائق والأنام ـ عبّر عن تفاوت الليل والنهار على الوجه المشاهد المستلزم لاعتدال الكائنات بولوج كل منهما في صاحبه ، مومياً إلى المنافع والغايات المترتبة على تفاوتهما في المقدار واختلافهما في الآثار، وبيّن أن الجاعل لهما على هذا الوجه المقرر ، والمولج لكل منهما في الآخر : هو سبحانه ـ لتدبير الكائنات ومصلحة الموجودات . فإنه سبحانه لولم يجعل الأنوار الكوكبية ذات حركة سريعة مشتركة،وأخرى بطيئة مختصة، ولم يجعل دوائر الحركات

البطيئة مائلة عن دائرة الحركة السريعة لما مالت إلى النواحي شمالا وجنوباً فلم تنتشر منافعها على بقاع الأرض .

ولولا ان حركة الشمس ـ خصوصاً ـ على هذا المنوال من تخالف سمتها لسمت الحركة السريعة لما حصلت الفصول الأربعة التي يتم بها الكون والفساد ، وينصلح بها أمزجة البقاع والبلاد ، ولما كان القمر نائباً للشمس خليفة لها في النضج والتحليل، والإصلاح والتعديل، وإذا كان قوي النور جعل مجراه يخالف مجراها ، فالشمس يكون في الشتاء جنوبيّة والقمر شمالية لئلا ينعقد السببان ، وفي الصيف بعكس ذلك لئلا يجتمع المسخنان ، ولما كانت الشمس في أيام الصيف الطوال شمالية الحركة وفي أيام الشتاء القصار جنوبيّتها ولها أوج وحضيض متقابلان بينهما نصف دور جعل الله تعالى بحكمتها البالغة أوجها في الشمال وحضيضها في الجنوب لينجبر قرب الميل عن سمت الرأس ببعد المسافة لئلا يشتد التسخين بالتنوير ، وينكسر بعده بقربها لئلا يضعف القوة المسخنة عن التأثير ، كل ذلك لحكمة العليم القدير الحاصلة من تخالف الليل والنهار وتفاوتهما في المقدار .

ولما كان بيده وجود الأسباب المؤدّية الى خلقة الإنسان بدناً ونفساً ، صورة ومعنى كان عالماً بصفاته الظاهرة البدنية وملكاته الباطنة النفسانية ، فذكر إنه عَليمٌ بذات الصدور ليعلم إنه ناقد بصير لايخفى عليه قليل ولا كثير ، فيجازي على كل عمل قلبي كما يجازي على كل حركة بدنية .

(٧) ولما بيّن إنه سبحانه متّصف بغاية العظمة والجلال، منعوت بكونه مبدء أعلى وغاية قصوى للكل يستوضح لذوي البصيرة إن الكل محتاجون إليه في الوجود ، وخصوصاً المعلول الذي تضاعف فيه وجوه الحاجة ، وكثرت عنده جهات الامكانات الذاتيّة والاستعدادية ، ولا شبهة في أن مَن هو موصوف بغاية الفقر والفاقة من شأنه التشبث بمن هو منعوت بالكرم والإفضال ، ومن دأبه التضرع والابتهال وطلب التخلّص عن القصور والوبال ممن هو على غاية التمام والكمال، واستدعاء الاستمداد والاستكمال ممن هو في نهايه العظمة والجلال ، متبرّئ الذات

عن النقص والعدم والزوال كائناً بذاته الفردانية الأحدية منبع كل صورة وكمال ، ومنشأ كل خير وجمال .

ثم لايخفى إن كل ناقص يسوغ له الانتقال من حدود النقص إلى ذروة الكمال، فله طريق خاص ومنهج معيّن في الترقي إلى أوج الترفّع والاقبال، فللأجسام ـ بما هي أجسام ـ الحصول في مطلق الحيّز والفضاء وللعناصر في الحركة نحو المكان الأسفل والأعلى ، وللنبات في الاغتذاء والنماء ، وللعجم من الحيوان في حيوته الدنياوية بأنفاسه وحركته بإرادته وإحساسه ، وما من دابّة فما دونها إلا ومن شأنه البلوغ إلى أقصى مالها في ذاتها مالم تعقها عائق ، ولنوع الإنسان كمال يخصّه وهو الايمان بالله وأفعاله القريبة بحسب جزئه العلمي ، والتجرد عن الدنيا واللذات البهيمية بحسب جزئه العملي ، ولهذا وقع له الأمر بالايمان بالله ورسوله والإنفاق مما زاد على ضرورات بقائه الكوني .

ثم بيّن سبحانه عظم أجر الإنسان الذي سلك مسلك المعرفة والتجرد بقوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لأنه بهذين الأمرين يقرب من الملكوت ويتخلّص عن الناسوت .

(٨) ثم أظهر سبحانه الاستنكار والتعجّب ممن لم يتفطن بالمعرفة بالله عند تحقق الرسول ـ المعلّم للبشر الداعي طريق الحق ـ مع قابلية الذوات ومناسبتها لمعرفة الحق بحسب الفطرة الأصلية المعبّر عنها « بأخذ الميثاق » .

(٩) ثم بيّن عظم رتبة هذا المعلم البشري وكيفية ارتقائه إلى مرتبة الرسالة ودرجة التبليغ ، وهو إنما يكون بتنزيل الله سبحانه على عبده المستجمع للفضائل والملكات البشرية الآيات البيّنة والمعارف الحقّة ليتنور ذاته بالأنوار القيوميّة ، ويستشرق عقله المنفعل بالأضواء الأحدية ، وتستضيء نفسه التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار بالإشراقات الصمدية ، ويصير عند ماسّته نارُ الأنوار والشعلات الجبروتيّة نوراً على نور ليتنوّر بنور ذاته المستضيئة بأنوار الله المنتكسين في دياجير الجهل والظلمات ، الهابطين إلى مهوى الغفلة والشهوات ، المتزحزحين

لضعف الأحداق عن عالم الإشراق ، ويخرجهم من ظلمات الأجسام إلى نور عالم الأرواح ومرجع نفوس السعداء والكرام .

ولما كان إرسال الرسول وإنزال الوحي وتنزيل الآيات إلى قلبه منه تعالى على وجه لطيف حيث صار موجباً لنظم أمور الدنيا وتعيّش الإنسان على أبلغ نظام مع تحصيل الأهبة في سفر الآخرة له وأخذه الزاد وربح التجارة في المعاد والفوز بأرفع مقام ومراد ـ فقد كان فيه نفع العاجل مشفوعاً بسعادة الآجل ـ أشار إلى هذا التلطف في الهداية والتكميل والإخبار عن تعلّق صفتي الرأفة والرحمة بالعباد لترتبهم في الوجود والبقاء من جهتي المعاش والمعاد .

(١٠) ولما أمر أولا بالايمان والإنفاق الذين هما خلاصتا الكمال العلمي والعملي . ثم أخذ يسئل شبه المتعجب المستفهم عن التاركين للايمان في تركهم إياه مع دعوة الرسول ﷺ وأخذ الميثاق ـ أي وجود المعلّم وقابلية المتعلّم ـ وتأييده سبحانه هذا المعلّم بصنوف أسباب الهداية والتعليم، فعاد ثانياً شبه المتعجب المستفهم عن التاركين للإنفاق في تركهم إياه محتجاً عليهم في استقباح هذا البخل والإمساك منهم بأن مافي تملّكهم ليس باقياً لهم ، بل في معرض الزوال،هو عنهم وهم عنه ، وأن الجميع بالحقيقة ملكه يعود إليه ، وله ميراث كل شيء سواء المال وذي المال .

ثم ذكر تفاضل المنفقين والمجاهدين قبل الفتح وبعده وتفاوتهم في درجة الجزاء والثواب ، فإن أفضل الاعمال أحمزها ، مع أنه وعد الجميع بالحسنى لاشتراكهم في أصل الفعل الحسن وذكر أنه خبير بمراتب الإخلاص في العمل وحسن النيات ،كما انه خبير بظواهر الأعمال وبواعث الأفعال .

(١١) ثم وعد الأجر الكبيرمع المضاعفة في مقدار الثواب لمن يقرض الله قرضاً حسناً .

(١٢) ثم بيّن الموضع الذي يتحقق فيه المجازاة على الأعمال ويتبيّن فيه الدرجات والأحوال ويتميّزفيه السعداء عن الأشقياء، فذكرشيئاً من أحوال المؤمنين،

وشيئاً من أحوال المنافقين في ذلك اليوم ، وذكر تخلّف المنافقين عن المؤمنين في سلوكهم طريق النجاة بنور المعرفة والسداد ، وتمنّيهم الاقتباس من نورمعرفة المؤمنين مع استحالة ذلك ببطلان استعدادهم الفطري وزوال قابليّتهم الجبلي . وذكر رد المؤمنيـن ملتمسهم ومقترحهم بالتنبيه على فقدان القبول لهذا الاقتبـاس والإشعار بما يوجب له الخذلان واليأس .

(١٣) ثم ذكر إنّه وقع عنـد ذلك حاجز ذو باب باطنه يلي عالـم القدس والرحمة والنعمة ، وظاهره يلي عالم الظلمة والغضب والنقمة .

(١٤) ثم أشار إلى نداه أهل الجحيم لأهل النعيم وسؤالهم إياهم بسبب علو مرتبتهم وانحطاط مرتبة هذه مع الاتفاق بينهم في ظواهرالأعمال البدنية والتساوي في مزاولة العلوم الدينيّة وبطلان ترجيح أحد المتساويين على الآخر لالمرجح ، فحكى الجواب لهذه الشبهة الواهية التي هي أوهن من بيت العنكبوت من قبل البارعين في العلم من أفاضل المؤمنين : إن ملاك التقرب إلى الله تعالى والصعود إلى معارج القدس إنما هوبالإخلاص في النيّات ، والسيرالمعنوي في الملكوت ، والتفكر في بدائع الفطرة مع صدق الطويّات ، وأنتم سلكتم مسالك الأماني والشهوات، والاغترار بالدنيا واللذات بتسلط الغاو المغوي‌عليكم ، وإراءة الشيطان لكم الباطل في صورة الحق ، حتى ترسّخت فيكم ذمائم الصفات ، وتراكمت في قلوبكم ريون المعاصي والشهوات .

(١٥) فلن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ، ولايسمع منكم معذرة ، ولا يؤخذ منكم فدية ولامن الكفار، النار مأويكم ، والجحيم مولاكم ، إذكل شيء يصيرإلى أصله، وكل‌مريض يداوى بعقاقيربلده ، ومأويكم بئس المأوى(وموليكم بئس‌المولى-ن)، ومصيركم بئس المصير .

(١٦) ثم لما ذكر حسن أحوال المخلصين ووخامة عاقبة المنافقيـن لأجل اغترارهم بالدنيا عاتب المؤمنين المشتغلين باكتساب الدنيا وقلّة التشوق إلى دار الآخرة حيث‌تطرقت فيهم قساوة القلوب لتطاول الأمدكما في بني‌إسرائيل ، ونهاهم

عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلب .

(١٧) ثم تداركهم باللطف بعد هذا التوبيخ ، بأنقلوبكم وإن قست وقطرت عمّا كان في سابق الاسلام ، وماتت بنسيان المعرفة وقلّة تلاوة الآيات والذكر الحكيم ، لكن الله يحييها بنور المعرفة والتلاوة والذكر لبقاء قابليتها بثبوت أصل الايمان فيها ،كما يحيي الأرض بعد يبسها لبقاء جوهرها وإن عدمت عنها الطراوة التي هي بمنزلة تذكر الآيات في الإنسان .

والقلوب التي لم يبق فيها أصل الاعتقاد بمنزلة الأرض التي فسدت ذاتها وأرضيّتها وانقلبت سبخـة أو رماداً أو ملحاً ، لايمكن إحياؤهـا بأنوار المعارف الحقّة ، ومياه الأعمال الصالحة ،كما لاينصلح المملحـة للعشب بأضواء الشمس ومياه المطر .

(١٨) ثم رجع إلى الترغيب والحثّ للإنسان عن اكتساب العلـم والعمل بحكاية حال العاملين والعالمين بذكر الوعد للذين تصدّقوا واقرضوا الله قرضاً حسناً ـ بتضعيف جزائهم وكرامة أجرهم ـ وبذكر الفضيلة للمؤمنين بالله ورسله ايماناً حقيقياً ـ بأنهم هم الصديقون والشهداء عندربهم، والوعدلهم بأجر ونورمخصوصين بهم لمزيد شرفهم ومنزلتهم عند الله لمكان المعرفة اليقينية والعمل المنبعث عن محض المعرفة والإخلاص الذي لايوجد مثله في غيرهم ، أما الأجر ففي مقابلة أعمالهم الخالصة ، وأما النورفمن لوازم معرفتهم المحضة بلاشوب غرض ورياء في الأول ، ولاتطرق شبهة وريب في الثانية .

(١٩) ثم ذكرلتوضيح هذه المنزلة في الاعتقاد والعمل وشرافته بذكرضدها فيهما، وهو الكفر الذي هو أفسد مراتب الجهل ـ بإزاء فضيلة المعرفة بالله ـ والتكذيب بآيات الله الذي هو أقبح القبائح العملية ـ بازاء فضيلة العمل الصالح ـ وذلك لأن الاشياء تعرف بأضدادها .

وأخبر بأنهم أصحاب الجحيم بحسب غريزتهم الأصلية ، كما انهم من أهل هذه الدنيا بحسب طبيعتهم الفطرية ، إذ الجحيم من سنخ هذه الدار الفانية الهالكة

الباطلة ، ولهذا وقع الاشتراك بينهما في الخصائص والأحوال .

أما ترى إن شأن كل منهما الإحالة والتحليل ، ودأبهما الإماتة والتبديل ، أشخاصهما أبداً في الذوبان والانتقال ، وأجسامهما دائماً في الحركة والارتحال ، حال الساكنين في الدنيا نظير ماحكي الله عن حال سكّان الجحيم بقوله : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [٤/٥٦] فاشتركوا في الاستحالة والذوبان وكذا حال أهل الدنيا في تضاد عناصرهم في الكيفيات المحسوسة وتباغض نفوسهم في الأغراض الخسيسة النفسانية والدواعي القبيحة الدنية ، وتخالف مذاهبهم الناشئة عن المخاصمة والعناد ، والمناقشة في الحسد واللداد كحال أصحاب الجحيم فيما ذكره سبحانه بقوله : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [٧/٣٨] وبقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [٣٨/٦٤] إلى غيرذلك من الخصائص الجامعة للدنيا والجحيم والصفات المشتركة بينهما التي تدل على أن الدنيا بعينها صورة الجحيم والجحيمُ بعينها حقيقة الدنيا .

وعلى هذا الرأي شواهد عقليّة ، ومؤيّدات نقليّة ، وإشارات قرآنيّة ، ورموزات نبويّة ، ونصوص الهاميّة ، وبراهين حدسيّة ، يستعرفها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها .

(٢٠) وإذ قد ثبت جهة الاتحاد بين الجحيم والدنيا وإن أصحاب الجحيم هم بأعيانهم من أصحاب الدنيا أشار سبحانه إلى بيان ماهية الدنيا ليعلم كيفية استتباعها للنار ، واستلزام التلذذ بشهواتها للتعذب بعقوبات الجحيم ، فأمر بمعرفة ماهيّتها وخصائصها وحقيقة زهراتها ولذاتها بكونها لعب ولهو ، وما ينبعث منها كالتفاخر في الأمور الخسيسة والتكاثر فيها ، وهي أمور باطلة وهمية لاحقيقة لها ، كما لاحقيقة للنار إلا كونها قطّاعة نزّاعة مفرّقة للاتصال ، معدمة للكون والحيوة ، وجميع ماذكرناه أمور عدمية لاحقيقة لها .

وهذه الإشراق والنورية والتلّون التي يترائى من هذه النار الدنياوية ليست داخلة في حقيقة ناريّتها لأنها ليست ناراً صرفة بل نار مخلوطة بنور ولها مرتبة في

الكون والتحصّل ، وأما النار الصرفة الأُخروية فهي ليست إلا إهلاكاً وإيلاماً ، ولذلك قيل : « هذه النار الدنياوية غسلت بسبعين ماء عند مراتب تنزّلها إلى هذا الدنيا »(١) ليمكن الانتفاع بها رحمة من الله تعالى، والنار الأُخروية مخلوقة من عين غضبه تعالى على من يستحقه .

ثم ذكر مثالا مناسباً لدثورها وزوالها ، ثم أشار إلى أن المتوغّلين فيها ، المطمئنين إليها مآلهم إلى الجحيم ، حيث عقّب ذكر التمثيل في فنائها وفسادها واعجاب الكفار بزينتها بقوله : ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ولما كان من عادة القرآن أن لايتجرد ذكر الغضب والعذاب عن ذكر الرحمة والمغفرة عطف عليه قوله : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ .

ثم رجع إلى تأكيد ذمّ الحيوة الدنيا بأنها متاع الغرور .

(٢١) ثم أكّد في بيان الاجتناب عن الدنيا بأن أمرَ في المسارعة في التباعد عنها للوصول إلى المغفرة والجنّة ، كمسارعة السابقين في المضمار، وذكر تشويقاً للعباد في هذه المسارعة بوصف عظمة الجنّة وسعة ملكها بما يتصور من البسطة والسعة ، وأنها معدّة للعارفين بالله ورسله ، وأنها من مراتب فضل الله ودرجات تجلّيه على الأفعال والآثار وتطوّره بالأطوار ، وذكر إنه ذو الفضل العظيم ، فإن جميع العوالم والنشآت من فضائل ذاته المتعالية عن الشبه والنظير، ومن رشحات فيضه المتعالي عن القصور والتقتير ، وهذه الفضائل الأفعالية زائدة على شؤونات ذاته وتجلّيات وجهه في غيب غيوبه التي لايحيط بها العدّ والإحصاء ، ولا يمكن لها النعت والثناء .

ولهذا ذكر عقيبه بأن كل مايوجد في هذا العالم سواء كانت أُموراً خارجية أو ذهنية آفاقية أو أنفسية ، فهي مما كانت قبل خلقها في كتاب من علمه تعالى الذي هو من مراتب شؤونه الصفاتية تفصيلا ، أو الذاتية إجمالا .

---

(١) راجع البحار: ٢٨٨/٨. والترمذي: ٧٠٩/٤.

(٢٣) وذكر إن من نتائج هذه المعرفة عدم الإساء على الفائت ونفي الفرح عن الآتي .

ومن نتائج الجهل بها الخيلاء والفخر المبغوضان له تعالى المنهيّان بنهيه .

(٢٤) وينبعث عنهما كثير من الصفات الذميمة والأخلاق الردية كالبخل وحمل الناس عليه ، وجميع ذلك مما يورث البُعد عن الحق والتولّي عنه إلى الأمور الباطلة ، ويضر في معاد الشخص من غير نقصان في سلطانه تعالى وملكه ولذلك عقّب ذلك بقوله : وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ ـ في ذاته ـ حَمِيدٌ ـ في صفاته .

(٢٥) وحيث يمكن أن يختلج لأحد في قلبه إن صفة الغناء المطلق تنافي طلب الصدقات والطاعات وسائر حقوق الله عن العباد بألسنة الرسل والكتب أشار إلى دفع هذا التوهم بأن الغاية في إرسال الرسل بالمعجزات وإنزال الكتب وقانون العدالة في الأفعال والصفات ليس إلا استقامة الناس وإصلاح نفوسهم بملكة العدالة ، وحصول المعاملة بينهم بالقسط والإنصاف من غير تعد وجور وتفريط ونقص ليدوم معيشتهم الدنيوية مؤدياً إلى سعادتهم الأُخروية .

وكما ان في خلق أسباب الهداية من الرسل والكتب والقوانين ليس المقصود الكائنة إلا تبقية الناس بحسب الدارين ، لامنفعة تعود إلى ذاته تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، كذلك في خلق الأسباب الجسمانيّة من أدوات الحروب وغيرها ليس المقصود إلا منفعة العباد لاغيرها ، ولذلك عقّب ذكر المقصود من الأُولى بذكر المقصود من إنزال ماهو من قبيل الثانية ، وذكر إن في إنزال الحديد وخلق آلات الحروب وآلات الصنائع فيه ليس الداعي إلا مايرجع إلى الخلائق ، إذ الفائدة فيه بأس شديد ومنافع للناس ولأن في استعمال الأسلحة المتّخذة منه تبيّن رتبة حال المجاهدين في سبيل الله ، والناصرين له ولرسله حين الغيبة عنهم ، لالحاجته تعالى عن ذلك إلى الناصر له في إهلاك أعدائه ، لأن الله إن أراد اهلاكهم قويٌ على ذلك عزيزٌ لانقص في قدرته ولاقصور في عزته .

وللإشعار بأن المقصود من ايجاد الممكنات وهدايتهم طريق الحق بارسال

الرسل ونصب الأدلة والآيات ليس غرضاً يعود إلى ذاته ، بل إنما هو مجرد عناية بالقياس إليهم وفيض رحمة عليهم على سبيل الرشح ، ونظم للأمور وترتيب للاسباب مؤدات إلى المسببات ، مترتبة عليها الغايات الجزئية ، ومصالح للعباد ، من غير التفات من جنابه العالي إلى السافل ، أخبر سبحانه إنه قد خلق الأنبياء وأرسلهم وذريّتهم إلى الخلق ، مع تأييده إياهم بجنود لم تروها من الملائكة ، وتنويره قلوبهم بالوحي والكتاب ، والحال انهم مع ذلك لم يقع الإهتداء بهم إلا من بعض الناس دون بعض ، وكثير منهم فاسقون .

ولو كان له تعالى إرادة جزافيّة ، وأغراض جزئيّة ، ومقاصد سفليّة ـ كما يتصوره العامة ـ لم يتصور ذلك، ولما كانت أولياءالله وأحباؤه ممتحنة بيدالأعادي، مقهورة بقهرالكفَرة الفجرة ، ممنوعة عن إرشاد الخلق معوقة عن هدايتهم مدة مديدة بسبب كيد المنافقين وإفساد الظلَمة .

(٢٧) ثم أكّد هذا المعنى بالإخبار عن اتصال سلسلة الرسل والمصطفين الأخيار على ماهومقتضى حكمة البالغة ، من عدم تخلية العالم عمن يوحّده ، ويمجّده ويعظّمه، ويعرّفه، ويصفه بصفات العظمة والجمال، ويثنيه بنعوت الكبرياء والجلال من الأنبياء والأولياء والعرفاء ، ثم الأمثل فالأمثل إلى أن بلغت نوبة الإجادة والإفضال إلى الأداني والأرذال، من غير تعلّق قصد بوجود هذا القسم إلا على سبيل الاستجرار والاستتباع كما ان الصانع الحاذق والنجّار المحدق إذا تمت صنعته عن موضوع معيّن لها كالخشب مثلا للسرير أو الباب ، وبقي من الموضوع شيء ، لايضيع حق قابليّة هذه الفضالة ، بل يصنع منه ماهو أدون منزلة من الأول وهكذا كالوتد والخلال إلى أن لايبقى شيء من الموضوع الجسماني، فهكذا الباري تعالى ـ وهو أشرف الصانعين ـ يقع من صنعة وجوده الأشرف فالأشرف إلى الأخسّ فالأخسّ، حتى ينتهى إلى وجود الأشرار والفسّقة والكفَرة ، فكان الغرض المقدم في ايجاد المكوّنات (الممكنات ـ ن) خلقه أشراف نوع الإنسان ، فخلَق من فضالته سائر الأكوان لئلا يفوت كل ذي حق حقّه ، ولا يضيع عن القابل مستحقّه ،كل ذلك

على سبيل الحكمة والعناية الخاليتان عن النقص والشين .

وذكر إنه عقّب الرسل بالرسل وقفّى بعضهم على اثر بعض مؤيداً بالآيات من لدن نوح وإبراهيم إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، وكان في كل أمّة الغلبة للفساق والنجاة للمهتدين ـ وهم الأقلّون عدداً من المتوسطين والهالكين ـ وكذا في أمّة عيسى عليه السلام كان بعضهم ممن آمنوا به واتبعوه وكان في قلوبهم رأفة ورحمة فأوتي أجرهم ، وكثير منهم فاسقون .

(٢٨) ولما أخبر تعالى عن إرسال الأنبياء متّصلين إلى عيسى وذكر حال قومهم الغابرين وقومه الغابر شرع في ذكر نبينا صلى الله عليه وآله وحال قوّته الظاهر الحاضر، مخاطباً إياهم ، آمراً لهم بالتقوى والايمان ، واعداً لهم كفلين من رحمته ونصيبين من فضله وَجُوده لشرافتهم وفضيلتهم على سائر الأمم ، لقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَاسِ ﴾ [٣/١١٠] ـ جاعلا لهم نوراً يمشون به يوم القيامة ـ وهو نور المعرفة ـ جزاء ايمانهم بالرسول ، وجزاء تقويهم المغفرة لذنوبهم السابقة ، لأن العلم شرف وتحلية ، والعمل نجاة وتخلية .

(٢٩) وهذه المراتب السنيّة لهم فوق سائر الأمم لاجل استحقاقهم الذاتي وصفاء قرائحهم الفطرية ، فإن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، بعضهم أصفى وبعضهم أكدر ، ولهذا أشار سبحانه تنبيهاً على تفاوت طبقات الخلق في الكمال بحسب الجواهر والاستعدادات بقوله : ﴿ لِئَلَا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ لخسّة جوهرهم ونقصان قابليّتهم ، والفاعل الفياض وإن كان متشابهاً في فيضه وَجُوده ، كما أشار بقوله : ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لكن يختلف آثاره باختلاف القابليات ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرَاً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرَاً﴾ .

أما ترى إن الماء حقيقة واحدة فعله من جانبه متشابهة لكن يختلف آثاره حسب اختلاف الأراضي كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [١٦/١٠-١١] .

والشمس ذات واحدة وفعلها الخاص بها الإضاءة والإشراق ومع ذلك يكون لفعله الوحداني أثران متضادان كتبيّض ثوب القصّار وتسوّد وجهه .

* * *

فهذا ماخطر ببالي المنكسر وحضر في ذهني الفاتر والقاصر من النكات المتعلقة بهذه الكريمة مع تضيّق المجال وتعسر الحال وفشو داء الجهل والوبال في الأطراف والأكناف وترفّع حال الجهلة والأرذال وتصدّرهم على الأخيار والأشراف وخلوّ البقاع والبلاد عمّن يعرف قدرَ المعارف والأسرار ، الفائضة على قلوب العباد من خبايا علوم المبدء والمعاد ، وإلى الله المشتكى من زمان شاعَ فيه الجهلُ والعناد (والفساد) وكثُر فيه الحسد واللداد ، وانسدّ طريق المعرفة والسداد ، واستكبر الناس عن تعلم الحق بحسب ماحصّلوه بالوسواس ، وسمّوه علم المذهب لتوصلهم به إلى مراجعة الخلائق إليهم والإستيناس .

وله الشكر فيما اخرجنا الله به عن مضائق ظلمات الأبحاث الجدلية والكلامية إلى أفضية الأنوار الإلهية القرآنية ، ولرسوله الهادي إلى طريق التوحيد بأسرار كلماته ورموز آياته ـ محمد وآله ـ الصلوة والدعاء ، كفى إرشادهم للخلق وإفضالهم وجزاء هدايتهم للناس وإكمالهم أولا وآخراً .

* * *

تمّ تفسير سورة الحديد والحمد لله أولاً وآخراً .

تعليقـات

الحكيم الإلهي المولى علي النوري (قده)

علـى

تفسير سورة الحديد

بسمه تعالى وله الحمد

لدى اختتام طبع هذا الجزء أتحفني مشكوراً السيد الكريم والعالم الجليل الدكتورالسيد أحمدالتويسركاني- أدام الله توفيقاته - صورة فتوغرافية من مخطوطة هذا الجزء وهي في ضمن مجموعة ثمينة محفوظة لديه - محشية بحواشي الحكيم الالهي المولى علي النوري - قدس سره - بخطه الشريف . فرأيت من اللازم اضافة هذه الحواشي في نهاية الكتاب اتماماً للنفع وأداء لشكر مامن الله علي من ايصال هذه النعمة .

وهنا نلفت نظر القراء الكرام الى مايلي :

١ - جميع الحواشي كانت مختومة بكلمة « نوري » - اسم المحشي - الا نادراً ولتمييز القسم الاخير وضعت في آخرها علامة كهذه (*) .

٢- وضع نقط مكان كلمة او كلمتين تشير الى عدم تمكني من قرائتها صحيحة .

٣- جاء معدود من الحواشي مختومة بكلمة « منه » وقد مضى بعضها في ذيل الصفحات وذكرت هنا مابقي منها مرموزة بكلمة (منه - ره) .

٤ - كانت الحواشي مكتوبة بحروف صغيرة ومهملة غير منقوطة على أن الموجود عندي صورة فتوغرافية فرغم مابذلت جهدي في قرائتها واستنساخها يمكن أن يكون فيه بعض الاخطاء فليعذرني القراء الكرام - اذ الانسان محل السهو والنسيان ، والعصمة لاهلها .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ص١٤١ س١٣ **قوله** : عن الرق المنشور ـ والطور : عرش العلم ، اى القرآن المجيد . وكتاب مسطور : اللوح المحفوظ المسمى بالكرسى وهوالعرش العظيم. فى رق‌منشور: لوح‌الهندسة القدرية وهوخيال‌الكل‌المسمى بعرش‌الرحمن.

ص١٤٢ س١٢ **قوله** : والآخر هو معرفة المعاد ـ هذا منه بناء على اعتبار كون دار الاخرة منحصرة فى أهل السعادة ، اذ الاخرة ـ بكسر الخاء ـ ان هى الا الغاية من ايجاد الأشياء ، ودارالنار والهلاك والبوار لايصلح لذلك ،كما لايخفى سره على أهل‌البصائر، فهى‌خلقة طفيلية كخلقة القاذورات المدفوعة ،كيف لا ـوهى حقيقة الدنيا ودار الطبيعة الظلماء ـ فافهم ولاتكن من الغافلين .

ص١٢٢س١٨ **قوله** قرب‌الفرائض ان فى‌قرب الفرائض‌الظاهرهوالحق‌الساتر للخلق، والمستورهوالخلق،كما قال تعالى:﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [١٦/٤٠] والامر فى قرب النوافل على عكس ذلك ـ فاعتبروا يااولى الابصار .

ص١٤٢ س١٩ **قوله** : تعريف السالكين ـ ان هؤلاء السالكين لهم مصدوقة كريمة « ويحبونه » فى قوله تعالى : ﴿ يحبّهم ويحبونه ﴾ [٥٤/٥] .

ص١٤٣ س١ **قوله** : كيفية حلول غضب الله عليهم ـ ولقد أشرنا قبيل هذا ان مآل حال أهل النار ـ مع كونه(١) مآلهم ومعادهم ـ لابعد من دار الاخرة

(١) كذا .

ولايجعل ولايحسب منها لكون فطرتها فطرة الهلاك والبوار وان دارالاخرة ـ بكسر الخاء ـ لهي دار البقاء والثبات والقرار، وهذا الضرب من الاعتبار انما يجرى على مجرى رعاية الحكمة البالغة الكاملة الناعتة للحكيم العليم الغنى الجواد المطلق عمت رحمته وسبقت رحمته غضبه ـ فافهم واستقم .

ص١٤٣ س٥ **قوله** : ثانيها ـ ان هذه الثانية لهي بيان كيفية حال مآل الكفرة من الفراعنة وتبعتهم الذين لحقتهم واتبعتهم .

ص١٤٣ س٧ **قوله** : والمقصود منه ـ قد يعبر عنه بضرب من السياسة المدنية والمنزلية النازلة على السائس الالهى وهى غير السياسات الحكمية التى تستنبطها العقول البشرية فى تنظيم نظام المعيشة الخلقية ، سواء كانت لها مدخل فى اصلاح المعاد ، أم لا . اذ ربما يكون السائس بهذه السياسة البشرية غير قائل بدار المعاد وهم جمهور المتفلسفة والدهريين القائلة بمات فات .

ص١٤٦س١٩ **قوله** : سبحان ماسبحت له ـ فلفظة « ما » فى هذا القول من العرب المعرب بمعنى « من » الذى هو الذات الاقدس الذى كان يمن علينا وعلى سائر الاشياء بمنّه الذى هو وجهه المشرق على الكل فى الكل المحيط بنا وبسائر الاعيان ، وهو النور المحمدى الكاشف عن حضرة الذات جل وعلا وعن وحدانيته الكبرى وهو عرش الذات وعرش هوية الذات الذى يرجع الى تقدس كنه الذات، وكل تسبيح من تسبيحات سائر الاشياء انما هو تنزيه ذلك الوجه المحمدى ، كما قال تعالى: ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾[١٧/٤٤].

والحاصل : انا نسبح الوجه . والوجه يقدس حضرة الذات ، بل هو نفس تقدسه تعالى الذى به يقدس سبحانه نفسه ـ تثبّت فيه .

ص١٤٧ س٥ **قوله** : تسبيح فطرى ـ كيف لا وقد قال تعالى : ﴿ انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾[٣٣/٧٢] كما يشير اليه بضرب من الاشارة لاهلها قوله تعالى : ﴿لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ [٥٩/٢١] .

وأما الوهم الانسانى الجهلانى فحملها حمل سراب ـ فافهم .

ص١٣٧ س١١ **قوله** : ولنا ايمان ـ هذا الايمان أعم من الايمان التقليدى العامى المعروف بعقد القلب من دون يقين وايقان ومن الايمان البرهانى الايقانى .

وقد يقال للتقليدى « الايمان » وللبرهانى « العلم » وللكشفى العيانى « الاحسان » ولايعم الايمان كل ذلك كما يظهر للماهر فى الفن ـ تفطن .

ص ١٣٩ س ١٥ **قوله** : من حيث هو بدن ـ اى من الحيثية المذكورة فلاينافى ماسيجىء من كون هياكل الحيوانات فى التسبيح (منه ـ ره) .

ص١٣٩ س١٨ **قوله** : لامن حيث جسميتها وماديتها ـ سر ذلك هو كون الجسمية المادية كيانى الكون ، والكينونة الكيانية ـ كما تقرر بالبرهان الباهر فى مقامه ـ ان هى الا التفرق والتشتت والتكون فى عين التصرم ، والتجدد فى عين التقضى ، كما هو سجية الفطرة الزمانية والزمانيات الجسمية المكانية ومصادرها الاتصالية لامعية فيها ... ولا جمعية وكل جزء منها خلو عن وجود سائر الاجرام بل الكل عن كل جزء من أجزائه بل وعن نفسه ، اذليس نفسه الا عين هذه الاجزاء المتفرقة من خلو الشىء من عين نفسه اذ نفسها ليست الا متشتتة فى عين نفسها .

ص١٥٠ س٧ **قوله** : فاباه ابليس ـ ان ابليس مشتق من « ابى ليس » بالاشتقاق الكبير ، و« الليس » جلالى ، كما ان « الايس » جمالى وكل حاصل فى عين الاخر ـ فليتدبر .

ص ١٥ س ١٠ « أبلس من رحمة الله » اى : يئس . ومنه «ابليس» وكان اسمه «عزازيل» ـ (منه ره) .

ص١٥٠ س١٢ **قوله** : موافقة علمه ـ سرذلك هو كونه سبحانه شيئاً بخلاف الاشياء .

ص١٥٠ س١٢ **قوله** : علمه الذى هو عين ارادته ـ فماتشاؤون الا أن يشاء الله فالكل جار والامر سار على ارادته جل شأنه وعظم وقهر سلطانه .

ص ١٥٠ س ٢٢ **قوله** ويعلم ان انكارهم عين الاقرار ـ سر ذلك كله هو

كـون منزلة الاعيان الثابتة التي هـي حقائق الاشياء من صفات الله العلياء وأسمائه الحسنى منزلة الصور والامثلة والاظلة مـن الحقائق ومنزلة الفروع والوجوه مـن اصولها، واذا كان الامربهذه المنزلة فمن أين وأنى يتصور للاعيان التخلف عن اجابة دعوة الاسماء التي هي حقائقها واصولها، فهي بذواتها وصفاتها وأفعالها تابعة لحقائق الاسماء وأظلالها ، وظل الشيء ان هو الا مجرد حكايته ومحوضة تبعيته واجابته في الحكاية والتبعية ، وليس التبعية الظلية مثل تبعية شيء لشيء ، بل المراد هو كون الفطرة الظلية فطرة التبعية . فاعيان الأشياء بحقائقها وطبايعها راجعة الـى اصولها التي هي الأسماء الحسنى وليسـت لها ذوات انفصالية لها أحكام بحيال أنفسها ، بل ان هي الاصورها الحاكية عنها المرجوعة اليها ـ ﴿ألا الى الله تصير الامور﴾ ﴿واليه يرجع الامر كله﴾ لكن درك كيفية هذا الرجوع ونيل حق حقيقته أمر صعب لايحتمله الا ملك مقرب ، او نبي مرسل ، او مؤمن امتحن الله قلبه للايمان .

ص ١٥٠ س ٢١ **قوله** : في مرتبة الجمع ـ قد يعبر عن هذه المرتبة بشهود تعانق الاطراف بوجدان كل من المتقابلين في عين الآخر .

ص ١٥٢ س ٢ دون ما تصدر عنها ـ كالكتابة من الكاتب والبنـّاء من البناء والهيئة الصورية العرشية مـن النجار ، فان شيئاً من تلك الامور لايتعلق بمصادرها المذكورة المعروفة تعلقاقواميأ وافتقاراً ذاتياً يوجب كونهمافاقرة الذوات الى تلك المصادر المعروفة بمصدريتها عند الجمهور وتعلقي الهويات بها . كيف لا ـ وبقاء كل منها عندفناء ما تصدرمنه كاف في نفي كون تلك المصادرعللا فاعلية لها مذوتة لذواتها ، مقومة لهوياتها ـ فلا تغفل (*) .

ص ١٥٢ س ١٢ **قوله** : فان حبوة العلم ـ الى قوله : ـ في الدنيا ـ لعل فيه نشر مرتب للف الذي في قول ابن عباس .

ص ١٥٢ س ١٥ **قوله** : ان نـوع الاحياء مختلف ـ قال تعالى : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [٣/٦٧] وقال: ﴿وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر﴾ [٥٠/٥٤] فالتفاوت بين الدنيا والاخرة ناش من ناحيتهما ولما كان المادة الدنياوية

تدريجى القبول للوجود الفائض عن حضرة قدرة الحق ـ كما تقرر فى محله ـ من كون الفطرة الدنياوية فطرة زمانية آبية عن الجمعية والاجتماع زمانا ـ بل ومكانا ـ صارت أسبابها تدريجية .

وبعكس ذلك الفطرة الاخروية لكونها فطرة أمرية جمعية، اذ الوعاء الدهرى هووعاء الطيّ ـ اى طيّ طومار الزمان والمكان ـ كما قال تعالى : ﴿يوم نطوى السماء كطيّ السجل﴾ [٢١/١٠٤] ﴿والارض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾ [٣٩/٦٧] .

ص ١٥٣ س ٩ قوله سبحانه : هـو الاول والآخر والظاهر والباطن ـ قلت فى خلاصة ترجمته ومحصل افادته :

الله أحـد و لا هـو الا هـو * دردار وجود نيست جز حضرت او
﴿قل هو الله أحد﴾
لامثل و لا مثال لله بگـو * مثلش كه مثال اوست لامثل له
﴿ولا تضربوا لله الامثال * ليس كمثله شيء﴾
وله فى ترجمة هذه الكريمة :
جز ذات خدا اول وآخر نبود * جز ذات خدا باطن وظاهر نبود
در غيب و شهود نيست جـز حضـرت او
جز حضرت او غـايب و حـاضر نبود (*)

ص ١٥٣ س ٣ قوله : موت البدن من ضروريات ـ تعلق الروح بالبدن تعلقا افتقاريا وان كان علة معدة لاستكماله مثل تعلق الراكب بمركوبه الـذى به يسير ويسافر حتى يصل الى المقصد الذى كان الوصول اليه مطلبه ، لكنه مادام كونه متعلقاً بالبدن مثله ـ مـن وجـه ـ مثل المريض المبتلى بمادة الافليج المزمنة التى تجعله عاجزا عن الحركات الاختيارية التى لابد له منها فى انتظام معاشه ، فبالاستكمالات العملية كالمعالجات الطبية ينبت له أجنحة يطير بها الى سماوات كمالاته ـ فافهم .

ص ١٥٣ س ١٣ قوله : معجمة (١) اى لادلالة ولا نطق لها ـ فافهم .

(١) كان المتن فى نسخنا : «مقحمة» كما هو فى مجمع البيان .

ص۱۵۴ س۱ **قوله** : عن الضحاك ـ محصل قول الضحاك ای: باولیته تعالی صارت الاوائل أوائل ، وهكذا الثلاثة الباقية .

وسر ذلك هـو كما ان كل موجود موجود و قـائم به ، هو الله المحيط فی الوجود واوصاف الـوجود وأحواله بما هو وجودكالاولية والاخريـة والظاهرية والباطنية و. . . هذاالمحصل هو كون وجوده سبحانه أصل الوجودات ، ففی كل مرتبة ومقام هو الموجود بالاصالة أولا وبالذات وسائر الاشياء يكون موجوداًثانياً وبالعرض ـ فاليه يرجع الامر كله .

ص ١٥٤ س ٨ **قوله** : قيل ان الاول والاخر ـ قول هـذا القائل دقيق عميق فبالتعمق والتدبر حقيق.

وقولـه : «والحق وسع المكان ظاهراً وباطناً ـ آه » يعنی : ان الحق قهّار قهر الاشياء كلها وأحاط بها احاطة تستهلك بها المحاطات فی المحيط وتضمحل بها المقهورات فی قهره البسيط .

ومحصله هو مفاد قوله تعالی : ﴿ألا الی الله تصير الامور﴾ و﴿اليه يرجع الامر كله﴾«غيرتش غيردرجهان نگذاشت»ويرجع محصله الی التوحيدالوجودی(*)

ص ١٥٤ س١٥ **قوله** : علمه بالمصلحة وكونه تماماً ـ آه ـ : . . . بظاهره كانه يشير الی مشربين ، مشرب كدر مشهوری عامی ، و مشرب صاف خاصی غير مشوب بشائبة أصلا .

ص ١٥٥ س ١٨ **قوله** : ان الموجـودات العالية ـ آه ـ ذلـك كما اشير اليه نوع اشارة لاينالها الا أهـل الاشارة فی قوله تعالی : ﴿لهم طوبی وحسن مآب﴾ ـ وهو الملهم للصواب ـ

ص ١٥٥ س ٢٢ **قوله** : فی‌شقاق ـآه ـ ای : وقعوا بدركهم الوهمی‌الرابی فی شق العدم والظلمة الذی هونقيض حضرة الوجود ، وضد حضرة النور ، وشق العدم الذی هو ملاك تكوّن جهنم بكون طريقهم وطريقتهم فی السلوك المعرض عن مشرق شمس الحقيقة المتوجه الی مغرب هاوية الظلمة .

وقد قال شاعر اخوان الصفا :

ترسم نرسی‌به‌کعبه ای اعرابی   این‌ره‌که‌تومیروی‌بتر کستانست

و الهاوية التي هي الدركة السفلى المعبّر عنها بما تحت الثرى هي قاعدة مخروط النقيصة الامكانية والظلمة الهيولانية ، النقيضة المقابلة لقاعدة مخروط نور الوجود والوجوب التي‌هي‌جنة المأوى التي‌اليهاتأوى طيورالارواح القادسة التي هي‌اولاد الادمية الاولى وأقارب المحمدية البيضاء والعلوية العلياء التي منزلتها من المحمدية البيضاء منزلة حواء من آدم نبياً .

كما قال ﷺ : « يا على ، أنا وأنت أبواهذه الامة » فشقاق العدم و الظلمة لحضرة الوجود والنور هو شقاق أهل النفاق لمحمد وعلى و آلهما ـ ﷺ ـ في المآب والمآل ـ فاعتبروا يا اولى الالباب ـ

ص ١٥٥ ص ٢٠ **قوله** : هيهنا غايات وهمية ـ اه ـ ذلك كما يشيراليه قوله عزمن قائل: ﴿الذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جائه لم يجده شيئاووجدالله عنده فوفّيه حسابه * او كظلمات في‌بحر لجي يغشيه‌موج﴾ ـ الاية [٢٤/٤٠]

والوهم هيهنا هـو العقل الجزئي المضاف الى النشأة الحسية الدنياوية الظلمانية والمتعلق بهما المسخرللنفس الأمارة بالسوء والفحشاء .

و اصل سنخ الفطرة العقلية وان كان من سنخ فطرة أبيها المقدس المسمى بروح القدس الاعلى و بالمحمدية البيضاء ، ولكنها لما تولدت من امها الامارة بالسوء ونشأت في دارالغربة وتقلدت بقلادة قرابة قبيلة امها الامارة ابتليت ببلية الاحتجاب عن شهود موطن أبيها المقدس الذى هو واد القدس الباقي بالبقاء الحقاني على خلاف هذه النشأة الدنياوية المفطورة على الفناء والدثور والتصرم والتقضّي المحادة بالمضاروالشرور وما شمت شامة فطرتهارائحة الحبور والسرور ان هي الا دار الاغترار والغرور .

ص ١٥٧ س ١ **قوله** : اذلا معنى له بذاته ـ اى : لامعنى له بذاته مع قطع

النظر عن كل ما هو خارج عن حقيقة ذاته الاصرف صريح ذاته ، والقواطع البرهانية قائمة على كونه سبحانه متجليا بذاته ومتعرفا بذاته لكل شيء من الاشياء ، فكل شيء فى عين شهود ذاته و فى عين ظهور ذاته و حضورها له محتجب عنه ، وهو تعالى حاضر له بحضور غير محدود ، وكل شيء ما أدرك ولا يدرك الامحدوداً.

والحد هيهنا انما هو نقصانه الذاتى و قصوره الفطرى الذى هو حجابه عن شهود المحيط فى الظهور والحضور .

ص ١٥٨ س ١٥ **قوله** : ان ايجاد الحوادث على انشاء ـ اى الامر الدفعى الوقوع يحتمل ان يكون أمراً اتفاقيا ـ بل و غير مشعور به واقعا بطور البخت و الاتفاق ـ واما اذا حصل شيئا فشيئا واوجد وانشأ تدريجا شيئاً بعد شيء كل مرتبة من وقوعه تلازم ما يناسبها وتنفك عما يناقضها كما قال ﷺ مشيرا الى هذه الدقيقة اللطيفة : « الامور مرهونة باوقاتها » فهو مما يكشف عن كون صانعه عليماً حكيماً مدبّراً موجداً محصلا كل شيء فى وقت يناسبه و يقتضيه لاعلى وجه الجزاف و الاتفاق ـ هذا .

ولكنه نكتة عامية غير خاصية ، وللخاصة أسرار فى المقام سنشير الى بعضها ـ والعلم عندالله .

ص١٥٩س٩ **قوله** : فابدع الافلاك ثم زيّنها بالكواكب مع نفوسها المجردة المحركة ـ اه ـ لقد أشار بهذا المساق من البيان حيث اقحم لفظة ثم و عطف بحرف « ثم » جملة : «وزيّنها بالكواكب » ـ اه ـ على جملة « فأبدع الافلاك » ـ الى سر كون خلقة السموات السبع متحققا فى يومين ، وهما يوم يتعلق اعتباره بخلقة الكواكب والنفوس العلوية من الناطقة القدسية القضائية والحساسة القدرية، فكل من القسمين يتعلق خلقه بيوم مع كون خلقة السماويات ابداعية ، فان نفس الزمان بل نفس الحركة التى هى ملاك الزمان خلقتهما ابداعى .

ص ١٥٦ س ١٣ **قوله** : وعمد ـ الى قوله : ـ ثم قسمها ـ اه ـ هذا السياق ايضا منه للاشارة الى وجه كون خلقة الارض بالمعنى الذى فسره بقوله : « اى ما

فی جهة السفل » وهو غير المواليد متعلقة بيومين . وكذلك قوله : ثم انشأأنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا و تصويرها ثانياً » فيه اشارة الى لمّ كون خلقة انواع المواليد متعلقة بيومين . ولذا قال : « بتركيب موادها اولا وتصويرها ثانيا » فيكون تركيب المواد فی يوم وتصويرها بالصور النوعية المواليدية فی يوم.

ص ١٦٠ س ٣ **قوله** : التهيئة و الاعداد ـ فأين وأنى مبدء الاعداد و منشأ الاستعداد من مبدء . . . و الايجاب والايجاد وقد تقرر فی مقره ان منزلة الامكان من الوجوب منزلة النقص من التمام والكمال وهو سبحانه تمام التمامات و كمال الكمالات فهو حقيقة الحقائق ببساطته ـ اذ بسيط الحقيقة كل الاشياء بوجه أشرف واعلى والطف واقوى وتمام الشیء هو اولى به من نفسه ، اذا لشیء بتمامه هوهو وبنفسه ليس شیء اصلالاهوولاغيره .

تلطف فيه فانفيه قرة عين التوحيد الوجودی الذی هوالكبريت الاحمر .

ص ١٦٠ س ٨ **قوله** : و احتجابها بالاسماء ـ اه ـ و رفع احتجاب الذات يتحقق بتمامها عند نفخة الصعق التی لايبقی معها شیء من مظاهرالاسماء .

ص ١٦٠ س ٨ **قوله** : وظهور الاسماء فی مظاهر الاشياء ـ اشارة الى كون الاسماء ايضاً مختلفة مستورة بمظاهرها ، اذا المظهرمن حيث هو مظهرساترللظاهر فيه ، لان الظاهر انما يظهربه وبحسبه .

تفطن ـ فالخلق حجاب للحق ذاتاً وصفة واسما .

ص ١٦٠ س ١٢ **قوله** : وهو يوم الجمعة ـ لعله أراد من يوم الجمعة هيهنا يوم القيامة الوسطى كما هومقتضی مشربه ، اذا الاسابيع سبعة والجمع ايضاًسبع وجمعة الاسبوع الاخر هی يوم القيامة الكبرى .

ص ١٦٠ س ١٢ **قوله** : هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ـ وفی الخبر من طريق أصحابنا مامحصله ان عمر الدنيا مأة ألف سنة ، والعشرون منها لسائرالناس والباقی مدة دولة آل محمد صلی الله علیه و آله .

وظاهر الاخبار مختلف والمشهور من الاثار كما ذكر . وقد تقرر فی محله

من العلوم الحقيقية انه كما نزل ونطق به محكم القرآن والقرآن الحكيم: ﴿تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبرا جميلا﴾ [٧٠ / ٤] وهو سبعة أسابيع ، وخاتمة تلك الاسابيع السبعة هي قيام الساعة الواسعة الكبرى . وعصرنا هذا حسبما رأيت في بعض الاخبار كما نقل في البحار ـ داخل في الاسبوع الثاني من تلك الاسابيع السبعة الالفيه . فالجمع بين ما اشتهر وبين ما تقرر حسبما نزل أمر صعب مستصعب لايحتمله الاقوة الاوحدى المؤدب القرن في الاعصار فضلا عن الامصار .

ص ١٦٠ س١٨ **قوله** : ويوم السابع هو يوم الجمع ـ سر ذلك الجمع كون مقتضى الختميّة نبوة وولاية جمع جوامع الكلمات التامات الالهية ـ روحانيات ملكية كانت او كلمات تامات آدمية نبوية اوولوية ـ ومن ذلك الجمع البالغ في الجامعية المسمى بجامع الجوامع الجمع بين التنزيه والتشبيه في جهة واحدة ، كما قال ـ جل من قائل ـ في الوحي الختمي باللسان القرآني : ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم﴾ [١٧/٤٤]

وسر عدم تفقه الخلق ذلك التسبيح هو كون ذلك التسبيح بلغة ألسنة الورثة الختمية المحمدية ، وتلك اللغة وضعها وضع الهي طبيعي لايطلع عليه الاأهل التأله الذين هم أهل طرح الكونين وخلع النعلين خاصة ، وهم يتلمذون من الولى المطلق الحق الحقيقي تعالى ، بلاتوسط ملك فضلا عن توسط معلم بشرى ـ فافهم ـ

ص١٦٠ س١٩ **قوله** : وزمان الاستواء على العرش ـ ان الحقيقة المحمديه لهي عرش العرش الالهية الذى هومظهر المظاهر الجامع لجوامع مظاهر الاسماء الالهية ، بل وهي امام ائمة الاسماء كلها ، كما قال تعالى : ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ [٢/٣١] وتعلم الاسماء هو التحقق بحقائقها ، ومن هنالك صارت حقيقة حقائق الاشياء ، اذ منزلة حقائق الاشياء من حقائق الاسماء الحسنى منزلة الامثلة والصور من الحقائق واللباب .

ص ١٦٠ س١٩ **قوله** : وهذاالظهور يبتدي ـ اه ـ اذالبعثة المحمدية الختمية لهى البعثة الجامعة لجوامع البعثة ، و شريعتها هـىالجامعة لجوامع الشرايع ، و طريقتها هيالجامعة لجوامع الطرائق ، وحقيقتها هيالجامعة لجوامع الحقائق .

اذالحقيقة المحمدية لهيحقيقة الحقائق كلها هيمبدئهاومعادها ومعاد الاشياء كلها حقائقها ورقائقها، اصولهاوفروعها ، فاليوم الجامع لجوامع الايام الالهية لهو الجمعة ـ الجامعةالمحمدية .

ص١٦٠ س٢١ **قوله** : وجمع بين السبابة والوسطى ـ لعلالسبابة كناية عن القيامة الكبرى ، والوسطى عنالوسطى .

ص١٦١ س١٣ **قوله** :يوم خلق آدم ايالحقيقي ـ انآدم الحقيقي لهو آدم المحمدي، و سرتسمية يوم المحمدى بالساعة لسعته واحاطته وبيوم المزيد لازدياد الظهور وانتقاص الخفاء فيهتدريجا اليأن يتم الظهور ، ومنهيهنا كثرت الخواص فيالدورة الختمية منالورثة المحمدية ، ويزداد تلكالكثرة الاختصاصية شيئاً فشيئاً الى يوم خروج قائم الال عليه السلام بأمر ذلـك الاظهار و ظهور دولته الباهرة القاهرة في الظهور والاظهار ، الى أن تنتهي الامر في الظهور والاظهار وكشف البواطن والاسرار اليأنيعم جملةالخلائق منالخواص والعوام منالسعداء والاشقيا كائنامن كانفهو يوم تبلىالسرائر وتنكشفأسرار الضمائر بأربابها التى هيأسماء الله تعالى المحتجبة عنالابصاروالبصائر فييومنا هذااحتجاب الظواهر بمظاهرها ، اذالمظهر حجاب للظاهرفيه ـ فليتأمل فيه ـ .

ص ١٦٢ س٣ **قوله** : دهـر طويل ـ يعنى منه الدهر الذى هو طى طومار الزمانوالمكان المتقدم عليهما وجوداً .

ص ١٦٢ س ٣ **قوله** : الى أن تلخص (١) و تميز ـ الى قوله : ـ في مدة من العمر ـ حاصله : ان السموات والارض بما فيهما كانتا في ذلك الدهرالطويل

---

(١) المطبوع في المتن : تمخض .

رتقا وجمعاوطيّا مطويا ثم فتقتا ـ كما نزل في صريح التنزيل ـ.

و « الفتق » هو وجودهما الزماني والمكاني في العالم الطبيعي الهيولاني. فالعوالم المترتبة النازلة من عندالله الاول منها هو عالم العقل الكلي ـ وهو « عقل الكل المحمدي » ـ ثم نفس الكل المسماة بـ « ـالعلوية العلياء » ، ثم هيولى الفلك المسماة بـ « ـالهباء » ، ثم جسم الكل الاجمالي المسمى بـ «عرش الرحمن» وهو مثال الكل ، ثم الكرسي التفصيلي، ثم فلك الروح المعروف بـ « ـالفلك الاطلس» الذي لا كوكب فيه أصلا، ثم فلك الثوابت المعروف بـ « الفلك الثامن» عند الجمهور وهو الرابع من الافلاك الاربعة المذكورة ، ثم خلقت الارض و السموات السبع ثم المواليد الى أن انتهى الامر الى باب الابواب الى الله « الانسان » . فافهم ان كنت من أهل الاشارة واحفظه .

ص ١٦٢ س ٦ **قوله** : و تحيط بعضها ببعض ـ كأنّه منصوب محلا على الحالية .

ص ١٦٢ س ٦ **قوله** : كأنها شخص واحد ـ اه ـ هذا هو توحيد العالم الكلي والنظام الجملي المسمى بـ « ـالعالم الاكبر» و « الانسان الكبير » فقد نستدل بوحدانيته على وحدانية الحق كما هو الموروث المعروف من أرسطاطاليس ، وقد يعكس الامر فتثبت اولا وحدانيته تعالى و تفرع عليه وحدانية العالم كماهو طريقة الالهيين المعروفين بالصديقين ـ لكل وجهة هو موليّها ـ .

ص ١٦٤ س ١٣ **قوله** : فمكث ذلك الابن زماناً طويلا ـ لعل رمز قولهم « زماناً طويلا » يعني منه الدهر مطلقاً ، او الدهر الايمن او الاسفل عن الايمن واما مرموز قولهم : « وقدر نصف يوم » فيحتمل ان يكون نصف يوم هيهنا كناية عن الدهر الايسر الذي يعبر عنه بـ «ـالملكوت الصوري المثالي » المسمى . بجنة الدنيا كما ورد في الاخبار. والمراد من اليوم هيهنا هو اليوم الربوبي الذي وعائه وعالمه دون مرتبة اليوم الالوهي المسمى في وجه بـ « الدهر الايمن الاعلى » وهو عالم عقل الكل ، كما ان الايمن الاسفل عالم نفس الكلي التي هي أبو هؤلاء الاولاد من آدم

ابى البشر الى الخاتم المحمدى ﷺ الظاهر بالصورة البشرية فى عالم الزمـان الطبيعى .

ص١٦٤ س١٣ قوله: قدرنصف يوم- لعله عطف تفسير لقوله : «زماناطويلا» ويراد من نصف يوم هيهنا « الدهر الايسر » الذى يعبر عنه بـ «بالملكوت الصورى المفارقى» وعالمه عالم خيال الكل وعالم القدرفيراد منه فى المقام الذى فيه يساق الكلام من قصة آدم أبى البشروقصة جنة التى اغترّ فيها بوسوسة الشيطان فاخرج منها واهبط الى أرضنا هذه ، وكان فى الارض البيضاء معنى وروحا وفى الارض الخضراء صورة وجسداً ، وهى جنة الدنيا - اى الجنة النزولية .

ص١٦٥ س ١٠ قوله : هيكلا - يعنى الكعبة .

ص ١٦٥ س٢١ قوله : بأخيه الاول - انمثل عيسىعند الله كمثل آدم خلقه من تراب .

ص ١٦٦ س ٢ قوله : فاستفز (١) عليهـم بجنوده - اى استولى عليهم ، وأصل الأستفزار : الاستخفاف « بمعنى : سبك گردانيدن هر كسى را ورمانيدن » واستعماله بـ «على» بتضمين معنى الاستعلاء .

وقوله : وأيدهم بجنوده - لعله يراد من الضمير المنصوب المؤمنون منهم كالحواريين وأتباعهم ، فيسرى فى نفوسهم سراية الروح فى البدن .

وقوله : وتحكّم فىلاهوتهم - «حكم رانى كرد درمملكت روحانى ايشان» قصاصا لما تحكّموا فى ملكه وشهادته (*).

ص ١٦٦ س٥ قوله: للمنجمين- انهم لهم الارواح الكلية الالهيةعالمهمعالم الربوبيةوهمأرباب أنواع الكواكب ولاسيما أرباب أنواع السبعة السيارات فانهم بتفاوت درجاتهم فى القرب من الملك يتولون باذنمولاهم وسيدهم ومالك رقابهم أمر العالم الكلى معنى وصورة ويقومون بتدبير الامور وتنظيمها حسبما الهموا من عندملك الملوك

---

١ - فى المتن : فاستقر.

-جل شأنه - وشرح مقاماتهم في التدبيرات والتصرفات طويل لامجال لنا لتبيانه .

ص ١٦٦ س ٦ **قوله** : فينبه اخوته النيام - اه - لعل هذا التنبيه والايقاظ عند نفخةالفزع في القيامة الوسطى بانقلاب عالم الصورالمفارقي الملكوتالعلوى الى عالم المعاني الروحاني انقلاب نشأةالخيال والمثال الى عالم العقلانيالنفساني عالم ضرب من الربوبية والتدبيرالكلي والتربية الربانية كماقال تعالى: ﴿يدبرالامر من السماء الى الارض﴾ [٣٢/٥] .

ص ١٦٧ س١٢ **قوله** : في الرحم - يشبه أنيراد من الرحم المدارات الاربعة منالجمادى والنباتيوالحيوانيوالحيواني البشرى في كلعشرة أيام، وانمراده من «عشرين يوماً فيالرضاع» كناية عن أيام الزهد في الدنيا ، وعن أيام الورع المتعلق بترك النعيم الحيواني الانساني في الاخرة الجسمانية وفي كل منهما عشرة أيام -اي عشرةدرجات -بضرب قوتيالشهوة والغضبفيالخمس من الحاسة الظاهرية والباطنية كماورد في الكافي باسناده عنهم ﷺ .

وأما الحكومة فيالمملكة نحوثلاثين يوماً - فكانها كناية عن تعمير النشآت الثلاث - عالم الملك والشهادة الكلي ، وعالم الملكوتالصورى المثالي الكلي، وعالم الملكوت الجبروتي الروحاني المعنوى الكلي المحيط بالكل كما يشيراليه قوله تعالى ﴿فكان قاب قوسين﴾ [٥٣/٩] .

وأما قوله: يوم من أيام القمر- يشبه أن يراد منه مدة عمرد في عالم الشهادة ونشأة الدنيا العنصرية وابتلائه بأنواع البلايا والمصائب والامتحانات الالهية كما يشيراليه قوله تعالى : ﴿وان منكم الاواردها﴾ [١٩/٧١] يعني نارالطبيعة «اذالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» اى سجن العقل وجنده ، وجنة الجهل الذى هوالوهم السرابي وجنده - هذا هوماحضروخطر والعلم عندأهله - .

ص ١٦٧ س ٢ **قوله** : ثلاثمأة وأربعة و خمسين من أيام الشمس بحساب القمر - ان هذه المدة كانها عبرعنها اللسان القرآني حيث قال سبحانه : ﴿و لبثوا في كهفهم ثلثمأة سنين وازدادوا تسعاً﴾ [١٨/٢٥] .

فی الصافی والمجمع روی ان یهودیاً سأل علی بن أبی‌طالب عليه السلام عن مدة لبثهم ، فاخبر بمافی القرآن . فقال: «انا نجد فی کتابنا ثلاثمأة» . فقال عليه السلام : «ذلك بسنی الشمس ، وهذا بسنی القمر» .

أقول: یعنی عليه السلام أن‌مافی کتابکم بسنی الشمس، ومافی القرآن بسنی القمر. فأربعة وخمسین برد عشراتها ـ وهی خمسون ـ الی الآحاد وهی عقد الخمسة وعددها تصیر جمع العددین ـ الاربعة والخمسة ـ تسعاً .

فقول الحکماء : « من أیام الشمس بحساب » یجب أن یحمل علی ماأوله علیه السلام الیه .

فی الصافی عن الصادق عليه السلام ـ فی ذیل نقل قصة أصحاب الکهف ـ : لایدخل‌الجنة من‌البهائم الاثلاثة: حماربلعم بن باعورا، وذئب‌یوسف عليه السلام (گرگ دهن‌آلودۀ یوسف ندریده) وکلب أصحاب الکهف .

وأما قولهم : «لانه لایکون من نجوی ثلاثة الا هورابعهم ـ الی آخر هذا الکلام فی هذا المقام القمقام فتعلیل عجیب لوبلغ فهم أحد الی حق مغزاه فهو الاوحدی الفرید فی‌الدهر ـ کیف‌لا ـ وهومن‌المتشابهات‌التی لایحتمله الا ملك‌مقرب اونبی مرسل اومؤمن امتحن الله قلبه للایمان .

ص۱۶۸ س۳ **قوله:** قیل أنهم سبعة وثامنهم کلبهم ـ یعنی‌آدم ونوح‌وابراهیم وموسی وعیسی وحضرة محمد وآله الاشراف الذین هم الاوصیاء واولیاء العلم وعرش الولایة ، ویومهم هو یوم السابع من الایام السبعة ، واما الثامن الذی هو کلبهم هوالمالك خازن جهنم‌الکبری مظهرقهرعلی عليه السلام قسیم‌الجنة والنار ـ فاعتبروا یا اولی الابصار .

ص۱۶۸ س۴ **قوله:** یوماً من أیام الشمس ـ یشبه أن یکون مدة تربیةروح القدس‌الاعلی‌المسمی بعقل الکل‌آدم‌الاول، الحق‌الحقیقی ـ الذی هوالاب الحقیقی لادم البشری وذریته وبنیه .

وأماأيام الرضاع- فهو كناية عنمدة تربية نفس الكل التيهيحوا الاولى ، كماأشاراليهما بقوله ﷺ : «ياعلي أنا وانت أبواهذه الامة» - فتنبه.

ص١٦٨ س٢ **قوله** : من أيام الشمس- انهذه الشمسلهي الوجود الثاني لعقل الكل، كما أن هذا القمرهوالوجود الثاني في وجه من نفس الكل .

ص١٦٨ س٥ **قولهم** : فلاتمار- اه - ایلاتجادل أهلالكتاب الاجدالاظاهرا غيرمتعمق فيه وهوأن. . . فيأمرالفتية- وهم أصحاب الكهف - بماأوحي اليك... اليك - فتفطن .

ص١٦٨ س١٣ **قوله** : فهكذا يجرىحكم النفوس الكلية - ان تلك النفوس الكلية لهي النوس الابائية العلوية المدبرات المربيات للنفوسالجزئيه المحشورة في القيامة الوسطى ، وهي أنفس الكواكب السبعة السيارة في وجه حيث تبعث الارواح بأجسادها بالنفخة الفزعية . وفي وجهآخرهوأنفس الانبياء وأرواحهمالتي اليها اياب اممهم . ورجوع الانفس الجزئية التي هي دعوتهم المنقسمة الى امة الاجابة وامة عدم الاجابة من المنكرين المستكبرين .

ص١٦٨ س ١٤ **قوله** : وملائكة الله العمالة - هؤلاء الملائكة من النفوس المنطبعة الجزئية التي هي جنود النفوس الكلية .

ص١٦٨ س١٤ **قوله** : في كل سبعة أيام - ان هذا القضاء وجريان حكم النفوس الكلية في النفوس الجزئية لهو في القيامة الوسطى التي هي يوم الرجعة والكرة لتكررهذه السبعة التي هياسبوع واحد من الاسابيع السبعة، ويوم الكرة هويوم دولةآل محمد ﷺ الذى قلنا به ولميقل به مخالفونا - فلاتغفل - .

ص١٦٨ س١٨ **قوله**: سبعةآلاف سنة - انهذه السبعة لهيسبع منالاسابيع السبعة التي هي مقدار خمسين ألف سنة ، الذي هويوم القيامة الكبرى ، وكل سبع منذلك اليوم الجامع للجوامع الاسبوعية هويوم القيامة الوسطى ويومالحشر والنشرالذي فيه اقامة أمرالحساب والكتاب واقامة الموازين القسط وسائرالمواقف

الحشرية .

وهذه القيامة الوسطى تقوم بنفخة الفزع كما أن القيامة الكبرى تقوم بنفخة الصعق التى بها يتحقق فناء الكل والفناء الكلي ومحو الجل والقل ، كماقال تعالى: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [۱۶/۴۰] ثم بالنفخة الثانية يتحقق بعث الكل ـ بعث الجل والقل ـ بالتجلى الاعظم ـ كما تقرر فى محله .

ص۱۷۰ س۱۶ قوله : اوما ينزل من سماء الروح الكلي ـ قد يسمى هذا الطور من النزول في قلوب الانبياء التى هى كتب الله وصحفه النازل من عنده المكتوبة بيده تعالى وبقلمه الاعلى بـ «بالتدوين التشريعى» وتسمى صحيفة القلب النبوى بـ «الكتاب التدوينى» كما قد يسمى القسم الاول بـ « التشريع التكوينى » والكتاب الذى هو لوح مادة العالم الكلي والعالم الاكبر بـ «الكتاب التكوينى» .

والحضرة الختمية المحمدية مبعوثة بالكتابين ، ومن هيهنا يسمى العالم الاكبر بالانسان المحمدى ﷺ كما قال ﷺ : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» يعني بين الروح والجسد .

ص۱۷۱ س۳ قوله: بظهوره في مظاهرها ـ واليه ينظر قوله تعالى: ﴿مايكون من نجوى ثلاثة الاهو رابعهم ولاخمسة الاهو سادسهم﴾ ـ الاية ـ [۷/۵۸] فالرابع فى باب الثلاثة ، اوالسادس في باب الخمسة مثاله وآيته كون الشاخص رابعا فى المرايا الثلاث وسادسا فى المرايا الخمس ، فليس بداخل فيهما مثل دخول شيء فى شيء، ولاخارجاً عنها مثل خروج شيء عن شيء فهو معها معية الظاهر، بمظاهرها التى هى أمثلتها وصورها ووجوهها وحكاياتها. وبون مابين التمثيل بظهور الشاخص المحسوس لنا فى مراياه الخارجة البائنة عنه وعن صورته بينونة العزلة وبين الممثل له تعالى بالنسبة الى مظاهره التىهى أنفس كافة صفاته العليا وصور أسمائها الحسى وأمثلتها ـ تفطن تفطن نور، لاتوهم ظلمة وزور.

ص۱۷۱ س۵ قوله : فى الالواح ـ اى الالواح الكونية وملكوت الالواح

بقسميه من الاعلى والاسفل من عالم الدهر - اى أيمنه وأيسره - كل بقسميه كما تقرر فى محله - فتذكر - .

ص١٧١ س٨ **قوله** : ليس كمعية جسم لجسم - اه - اذ هذه المعية انما هى معية شىء لشىء، والشيئان متباثنان ببينونة العزلة التى تستلزم كون كل منهماموجوداً مقيداً ناقصاً . .. . فى الوجود وكمالات الوجود .

ص ١٧١ س ٨ **قوله** : او جسم لعرض ان حل العقدة لايتيسر الا للاوحدى الذى فى الدهر ، وحاصل الحل انها ليس كمعية شىء لشىء متشاركين فى حقيقة الشيئية وكانت الشيئية التى مشتركة بينهما كشيئية الجسمية بين الجسمين وقس عليها سائر الصور - فتدبر وتلطف فى النظر - .

ص ١٧١ س ١٢ **قوله** : و انما يعرف الراسخون فى العلم - يعنى المعية القيومية التى محصلها رجوع الكل من الجل والقل اليه تعالى، كما قال تعالى: ﴿ألا الى الله تصير الامور﴾ [٤٢/٥٣] واليه يرجع الامروالخلق كله وقال سبحانه: ﴿ألا انه بكل شىء محيط﴾ [٤١/٥٤]

گفتم بكام وصلت خواهم رسيد روزى گفتا كه نيك بنگر شايد رسيده باشى

ص ١٧١ س ١٥ **قوله** : مثلوا لهم مثال المرآة - القول الحق ان فى تلك المعية القيومية المرموزة الراجعة الى الوحدة المحضة ، قال تعالى : ﴿مايكون من نجوى ثلاثة الاهو رابعهم ولا خمسة الاهو سادسهم﴾ الآية [٥٨/٧] وان كان فى هذه الكريمة ضرب من الاشعار بشوب من التفرقة ولكنها هى التفرقة فى عين الجمع والجمع الحق الحقيقى انما هو الجمع فى عين التفرقة ومن هنا لك قالوا بالوحدة فى عين الكثرة - فاعتبر يا صاحب البصيرة و طالب الحقيقة - و الحقيقة محو الموهوم وصحو المعلوم ، والمعلوم المشهود ان هو الا هو، ياهو يامن لاهو الاهو .

ص ١٧٢ س ١٥ **قوله** : وليس فوقه - و ليس فوقه شىء حتى يصير سبحانه باطناً غير ظاهر - وليس دونه شىء حتى يصير - جل شأنه - ظاهراً غير باطن ، هذا

بناه على أن يراد من الفوقية الظهور والعلو ، ومن الدونية التحت والسر والحاصل ظاهر لايكاد يبدو و باطن لايكاد يخفى ، ويحتمل أن يراد من كل منهما عكس ما احتملنا وحملنا ، فاذا عكس الامر صار حاصل المعنى : ليس ظاهراً يقابله الباطن ، ولا باطناً يقابله الظاهر ، اذ كمال كل من الظهور والبطون انما هو في مقابله ، فهو الظاهر في عين بطونه ، والباطن في عين ظهوره ، لان في محيط المحيطات يجب أن تتعانق الاطراف ـ تفهم تفهم نور .

ص١٧٢ س١٨ **قوله** : وكذا حديث قرب النوافل ـ فانه يكشف عن كون حضرة نور الانوار المحيط القهار نور بصر العبد ـ فضلا عن نور بصيرته ومكفا في السمع وسائر الحواس بل وسائر القوى وجوارح الاعضاء كلها ، بل الامر في نفس الآلات لااختصاص له بالعارف السالك اليه تعالى و الساعي المتقرب منه سبحانه بقرب النوافل .

وأما سر التخصيص بقرب النوافل هو كون السلوك اليه تعالى باقامة نوافل السير والسلوك ـ بمزيد اقامة فرائضهما ـ هو رفع غشاوة الوهم عن عين البصيرة بصيرورة بصر البصيرة حديداً يرى الاشياء وخصائصها كماهي ، ولكنه في جانب قرب الفرائض والتقرب بها هو رفع الوهم الحاجب عن شهود الحق جلت جلاله.

ص١٧٣ س٦ **قوله** : كما نقل عن المحجوبين ـ مثل قول بعضهم «أنا الحق» او « سبحاني ما أعظم شاني » او « تدرع باللاهوت ناسوتي » و أمثال ذلك ، و نقل عن بايزيد البسطامي انه قال : « الهي ان قلت يوماً : سبحاني ما أعظم شاني . فأنا اليوم كافر مجوسي أقطع زناري و أقول : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ » .

ص ١٧٣ س ٧ **قوله** : ما قالوا ـ مفعول قوله « نقل » معناً ، و نائب فاعله لفظاً وأما ما قالوا فهو مثل قولهم «سبحاني ما أعظم شاني» الناشي من عدم التثبت، الناشي من شدة سكرهم ، الناشي من الاحتجاب بالحق عن الخلق التي هي مظاهر صفاته العليا ومجالي أسمائه الحسنى ، وذلك الاحتجاب ناش من فقدان مقام الجمع

بوجدان مقام الفرق المقابل للجمع بين الحقين الناشى من كون العارف السالك الجامع الحافظ للطرفين وحكمهما ذا العينين ـ فافهم ..

ص ١٧٣ س ٧ **قوله** : الا أن قالوا ـ استثناء من قوله : و قلت انه فيه ـ فلا تغفل .

ص ١٧٤ س ١٢ **قوله** : كما كان كذلك قبل أن خلق الخلق ـ أقول : الآن كما كان ، الا ان غشاوة الوهم تمنع عن شهود الجمع في عين الفرق و تحجب شهود ملك الحق في عين تملك الخلق ولولا احتجاب العقل بمغلطة الوهم المكذوب لحكم العقل الصريح بكون تمليك التشريعى من حضرة الحق لخلقه نازلا منزلة الاستخلاف منه سبحانه وجعله عباده خلفاء له تعالى في التصرفات الملكية ـ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء و اليه ترجعون ـ فاحفظ بهذا بعد التثبّت فيه بتلطّف سرّك .

ص ١٧٥ س ١١ **قوله** : الغاية في الشهود ـ و بعكس ذلك كان حكم الفاعل المستكمل بفعله فانه الفاعل علما فهو الغاية وجودا ، واما الفاعل التام فى الفاعلية وفوق التمام فى الشدة ـ اى غير متناه فى شدة الوجود ـ فهو الفاعل الفيّاض التام وفوق التمام في باب الوجود و كمالات الوجود ، وهو الغاية القصوى لفعله الذى هو ايجاد أعيان الاشياء فى باب المعرفة والشهود كما قال : «كنت كنزا مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكى اعرف».

ص ١٧٥ س ٢٢ **قوله** : لا فى الذات ولا في الاعتبار ـ اه ـ خلاصة ماينفرع عن دليله هذا هو كونه سبحانه فاعلا فياضا وعلة غائية و جودا وعلما الذى هو عين وجوده ووجوده الذى هو الوجود الحق الحقيقى الغنى المطلق القيوم الواجبى عين حقيقة ذاته جل شأنه ، وكونه سبحانه غاية معرفة كما مرّ قبيل هذا ، فمن هيهنا قال وليه سيد الاولياء على المرتضى عليه السلام : «معرفتى بالنورانية معرفة الله ، و معرفة الله معرفتى بالنورانية » .

فمعرفة الله التى هى الغاية القصوى فى الايجاد هومعرفة نبيه و وليه عليهما السلام

بالنورانية بالفطرة الادمية الاولى قال : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » و هى خليفة الله فى المعرفة ، كما انها خليفة الله مطلقا ، و المعرفة معرفة المعبود ـ تفهم تفهم نورلاتفهم ظلمة وزور .

ص ١٧٩ س ٢ **قوله** : و الانفاق عن الزهد ـ فالاولى أن يعم الانفاق هيهنا حينئذ حتى يشمل انفاق النفس بطرح الكونين وخلع النعلين ـ نعل الدنيا و نعل الآخرة ـ وقد عبّرفى طائفة من الاخبار عن طرح الكون الدنياوى بالزهد ، وعن طرح الكون الاخروى و النعيم الجسمانى من الآخرة بالورع حسبما وردت هذه الاخبار باسناد الكافى فيه ، والتعميم بهذا الوجه يعتبرفى تحصيل العلوم الحقيقية مطلقاً ـ فافهم .

ص ١٧٩ س ١٨ **قوله** : حاصله ـ معنى ماحصّل ـ قدس‌الله روحه‌المقدس ـ صار قوله سبحانه « بربكم » بظاهر ترجمته المحصلة نازلا منزلة قوله (ره) « بقواطع الحجج والبينات » .

وسر استقامة ذلك هوكون العلة الفياضة علة فياضة فى الوجودين ، الوجود العينى والوجود العلمى ، وقد برهن فى محله على كون كل برهان بامر يفيد اليقين وهو الحد الوسط فى البرهان واسطة فى الوجود العلمى علة فى الوجود مطلقاً ، والعلة بهذاالوجه الموجد بالبراهين الباهرة ان هى الا رب الارباب وهوربناالاعلى ـ جل وعلا ـ كيف لاوبنوره أشرقت‌أرض ظلمات الاعيان المظلمة بالذات كماقال: تعالى : ﴿وأشرقت الارض بنور ربها﴾ [٣٩/٦٩] فاستنارة أرض القلوب التى هى أشرف بقاع ارض الامكان بنور ربه الاعلى أحق بالتحقيق واولى ـ فافهم .

ص ١٨٠ س ١٢ **قوله** : دون من هوقرب مربوب مثلكم ـ يعنى من الالهة التى هى‌الطواغيت المخذولة المطرودة المردودة التى هى‌أدون منزلة منكم فطرة، وأرذل مرتبة وأذل سجيّة كماينادى‌بذلك اسم‌ابليس‌الابالسة بحسب‌روح معناه وسر مغزاه لانه مشتق من « ابى ليس » و« ابى الليسية » بالاشتقاق الكبير الموروث من اولياء العلم والمعرفة .

وأما آدم المضاد فطرته لفطرة الابليسية فهي بتلك الضابطة الموروثة كما تقرر في محله فيستخرج منه ملاحظة بعض مراتب بطونه «أبو الايس» والايسية، كيف لا وهو المظهر الجمالي الوجودي والفطرة الابليسية هي المجلاة الجلالية العدمية كما لايخفى سرّ ما أظهرنا على اولي البصائر والابصار فاعتبروا يا اولي العبرة والاعتبار.

ص١٨٢ س١٦ **قوله** : بطلان قول المجبرة ـ اذ المجبرة لايقولون بالتعليل الغائي في افعاله تعالى لتوهمهم العجز لمن تعلل فعله، ومن هيهنا قالوا بالارادة الجزافيّة، ويلزم عليهم نفي العليّة والمعلوليّة رأساً، اذ الترجيح من دون مرجّح يرجع الى «الترجّح من غير مرجح ورجحان» وهو باطل بالضرورة والاتفاق.

ص ١٨٢ س ٢١ **قوله** : فالتقطه آل فرعون ـ فالتقاطهم هذا لزمه أن يكون الملتقط بالتقاطهم عدواً وحزناً لهم، ومعلوم بالضرورة ان كونه عدواً ليس بداعي لهم على الالتقاط.

ص ١٨٧ س ١٥ **قوله** : مكاشفة ـ يشبه أن يكون بناء هذه المكاشفة على بيان التفاوت والتفرقة بين « السالك المجذوب » و«المجذوب السالك» وبين ان اختيار السلوك الى الله تعالى قبل الانجذاب ومكاشفة الحقائق أصعب بمراتب من اختيار السلوك اليه تعالى بعد الجذب وكشف الحقائق، فالاصعب يجب ان يكون اجره أتمّ وأجمل وأجمع وأشمل من الاخف الاسهل، كيف لا وقد قال ﷺ : «أحسن الاعمال أحمزها» والتفاوت بينهما كالتفاوت بين الموت بالاختيار والموت بالاضطرار اذ حالة الجذب ضرب من الموت تفطن (١).

ص ١٩٢ س ٢١ **قوله** : قلت ـ حاصل الجواب بقوله : « قلت » ان هذه الدائرات باقيات بوجه أعلى، دائرات بوجه أخسّ، اذ لها بحسب اصول فطرتها نوع رجوع الى معادنها الثابتة وان كانت بحسب تعلقها الكونية فانية غير باقية، كما

---

١ ـ هذا مع كون كل من الجذبين موتاً اختيارياً و لكن كان كل واحد منهما بالقياس الى الآخر اضطرارياً (منه ره).

قالوا ان الحواس الظاهرة بحسب ذواتها وأنفسها خارجة عن عالم محدد الجهات وبحسب تعلقاتها بهذه الموادالكتابية داثرة زائلة داخلة تحت المحدد ، معدودة فيما يحيط به المحدد للجهات .

ص١٩٣ س١٥ **قوله** : فيضاعفه ـ وقداشيرالى ذلك فى المثنوى المعنوى:

اقرضوالله قرض ده زين بر گـُتن * تا برويد در عوض در جان چمن

ص١٩٤ س ١٩ **قوله** : على الاول يعنى «بين أيديهم» ، واما الوجه الثانى فهو«بايمانهم» فهمانازلان منزلة المعنى والصورة، والحقيقة والوجه، واللبوالقشر، والاصل والفرع ـ الى غيرذلكممايناسب المقام. والحاصل ان منزلة جنة المقربين من جنة أصحاب اليمين منزلة اللب من قشره ومنزلة الحقيقة من ظله .

ص ١٩٥ س ٢ **قوله** : سلسلة الاسباب المؤدية ـ ان سلسلة الاسباب العلل الايجادية المترتبة طولا المتنزلة الى وجود الانسان البشرى يسلكها السالك الى الله صعوداً ورجوعاً الى ما نزل منه الذى هـو تمامه وموطنه ومقامه وعند وصوله الى مقامه وموطنه الذى نزل منه فى البداية صار متصلا بـأصله ، فانياً فيه ، باقياً بعين بقائه سرمداً .

ص ١٩٥ س ١٥ **قوله** : مع اتفاقها فى اصول الحقائق ـ الاتفاق فىاصول الحقائق وصور الحسان هو اتفاق أهل الجنان فى اصول الايمان .

ص ١٩٦ س ٥ **قوله** : وخرجت من مرتبة القوة الهيولانية ـ يعنى هيهنا من القوة الهيولانية «العقل الهيولانى» الذى هوهيولى عالم الحقائق والمعارفالالهية، والخروج منتلك القوة الهيولانية التى هى هيولى عالمالمعانى وطرازعالمالصور المسمى بعالم الخيال والمثال والبرزخ بين العالمين انما هو بكسب العلم بحقائق الاشياء وسعى العمل الذين قـال تعالـى مشيراً اليه : ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [٣٥/١٠] ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾ ـ الاية ـ [٢/٢٥٧].

ص ١٩٦ س ٧ **قوله** : نوراً على نور ـ اى النور المستفاد يكون على نور

الفطرة التى هى من عالم النور ، مثالهما النور الشمس الوارد على النور الجبلى البصرى والزائد عليه ، فباجتماع النورين يتحقق الابصار ـ فافهم فهم نور .

ص ١٩٦ س ٩ **قوله** : او بسبب كسب الاعتقادات المحمودة ـ اه ـ فيكون على هذا التعميم المستفاد بالترديد المذكور مراده من العقل المستفاد أعم من أن يكون عقلا مستفاداً علمياً يقينياً ، اوعقلا مستفاداً عملياً ظنياً .

والاول حاصل السير والسلوك الى الله تعالى بالعلم والعمل معاً عالمه عالم السابقين المقربين ، بتفاوت مقاماتهم حسب تفاوت استعداداتهم . والثانى حاصل سير العباد وسلوك الزهاد الذين هم أهل التقليد من غير بصيرة فى اصول الدين ، التى يطرح فى حق صاحبها ـ الذى هو طالب الحقيقة ـ عالم الكونين ويصل الى نور اليقين بريئاً من الشين و المين فى اخلاف صاحب التقليد ، فهو من أصحاب اليمين .

ص ١٩٨ س ١٢ **قوله** : والصور الحسان ـ فيه قيل ـ ولله در قائله ـ :

آن خيالاتى كه دام اولياست ※ عكس مه رويان بستان خداست

ص ٢٠٠ س ٩ **قوله** : لظنهم ـ اه ـ اى لتوهمهم ان المؤمنين اخذوا نورهم من موضع خلف المنافقين، وموضع خلف المنافقين ـ ألذين أحاطت بهم ظلمة نفاقهم و كفر سريرتهم من جميع جوانبهم وجهاتهم كما قال تعالى : ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ [٩/٤٩] ـ لاينصلح لان يكون موضع تجلى نور الرحمة والمغفرة ـ كيف لا ـ والمنافق من جميع جوانبه وقع موقع قاعدة مخروط الظلمة المقابلة لقاعدة مخروط النور ، والقاعدتان كل فى غاية البعد والتباعد من الاخرى ـ فافهم ـ .

ص ٢٠٢ س ٨ **قوله** : والمحسوس حاضر ـ ان الانتقال من المحسوس الى المعلوم ـ اى من الصورة الى معناها ومن الظاهر الذى هو عنوان الباطن الى باطنه، ومن الوجه الى الحقيقة، ومن المجلاة الى ما يتجلى فيها. اذ منزلة الدنيا من الاخرة

منزلة ظل الشيء من الشيء - وظل الشيء ان هو الا آيته ووجهه ومثاله وصورته وحكايته التي يحكي عنه .

ص ٢٠٢ س ١٧ **قوله** : الا بمثال - سر ذلك ما أشرت اليه من كون عالم المحسوس مثال عالم المعقول لضرورة مطابقة الصورة لمعناها، والتطابق بين العوالم المترتبة طولا ضروري - كما تقرر في محله .

ص ٢٠٣ س ٣ **قوله** : اداء المعنى في صورة - لأيّة صورة كانت وكيف اتفقت ، بل صورة بينها وبين أصل معناها نوع طباق ومطابقة ولو بوسائط وروابط مترتبة ترتباً يؤدى الى المماثلة - بل الى الوحدة مع وجود البينونة الحكمية والصفتية التي هي أتم أنحاء البينونة - تأمل فيه ، فانه حريٌ بالتأمل .

ص٢٠٣ س٤ **قوله** : وجد كاذباً - لمكان البينونة الحكمية التي هي أتم أنحاء البينونة ، والمتباينان في الحكم والصفة يتحدان حقيقة وروحاً ويتغايران حكماً ووصفاً ، وفيه يتعانق المتقابلان ويتحد الضدان ، ودرك هذه الاشارات صعب المنال ولايناله الا الاوحدي الفريد .

ص٢٠١ س١٢ **قوله** : من مسيره الى آخرته - يعني أن سيره الوجودى الفطرى المفطور عليه الى الغاية التي مجبول على طلبها من حيث لايشعر، لاالفطرة الدنياوية - أيّة فطرة كانت علوية اوسفلية ، معدنية كانت او نباتية غير حيوانية ، او حيوانية حيوانية حيوانية ، او حيوانية آدمية مفطورة على طلب الغايات والسير الى النهايات .

ومن هيهنا قال ﷺ : « الدنيا بلغة الى الاخرة » ولامفر و... لشيء من الامور المذكورة عن السير والسلوك الى الغاية ...

وأما اقباله الى الدنيا فبقوته الوهمية التي شأنها ادراك الامور على خلاف ماهي عليه ، فهي بحسب ادراكاتها السرابية التي تدرك ادراكا غير مطابق للواقع ، مثل تخيّله السراب شراباً ، وتوهمه الخضاب شبابا ، فيقبل على طلب الدنيا في عين الاعراض عنها ، ويجتهد في تحصيلها في عين الادبار عنها .

فكل مسافر من الدنيا الى الاخرة طبعاً ومقيم فيها وهماً .

ص٢١٣ س١٣ **قوله** : بعضه مثل بعض ـ « من بعض ـ ظاهراً » ـ بمعنى ان العمل يتحصل من العلم ، والعلم من العمل ـ وعلى نسخة المتن يعنى : ان العمل يكون مثال العلم وظلّه الذى يحكى عنه وعن وجوده ، فمن لاعمل له لاعلم له ، فان العمل علامة العلم وأثره وخبره ـ فافهم ولاتغفل .

ص٢١٥ س٥ **قوله** : جالس على الحد المشترك ـ الحد المشترك هوالجمع بين الحق والخلق ، بأن ينظر الى الوحدة فى عين نظره الى الكثرة ، وينظر فى الكثرة فى عين نظره الى الوحدة ، والشهود بهذا الوجه الجامع لايتيسرالابنورالله الجامع بين الاطراف المتقابلة ، كما انه سبحانه عال فى دنوّه ، دان فى علوّه ، ظاهر فى عين بطونه ، باطن فى عين ظهوره .

س٢١٥ س١٨ **قوله** : خوف الرجاء ـ حاصل خوف الرجاء ان العبد لما نظر الى خساسته ودنائته وحقارته والى جلالة ربه وكبريائه ورفعة شأنه خاف من رجائه ويتصغر من طمعه ، اذ المناسبة شرط فى ارتباط الطرفين ، واذا نظرالى سعة رحمته ودنوّه فى عين علوّه وخفضه فى عين رفعته رجى وطمع .

فخوف الرجاء كأنه مسبوق بالحياء ، المسبوق بشهود سبحات الجلال و كشف أطوار العظمة وآثار الكبرياء .

ص٢١٥س١٨ **قوله** : لاخوف المعصية ـ فى الادعية المأثورة : «الهى كيف أدعوك وأنا أنا وكيف أقطع رجائى منك وأنت أنت» فالخوف من الراجى خوف من انيّته الراجية برؤية نفسه حين رجائه «وجودك ذنب لايقاس به ذنب» فمع ذلك الذنب العظيم الذى لاذنب أعظم منه فكيف يتمكن من أن لايخاف اذالخوف شدة وضعفاً يتبع الذنب ، فالذنب الشديد الذى لاذنب أعظم منه يلزمه ويتبعه الخوف الشديدالذى لاأشد ولاأعظم منه ، وملاك كل الذنوب هوذنب رؤية النفس، وتدارك ذلك الذنب انما هو اسقاط الاضافة «كه التوحيد اسقاط الاضافات » فالاضافة ملاك الشرك ، والشرك هو أكبر الكبائر الذى غفرانه هو اسقاط الاضافة رأساً وطرّاً

ـ فافهم واستقم .

ص٢١٧س٨قوله : والجهات كلها محراباً واحداً ـ فأينما تولـّوا فثمّ وجه الله فيه قلت نظماً :

تنها نه همين سر اله است على * درملك وجود پادشاه است على(*)
درپادشهى قبلهٔ عالم همه اوست * چون وجه خداست قبله گاهست على

ص٢١٨س٧ قوله: وعباده الصالحين ـ ان اولئك الصالحين مقامهم مقام صلح الكل لاحقاقهم حق العبودية التى هى جوهرة كنهها الربوبية ، واقتضاء تلك الجوهرة ان هى الا تبعيـّة كنهها وحكاية حقيقتها ، فان منزلتها من حقيقتها منزلة ظل الشىء من الشىء ، فليس لها اقتضاء فى نفسها ـ اذ لانفس لها بحسب نفسها ـ ومن هنـا فسرت العبودية الحقـّة بلازمها الذى هو كونها راضية بكل مايفعله المولى ومسلمة لموليها فى كل ماقضى وقدّر ، فان فطرتها فطرة مسلمة نفسها التى هى أمانة مولاها الى مولا[ها] فبقيت بلانفس ، يعنى بقاء مولاها لابقائه ـ وهكذا .

ص٢٢٢ س٢٣ قوله : كما أشرقت الارض بنور ربها ـ يعنى أرض القلب المعنوى القدسى . (*)

ص٢٢٣س١١قوله: بالوجوب الارتباطى ـ مراده من الوجود الارتباطى الاضافة الاشراقية التى هى التجلى الذاتى الأزلى واشراق شمس الحقيقة ، ويسمى بـ«الحق الاضافى» .

ص٢٢٣ س١٦ قوله : وصباحات ـ والفجر وليال عشر ، اى العقل الكل والعقول التى هى أرباب الانواع من التسع العلوية والواحد السفلى .

والشفع ـ اى نفس الكل وجسم الكل .

والوتر ـ هو الروح الاعظم الذى هو روح القدس الاعلى ، روح الحقيقة ... الختميه المحمدية البيضاء ، وهى « المصباح » كما ان نفس الكل هى « الزجاجة » وجسم الفلك هو « المشكوة » .

وأما الفجر ـ فهو حجة العصر صاحب الزمان ؏ .

وليال عشر ـ الائمة العشرة من الحسن المجتبى الى الحسن العسكرى عليهم السلام لوجودهم في دولة الخلفاء والفراعنة ،كمعاوية ومابعده ـ لمع .

اماالشفع فله وجوه : القلم ، واللوح ،آدم وحواء ، العلوية العلياء والفاطمة الزهراء عليهما السلام ـ اى نفس الكل وجسم الكل ـ أحدهما الزجاجة والاخرالمشكوة .

حم : محمد صلى الله عليه وآله والكتاب المبين : على عليه السلام . انا أنزلناه فى ليلة مباركة هى فاطمة عليها السلام ـ اى الليلة المباركة هى فاطمة ـ يفرق فيها كل أمر حكيم : سائر الائمة عليهم السلام ـ تفطن سر الامر وطباقه .

ص۲۲۳س۱۷ قوله : لالیالی لها ـ اى لأبدان ولأجسام لها تتصرفوا فيها تصرّف تدبير ، كالعقول النفسانية الفعّالة المدبّرة وهى الطبقة التاليـة للاوائل المهيمات فى...

ص۲۲۳س۱۷ قوله : الطبقة التالية ـ تلك الطبقة التالية للاوائل هى المسماة بالمثل الافلاطونية وبأرباب الانواع النورية الجبروتية . *

ص۲۲۳ س۱۸ قوله : فى أسافل العالـم الجسمانی ـ متعلق بـ « يوجد » و « ليال عشر» مرفوع بالفاعلية ليوجد . *

ص۲۲۳س۲۲ قوله : بمافيه ـ اى فى العقل العاشر كدبانوعالم السفل، وآثار الرحمة التى فيه هى وجوهه التى كل منها عين ثابتة وماهية امكانية كلها موجودة فيه بوجودها الجمعى بضرب أعلى من الوجود التفصيلى ـ فافهم .

ص۲۲۴س۲ قوله : فمن هناك ـ اى من نفس الكل المسماة بالعلوية العلياء ، وهى اللوح المحفوظ والكتاب المبين واميرالمؤمنين عليه السلام ولكن باعتبار اشتمالها على الصور العقلية ،كل صورة منها تكون عقلا من العقول التالية التى هى ليال عشر فى وجه من الاعتبـار ، والا صارت عددها بعدد أنواع العلويات والسفليات ـ فاحسن التأمل .

ص۲۲۶س۲۱ قوله : صدق الطويات ـ انالطويـّات لهى النيـّات المنطوية فيها تفاصيل الاقوال والاعمال انطواء الكثرة فى الوحدة بوجه آكد واقوى ، ولما

كانت النيّة حالة وصفة روحانية دهرية ، وتفاصيل الافعال ومتفرقات الاعمال جسمانية زمانية - والدهرطيّ الزمان والزمانيات - فصارت كلمة « الطويّات » بياناً لشرح حال النيات .

ص٢٢٧ س٨ **قوله**: فسنيسره للعسرى - فان قلت: كما قلت تكون في كلتا الصورتين عند الرسوخ صدور كل من الخيرات والشرور سهلة يسرى ، فما وجه قوله تعالى في جانب الشرور « للعسرى » مع قوله : « فسنيسره » ؟

قلت : لعل السر هو ملاحظة حال العاقبة والمآل في دار الاخرة ، والوجه الاخر هو مايتضمن بيانه - قدس الله مرقده - من كونها غير مجانسة لعالم الناطقة القدسيّة .

ص٢٢٧ س١٠ **قوله** : مناسبة لعالم القدس - فذلك لكون منزلة هذه الافعال والاعمال من حقائق عالم القدس ولطائف (١) منزلة الهيئات والمثل والاضلال والاشباح من الارواح، بل بمنزلة أظلة الاضلة وأمثلة الامثال، فان في اصول الحقائق وجوهاً وجهات تتجلى تلك الحقائق بصور ملكوتية ، تتنزل وتتمثّل تلك الصور الملكوتية في عالم الاسفل - الذى هو عالم البدن العنصرى - بهذه الهيئات والاوضاع الناموسية النازلة من عالم العند بوسائط مترتبة طولية ، بأن تتنزل من الدهر الايمن الاعلى الى الدهر الايمن الاسفل، ومنه الى الايسر الاعلى ، ومنه الى الايسر الاسفل، فتنتهى الى عالم بدننا العنصرى وتصير محسوسة بالحس الظاهرى .

ثم ترجع وتؤثر في القلب البشرى - الذى حقيقة باطن شخصنا الحاضر عند حواسنا الظاهرية - أثراً ما ، فبتكرر العمل يتقوى الاثر و يشتد بحيث يصير ملكة راسخة جوهرية - بعد ماكان حالا غير راسخة عرضية - ويصير - ملكاً قريناً للعبد الصالح محشوراً معه في الدنيا والاخرة ، كما قال ﷺ : « انما هى أعمالكم ترد عليكم » اى يرجع منكم اليكم .

---

١ - كذا قرأناه ، ولعله : «اللطائف» .

وقد تقرر فی ... مطابقاً لما أخبر ﷺ ان كل قول وفعل وعمل من الانسان انسان ، ويشهد له ... أهل الكشوف فليتأمل فيه .

ص ٢٢٧ س ... قوله : والنفس - ای عالـم الناطقة القدسية ، لكون تلك الأفعال نازله من افق عالم القدس . كيف ولو لم يكن طلوعها نزولا من ذلك الافق الاعلى لما ... صعوداً ، كما يشير اليه قوله تعالى : ﴿واليه يصعد الكلم الطيب والعمل ...﴾ [١٠/٣٥] بأن يرجع العمل الى النفس ، وترجع النفس بها الى عالمها ... الاباثی ، بخلع نعلی الكونين وطيّهما - الذی هو الدخول فی الواد المقدس - تعالى .

ص ٢٢٨ س ٢ والجهل والموت - ولقد تقرر فـی محله ان الجهل مجعول بعين جعل العقل - و لكن ثانياً وبالعرض - كما ان الماهية - وهـی ملاك الجهل والظلمة - مجعولة بعين جعل الوجود ولكن ثـانياً وبالعرض ، والوجود هو ملاك العلـم والنور والوجود مجعول بالاصالة ، وهو الوجه الذی به يلی الشیء ربه ، والماهيته هی ... الذی به يلی الشیء نفسه ، ووجه الرب هو الغالب ووجه نفس الشیء هو المغلوب ، وانعكاس الاثرفی أكثر الصور مستند الى الوهم الغالب حكمه على العقل فی الاغلب الاكثر وان كان الامرفی نفس الامر على عكس ذلك كما قال :«سبقت رحمتی غضبی» .

وبالنظر الى غلبة حكم الوهم - غالباً - قال تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ [٣٩/٢٤] -الاية .

ص ٢٣٠ س ١٢ قوله : فی فسطاطه - الفسطاط : الخيمة العظيمة وعن الليف وهو ضرب من الابنية ، وعن الازهری : كل مدينة فسطاط ، وفی الصحاح : بيت من شعر .(منه ره) .

ص ٢٣١ س ١٠ قوله : ما يستفاد من البرهان اليقينی - ان البرهان اليقينی لهو الدليل الذی لايتطرق اليه شك وشبهة بوجه أصلا وهو البرهان الذی يفيد نور اليقين ، وهو قليل الوجود جداً لقلة وجود صاحبه ، والافالبرهان المفيد لنور اليقين كثير جداً - بل لايكاد يحصى - ولكن ذويه قليلون ، وهم الذين وصلوا الى مرتبة

العلم اليقين الذى قال سبحانه : ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونّها عين اليقين﴾ [١٠٢/٥-٨] اى : عند مفارقة النفس عن البدن الدنيوى وانسلاخها عن جلباب القالب العنصرى .

ص٢٣١ س٢٠ **قوله** : بوجه له مناسبة الى ماهوالحقيقة ـ يعنى مثل مناسبة الصورة والحكاية لمعناهـا ، والمثل والظل والخيال لمغزيها ، فان الاشباح أظلّة وأمثلة وصور للارواح التى هى اصولها وحقائقها والاشباح عالمها عالم المثال البرزخي ـ اى الملكوت الصورى المفارقي ـ والارواح عالمها عالم الجبروت والملكوت الروحانى العقلانى .

ص٢٣٢ س١٣ **قوله** : لايحب الله أحداً غيره ـ فان قلت : فماشأنه سبحانه حينئذ مع سائر الاولياء غير ذلك الولى الذى وصل واتصل بهذه المرتبة ، وكل ولىّ بماهو ولىّ له هذه المنزلة كما قال تعالى : ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾ [٥/٥٤] فلاتختص مرتبة الولاية بواحد شخصى منهم بخصوصه دون غيره ؟

قلت : اعلم ـ ياصاحب البصيرة النافذة ـ انه يمكن أن تنحل عقدة اشكالك وسؤالك بماقيل :

حال گرگان وسگان ازهم جداست * متحد جانهاى شيران خداست

وان تفاوتوا في درجات الولاية بالشدة والضعف كما أشاراليه بقوله ـقدس الله روحه : « مع تفاوت المرائي ـ الخ » ـ فاعتبر واستبصر .

ص ٢٣٣ س ٥ **قوله** : والبائع راغب عن المبيع ـ أقول : بل يسلم المبيع الى المشترى وتبقى الانفس والاموال التى هى قوى النفس وصفاته النفسانية التى بها تحجب النفس عن شهود ربه ، فتفنى وتبقى ببقاء ربه الأعلى .

ص٢٣٣ س١٠ **قوله** : فقد علم ان رتبة الشهداء ـ اه ـ يعنى من الشهداء هيهنا الشهداء المعروفين في عرف الجمهور ، ولكن قد يكون منهم من هو قبلة العرفاء ووليهم الذى يكون اولى بهم من أنفسهم وهو لسيد الشهداء روحى له الفداء فانه عليه السلام لهو سيد السادة ، وقبلة الشهادة معنى وصورة ـ تفطن .

ص٢٣٥ س٧ **قوله** : يجد الالم عين الراحة ـ وهم جمهور العلماء المتسمّين بالورم ، والمتوهمين للسراب ماء زمزم ، وللخضاب شباباً ... عن كدورة الهرم ، فانهم لهم المعرضون عن آيات ربهم ـ التى هى الحقائق الكشفية واللطائف العرفانية، وأسرار الحقانية والعلوم الربانية ـ خذلهم الله تعالى فانهم لهم المخربون لعمارة الدين ، الضالون المضلّون لعامة المسلمين .

ص ٢٣٧ س ١٠ **قوله** : مع جحودهم لنعمة الله ـ ان كون الامور الدنياوية نعمة ، انما هو من جهة كونها بلغة الى الاخرة ووسيلة لعمارتها ، فالكافر المنكر للاخرة لايتصور فى حقّه أن تكون هى بلغة ووسيلة الى عمارتها ، بل يكون كفره وانكاره بلغة ووسيلة فى حقّه الى خراب عمارة عاقبة أمره وآخرة شأنه ، فالدنيا نعمة مخلوقة فى نفسها ، لكونها فطرة مفطورة على امداد المواد لعمارة الاخرة كما تكون فى حق أهل الاخرة ـ وهم أهل الله ومن تابعهم .

والمراد من المواد هيهنا هى أراضى الانفس البشرية التى هى العقول الهيولانية علماً وحالا وعملا .

ص ٢٣٩ س ١٧ **قوله** : لا بما هو به بنية ومادة ـ فانه بهذا الاعتبار ليس بحيوان ولابحى الا بالعرض كما تقرر فى مقرّه .

ص ٢٣٩ س ١٨ **قوله** : فى علم الميزان ـ فاطلاق الحيوان الحساس على الانسان بماهوانسان يكون من باب اسم الملك على المالك والملك المتصرف فيه .

ص٢٣٩ س٢٢ **قوله** : والاحساس بالشىء لايتم . اه ـ هذا انما يتم ويتوجه بتعميم معنى التوهم والتخيّل ، حتى يشمل الحكم كل الحيوانات ، لمكان بعض الحيوانات الذى لاحظّ له من الحس الباطنى ، فالمعنى العام هو التصور الاحساسى سواء كان بالحس الظاهر اوالباطن ، اذ كل منهما منزلته منزلة التوهم فى عدم وجوده الخارجى وفقدانه ـ فتفهّم ولاتغفل ـ .

ص٢٣٩ س٢٣ **قوله** : لاوجود له فى الخارج ـ فان قلت: يلزم على ماحققت من وجه كون الحيوة الدنياوية موهومة كون الحيوة الاخروية العقلانية ايضا كذلك

اذالتعقلات والتصورات والادراكات العقلانية في حق الانسان البشري كلهاموجودات ذهنية غير خارجية ، والموجودات الذهنية كلها موجودات ظليّة ضعيفة الوجود غير مترتب عليها الاثر ، فما الفرق حينئذ بين هاتين القبيلتين ؟

قلنا : فاسمع لما يتلى عليك ويلقى اليك نازلا منزلا عن رب العالمين ، واعلم ان بين الطائفتين بون بعيد كالبون بين السماء والارض - اذ الادراكات العقلانية والتعقلات الانسانية ان هي الامثل وامثلة الحقائق الربوبية ، وصور الاسماء الحسنى الالهية والربانية . وأظلّة الحقائق الربوبية وأمثلتها وصورها العقلانية الفائضة عنها على قلوب الحكماء والعلماء البشرية عند رسوخها تكون باقية ببقاء مباديها التي هي أرباب أنواع أصنام هذا العالم - مادامت الحيوة الدنياوية ، وعند كشف الغطاء ورفع هذه الغشاوة ترجع تلك الصور الظليّة والحكايات العقلانية التي هي فروع تلك الحقائق والاصول الى اصولها وتلحق بها بضرب من الانحاء وتبقى ببقائها الذي هو بقاء الاسماء الحسنى أبد الاباد .

وتلك الصور والتعقلات - الحاكية عن حقائق تلك الانوار الربوبية الواقعة في صقع من الاسماء الالهية - هي التي وردت في وصف كمالها ونزلت في نعت جمالها وشرح جلالها : « مالاعين رأت ولااذن سمعت » .

واما الصور الحسية لما كانت مأخذها ومباديها - التي هي الموجودات الدنياوية الدائرة الزائلة - راجعة الى حقيقتها وحقائقها التي هي الاعدام والنقصانات والفقدانات عند فناء الدنيا فكذلك شأن تلك الصور محصلها يرجع الى دار البوار والهلاك والحرمان - فافهم (*)

ص٢٤٠ س٢١ قوله : بأن مناط وجود الجزئيات المحسوسة - اه .(١) يعني ان وجود المحسوسات في أنفسها ليس وجوداً على وجه الحقيقة ، بل ان هي الا

---

١ - قد حررت هذه الحاشية قبل ان الاحظ مابعد قوله : بأن مناط وجود الجزئيات - الى آخر الكلام . (المحشى)

أظلّة الحقائق النورية العقلية وآثارها وشؤونها وأمثلة تلك الارباب الجبروتية ، وأخذ كون هذه الوجودات الجزئية واعتبار كون هذه الموجودات المادية الحسية وجودات وموجودات في خيال ذواتها على وجه الحقيقة ان هو الاحكم الوهم الكاذب والخيال الوهمي العاطل الباطل . فأخذ هذه الموجودات واعتبارها ذواتاً حقيقية واموراً موجودة في مرتبة أنفسها على وجه الحقيقة انما هو أمر وهمي لايطابق الواقع ، ويرتفع هذا الحكم الوهمي عند كشف الغطاء لكل أحد كما يكشف الان لاهل الكشف وهم اخوان الصفا ـ فافهم (*)

ص۲۴۱ س۳ **قوله** : الدنيا بما هي هي ـ فالموجودات المادية الدنياوية بما هي دنياوية مرجعها الى العدم الذى هوفقدان الكمال ونقصان الجمال والفقد حجاب بلاارتياب (*)

ص۲۴۱ س۱۱ **قوله** : كل مافي الكون وهم ـ كل مافي الكون وهم وخيال من جهة الادراك الذى هو ملاك الالتذاذ بما فيه عكوس في المرايا وفي المجالي الاحساسية وظلال من الصور البرزخية المثالية التى منزلتها من الامور الكونية منزلة الحقائق من الاظلّة ، والظل بما هوظل شيء وليس بشيء فهوبين الايسيّة والليسية ، فليس بصرف ايس ، ولابصرف ليس ـ كما هو حكم الامرالوهمي الخيالي ـ فهو خيال في خيال ـ هذا .

ولكون الكون خيالا في وجه لطيف شريف غير ماشير اليه ، اذ الامور الكيانية والصور الهيولانية من جهة كونها أظلّة وخيالات بالنسبة الى اصولها وحقائقها التى هى الصور البرزخية الملكوتية المفارقية ـ المسمى عالمها بـ« عالم خيال الكل » وبـ« الخيال الكلي » مستهلكة فيه مثل استهلاك البدن في النفس فيقال: ان البدن في النفس ، وان قيل في عرف العامي : ان النفس في البدن ـ ولكل وجهة ـ فكون كل مافي الكون خيالا في خيال ـ اى خيالات جزئية كائنة تدريجا على نعت التجدد والاتصال الغير القار مستهلك في الخيال الكلي ، وهوخيال الكل ، وراجعة اليه رجوع الدنيا الى الاخرة ويوم تبدل الارض غير الارض ـ فافهم فهم نور واستقم

كما امرت .

ص٢٢١ س١٣ **قوله**: العكس- لم يكن فى نسخة اخذت من الاصل والظاهر انه ترك (*).

ص٢٢١ س١٨ **قوله** : وسوى الحق باطل - فيه تنبيه على سر التوحيد ، ألا الى الله تصير الامور - فاستبصر .

ص٢٢٢ س٢ **قوله** : بعض العلماء - يعنى الغزالى (*)

ص ٢٢٢ س ٤ **قوله** : غرس فيها أشجاراً - ان مادة غرس الجنة الشيطانية واصولها هى بسائط الحروف الظلمانية التى بوضعها الطبيعي وضعت على عكس الحروف النورانية ، وكل من الطائفتين تكون ثمانية وعشرين حرفاً ، كل حرف من النورانية يمانى - وهو الوجه الذى به يلى لوح قلب الانسان ويواجه ربه - وكل حرف من الظلمانية شمالى - وهو الوجه الذى به يلى نفسه التى هى شيطانية .

فبالغرس اليمانى النورانى تنبت شجرة السدرة بفروعها و لواحقها - من الاغصان والافنان والاوراق - فتثمر أثمارها، وبالغرس الشمالى تنبت شجرة الزقوم بفروعها ولواحقها كذلك .

وقس عليهما هذه الكتابة فى ذلك اللوح الذى له وجهان وصفحتان ، صفحة يمنى وصفحة يسرى ، فاليمنى تكتب فيها كلمات الله العليا ، وفى اليسرى الكلمات السفلى (*) .

ص٢٢٣ س٢ **قوله** : نظر كشفى - اى بحث واعتراض حسبما اقتضاه الكشف اذ الكشف يقتضى أن تكون رحمة منه تعالى رحمة امتنانية ، وهذا لايناسب ارتكاب حذف المضاف المشعر بخلاف ذلك، كارتكاب حذف استحقاق ثواب جنة وسعتها - فافهم .

ص ٢٢٣ س ٢ **قوله** : نظر كشفى - لعله ناظر الى قوله تعالى : ﴿و آخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ [١٠/١٠] حاصله ان الرحمة كلها امتنانية ،

اذ الاستحقاقية منها ايضا راجعة الى أصلها الذى هو الامتنانية ، ومن هذا قالوا : «اليه يرجع عواقب الحمد والثناء» وفيه قيل :

چون باتوام‌ازتوجان دهم‌آدم‌را * و زنور تو روشنى دهم عالم را
چون بيتو شوم قوت آنم نبود * كز سينه بكام دل بر آرم دم را

- فافهم واستقم كما امرت .

قوله : خارجة - اه (١) - يعنى‌انهاداخلة فى حجب السموات والارض‌لكن لا كدخول شيء فى شيء ، يعنى خارجة عنها لا كخروج شيء عن شيء ، اذمنزلة الجنة الصورية الملكوتية المعروفة بين العامة بالجنة الجسمانية من هذه السموات والارضين الطبيعية والدنياوية منزلة الجسمية الحقيقية من الجسمية الظلية، فليس بداخل فيها ولابخارج عنها كما هومنزلة الحقيقة من مثالها وظلها، فالجنة التى قال سبحانه: ﴿عرضها كعرض السماء والارض﴾ وسعت السموات والارض كما وسع الكرسى وأحاط بهما ولا يؤدحفظهما كما لايؤد حفظ الشاخص والشخص لظله ، اذ منزلة الحقيقة من صورتها الحاكية عنها - كحكاية الظل لشاخصه و شخصه - منزلة العلة القيومية الفياضة لمعلولها القائم بها ، قيام صدور ، لاقيام عروض وحلول - فافهم .

ص٢٤٢ س٢قوله: وفى ذكر العرض - والحق هوان رفع هذاالاشكال بأن يقال: ان تلك الجنة الموصوفة بتلك السعة خارجة عن صقع هذه السموات والارض، ولها صقع ملكوتى وهو ملكوت السموات ، والملكوت محيط بهذه الاجسام والاجرام - علوية وسفلية - وهذه الاحاطة ليست كاحاطة جسم بجسم ، بل كاحاطة الروح بالجسم، وذلك مع كون تلك الجنة جسمانية وصورية مثالية قام عليه البرهان الباهر ، اذ منزلة ملكوت كل شيء من ملكه منزلة الروح من البدن كما برهن عليه فى الفن الذى هو محل تحقيق هذه المسئلة العميقة وموضع حل هذه العقدة التى لايمكن أن تنحل الا بيد القرم فى الدهر .

١- ما وجدناه فى المتن .

ص٢٤٣ س ١٣ **قوله** : عرضها كعرض السماء والارض ـ وفي بعض النسخ العتيقة وجد هكذا: وقال بعضهم ان الله قال عرضها كعرض السماء والأرض ، والجنة المخلوقة في السماء السابعة فلا تنافي . اعدت للذين آمنوا ـ اى: ادخرت الى قوله من التمحل .

أقول : فعلى هذه النسخة تكون استقامة الكلام في المقام أظهر وسياق البيان في الذب عن المقام أتم وألصق باصابة الحق وباحقاق الحق ـ فليتأمل فيه .

* * *

مراد أهـل العلم من كون الجنة فوق السماء السابعة الفوقية المعنوية ، وهي فوقية الملكوت على الملك والشهادة، لان منزلة الملكوت من الملك منزلة الحقيقة من ظلها وصورتها الحاكية عنها .

ص ٢٤٣ س ١١ **قوله** : قال الحسن ـ تقرير ما قال الحسن على وجه يصير حسنا مستحسناً ـ فاعلم تنقلب قيامة الصغرى الى الوسطى، والوسطى الى الكبرى، حيث حكم ان الجنة الصغرى التى هـى جنة القبر الكائنة بالموت ـ اى الموت المعروف بين العامة ـ تنقلب الى الجنة الوسطى ، و الوسطى تنقلب الى الكبرى التي هى جنة الخلد التى لاانتقال ولا ظعن منها ، وكذلك دار النار ، نار صغرى، ونار وسطى ، ونار كبرى ـ هى نار الخلد ـ يخلد أهلها وفيها ولا مخلص عنها ، هذا ما قامت عليه البرهان .

لكن الحسن ليس باهل هذا المعنى الذى قررنا ـ فلا تغفل .

ص٢٤٣ س١٣ **قوله** : والجنة المخلوقة في السماء السابعة ـ يعني مثل كون الملكوت في الملك والشهادة، وبعبارة اخرى: مثل كون النفس في البدن والروح في الجسد . فيصح حكم العكس ايضا اى : كون البدن في النفس .

وسرّ ذلك ستير جداً ، عسير نيلا . ولكن كون كل في آخر بمعنى آخر لا بمعنى واحد ـ فتفطن ان كنت من أهل التفطن ، اى من أهل الاشارة ، ومما أشرنا يتمكن الفطن من التفطن بسر عدم التنافي ـ فافهم .

ص ٢٢٥ س ١٦ **قوله** : موجودة للمؤمنين ـ يعني : انهم عندكونهم في الدنيا كائنون في الجنة ، كما ورد في أحاديث أصحابنا : « ان أرواح المؤمنين منذ خلقت الجنة كانت فيها » وكذا حكم أهل النار ـ سرّ ذلك هو كون الجنة والنار غير خارجة عن أحسن اهلهما ـ فافهم .

ص ٢٢٦ س١٦ أبدانهم في الدنيا ساكنة ـ ان كون الابدان ساكنة في الدنيا والأرواح سائرة في الجنة غير مختص بالمكاشفين ، بل كمااعترف ـ قدس سره ـ قبيل هذا حيث قال : «دليل واضح ـ الى قوله: ـ موجودة للمؤمنين» يعم كل مؤمن ـ مكاشفاً كان او غيره .

نعم ـ ان كشف ذلك وانكشافه وشهوده مختصة بهم، وبون بين أصل الكون في الجنة في حال حيوة الدنيا وبين شهود ذلك الكون، ففي قوله هذامسامحة ما، والمقصود هو ما أظهرنا كما قال صريحاً في صدر هذا الكلام ، والتزاماً فيما قال قبيل هذا ـ هذا .

ص ٢٢٦ س ٢٢ **قوله** : ولابد ايضاً أن يعلم ـ اه ـ فمن هيهنا قال أهل الحق بكون الحسن والقبح في الاعمال ذاتيين وعقليين ، بمعنى ان بين شجرة العمل وثمرتها اتصالا عقلياً وملازمة عقلية ، وايضاً من هنا قال ﷺ : «انما هي اعمالكم ترد عليكم ـ او اليكم ـ» .

ومما يشير الى ما يترتب على ذلك ويتفرع عنه من غرائب الأسرار وسرائرها كون كل قول من الانسان وكل فعل وعمل صدر عنه ـ بما هو انسان ـ انساناً ، وأما ما صدر عنه لابما هو انسان ـ بل بما هو كلب او خنزير اوغيرذلك من طبايع الانواع الخبيثة الدنيّة ـ فهي راجعة الى اصولها التي هي مباديها من الملكات الرذيلة ، كل بما يجانسه ويشاكله ، كما قال عزّ من قائل : ﴿كل يعمل على شاكلته﴾ [٨٢/١٧] تفطن .

ص٢٥١س١٦ **قوله**: حيث أبرز مكنونات المكونات ـ اه ـ يعني ان مضمرات الكائنات الحادثات بعد أن لم تكن التي هي صور علمية لها ـ اى للحادثات الكائنة

بعدان لم‌تكن ابرزت ـ اى تلك المضمرات الصورية العلمية أولافي القضاء بوجه الاحتفاظ وفي القدر بوجه المحو والاثبات تقدمة العلم بها على وجودها وايجادها فى العين .

وقوله : ثم اظهرمستورات الحقائق وخفيات المخلوقات ـ التى هي العقول ومامعها ،كما ان مكنونات المكوّنات من الجسمانيات وما معها ـ اى : ثم أظهر تلك المستورات والخفيات التى هى من الروحانيات الجبروتية والحقائق واللطائف الملكوتية العاليات التى ما برحت ولاتبرح أبدأمن موطنهاعلى منصّات المحسوسات الزمانية المكانية ، علـى عين المعاملة مع الجسمانيات الكائنة . اى : انـزل تلك الحقائق واللطائف الجبروتية الى انأظهرها وأبرزها بصورأصنافها وأمثلتهاالحسية.

فان هـذه الحسيات الجزئية المحسوسة ان هـى الا نزولات تلك الحقائق الالهية ،كما ان تلك الحقائق الحقية انما هي هذه المحسوسات الخلقية ، وظاهران ثبت الجسمانيات باسبابها في الموضعين العاليين مقدمة على نزول الحقائق وثبتهافي لوح المادة الهيولانية ، تقدم القضاء والقدر على المقضى والمقدر .

هذا هـو محصل معنى كلامه هيهنا ، ولكن فى طور بيانه نوع تعقيد صعب حله وهو ـ قدس سره ـ متعمد فيه لكن الـى مـا أشرنا اليه من الرموز والكنوز المكنوزة فيه فافهم‌ان كنت من أهل اشاراتهم‌المرموزة بها ... قل من يهتدى اليها، فلولم يعقد طور البيان لـم تتمكن ولايتمكن أحد من ذلك التفطن ـ تفطن يا قرة عينى المتفطن .

ص۲۵۱ س ۱۸ **قوله** : فاستمع لشرحه ـ حاصل محصل هذا الاستماع‌هو فحوى قوله سبحانه : ﴿يحبهم‌ويحبّونه﴾ [۵۴/۵] .

كه‌هرجاهست‌حسن‌اينش‌تقاضاست نخست اين‌جنبش‌از‌حسن‌ازل‌خواست

فلما آن الحق أن يرى عينه او أعيان صفاته العلياء وأسمائه الحسنى مـن حيث أسمائه تعالى التى لايبلغها الاحصاء فى كون جامع ينحصر (يبصر) الا فى وجوده وعند وجوده ويظهر سره تعالى اليه جل وعلا ويؤدى أمانته اليه ، فاقتضى

الامر جلاء بذات العالم بايجاد آدم الذی خلقه علی صورته ، وکان منزلة آدم من العالم منزلة انسان العين مـن العين ، وفی وجه آخر کان منزلة آدم مـن حضرة الحق منزلة انسان العين من العين الذی به يکون النظر الابصاری والبصر.

فبه ـ ای بآدم الذی منزلته منه تعالی منزلة انسان العين فی باب النظر و البصر ـ نظرالحق الی الخلق فرحمهم ، لانه الغاية التی لاجلها خلق الحق خلق(۱) العالم ، و خلق العالم لاجل آدم ، و خلق آدم لاجل نفسه لکی يری عينه بأعيان الصفات العلياء والاسماء الحسنی بعينه التی هی آدم الحق الحقيقی ، خليفة الله فی کلية العالم و العالم الکلی ، کما فی القدسی : « کنت کنزاً مخفياً فاحببت أن اعرف » ای أن أری بعينی عينی و أعيان صفاتی و کمالاتی ـ کمالات جمالی و جلالی ـ فخلقت الخلق المتأدی و جودهم الی خلقة عينی التی بها أری عينی وأعيان کمالاتی ، فهذا هو نوع اشارة خفية لطيفة الی محصل فحوی قوله تعالی : ﴿ يحبهم ويحبونه﴾ وهم خمسة واربعون کما ان آدم کذلك .

هذا هو خلاصة ما أفادت أساطين العلم فی مثل مقامنا هذا .

ص ۲۵۲ س ۴ **قوله** : ان رحمتی سبقت غضبی ـ يعنی ان نشأة رحمة الله التی هی الرحمة الخالصة الغير المشوبة بشوائب من الغضب هی نشأة العقول القادسة والارواح المقدسة الکلية الالهية ، التی هی خزائن رحمته اللامتناهية ، وهی بعينها مفاتح خزائنه ، فهی السابقة علی سائر النشآت الخلقية ولاسيما علی النشآت الهيولانية السفلية التی هی الدرکات السفلی ببرازخها التی هی جهنم الاشقياء و مالك الشرو ملاکه ، ومدار السخط والغضب انما هو هاوية الهيولی کما تقرر فی محله .

ص ۲۵۲ س ۱۴ **قوله** : القريبة الجسمانية ـ يعنی ان النقص و القصور فی الوجود ـ حسب ما تقرر فی محله ـ خاصة النشأة الهيولانية التی موجوداتها ـ علوية کانت او سفلية ـ ناقصة غير تامة فی باب الوجود و أحواله ، و النشأة ـ الهيولانية

---

۱ ـ کذا ، والظاهر ان کلمة « خلق » زائدة .

ـ مادامت هيولانية ـ منفعلة غيرفاعلة ولافعالة أبداً ، والفعل الايجادي والافاضة الكائنة مختص بالعالم التام وفوق التمام الذى هو الاتمام .

ص ٢٥٣ س ٨ **قوله** : وهو المسمى بام الكتاب ـ يعني من ام الكتاب اللوح الأعظم المسمى بـ « ـ اللوح المحفوظ » والقلم الذى امر بأن يكتب فيه كل ما كان وما يكون الى يوم القيامة هو « القلم الاعلى » وأما العقول اللوحية فهي الاقلام الفياضة الواسطة بين القلم الاعلى و بين سائر الالواح الكليات التى هى دون اللوح الأعظم و بعده ، و منزلة اللوح الاعظم من سائر الالواح التى دونه رتبة منزلة العلوية العلياء بعد المحمديه البيضاء من سائر الأنبياء الاولياء الاوصياء من الامم السالفة ، و منزلة الفرقان المحمدى من سائر الكتب السماوية المنزلة على سائر الانبياء .

ومن هيهنا قال تعالى حكاية عن عيسى بن مريم ﴿ تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ﴾ [٥/١١٦] اى مافى العلوية العليا التى قال فيها ﴿ وانه فى ام الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ [٤٣/٤] ومن هنا سميت العلوية العلياء التى هى نفس الكل بذات الله العليا ، كما سميت بسدرة المنتهى وشجرة طوبى وجنة المأوى .

ص ٢٥٣ س ١٨ **قوله** : بالقلم على اللوح ـ يعنى القلم الاعلى واللوح الاعظم المسمى بـ « ام الكتاب » ،

ص ٢٥٣ س ١٧ **قوله** : فى النفس الناطقة ـ اه ـ اى النفس الناطقة التى هى نفس فلك الشمس ، فاللوح الاعظم ، المسمى بام الكتاب هى نفس فلك الكرسى المقدم فى الوجود على السموات السبع والارضين السبع وكل من اللوحين لوح محفوظ .

ويحتمل غير بعيد عقلاً أن يراد من قلب العالم نفس الحجة فى كل زمان ولكن حمل الكلام هيهنا عليه بعيد ـ هذا .

ولما كان أمر فلكى العرش والكرسى بنفسهما منفرزين مفروزين عن السموات

والارضين السبع، والمراد من العالم هيهنا العالم الطبيعي الكلي المحتوى على السموات السبع و الأرضين السبع - و اما فلك العرش المعروف بالفلك الاطلس و بفلك الافلاك وكذلك فلك الثوابت المعروف بالكرسي فشرح حالهما خارج عن السموات و الارضين لكونهما فى وجه من الاعتبار خارجين عن العالم الطبيعى داخلين في البرزخ المثالي - أفرزهما في البحث وأشار اليهما بالاشارة الى أصليهما الذين هما مثالان لهما ، وهما المشار اليهما هيهنا بالقلم واللوح - اى عقل الكل ونفس الكل - هما المحمدية البيضاء والعلوية العلياء ، وفي المقام بعد مسائل ومعارف لايسع المجال لبيانها - .

و هذا الذى علقنا هيهنا انما يتوجه ويستقيم على تقدير كون أصل النسخة كذلك واحتمال السهو والتصحيف و غيرذلك قائم ، ولكن ظاهر مساق الكلام هو الاستقامة وصحة هذه النسخة - فافهم .

ص ٢٥٥ س ١٨ **قوله** : فحركة الاعضاء - لقائل أن يقول : ان حركة الاعضاء ان هى الانفس أفعال نفس الانسان التى تظهر فى مادة الاعضاء فتكون منزلة هذه الحركات و الافعال منزلة ظهور أفعاله تعالى فى لوح الهيولى الخارجية ، فمن أين وأنى يتصور أن تكون منزلة هذه الحركات منزلة الحركات السماوية ؟

فنقول : ان هذا السؤال بظاهر الامر . . حل عقدته ، لكن لنا أن نقول فى حله : ان حركة الاعضاء البشرية المركبة من المادة العنصرية المقسورة ومن الطبيعة القاسرة لها الصارفة اياها عن الانحلال تتوزع الى حركة نفس الطبيعة المتصرفة في المادة العضوية العنصرية، والى حركة نفس المادة العنصرية ، فالحركة الطبيعية المتصرفة السابقة على الحركة العضوية - بماهى حركة مادة انفعالية - هى بمنزلة الحركة السماوية التى هى تحريك بالنسبة الى المادة العنصرية ، والحركة العنصرية بماهي محرك للمادة العنصرية العضوية تتفرع عن تلك الحركة الطبيعية التى هى بعث و تحريك بالنسبة الى المواد العضوية .

فهيهنا عند التحقيق و التدقيق حركتان : احديهما ذاتية للطبيعة التي هي جند النفس البشرية ، و الاخرى تتفرع عن تلك الذاتية النازلة من عند النفس باعثة لانفعالات المواد العنصرية المقسورة و بحركات الاعضاء بماهي عنصرية ـ هكذا ينبغي أن تنحل عقدة هذا المقام ـ والسلام .

ص ٢٥٦ س ١٢ **قوله** : و الطور ـ يعني ان الطور هو عقل الكل والقلم الاعلى و كتاب مسطور هو ما كتب في اللوح الاعظم ـ في رق منشور هو نفس اللوح الاعظم المسمى بام الكتاب ، و مراده من سماء الدنيا ينبغي أن يكون السموات السبع بجملتها لولم تأبى عنه بعض فقرات عبارته هيهنا .

ص ٢٥٧ س ١٥ **قوله** : فاجملوا في الطلب ـ لعل الامر بالاجمال في الطلب هو الامر بتحصيل ملكة «الحكمة» التي هي من رؤساء الملكات الكريمة والاخلاق الحميدة المأمورة بها ، التي تقابلها « الجربزة » المذمومة و«البلادة» المذمومة اللتين هما طرفا الافراط والتفريط بالنسبة الى الحكمة التي الملكة الوسطى من صفات النفس الانسانية من جهة قوتها العملية ، فللطلب حد وسط ممدوح وافراط وتفريط مذموم ، وهذا الطلب هو الطلب العملي الذي افراطه مضر مانع عن السلوك الى الله و كذلك تفريطه .

ص ٢٥٧ س ١٥ **قوله** : فاجملوا في الطلب ـ ان لاجمال الطلب لوجها آخر أبين مما ذكرنا في الحاشية وهو أن يرتكب الطلب بمجرد الامتثال لامر الله تعالى، فقد يلتفت الى طلبه قصداً أولا وبالذات ولايتكل على عمل نفسه ، وان كانت تمامها أعمالا صالحات ولايرى مساعي نفسه في الوصول الى الغايات والسعادات ، بل وجب أن يتكل في باب الدنيا والاخرة على فضل الله تعالى و كرمه لاعلى عمل نفسه

چشم براجر عمل از كورى است * طاعت از بهر جزا مزدورى است ـ فافهم .

ص ٢٦٠ س ٣ **قوله** : أدنى درجة الرضى ـ يعني الرضى من العبد لكل ماقضى وقدره المولى ، فالفائت والاتي كل منهما اذا كان بقضائه وقدره تعالى ، و كل ما كان بقضائه وقدره سبحانه اذا كان مرضياً عند العبد ، فمن أين [و] أنى يرد

عليه الحزن على مافات او الفرح بما اوتى ؟ اذ الكل عنده بمنزلة واحدة .

ص٢٦١ س١٩ قوله : اختياريا واجبا - اى : واجبا بالاختيار . ومن هيهنا قال المحقق الطوسى القدوسى - أعلى الله مقامه - « الوجوب بالاختيار لاينافى الاختيار بل يؤكده ويقرره» .

ص ٢٦١ س ٢١ قوله : وماجبر الابعد الاختيار - كما أشرنا اليه بقولنا : «الوجوب بالاختيار» .

حاصله : ان اضطراره مستند الى اختياره . وأصل السر في كل ذلك هو كون العبد الانسانى مضطرفى اختياره ، بمعنى أنه لايتمكن من أن يصدر أفعاله وأعماله لابارادته واختياره ولايتمكن من أن يريد ويختار من دون فكره واعتباره ، فهومضطرفى اختياره ، وفى اختياره مضطر الى علمه واعتباره ، ومن هيهنا قال عز من قائل : ﴿لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ [٢/٢٥۶] فى اعتباره وبحسب استبصاره .

ومع ذلك كله «ماتشاؤون الا ان يشاء الله» كمالايتوجدون الا أن يوجد الله - فافهم فهم نورلا وهم وهم وزور.

ص٢۶٢ س١١ قوله: قال بالقدروالتفويض -يجب أن يعلم أن لقب القدرى فى عرف الاخبار وأهل العلم يطلق بمعنيين : أحدهما القدرى التفويضى الشبيه بالمجوس الثنوى - وهوالقول بكون العبد فى أفعاله الاختيارية مستقلا وقادراً بالقدرة الانفرادية البائنة عن قدرة البارى تعالى ببينونة العزلة ، التى تلزمها كون العبد بقدرته التى خلقها فيه البارى تعالى شريكا وشبيهاً له تعالى فى صفة القادرية ، غير راجعة قدرته الى قدرته تعالى، وهكذا فى الوجود وكمالات الوجود بماوجود كلها- من العلم ، والارادة ، والاختيار ، والسمع ، والبصروغيرذلك من أحوال الوجود بماهووجود - وهذا هوالشرك الجلى المنافى للتوحيد الحق عند أهل التوحيد الحق الذى يكشف عنه قوله تعالى ﴿ألا الى الله تصير الامور﴾ [٤٢/٥٣] ونظائره من الايات المحكمات .

وثانيها : هو القدرى بمعنى كون أفعال العبــاد مثل سائر المخلوقات واقعة بقدرته تعالى وبقضائه وقدره، وكل قدرة وارادة واختيار غيرقدرته واختياره تعالى ـ وان كانت وقعت فى البين ورابطة بين الفعل وأصل مصدره الذى هومنتهى سلسلة الحاجات وهو قدرته سبحانه ، لكنها كلها غير مؤثرة الا بقدرته متفرعة عنها لاأثر لها بحسب أنفسها ، بل بقدرته جل وعلا ، فهوالمؤثرحقيقة وبالذات .

فالقدرى بهذا المعنى يضاد القدرى بالمعنى الاول ويقابله تقابل التوحيد للشرك وفيه . . . فلاتغفل .

ص٢٦٢ س١٠ أما القدرى ـ اعلم أن فى المقام مذاهب و مشارب أربعة :

أولا : الافراط فى التشبيه ، وهوالقدرى التفويضى والمجوسى الثنوى .

ثم الافراط فى التنزيه الراجع من حيث لايشعر قائله الى الافراط فىالتشبيه وهوالجبرى الاشعرى الغيرالشاعربفساد أمره ـ وهماأشنع المذاهب الباطلةوأكدر المشارب الكدرة المنكرة .

ثم مشرب القدرى الناظر الى القدرة القديمة والقاطع نظره عن الوسائط والاسباب القريبة ، وان كان قابلا بسببيتها ووساطتها عند عرضها عليه ولكن غير ملتفت اليها بل يقصر نظره الى العلة الاصلية القديمة ، وهو ذوالعين اليمنى وعمى عينه اليسرى كأنه لايرى بها أصلا .

ثم الناظرالى الاصل القديم فىمقام التوحيد باسقاط الاضافات ومحوالأنيّات والتعينات التى هى انحاء تجليات الذات القديمة وشؤونه الذاتيةالتىيبديها ، ولبست بشؤونبتديهاوهوالتنزيهالذىطوىفيهبساطالتشبيهطرآ،فصاحبهذاالمقاممنالتوحيد الحق هوالمستغرق فى شهود الجلال لم‌يتحقق بعد له مرتبة الجمع بين المحو الجلالى والصحو الجمالى حتى يرى التنزيه فى عين التشبيه وبالعكس ، ويرى التوحيد فى عين التكثير، والتكثيرفى عين التوحيد .

وهذا . . . الذى ينظر اليه . قوله تعــالى : ﴿ ألم‌نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك ـ السورة ﴾ [١/٩٤] .

ص٢٦٢ س١٦ **قوله**: بهسبحانه لابالاستقلال- فيه سرالحقيّة وروح الصدق الكاشف عن تحقق منزلة بين المنزلين اوسع مما بين الارض والسماء - فلاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم كماقيل :

چون باتوام ازتوجان دهم آدم را ❋ وزنور تو روشنی دهم عالم را

چون بی توشوم قدرت آنم نبود ❋ کز سینه بکام دل برآرم دم را

فافهم فانه غامض جداً، كيف لا وفيه سرالتوحيد الحق وقدقالوا ﷺ التوحيد الحق هوالله ، والقائم به رسول الله ، والحافظ له نحن ، والتابع فيه شيعتنا - تلفظ بفهم .

ص٢٦٣ س٢ عن مضيق البون - فالنظر الجامع بين الحقين هوالقول بالامر بين الامرين بلامين وشين أصلا .

ص ٢٦٣ س٤ **قوله**: فاضمحلت الكثرة - ان سر السرفى كل ذلك هو كون الزمان والزمانيات - التي لابداية لها ولانهاية - في طومارالزمان الغيرالمتناهى من جانب الازال ومن جانب الاباد بالنسبة الى العالم الحقانى من المبادى العالية مطوية نازلة منزلة الان البسيط الغير المتجزى أصلا ، وكذلك أمر المكان والمكانيات بتشتتها وتكثرها وتفرقها الى غير النهاية بالقياس الى ذلك العالم السبحانى كالنقطة .

ص٢٦٣ س٤ **قوله** : فاذا رجع الى الصحو - فبهذا الرجوع يتحقق بحقيقة معنى قول الصادق ﷺ : « لاجبر ولاتفويض ، بل أمر بين الامرين ، ومنزلة بين المنزلتين »كما حققناه قبيل هذا - قل هذه سبيلي أدعوا الى الله أنا ومن اتبعنى ولكن حق نيله صعب مستصعب لايحتمله الا ملك مقرب ، اونبى مرسل ، اومؤمن امتحن الله قلبه للايمان ، وهوالمؤمن حقاً .

ص٢٦٣ س٧ **قوله** : فهوالولى المحق- فاولئك الاولياء الكاملون الواصلون هم القائمون بمقامه تعالى فى قرب النوافل ، وهوسبحانه القائم بمقامهم فى قرب

الفرائض، الذي يقضي ان [يكون] العبد مختفياً وباطناً غيرظاهر والحق ظاهراً غير مختف وفي قرب [النوافل] يكون الامر منعكساً .

ص٢٦٤ س١ **قوله ﷺ** : اعملوا كل ميسّر لماخلق له ـ سرّ الامر بالعمل مع تحقق « جف القلم بما هو كائن » هو انه لماخلق سبحانه القلم ـ اى القلم الاعلى ـ قال له : «اكتب» يعني في اللوح الاعظم الذي هو ام الكتاب المسماة بـ «نفس الكل» وهي « حوا الاولى » ام الخلائق كلها من العلويات والسفليات جلّها وقلّها .

فكتب القلم الاعلى المسمى بـ « عقل الكل » و« المحمدية البيضاء » كل ما كان ومايكون الى يوم القيامة الكبرى في اللوح الاعظم المسمى بـ « العلوية العلياء » فكل مايتجدد ويتكوّن ويتقضّى وينصرم على نعت الاستمرار التجددي في عالمي القدر العلمي والقدر الخارجي فهو مثبت في اللوح المحفوظ المسمى بـ « اللوح الاعظم » على وجه الثبات والتقرر السرمدى ، والبقاء الغير المتغيّر المحفوظ عن التغيّرات كلها وعن التقضيات والتصرفات جلّها وقلّها .

وعالم القضاء المكتوب بالقلم الاعلى على اللوح الاعظم هو عالم الحق الباقي ببقائه ويسمى بـ « الحق الاضافى » التابع في البقاء والثبات للحق الحقيقي والعلمية الازلي الكمالي الذاتي ـ تبصر بالتدبر فيه فانه لطيف جداً ، غامض عميق حتما .

ص٢٦٤ س٣ **قوله** : في أمر مستأنف ـ هذا هو الجمع بين الحقّين كما أشرنا اليه قبيل هذا .

ص٢٦٤ س٨ **قوله** : فهي معرفات ـ ظاهره المتبادر أن الحركات والارادات الحسنات والسيئات الصادرة عنا معرفات لاموجبات ، فان الموجبات لهي الامور المزبورة في الزبر التي هذه الحركات منا كاشفاتها .

وأما ارجاع الضمير الى المكتوبات المحفوظة لعل له وجهاً غيرموجه عند التحقيق وتحديق النظر وتحديد البصر ، وان كان موجهاً في بادى النظر ـ فتدبرفان فيه سرّ القدر .

ص٢٦٥ س٣ **قوله** : مباديها ـ اي المبادى الاعدادية التي هي أفعالنا وأعمالنا

باختياراتنا واراداتنا، وهي علل وأسباب اعدادية تعد وتهيء أنفسنا لاستحقاق نزول الاثار من المبادىء الفعالة في ألواح أنفسنا حسبما تهيأت أنفسنا بأعمالنا ـ تفهّم .

ص ٢٦٥ س ٤ **قوله** : في العقبى ـ ان نشأة عقبانا هي بعينها نشأة ألواح أنفسنا وأرواحنا التي أراضي زرعنا .

دهقان سالخورده چه خوش گفت با پسر

کای نور چشم من بجز از کشته ندروی

ص٢٦٥ س١٣ **قوله** : فكيف يحصل الاسباب ـ يعني من الاسباب: الاسباب القريبة ، ومن المسببات المسببات الدانية ، بينهما علاقة اتصالية . . . ومن هيهنا يتحقق القول بكون الحسن والقبح عقليين ذاتيين في الاوامر والنواهي الشرعية .

ص٢٦٥ س١٤ **قوله** : والجميع معلومة له تعالى ـ دليل آخر .

وأما قوله : قبل وجودها ومعها وبعدها ـ اى قبليّة ومعيّة وبعدية مجتمعة اجتماعية في وجه من الاعتبار لايعرفه الا الراسخون في العلم . وأما القبلية والمعية والبعدية الغير الاجتماعية فهي أوصاف يتصف بها علوم اوليائه تعالى القائمين بمقامه ـ كما مرّ منا .

ص٢٦٥ س١٥ **قوله** : ومعه ـ ان كون علمه تعالى بالحوادث المتغيرة مع وجوداتها الحادثة الكائنة بعد أن لم يكن حكمه حكم كون ذاته تعالى معنا أينما كان كما قال عزّ من قائل : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ مع كوننا موجودات كائنة بعد ان لم نكن ، فكل مايقال هنالك يقال هيهنا .

وتلك المعية هي المعية القيّومية فكذلك هنا ، ولب لباب معناها هو رجوعها الى الوحدة المحضة كما تقرر في محل تحقيق المعية القيومية ، وسرّ ذلك كون علمه تعالى في كل مقام عين ذاته لمكان احاطته تعالى ـ ألا انه بكل شيء محيط .

ص ٢٦٥ س ١٥ **قوله** : بل باعتبار تجدد الاشياء ـ اه ـ هذا من الغوامض الالهية التي حلّ عقدتها صعب مستصعب لايحتمل الا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للايمان ـ والضابطة فيه هو كون هذه الصفات المتغيرة والتغيرات الخلقية من صفات

اوليائه تعالى الذين تخلّقوا بأخلاقه سبحانه وتحققوا بصفاته العليا فى مقام الخلافة عنه ، وكما ان اولئك الاولياء الذين فنوا عن أنفسهم قائمون بمقامه تعالى فكذلك هوسبحانه كان قائماً بمقامهم عند أسماء أموالهم وأنفسهم، فهم نعوا الانفس فذكروه تعالى مثلا به عنده له سبحانه ـ تلطّف فيه حتى تتبصّر وتتفهّم .

ص س قوله : موصوفين بهذه الصفة ـ اى موصوفين حين كونهم موصوفين بهذه الصفة ، ولايلزم من كون وجودات المعلومات موقتة حينيّة كون علمه تعالى بها وبوجوداتها وأحوالها الموقتة موقتا مقيداً بوقت وجود المعلوم ، فالمعلوم بما هو موقت زماني معلـوم له تعالى ، ولكن علمه تعالى بوجوده الموقت وأحواله الموقتة مع كونه عين وجوده الموقت والاحوال الموقتة ليس بموقت ولامقيد بوقت الوجود وأحواله .

فقوله : وأما ماقبل ذلك الابتلاء فانه علمهم مستعدين للمجاهدة ـ الى قوله ـ: بعد حين ـ فكذلك ليس المراد علمه تعالى بكونهم مستعدين موقتاً ومقيّداً بقبل ذلك ، بل القبليّة قيد وتقييد ووقت وتوقيت للمعلوم الذى هو متعلق علمه تعالى، فالعلـم الازلى القيومى المحيط المنزّه عن ثبوته التقابل ـ وان كان عين وجـود المعلوم وعين حضوره لدى العالم المحيط ـ لو فرض كونه موجباً ومقيداً بزمان القبل اوالمع اوالبعد للزم نقض الاحاطة النافية السالخة القالعة القامعة لاصول شجرة الثنوية التقابلية ـ فافهم فهم نور .

* * *

والحاصل ان العلم الاحاطى كالوجود الاحاطى لايمكن أن يكون ويوجد له ثان ، حتى يتقيد بوقت دون وقت ، ويوقّت بحين غيرحين ، فلايمكّن سلطانه وقهرمانه الذى هو بعينه قهرمان الوجود الاحاطى علماً آخرثانياً (بائناً) له أن يظهر فى عرصة ظهوره وان يحضرفى عرصة حضوره ، فان كل ذلك تنافى سلطانه وقهرمانه، فلويمكن سلطان النور الحسى الشمسى ، القاهر للكل ، الباهر فى الجل والقل فى عرصة انارته القاهرة نوراً آخرمن أن تنور وتنيرقهراً من العرصة الشمسية ـ والشمس

هذه ـ وهي المثل الاعلى في عالمنا الحسي هذا لنور الأنوار المعنوية ، وشمس الشموس الحقة الحقيقية ـ لامكن أن يمكّن شمس الحقيقة ـ جلّت عظمته ـ شمساً اخرى ، او قمراً آخر او أكبر او أصغر في عرصة الأنارة ان تنور او تنير ، فاذا لم يمكن هذا لما أمكن ذلك بالنظر الاولى ـ فاحفظ بهذا لكى(١) في كل ماهو مبتغاك .

ص ٢٦٩ س ١٣ **قوله** : ولاتكون هذه الشقاوة ـ يعنى العملية منها ، لقوله بانقطاع العذاب بمعنى الالم والتألم شخصاً ، وان كان سرمدياً نوعا ، كما تقررفي محله من مشرب القائلين بذلك الانقطاع الشخصي، وأما الشقاوة الجهلية التي هي حقيقة الشقاوة فهي عندهم سرمدية شخصاً ونوعاً ـ هكذا قالوا .

ص٢٧٣ س١٢ **قوله** : فيه سر : كأنه اشارة الى كون القوة العملية والعقل العملي من النفس اللامية ذات كفتين : كفة اليمنى فيها العمل الصالح، وكفة اليسرى فيها العمل الطالح ، فيؤمر بالموازنة حين يظهر الغلبة لاحديها فيحكم على حسبها ، او لم يظهرفينساق فتحكم الحسبة ، وبالجملة فلامضائقة للعقل الواقف عن أسرار الشريعة الحقة من أن يجوز بمثل ذلك المعنى بهذه الصورة المناسبة له ، المماثلة والمجانسة له في رفع أصل المعنى ، كما قال ﷺ : «الناس نيام» وقال: «كلّم الناس على قدر عقولهم» .

فلهذا السر المستور عن أعين الناس اضطرّوا الرسل والاوصياء الى التمثيل والتصوير لحقائق المعاني في مقام البيـان بالمثل والصور التي تناسبها وتجانسها ليتسهل الأمر في باب الرسالة والتبليغ .

ص٢٧٦ س٢ **قوله** : اذ اليقين ـ لعمر الهى ان عالم اليقين هوعين الواقع ونفس الامر الذى يسمى بالحق الاضافى ، المسمى بعالم الامر (*)

ص ٢٧٦ س ٢٠ **قوله** : بالشق والرم ـ اما «الشق» فكشق القمر المعروف،

---

١ ـ كذا .

واما «الرم» فهو كانه يراد منه معنى الرميم ـ يعنى الاندراس والاضمحلال ـ .

ص ٢٧٧ س ٢ **قوله** : اى عالم الوحدة ـ كما قال تعالى : ﴿وما أمرنا الا واحدة﴾ [٥٤/٥٠] والتعدد والتكثر في تلك العالم الحق الاضافي ليس بذاتي له بل عرضي بعرض بما يتعلق الامر بها ، فالحقيقة واحدة بالذات يتكثر ويتعدد بتكثر المتعلقات وتعددها (*) .

ص٢٧٧ س١٠ **قوله** : وبالقوة الحساسة ـ اماالقوة الحساسة النبوية فلكون منزلتها من سائرالحواس التي لسائرالناس منزلة الروح من الجسد ، كما في الخبر عن أحد من الصادقين ﷺ في قصة طويلة ما محصله : «ان لنا مع كل حس حساً» وكذلك كون منزلة قوته المحركة من سائر المحركات الجسمانية، ويعبرعن تلك المعية بالمعية القيومية ، وقد يختلف الاوقات حسب اختلاف الاحوال في مادة شخص واحد من الانبياء في باب تلك الاحاطة الوجودية والمعية القيومية وجوداً وعدماً ، وجداناً وفقداناً ، والى هذا المقام العالي من المعية كانه يشير قوله تعالى: ﴿النبي اولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [٦/٣٣] فهم ﷺ رحماء على المؤمنين أشداء على الكفار ـ فاعتبروا يا اولي الابصار .

ص ٢٧٧ س ١١ **قوله**: تسلط العالي على السافل ـ ان سر تسلط العالي على السافل انما هو كون وجود العالي وجوداً احاطياً ، فلو لم يكن له ضرب من تلك الاحاطة الوجودية لما مكنه السافل من التصرف فيه ، ومن هنا قيل :

فيض روح القدس ارباز مدد فرمايد * ديگران هم [بكنند] آنچه‌مسيحا مى كرد

وظاهر ان منزلة روح القدس من مواد الاموات او الجمادات مثلا منزلة الروح من الاجساد .

ص ٢٧٨ س ١٠ **قوله** : هورقليا ـ منزلة هورقليا من المثال الطبيعي منزلة الصور المبصرة بالذات المفارقة عن المواد الطبيعية من الصور والاشكال . . . المادية ، فان مرتبة هورقليا في التجرد والانسلاخ عن جلباب المادة من العوالم

المتوسطة منزلة نشأة الباصرة منهافي الحواس الظاهرة من نشأة القوة الخيالية منها، فان الباصرة خارجة عن محدد الجهات ذاتاً وداخلة فيه تعلقا بعضو العين الذي هو قطعة من البدن العنصري .

ص ٢٧٨ س ١٢ قوله : يتشبح ـ اى يتجلى علـى الحس البـاطني للنبي المسمى بالخيال فتتنزل وتتمثل لخياله بصورة شخصية ملكية حاملة لصورة كلامية يشاهدها الحس الباطني ويستمعها بسمعه الباطني في حال اليقظة، وكذلك في مشاهدة شخص الملك الحامل للوحي ببصره بعينه الباطنية الخيالية .

ص ٢٧٨ س ١٢ قوله : واللفظ لـلمعنى ـ اى بحسب الـدلالات الطبيعية لابحسب الاوضاع الجعلية الغير الطبيعية العامية، ومن ثمة قيل: « ان الاسماء تنزل من السماء» وهذاهومنزلة الاولياء اذمنزلة الحروف والكلمات المنزلة من السموات الروحانية الى أرض الحواس ـ كتابية كانت او كلامية ـ من الحقائق والمعاني الالهية منزلة المثل والصور والامثلة والاظلة من أعيان اصولها وحقائقها ، والتطابق بينهما ضروري جوهري ذاتـي ، حيث كانت منزلة كل حقيقة من صورتها ومثالها منزلـة الحد التام، وبالعكس تكون منزلتها من حقيقتها منزلة الحدالناقص، وكذلك حكم كـل علة فياضة مع معلولها ، و من هيهنا يكون علمه تعالـى بذاته بعينه عين علمه تعالى بالاشياء على وجه آكد و أقوى و أعلى مـن علمها بانفسها فـي مرتبة نفسها .

ان سر السر في ذلك السر المكتوم هو كون بسيط الحقيقة كل الاشياء بوجه أعلى ، ليس بشيء منها ـ ماللتراب ورب الارباب ـ فهم كن والله أعلم بالصواب.

ص ٢٧٨ س ١٦ قوله : التجرد الصرف ـ ان التجرد الصرف لهو التجرد العقلاني الذي هو الانسلاخ عـن جلباب الصوره مطلقاً صورة ملكية شهادتية ، او صورة برزخية مثالية المسماة بالصورة الملكوتية ، وعالم التجرد الكلي والانسلاخ العقلي عالمه عالم حقاني رباني ، علم النبي والولي بما في ذلك العالم علم لدني،

والعالم به عالم رباني ورب انساني اذا غلب حكم الربانية على الانسانية الخلقية ، ويقال له عند الغلبة : انه حق اضافي . وهو الحق المنزه والخلق المشبه ـ فافهم .

ص ٢٧٩ س ٣ **قوله** : على العرش ـ حتى عرش الحس الذى هوالوجود الجمعي الخلقي الجسماني ، وذلك للزوم التطابق بين العوالم المترتبة نزولاورجوعاً على التعاكس بينهما ، اذ النزولي من الاشرف فالاشرف، والصعودى بعكس ذلك فالصف النعال من الوجود مطابق ذروة الذرى التى هي الذات الاحدية ومن هيهنا قال : ﴿هو الاول والاخر والظاهر والباطن﴾ [٣/٥٧] وتقديم الـذكرى للظاهر اشارة الى ما أشرنا اليه من كون الرجوعى على عكس النزولي ، فالاية تتضمن الاشارة الى القوسين ، تشير الى النزولي منهما قوله : ﴿هوالاول والاخر﴾ والى الصعودى قوله : ﴿والظاهر والباطن﴾ هذا في وجه من الاعتبار ولعل فيه اعتبار آخر ، فتدبر .

ص ٢٩٠ س ٧ **قوله** : لان السلسلة الاولىشعورية ـ يعنى ان الشعورخاصة المتكلم وحده (١) والاشعار خاصة المتكلم مع الغير والسلسلة الاولى لما وقعت طولا والترتيب الطولى . . . الى الوحدة ناسبت الاضمار الذى هو محوالتعينات، والتكلم الذى هو طى المتفرقات وجمع المتشتتات .

وأما السلسلة الثانية لما وقعت عرضا ، والتعاقب العرضى ملاك توهم التعدد والكثرة ناسبت الاظهاروالغيبة ، فمن هناقال تعالى فىالاشارة الى سلسلة البائدات: ﴿ولقد أرسلنا رسلنا﴾ ـ اه ـ بصورة الاظهار والتكلم ، وقال تعالى فى الاشارة الى سلسلة العائدات : ﴿وليعلم الله من ينصره و رسله بالغيب ان الله قوى عزيز﴾ بصورة الاظهار والغيبة .

والسلسلة البائدة طولية أمرية والامر صفة الآمر وفعله الذى هو كلامه ،

---

١ ـ قولنا : «خاصة المتكلم وحده وخاصة المتكلم مع الغير» فيه نوع ابهام لايخفى .

والصفات الفعلية التي له تعالى وكلماته التي هي بعينها صفاته الفعلية وان كانت مرتبتها دون مرتبة حضرة الذات لكنها ليست بزائدة على ذاته مباثنه لها، اذ صفاته تعالى ـ كمالية حقيقية كانت او فعلية غير كمالية اضافية ـ كلها عين ذاته تعالى ، وان كانت عينية صفاته الاضافية ظل عينية صفاته الكمالية .

وهذا على خلاف شأن السلسلة العائدة فانها عرضية خلقية ، والخلق سوى الحق في وجه ـ كما جاء في الخبر عن المخبر الصادق عليه السلام : « ان الله لايوصف بخلقه » ـ والامر كما بينا صفة الحق عز وعلا ، وبينهما بون كالبون بين الارض والسماء ومع ذلك كله نقول بقوله ـ عز من قائل ـ : ﴿ألا له الخلق والامر﴾ [٥٤/٧] وبقوله : ﴿ألا الى الله تصير الامور﴾ [٥٣/٤٢] .
«غيرتش غير در جهان نگذاشت» .

كما قال أمير المؤمنين ، امام الموحدين ، قطب الاولياء العارفين عليه السلام : « داخل في الاشياء لا كدخول شيء في شيء ، خارج عن الاشياء لا كخروج شيء عن شيء» وغير ذلك من كلماتهم عليهم السلام الدالة على التوحيد الوجودي والحاصل : لكل وجهة هو موليها ـ فافهم ـ .

ص ٢٩١ س ١ قوله : وقد اومأنا اليه والى كشفه ـ محصّله هو أن التجدد والتغير انما هو للمعلوم بما هو معلوم، لا لعلمه تعالى بالمعلومات الجزئية الجسمانية الداثرة المتجددة الحادثة المتغيرة ، وعلمه بهذه الحوادث الجزئية ـ بما هو علم ـ منزه عن التجدد والتغير ، وفيه سرّ ستير صعب مستصعب كشفه ، وهو بعينه سرّ قوله عز من قائل : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ [٢٩/٥٥] ولقد قلنا في الكشف عنه : «اي: شأن يبديه، لاشأن يبتديه» وملاك حل هذه العقدة العويصة في المقامين هو التفرقة بين الابداء والابتداء ـ فلا تغفل .

* * *

محصل حل الاشكال المستصعب الانحلال في المقامين ـ مقام العلم بالجزئيات

المتجددة المتغيرة ، ومقام تجدد شؤونه المتعاقبة ــ هو أن يقال : ان لكل شيء من الاشياء ــ جزئية متجددة كانت الاشياء او كلية ثابتة غير متجددة، مادية كانت اومفارقة ــ وجهين : وجه به يلي ربه ، ووجه به يلي نفسه .

فبالوجه الذي به يلي ربه باق بعين بقاء ربه ثابت غير داثر ولازائل ، حاضر عنده . وبالوجه الذي به يلي نفسه اذا كان جزئياً متجدداً ، داثراً زائلا، كان متجدداً حادثاً غير باق ولاثابت .

والوجه الذي به يبقى ببقائه تعالى هو مابه يكون تجوهرذاته وتذوت جوهره وتهوي هويته التي بها هو هو .

وأما مايتجدد منه ويتغير ويدثرو يفني ان هو الا اضافات وتعليقات تعتريه بحسب نشأتيه المتغيرة غير معتبرة فيه تجوهره وتقومه ، اذ مرجعها الى التعينات العدمية والتعلقات العرضية الغير الجوهرية الداثرة الزائلة التى مرجعها العدم والفقدان، ومعادها الى النقص والنقصان، وهي ليست الاعلائق الوجودات المادية ولواحق النشأة الدنياوية الظلمانية الفانية ، ودارالدنيا ــ بماهي دار الدنيا مبدءها من العدم ومعادها الى العدم والفنا كمابرهن في محله ، ولقد برهن على كون المادة ولواحقها غيرمقومة ولامعتبرة فى قوام شيئية الاشياء وتجوهرها ، بل شيئية الاشياء وتجوهرها انما هوبصورتها التى هيمبدء فصلهاوملاك تحصلها وتعينها ، والصورة باقية ببقاء مبدءهاالذي نزلت من عنده ورجعت اليه .

نعم العلة المادية تكون علة في حدوث الأشياء وتجددها وتجدد أحوالها ولادخل لها وللواحقها في بقاء الاشياء وتجوهرها كما حقق في مقامه ــ فلاتغفل .

واذا علمت هذا ووقفت بشأن المادة ولواحقها فانتبه من نوم الغفلة واحكم بكون الماديات ــ الجزئيات الدائرة المادية ــ أموراً عدمية ، والأعدام ــ بماهي أعدام ــ ليست بأشياء حتى يلزم من دثورها وزوالها تغير فى علمه تعالى ، فهى مادامت مخلوطة بالاشياء ومخالطة بها معلومة بالعرض ، كما أنها فى باب الوجود والموجودية موجود بالعرض ، فعلمه تعالى بالاشياء ــ بماهي أشياء ــ ثابت دائماً

بدوام السرمدي ، ولاتجدد ولاتغيرفيه أصلا .

هذا ـ وبعد في زوايا خفايا لايسع المجال بيانها فأحسن التدبر.

وأما قوله: وهوالذي حارت فيه أفهام الحكماء ـ اه قلنا: قاعدة كلية واردة من أئمتنا عليهم السلام وهي ان كل مايسند اليه تعالى في كتابه من الامورالحادثة والمتغيرات الداثرة ـ علمية كانت أوغير علمية ـ ان هي الا صفات اولياء الله تعالى الذين هم خلفائه فيالارض والسماء ، والخلافة الحقة التي لهم عنه تعالى هي مصحاح ذلك الاسناد، لمكان تخلقهم بأخلاقه عزوعلا، واندكاك انيّاتهم من جهة ذواتهموأفعالهم وصفاتهم في ذاته تعالى وصفاته وأفعاله يصحح اسناد شؤونه تعالى وأطواره وأفعاله اليهم (ع) ، ويعبرعن ذلك الاندكاك بـ«المحو» المصحح لذلك الاسناد ، ثم رجوعهم بالحق الى الخلق الذي يعبرعنه في وجه بـ « الصحوبعد المحو » هو ملاك صحة اسناد صفاتهم وشؤونهم وأطوارهم وافعالهم الى الحق على ضرب من الحقيقة ليست فيه شائبة تجوزوتوسع ـ كما يتوهمه الجمهور الغافلون المحجوبون عن مشاهدة نورالولاية المطلقة الذي هونورالله الساري في السموات والارض وبه يدبرالامرمن السماء الى الارض .

فاولئك الاولياء والخلفاء بالولاية والخلافة الحقة المطلقة هم بخلافة الله تعالى على وجه الحقيقة يتصرفون باختيارهم الذي هوعين اختياره تعالى وارادتهم التي هي من مراتب ارادته عزوعلا في الاشياء منالسموات العلى والارضينالسفلى ـ تصرف الولي المطلق ، الذي هوالحق الحقيقي ، والقيوم الواجبي المتعالي عن الشبه والشريك علوا كبيراً .

والتصرف على هذا الوجه هوبعينه تصرفه تعالى ، والتدبير على هذا النحو هوبعينه تدبيره عزوعلا .

ومن هنا ايضاً تنحل عقدة « البداء » التي عجزت عن حلها فحول أعاظم الحكماء وعقول أفاخم الفضلاء وحرفوا الكلم عن مواضعها ، وأوّلوا البدا الى مجازات جمهورية ، وتعسفات عاطلة ، ولميقدروا على حلّه كما هوحقه من دون

ارتكاب توسع وتجوز . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . فاعتبروا يا اولى الابصار.

ص٣٠٠ س١٥ اعلم أيها الطالب فى دين الله تعالى انه اذا كمل وتم واختتم هذا السيروالسلوك الاعظم الجامع لجوامع السيروالسلوك اليه تعالى من تلك الذرة السيارة اليوم حل الأجل الكلى ، وانصرم عمرالعالم ومدة النظام الجملى الذى هو نظام العالم الاكبر ، وقامت القيامة الكبرى ، وانهدمت بنيـان عالم الدنيـا دفعة ، فمادامت الافلاك دائرة ، والأرضون معمورة سائرة ، ما كمل ولاتم ذلك السير والسلوك الاعظم، الذى به قوام بقاء الدنيا ومافيها، فمن هنا قلنا ـ كماقالت أساطين الحكمة، معادن العصمة والمعرفة والكشف ـ والشهود ـ بلزوم وجود الحجة (ع) فى الارض مادامت الارض والسماء ، ومن هيهنا بطلت مذاهب مخالفينا من أهل السنة واليهود والنصارى وغيرهم من خالفنا ، وظهرت بطلان مذاهبها كمالايخفى .

ص ٣٠١ س ١٦ **قوله** : فان مجرد المعرفة بامامته ـ اه ـ لنا مزيد كلام فى المقام ، وهوان الغاية بالذات والعلة الغائية الحقيقية الباعثة للحق الحقيقى والقيّوم الواجبى على ايجاد الولى القائم بأمره تعالى الذى قال ﷺ فى حقه : « والذى بعثنى بالحق انهم يستضيئون بنوره وينتفعـون بولايته انتفاع الناس بالشمس وان علاها السحاب » ان هى الا استكمالاته واستتماماته بالمجاهدة الكبرى المطوية فيها جوامع المجاهدات ومجامع الطاعات والعبادات بضرب أشرف وبوجه أعلى، وهو الذى به وبمجاهداته وطاعاته وعباداته المحبوبة على جوامع الاستكمالات ومجامع الاستتمامات يعبد الله تعالى فى أرضه وسمائه بالعبادة الجامعـة لجوامع العبادات، ويعرف الله سبحانه بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله حق المعرفة المقصودة من الخلق والايجاد ، الجامعة لمجامع الحقائق والمعارف الالهية المتعلقة باحوال المبدء والمعاد، كماجاء فى القدسى« كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف» ـ الحديث ـ

واستكمالات سائر المستكملين والمستكملات ـ من العلويات والسفليات كلها ـ قلّها وجلّها ـ من تتمة استكمالات ذلك الولى المطلق ومن استتمامات

نوره وظهوره بصورة العالم الاكبر المسمى بالانسان الكبير في عين غيبته واستتاره عن الاعين البشرية بصورته البشرية المعروفة بين العامة .

فالغاية بالذات لوجود هذا الولي الغائب اليوم بالغيبة الكبرى ليست بالتمكن من التوصل اليه ، وأخذ المسائل منه ظاهراً ، والعلة الغائية الحقة الحقيقية لايجاده وابقائه في الدنيا في هذه المدة الطويلة ـ بل مادامت الدنيا ومادامت الارض والسماء ـ ان هي الا استكمالاته واستتماماته السير والسلوك اليه عزّ وعلا في حد نفسه ـ بالمجاهدات التامة والطاعات والعبادات الجامعة المطوية فيها كلية جوامع السير والسلوك والمجاهدة والعبادة ـ .

كيف لا ـ ونوره الساري في السموات العلى والارضين السفلى هي الدرّة النازلة من عنده تعالى الى الذرة الصاعدة الى المرتبة التى نزلت منها بتلك الاستكمالات والاستتمامات الجامعة البالغة الى الغاية المتادية بها الى النهاية المقصودة من خلق السموات والارض وما فيهما ، والحركات العلوية والاستكمالات السفلية ولااستتمامات الارضية والدورات الفلكية والكوكبية والانقلابات العنصرية كلها وجلها وقلّها واستحالاتها وامتزاجاتها الكلية والجزئية كلها انهى الاسير تلك الذرة النازلة الى الذرة الصاعدة منها بتوابعها وأتباعها وأشياعها ـ علوية كانت اوسفلية ، بشرية كانت اوغير بشرية ـ الى عالمها الذى نزلت منه ، وسير كل ثابت وسيار، وسلوك كل ثابت وسيار وسلوك كل ساكن ودوّار ليس الاسيرها وسلوكها الى الواحد القهار.

فالمقصود بالذات من وجود الولي الغائب في يومنا هذا ان هي الا تلك الثمرة العلياء ، والغاية القصوى، التى هى ثمرة الشجرة الطيبة الفلكية ؟ التى أصلها وفرعها في السماء ، وهى شجرة **الولاية المطلقة** ، وتلك الثمرة ختم **ثمرات الولاية** .

فعمّ له ولوجوده عليه السلام ثمرات وغايات اخرى تبعية ـ كالنهايات المتوسطة والضرورية التى سبقت الاشارة اليها من المصنف ـ اعلى الله مقامه ـ قبيل هذا ، وهى الامامة والخلافة لله تعالى في هداية عباده وارشاد عبيده وامائه، كما هو المعروف

عند العامة ، وتلك الثمرات هي تصرفاته في امور العباد ايجاباً كما أشار اليه ﷺ بقوله : « يستضيئون بنوره ـ الخ » واعداداً .

فالثمرات الاعدادية من شجرة وجوده الطيبة متكثرة متعددة على أنحاء مختلفة وأنواع متفاوتة ، وجل تلك الثمرات الاعدادية ايضاً كالثمرات الايجابية لامدخل لحضوره عليه السلام في حصولها، بل يصدرتلك الثمرات من نور وجوده خاملا مستوراًكان او ظاهراً حاضراً مشهوداً ومشهوراً .

نعم الثمرة التيهي التمكن من التوصل اليه ظاهراً ، وأخذ المسائل منه(ع) حضوراً شفاهياً منوطة بحضوره الظاهري، وفي غيبته الكبرىحكم كلية ، ومصالح عامية وخاصية حكمية بمقتضى البراهين الباهرة باعثة عنها وداعية اليها ـ ليس في مقامنا هنا مجال بيانها والكشف عنها ـ فلهذا الثمرة قرر الحكمة البالغة الربانية نواباً عامة يقيمون الامر بقدر الطاقة ويقومون بامر هذه الثمرة بضرب من التوصل اليه عليه السلام وبنوع من اعانته وامداده باطناً ، وبنوع من الافاضة والايجاب غيباً ـ خذ هذا واتخذه سبيلا والسلام على نافع الهدى .

ص٣٠٣ س ٨ **قوله** : واجب عقلا ـ واليه الاشارة في قوله ﷺ : « من أكرم عالما فقد أكرمني » (منه ـ ره) .

ص٣١٢ س١٢ **قوله** : عدد كامل هو السبعة انما سميت السبعة عدداً كاملا عند العرب لتضمنها جميع خواص العدد كما يظهر عند التدبر (منه ـ ره)

تم التعليقات والحمد لله وحده

فهرس تفسير سورة السجدة

تفسير سورة الحديد

فهرس الاحاديث

فهرس الموضوعات والاصطلاحات الهامة

فهرس الاعلام